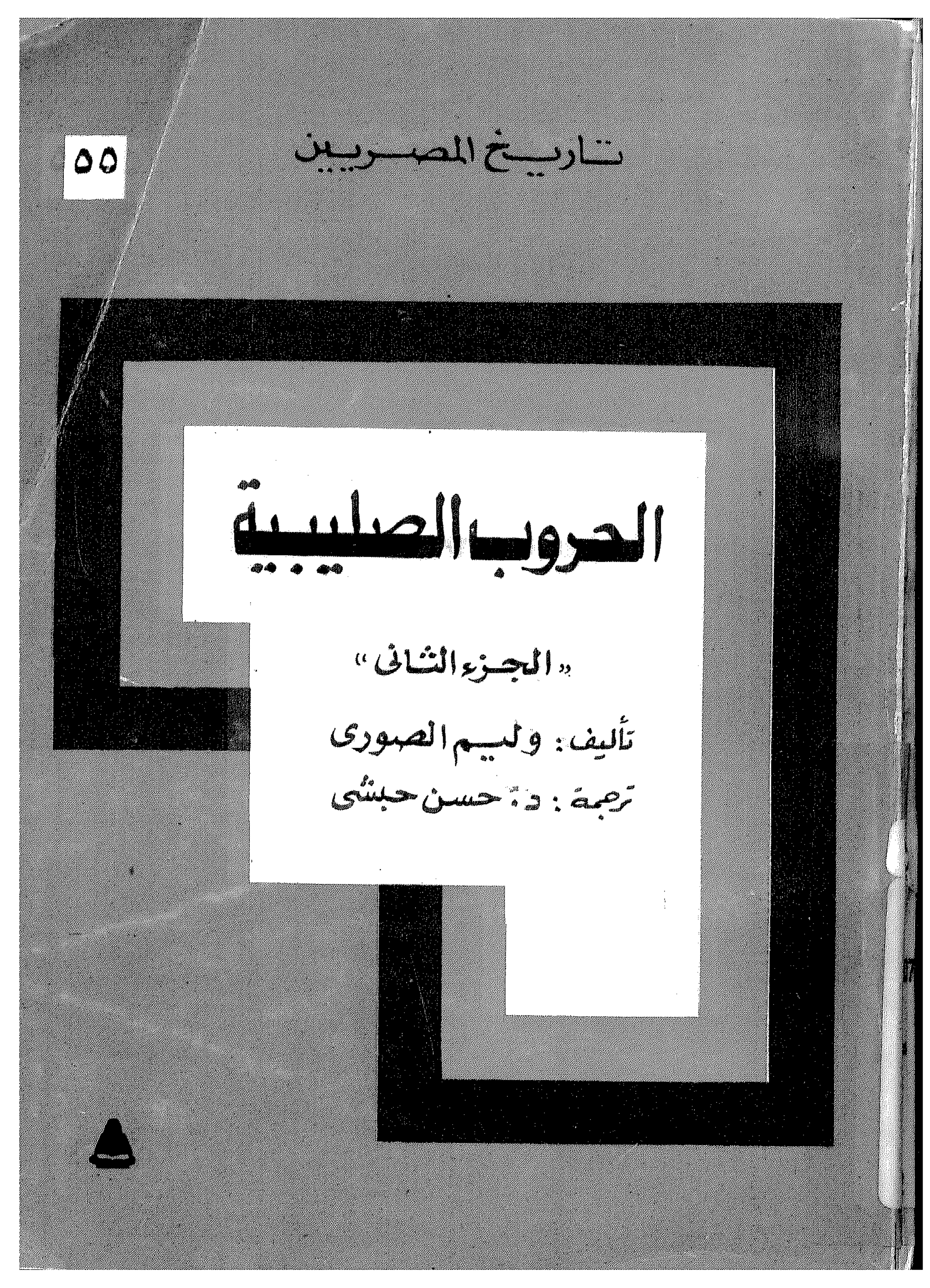
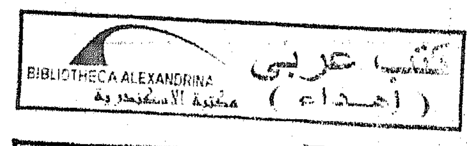


تاريخ المصريين
٥٥
الحروب الصليبية
"الجزء الثانى"
تأليف: وليم الصورى
ترجمة: د. حسن حبشى

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/عبد العظيم رمضان

القاهرة


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتاب عربي
(اهـداء)



الحروب الصليبية

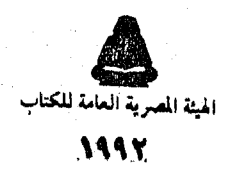
الجزء الثانى

تأليف

وليم الصورى

ترجمة وتعليق

د. حسن حبشى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

الاخراج الفني : مراد نسيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثانى
من كتاب وليم الصورى
عن الحروب الصليبيـــة

كتبها الأستاذ الدكتور حسن حبشى

الكتاب الحالى هو الجزء الثانى من أربعة أجزاء من الترجمة العربية لكتاب « تاريخ الحرب الصليبية » المعروف فى الغرب باسم « تاريخ الأعمال التى تمت وراء البحار » لوليم الصورى الذى ختم حياته رئيسا لأساقفة صور ، والذى عاش فى بلاد الشام وفلسطين فى فترة عاصر فيها بعض هذا الصراع العنيف الذى امتد حقبة من الزمن طالت حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، شهد خلالها الشرق الاسلامى بل والشرق المسيحى أهوالا على أيدى مهاجرين أوربيين تسربلوا بمسوح الدين والنصرانية ، وان لم يراعوا حتى حقوق المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، كما أفصحت عن ذلك أحداث ماعرف بالحرب الصـــليبية الرابعة التى أزالت الامبراطورية البيزنطيـة

المسيحية دينا ، الأرثوذكسية مذهبا ، لفترة من الزمن بلغت نصف قرن تقريبا ، ولم تشهر هذه الحملة المسماة بالرابعة سيفا فى وجه المسلمين » ، ولاخلصت ــ كما هو مفهوم الصليبية الغربى ــ ارضا من أيديهم بل نزلت كالاعصار الجارف على القسطنطينية التى كانت كنيستها احدى الكنائس الخمس الكبرى فى العالم المسيحى على اختلاف مذاهبه ، فغيرت هذه التجريدة الصليبية من معالم الوجود المذهبى ، وأزالت دولة الروم ولكن لترجع على أيدى ابنائها الذين لم يؤثر فيهم العنت ولا الاضطهاد ولا السيطرة الأوربية ، ولا غلبة المسيحية الكاثوليكية .



ويمتاز هذا الجزء الذى بين يدى القارىء فى صورته العربية بميزتين ، أولاهما أنه امتداد فى أحداثه للجزء الأول ، وثانيتهما انه يتناول فترة عاصرها المؤلف فى شبابه ، وتعرف فيها على موازين الثقل فى توجيه التاريخ السياسى والمذهبى لبلاد الشام فى حقبة امتدت أمدا غير قصير من عمر هذا المشرق .

ويتجلى للقارىء المطامع الشخصية وتحقيق المصالح الذاتية فيما ضمنه وليم فى ثنايا هذا المجلد ، وهى مصالح ارتبطت بالشخصيات القيادية الصليبية وزجت فى أتون معاركها بالجماعات الشعبية وعامة المسيحيين الغربيين ورعاعهم الذين تغلب عليهم الديماجوجية اكثر مما يسيرهم العقل ، فلما طفت هذه الأطماع على السطح ــ حتى قبل استيلائهم على بيت المقدس ــ راح كل زعيم من هؤلاء الزعماء الغربيين ينافس الآخر فى تحقيق ما فيه صالحه ، وأدى ذلك الى ما يسميه وليم « بالشقاق الصليبى » الذى كان فى استطاعة القوى الاسلامية أن توظفه لصالحها ، لكنها اضاعت الفرصة ــ وما أكثر ما تكررت ــ من يدها بسبب الاثرة والأنانية وعدم

رعاية حقوق الرعية ، وتمثل ذلك فى قيام البعض منهم لالتماس معونة هؤلاء الوافدين ، فأحدثوا شرخا فى جبهة كان فى مقدورهم أن يجعلوها جبهة صمود ومقاومة ترد المهاجمين مقهورين ان لم تزلهم ، وما كان هؤلاء الوافدون فى مجموعهم سوى شراذم من الأفاقين ، ســـاعدها تفكك المســـلمين على أن تكون « قوة » وما كانت بالقوة ، كما يتضح من ثنايا هذا المجلد أن عوامل الشقاق الغربى كانت فرصة طيبة لتخليص المسلمين من هؤلاء الغزاة ، كما أن انتشار الأوبئة والطواعين كان فى صـــالح الجبهة الشـــرقية التى لم تعرف ـ للأسف ـ كيف تستغل هذه الظروف المواتية ·

ويقدم هذا المجلد صورة قلمية عن بدأ قيام « مملكة » صليبية على يد «جود فروى» ، ولو كانت عند الشرق الاسلامى حينذاك نظرة استيعابية دقيقة واعية للظروف المحيطة به وبالصليبيين لأمكن تحويل دفة الأمور الى ما فيه صالح هذا الشرق على يد أبنائه ، ولكن بعض «المسئولين» راحوا يترامون على أقدام الصليبيين ، فكانوا يمدونهم بالمال حينا وبالمعونة فى معرفة الطرق حينا آخر ، حتى مكنوهم من رقابهم ، ولقد وقف أهالى القدس فى بداية الأمر موقفا صلبا شريفا فى وجه الصليبيين الغزاة ، ولم يدخروا وسعا فى صدهم ، ولا تراخت عزائمهم عن مقاومتهم ، كما يشهد الكتاب ، ولكن يد واحدة لا تصفق ·

وسقطت القدس غنيمة باردة فى أيدى الصـــليبيين الذين لم تأخذهم شفقة و رحمة بأحد ما من المقادسة الذين صـــادفوهم ، فأعملوا فيهم القتل والذبح « حتى فاضت الأماكن بدماء الضحايا » ويصف وليم فظاظة الصليبيين ووحشيتهم بل وهمجيتهم وصفا دقيقا وان حاول تبريره فخانه المنطق فكان تبريرا أعرج ·

على أنه باحتلال القدس تبدأ مرحلة جديدة هى المرحلة التنظيمية للوجود الصليبى من الناحية الادارية والدينية والمذهبية ، وبذلك تستقر أقدام الغزاة ليجعلوا من أرض الشام وفلسطين بلدا لهم ، وهم الأغراب عن هذا التراب .

واذا لم يكن عهد جود فروى كملك ، « حام للقبر المقدس » كما لقب نفسه ـ قد استمر طويلا فان الدولة أخذت الجد فى وقفتها على حساب القوى الاسلامية المبعثرة ، كما حاول رجالها فى الوقت ذاته التوسع على حساب القوة البيزنطية ، وهى قوة « نصرانية » لكن المصالح الذاتية لا تقيم وزنا للدين عند الصليبيين مما يكشف القناع عن أطماعهم الدنيوية وكذب ادعاءاتهم الدينية ، مما أدى الى ظهور قوى « أوربية » أخرى دفعتها أطماعها لأن يكون لها نصيب هى الأخرى من هذا العالم الشرقى ، ومع أن هذه الأطماع كانت فى بداية الأمر قاصرة على بلاد الشام وفلسطين الا أنها سوف تشرئب الى بلاد أخرى كمصر والعراق ، ورتب الغرب خطته هذه على مراحل تكشف عنها مجريات الحروب الصليبية عامة والاتفاقات التجارية ، لولا أن استطاعت مصر الوقوف فى وجه هذه التطلعات الشرهة الآثمة .

ان هذه المقدمة ليست عرضا لمحتويات هذا المجلد لكنها الماءة ببعض معالمه ، واننى لأدع الكتاب يحدث قارءه بالكثير والكثير من الأحداث والصراعات وما تمخضت عنه من تركها بصماتها فى تاريخ المنطقة بل والعالم منذ ذلك الحين .

كما اننى أترك القارىء يستشف مايرى من مطالعة هذا الجزء ولا املى عليه رأيا خاصا ، وسوف يكون لدى القارىء بعد مطالعة

هذا المجلد رأى سوف يســـتكمل ان شاء الله فى المجلدين الثالث والرابع ·

وأحب أن أشير هنا الى أن الفهرست التفصيلى سوف يكون فى ختام الجزء الرابع ·

كما أحب ألا يفوتنى الشكر لهيئة الكتاب على قيامها بطبع هذا السفر ، وأرانى مدينا بالشكر للصـــديق الكريم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان فقد كان حفيا بهذه الترجمة فجعلها من سلسلة تاريخ المصريين التى يشرف على اصدارها ·

وأرجو من الله العلى التوفيق ·

القاهرة ـ الدقى　　　　حسن حبشى

الكتـــاب السابع

الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقـــدس

فصـــول الـــكتاب الســـابع :

١ ـ ارسال هيج الكبير وكونت هينولت مبعوثين الى الامبراطور ، واختفاء كونت بلدوين أثناء الطريق وعدم رجوع هيج العظيم ووفاة أسقف بوى وظهور الطاعون ٠

٢ ـ الحاح الناس الشديد بمتابعة السفر الى بيت المقدس ، لكن تأجل الرحيـــل الى أول اكتوبر ، كما ذهب « بوهيموند » الى قيليقية واستولى على الناحية بأجمعها ٠

٣ ـ صاحب « أعزاز » يناشد الدوق أن يســـاعده ضد مولاه رضوان ، فيستدعي الدوق أخاه بلدوين فيسرع الى هناك ٠

٤ — بلدوين يخـــرج بقوة كبيرة لمقابلة أخيه ، كما أن الزعماء الآخرين يبعثون بالعون والمدد فيهرب رضوان ، ويهلك بعض رجالنا أثناء الزحف ، ويقتل حوالى عشرة آلاف من جند العدو ٠

٥ — الدوق يمضى الى بلد أخيه متجنبا خطر الوباء ، وهنا يخرب قلاع جماعة من الخونة كما يتوجه بعض الزعماء الآخرين الى الرها أيضا لينعموا بكرم بلدوين الباذخ ٠

٦ — أهل الرها يتآمرون ضد حاكمهم ويغضـــبون منه لايثاره اللاتين عليهم ، ولكن خبر هذا التآمر يصل الى سمع بلدوين فيأمر بقتل المتآمرين ٠

٧ — « بلاس » يدبر مؤامرة ضد الكونت الذى يتخذ من الاجراءات ما يضمن سلامته ، ويلقى القبض على طائفة من حلفائه ، ولكن فولبرت دى شارتر يهون من شأن هذه النكبة ، وينتهى الأمر بذبح « بلدوك » المتآمر ٠

٨ — كونت تولوز يستولى على مدينة « البارة » ويقيم أسقفية بها ، دخول سفن تيوتونية فى الميناء وتناقص عدد القوم بســـبب تفشى الموت ٠

٩ — الصليبيون يحاصرون المعرة ويستولون عليها ٠ موت أسقف أورنج وذيوع صيت « جوفيه دى لاتور » ٠

١٠ — الدوق يعود الى أخيه ، ويستأذنه فى الرجوع فيقع فى كمين فى أثناء عودته الى الجيش ولكنه ينجو منه لم ينله أذى ٠

١١ ـ النزاع يشتد فى المعرة بين كونت تولوز وبوهيموند الذى استولى على أملاك الكونت بأنطاكية ، فيجتمع الزعماء فى « الروج » ولكنهم لا يصلون الى قرار حاسم ، ويصارع الناس المجاعة ٠

١٢ ـ اغارة كونت(١) (ريموند دى تولوز) على أرض للعدو واستيلاؤه على ماشيته ، ثم شروعه فى الزحف على بيت المقدس حين رآى نفسه عاجزا عن مقاومة الحاحات الناس أكثر من ذلك ، فينضم اليه فى مسيرته هذه «كونت نرماندى» و « تانكريد » ٠

١٣ ـ اللصوص يهاجمون جيش الكونت (ريموند) أثناء زحفه لكنه يصدهم ببراعة ويستولى عنوة على قلعة حاولت مقاومته ، ثم ينصب معسكره أمام « عرقة » ويفد الى أبواب الزعماء (الصليبيين) رسل البلاد التى حولهم ٠

١٤ ـ وصف « عرقة » وتسلم رجالنا رسالة من بعض أسرانا فى طرابلس يحثونهم على وجوب محاصرة عرقة ٠

١٥ ـ مغادرة فريق من الصليبيين للمعسكر واستيلاؤهم على مدينة « انطرطوس » بالقوة ، ثم عودتهم محملين بالأسلاب الضخمة والاستمرار فى محاصرة عرقة ٠

١٦ ـ وصول (دوق) جود فروى الى اللاذقية وبصحبته كونت فلاندرز وبقية القوات ٠ نجاح الدوق فى تحرير « جينيمار »

---

(١) لقبه وليم الصورى فى الأصل بالدوق ولكن الصواب هو «كونت» ٠

من الحبس كما يعيد اليه أسطوله • وقيام بوهيموند بمرافقة العسكر فى رحيلهم حتى « اللاذقية » •

١٧ ـ الدوق (جو فروى) وجيشه يحدقون بجبلة غير أن مكائد كونت تولوز ترغمه على رفع الحصار وتحمله على الاسراع الى « عرقة » فينضم الى القادة الآخرين ، ولكن حصار هذه المدينة ينتهى بالفشل •

١٨ ـ اثارة موضوع حربة المسيح من جديد ، بطرس (بارتلميو) مكتشف الحربة يمشى وسط النار الملتهبة ولكنه يموت بعد أيام قلائل من ذلك •

١٩ ـ عودة السفراء الذين كان زعماؤنا قد أرسلوهم الى مصر •

٢٠ ـ سفراء من الامبراطور (البيزنطى) يصلون الى الجيش شاكين من بوهيموند ، ويذيعون النبأ بقرب مجىء الامبراطور، والتنازع بين قواتنا • شبوب معركة مع أهل طرابلس ينهزم فيها العدو ، ويعود الصليبيون منتصرين الى معسكرهم •

٢١ ـ صاحب طرابلس يحصل على اتفاقية مع الصليبيين بعد أن دفع لهم مبلغا كبيرا من المال ووصلهم بكثير من الهدايا • ثم يرحل القادة سالكين الطريق الساحلى نزولا على نصيحة المخلصين من سكان تلك النواحى •

٢٢ ـ الصليبيون يعاودون السير مرة ثانية ويمرون ببعض البلاد الساحلية ثم يصلون أخيرا الى اللد والرملة •

٢٣ ـ أهالى القدس يحصنون مدينتهم تحصينا قويا ضد الصليبيين، ويزودونها بالرجال الأبطال وبالسلاح والذخيرة ويخرجون منها معظم سكانها النصارى ٠

٢٤ ـ أهالى بيت لحم يبعثون الرسل الى القادة الذين يوفدون تانكريد الى تلك المدينة فيستولى على كنيستها وعلى الموقع معا ٠

٢٥ ـ الجيش يواصل زحفه حتى يصل الى بيت المقدس ، لكن تقوم مناوشة فى نفس الوقت يهلك فيها بعض من رجال العدو ٠

هنـــا يبدأ

الكتـــاب السابع

الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس

ـ ١ ـ

حين استقرت الأمور فى أنطاكية على هذه الصورة(١) عزم القواد بالاجماع دون معارضة من أحد على ارسال مبعوثين الى الامبراطور يدعونه للحضور بذاته فى الحال لمساعدتهم وفاء بالاتفاق الذى أبرمه معهم من قبل ، وألقوا الى مبعوثيهم أن يخبروه بأن الصليبيين على وشك الزحف الى بيت المقدس ، ويسألونه أن يمضى حالا فى اثرهم حسبما التزم به فى المعاهدة التى أمضاها واياهم ، فان لم يف بشرط الاتفاق أصبحوا فى حل من الالتزام بعهدهم معه .

واختاروا لهذه السفارة اثنين من نبلائهم ووجوه القوم فيهم ،

(١) راجع الجزء الأول ص ٣١١ ـ ٣٦١ .

هما « هيج العظيم » Hugh اخو ملك فرنسا وبولدوين « كونت هينولت » Hainault ٠ الذى اختفى فى أثناء سفره فى معركة قاتل فيها العدو وكان مصيره محوطا بالغموض وموضع جدل ، فمن قائل يقول انه لاقى منيته فى هذا الاشتباك ، الى آخر يذهب للقول بوقوعه فى أسر العدو الذى حمله معه يرسف فى الأغلال الى بعض نواحى المشرق القاصية ٠

على أن لورد هيج نجح فى تجنب مكائد العدو فوصل سالما الى الامبراطور ، لكنه ــ وا أسفاه ــ عند بلوغه هذا المنعطف كسف بريق أعماله المجيدة بسحابة شديدة القتامة باعدت بعدا كبيرا بينه وبين أمجاد قومه الباهرة ، فماذاكان قد أتى فى أثناء مسيرة الحملة بكثير من أعمال البطولة التى اكسبته مجدا لا يبلى فانه لطخ اسمه الكريم ومرغه فى الوحل فى أثناء هذه السفارة التى أنجزها لمن كلفوه بها ، لكنه لم يأت اليهم بالرد ، ولم يكبد نفسه مشقة الرجوع اليهم فأظهره تقصيره فى أداء هذا الموضوع بمظهر شديد الغرابة تنكره عليه مكانته السامية ، لأن كتاب جوفينال يقول « ان كل شائبة فى الخلق تنطوى فى حد ذاتها على جرم أكبر كلما كبر مقام مرتكبها وعلت مكانته » ٠

* * *

ما كاد حصار انطاكية ينتهى هذه النهاية الرائعة بالاستيلاء عليها ، وما كادت أمورها تستقر ويسودها الهدوء حتى ضرب الناس بطاعون لا يعلم أحد أسبابه ، وتزايد عدد ضحاياه زيادة مفزعة ، وفشى حتى قل ان كان ينقضى يوم الا ويخرج الناس لدفن ثلاثين جثة أو أربعين ، والحق أن القلة التى بقيت من الناس بعد الحصار قد تضاءلت حتى كادت أن تكون عدما ٠

ولقد هاجم هذا الطاعون الخبيث الجميع على اختلاف طبقاتهم، لم يفرق بين صغير وكبير ، وكان من بين الذين ساروا اذ ذاك فى الطريق الذى لابد لكل مخلوق أن يسير فيه « أديمار أسقف بوى »، Adhemar of Puy وهو رجل شريف الخلق ، عظيم القدر ، خالد الذكر ، فبكى الناس كلهم فيه أبا وهاديا لهم ، وشيعه الجميع الى جدثه بزفرات باكية وآهات تصدع الأفئدة ، ودفنوه فى توقير كبير فى كنيسة بطرس الطوبانى فى الموضع الذى يقال انهم وجدوا به حربة المسيح ·

ولقد فتك هذا الطاعون القاتل فيمن فتك « بهنرى ديش » D'Esch الكريم نسبا السامى خلقا ، فمات ودفن فى قلعة « تل باشر » ·

كمـــا هلك بنفس الـــوباء « رينهـــولد فون أمـــرزباخ » Rhenauld Von Ammershach وهو محارب عظيم شرف قومه بشجاعته الذاتية ، فووري جسده فى ساحة كنيسة أمير الرسل ·

وقد تفشى هذا الطاعون أكثر ما تفشى فى النساء على وجه الخصوص ، حتى لقد هلك منهن فيه ما يقرب من خمسين ألف امرأة فى أيام قلائل ·

وحاول بعض أهل حب الاستطلاع أن يستقصوا أسباب هذا الوباء الملعون فانتهوا الى خواتيم تخالف كل خاتمة منها الأخرى ، فقال بعضهم انه نشأ من جراثيم تسبح فى الهواء ولا تراها العين ، على حين قيل ان الجوع كان قد عض الناس بأنيابه ، فلما تأتى لهم الحصول على الطعام الوفير أقبلوا فى نهم وشـــراهة على الأكل تعويضا عن أيام المسغبة ، فكانت بطونهم الجوعى علة هلاكهم ، وأشار هذا البعض الى الحقيقة القائلة ان من كانوا وسطا فى أكلهم

أو تقللوا منه كانوا أحسن حالا من غيرهم ، وأنهم سرعان ما عادوا الى ما كانوا عليه فى السالف من الصحة »(٢) ·

— ٢ —

فى هذه الأثناء عاد الناس يلحون على قادتهم الحاحا شديدا بمعاودة الاستعداد للسير الى القدس ، وسواء أكان الحاحهم صادرا عن رغبة منهم فى النجاة من الطاعون ، أو كان نابعا عن حبهم للحج الى بيت المقدس التى هى بيت القصيد الذى جاءوا من أجله ، فان الأمر الذى لامراء فيه هو أنهم طالبوا قادتهم بالاستعداد للخروج والسير قدما بجيش السيد لانجاز الغرض الأساسى الذى دفع الجميع لترك أوطانهم ، ومن ثم اجتمع كبارهم وتشاوروا فيما بينهم بشأن رغبة العامة التى رأوها جديرة بالتلبية ·

وقد اختلف رد الفعل الشخصى للقادة على هذا الطلب ، فرآى فريق منهم أن الواجب يقتضيهم ألا يتوانوا عن الخروج فى ساعتهم ، وبذلك يكونون قد أرضوا رغبات الناس ·

وأما غيرهم فقالوا ان العقل يفرض عليهم تأجيل الخروج حتى شهر أكتوبر ، وكانوا ناظرين فى ذلك الى ماهم فيه الآن من حر الصيف القائظ الذى لايطاق ، ومن ندرة المياه وقلة ما تحت يدهم من الخيول ، وتضعضع الناس بسبب طول المجاعة التى كابدوها ، وقال أصحاب هذا الرأى ان الناس فى خلال هذه الفترة(٣) يكونون قد حصلوا على مزيد من الجياد ، كما تتاح فرصة من

---

(٢) ذكرت الترجمة الانجليزية أنه لم يمكن تحديد طبيعة هذا الطاعون تحديدا باتا ، وانما كان وباء عم أقاليم البحر الأبيض المتوسط الشرقية ·

(٣) المقصود بذلك الفترة المنصرمة من هذه اللحظة حتى دخول شهر أكتوبر ·

الراحة للخيول التى عندهم الآن ، وبذلك يعود الناس الى ما كانوا عليه من قبل بفضل ما نعموا به من الاستجمام والمطعم مما يمكنهم من النهوض بعافية ، ويجعلهم أقدر على تحمل مشاق الزحف ، وقد قوبلت هذه العواطف الأخيرة باستحسان الجميع ، واتفق رأيهم — دون استثناء — على البقاء حتى يحين ذلك الموعد المقترح ٠

حينئذاك تفرقوا أملا منهم فى تجنب الموت الذى يهددهم ، كما بدا أنه من المحتمل أيضا أنهم قد يجدون فى هذه الأثناء فى ناحية أخرى غير التى هم فيها الآن وفرة من الميرة ، وأصبح مفهوما لديهم جميعا وجوب عودتهم فى الموعد المضروب دون تأخير ، فذهب بوهيموند الى قيليقية واستولى على مدن طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة وعين زربة ، ونصب حكاما من قبله على هذه الأماكن ، وجعل من نفسه الأمير الأكبر على الأقليم بأكمله ٠

أما الزعماء الآخرون فقد تفرقوا فى المدن المجاورة بعيدين عن الجيش ، جاعلين همهم استرداد صحتهم وعافية جيادهم ٠

كما بادر كثير من أشراف الناس وعامتهم على السواء الى عبور نهر الفرات ، وأخذوا السير فى لهفة قاصدين الرها حيث كان الحكم فيها لبلدوين أخى الدوق ، وكانوا يطمعون فى نواله ورفده ، فأحسن الكونت لقاءهم ، وحباهم بآلائه ، ولم يدخر وسعا ولا قصر فى عطفه عليهم طول اقامتهم فى رحابه ، ثم ردهم فى النهاية الى اخوانهم وقد امتلأت نفوسهم بالغبطة ، وأيديهم بالعطايا الجمة ٠

— ٣ —

حدث فى ذلك الوقت أن استجلب رضوان — صاحب حلب — على نفسه نقمة واحد من أتباعه ، وكانت قلعة « أعزاز » فى يد هذا التابع ٠

ووصلت الخصومة بين الاثنين حدا حمل الأمير على است
العسكر من كل النواحي التابعة له ، وضرب الحصار على
القلعة التى أدرك متوليها الا قبل له فى الوقوف فى وجه غ
مولاه القوى الحاذق مالم ينجده الفرنجة ، فأرسل فى الحال و
من خاصته وأهل بلده - وكان مسيحيا مخلصاً له - الى اا
(جود فروى) يسأله محالفته ، وزوده بالهدايا اليه ضمانا ا
تأييده ، وزاد بأن وعده أن يخلص له قلبا وروحا ٠

وأبدى رغبة فى أن يرتبط به باتفاقية يلتزم بها التزاما تا
وأفصح عن استعداده لارسال ولده الى الدوق رهينة عنده
يكون على ثقة تامة فيما يقوله ، وحتى لا تخالجه لمحة شك فى اا
بعهده له ٠

وألحف فى الرجاء الى « جود فروى » أن ينهض فى لـ
هذه ليخلصه من الخطر المحدق به ، واعدا اياه أن يجازيه الـ
الأوفى على حسن جميله هذا فى الوقت المناسب ٠

وآتت هذه الكلمات أكلها ، وحركت نفس ذلك الرجل ا
فوثق علاقات المودة بصاحب قلعة (اعزاز) وأظله بعطفه ، و
فأرسل فى لحظته رسلا من جهته الى أخيه بلدوين كونت ا
يدعوه للقدوم عليه بعسكره ليكون عونا له في رفع الحصار ، ا
لذلك الصديق ٠



أما رضوان فقد نصـــب معسكره قبالة قلعة « أعزاز »
خروج الدوق جودفروى من أنطاكية بخمسة أيام ، وكان فى صد
عدد كبير من أخلص أتباعه الذين دعاهم ليكونوا عونا له في المث

الذى يزمع النهوض به ، فتألفت منهم جميعا طائفة قوية خرج بهم مغذا السير لنجدة أعزاز ٠

أحس رسل صاحب أعزاز الذين بعث بهم الى الدوق أن قد لازمهم التوفيق فى انجاز سفارتهم على أكمل وجه فقد حصلوا على التأييد التام لسيدهم عند الدوق ، على أنه كان من المستحيل عليهم القيام شخصيا باخبار مولاهم بما انتهوا اليه بسبب احاطة العسكر المعادى له للقلعة من كل جانب ، مما استحال معه قيام أحد ما بالدخول اليها أو الخروج منها ، لذلك أطلقوا حمامتين من الحمام الزاجل المدرب على مثل هذه المهمات لايصال الرسالة ، فربطوا فى ذيلى(٤) الحمامتين كتبا تتضمن التفاصيل الوافية عن نجاحهم، ليكون مولاهم على علم تام بكل ما نسنى لهم القيام به ، وما كاد الطائران يطلقان فى الجو حتى طارا خفيفين الى ديارهما ، وهناك أمسكهما المسؤولون عن الحمام الزاجل ومن ربوهما ، وفضوا الرسائل ، وافضوا بمضمونها الى صاحب حلب ، فاستولى عليه الفزع الشديد من العدو المحيط به ، فأيأسه الخوف وفل مقاومته ، ومع ذلك فان قراءته لهذه الرسالة ملأته بالأمل المفرح فى الا خوف عليه ان هو أخذ المبادرة فى مهاجمة عدوه ٠

ـ ٤ ـ

كان الدوق ورفاقه قد قطعوا مسيرة يوم واحد حين صادفهم بلدوين فى طائفة من ثلاثة آلاف مقاتل مدججين بأحسن السلاح ،

---

(٤) يبدو أن هنا خطأ من وليم الصورى فى قوله ان الرسالتين ربطتا الى ذيلى الحمامتين ، فالمعروف أن الرسالة كانت توضع تحت جناح الطائر حفظا لتوازنه ، انظر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، حاشية رقم ١ صفحة ٣٠٢ ٠

فرحب جود فروى بأخيه ترحيبا يفيض بالحب العميق والود الصافى، وشرح له كل تفاصيل الحملة ، مركزا على وجه الخصوص على محالفة الصداقة التى أبرمها مع صاحب « اعزاز » ، فاستصوب بلدوين كل ما قصه عليه أخوه ، وان حذره من أن قواته ليست بكافية لفرض حصار شديد كهذا الحصار الذى يزمع القيام به ونصحه غاية النصح أن يبعث الى القادة المقيمين بأنطاكية ــ قبل أن يقدم على أى شىء ــ يرجوهم مساعدته ، لأن مجيئهم اليه يقوى جانبه ويشتد بهم ساعده ، فيتقدم فى تنفيذ مشروعه بمزيد من الثقة ٠

استمع الدوق بنفس راضية الى نصيحة شقيقه ، وبعث فى الحال برسول الى كل من بوهيموند وكونت تولوز يناشدهما مناشدة حارة ــ بحق مابينه وبينهما من روابط الأخوة ــ أن يهبا من غير ابطاء الى مساعدته فى جهوده القائم بها من أجل حليفه ، وأكد لهما أنه راد لهما هذا الفضل فى الوقت المناسب ، والحق أنه كان قد سألهما هذه المعونة قبل مغادرته المدينة بطريقة فى غاية الود ، والتمس منهما الانضمام اليه ، ولكن الغيرة من أن صاحب « أعزاز » استنجد بجودفروى أولا حملتهما على رفض متابعته والخروج معه ، فلما كانت هذه المرة الثانية عرفا أنه لم يعد بمقدورهما رفض التماس الدوق حفظا لشرفهما ، ومن ثم جمعا قواتهما وخرجا بها فلحقاه فى حملته ، فلما تأتى لجميع القوات أن ينضم بعضها الى البعض بلغت زهاء ثلاثين ألف محارب ٠

ويقال انه كان عند رضوان أربعون ألفا من الترك ، ومع ذلك فانه لم يطمئن الى قوته هذه واستولى عليه الفزع من اقترابنا الذى أخبرته عيونه بأنه بات وشيكا ، فسرح جيشه وعاد الى حلب ٠

لم تعلم قوات « جود فروى » بفرار العدو فظلت توالى زحفها ،

وتبعها من خلفها كثير من الجند المشاة والفرســـان القادمين من أنطاكية للانضمام للكتائب التى سبقتهم ٠

ولماكانوا على مسافة غير قصيرة وراء الجيش فقد شاء سوء طالع الكثيرين منهم أن يقعوا فى الكمائن التى كان العدو قد عنى برصدها لهم ، واذ لم يكونوا مكافئين للترك فى العدد ولا فى البأس فقد تمت الغلبة عليهم فى يسر ومن غير عنت ، فهلك الكثيرون منهم وأسر غيرهم ٠

ما كاد الدوق والزعماء الآخرون يعلمون بما جرى حتى توقفوا عن الزحف ، واتفقوا على أن يتعقبوا هؤلاء الجناة ، وشاء حسن طالعهم أن يصادفوا الترك قبل تمكنهم من الوصول الى مواقعهم أو بلوغهم الأماكن التى اعتادوا الاختفاء بها ، فكر الصليبيون عليهم بسيوفهم كرة ضاربة ، وسرعان ما فرقوا صفوفهم وشتتوا شملهم وأنقذوا طائفة من رجالنا الذين كانوا قد وقعوا أسرى فى أيدى الترك ، وأســـروا عددا كبيرا من رجال العدو وأعملوا القتل فى الكثيرين منهم ٠

وفر من نجا فتضاءل عدد العدو حتى كاد ألا يكون شيئا مذكورا، وكان هؤلاء من الصفوة المنتقاة من رجال رضوان وحاشيته ومن خاصته وهم قرابة عشرة آلاف شخص ٠

بعد أن أحرز جيشنا النصر مضى كله قدما صفا واحدا حتى بلغ غايته ، فخرج للترحيب به صاحب قلعة أعزاز فى ثلاثمائة فارس من فرسانه ، وجثا – على مشهد من الجميع – على ركبتيه ، مطأطىء الرأس ، مزجيا الشكر للدوق أولا ثم للزعماء الآخرين ثانية على مافعلوه ، وأعلن على رؤوس الجميع أنه التـــابع الأمين للقادة الصليبيين ، وقطع على نفسه يمين الود مؤكدا أنه لن ينكث بشىء

من هذا العهد ، أو يخرج على تلك الطاعة ، أو يشجب الوفاء لهم مهما تغيرت الظروف أو تبدل الزمن •

وهكذا أدى الدوق لحليفه المساعدة المرجوة ، وانتهى الأمر على خير ما تكون النهاية ، واذ ذاك انقلب بلدوين ـ أخو الدوق ـ راجعا الى الرها ، وعاد الجيش الى أنطاكية •

ـ ٥ ـ

لما كان الوباء لايزال منتشرا فى أنطاكية ، والموت متفشيا بين سكانها ، وتزداد حدته يوما بعد يوم ، فقد قرر الدوق أن يستجيب لدعوة أخيه له ليزور بلده الرها ، وكان بلدوين يلح على «جودفروى» ـ أثناء اشتراكهما فى الحملة الأخيرة ـ أن يتقبل رجاءه ويتجنب قيظ أغسطس ، ويفر من عدوى الوباء المنتشر فى الجو ، ومن ثم اصطحب الدوق معه فى سفرته هذه بطانته الخاصة وطائفة كثيفة من فقراء الناس الذين كان يرى لزاما عليه اعالتهم ، ونزل بهم أرض أخيه ، واستقر واياهم فى ناحية تل باشر(٥) وحطب وراوندال حيث يغدو ويروح كيفما شاء ، وينعم بين آن وآخر بصحبة أخيه •

وكثيرا ماحدث أثناء مقامه هنا أن قدم عليه أهل تلك النواحى من المتدينين لاسيما الزهاد المقيمون بالأديرة الكثيرة المتناثرة بها ، مستصرخين به من أخوين أرمينيين هما « بكراد » Pahard

---

(٥) فى الأصل Hatab ولم استطع الاستدلال على مرادفها فى العربية الا ن تكون « الحتا » التى أشار اليها ياقوت ومراصد الاطلاع ، انظر فى ذلك Le Strange : Palestine Under Moslems P. 450.
أو لعلها « عينتاب » القريبة من تل باشر •

و « كوراسيلويوس »(٦) Corasilius (أو كوخ فاسيل) ، وكانا من ذوى المكانة الرفيعة فى قومهما ولكنهما كانا غاية فى الدهاء والمكر ، وكان بأيديهما قلاع حصـــينة قوية من قلاع هذا الاقليم يعتمدان عليها كل الاعتماد . فكلفا السكان من أمرهم شططا ــ لاسيما أهل الأديرة ــ بابتزازهما الأموال الطائلة منهم بغير حق ، وبلغ عسف هذين الكبيرين غايته حين راحا يقطعان الطريق على سالكيه ويسلبانهم ما يحملون ، وكان ممن تعرضا لهم رجال بعثهم كونت الرها بالهدايا الى أخيه الذى كان لايزال اذ ذاك مشددا الحصار على أنطاكية ، وعمدا الى هذه الهدايا التى كانت مخصـــصة للدوق « جودفروى » ، فارسلاها الى لورد بوهيموند كسبا لتأييده لهما ضد بلدوين كونت الرها ، فلما سمع الدوق الشكوى غلا مرجل غضبه عليهما ، وبعث على الفور ضدهما رهطا من خمسين من خاصة فرسانه ، مع طائفة من أهل تلك الناحية ، فاقتحموا كلهم قلاعها بقوة السلاح وسووها بالأرض ، لتخضيد شوكة هذين الكبيرين ــ ولو الى حدما ــ وحملهما على الكف عن سفههما الذى لم يعد محتملا .

وقد وفد على الدوق أثناء مقامه فى هذا البلد رهط كبير من أبرز رجال جيشنا ، كما تزاحمت على بابه أعداد ضخمة من العامة راحوا يتدافعون طمعا فى نواله وفيض يديه ، وليدرأ عنهم الفقر المدقع الذى ناء عليهم بكلكله ، وأرهقهم أمدا طويلا ، وكان ذلك منهم على وجه الخصـــوص بعد أن صـــارت قلعة عزاز تحت حمايتنا ، وهى القلعة الواقعة فى منتصف الطريق المؤدى الى الرها . فرحب الكونت بهؤلاء القوم أجمل ترحيب ، ثم ردهم بعد أن أغدق عليهم هداياه الجمة ، مما أثار دهشة الجميع ومن جاءوا الى هنا يلتمسون فضل عطائه .

---

(٦) ذكرت الترجمة الانجليزية ، ج ١ ص ٣٠٤ حاشية رقم ٩ ، أنه ينعت « يكوخ » أى اللص ، ثم عادت وأشارت الى أن هناك من ينكر هذا النعت .

أخذت زرافات الصليبيين تتوالى فى القدوم الى الرها أرتالا بعضها فى اثر البعض ، حتى تبلبلت خواطر الأهالى جزعا من جموع اللاتين هذه ، وعلى الرغم مما لقيه هؤلاء الضيوف من كرم مضيفيهم الكبير الا أنهم سرعان ما أصبحوا مصدر ازعاج بسبب سلوكهم الذى كان ملؤه التحدى ٠ كما راح بلدوين ـ من ناحية أخرى ـ يقلل من اعتماده على مشورة النبلاء المحليين الذين كان لهم الفضل فى استحواذه على تلك المدينة العظيمة ، مما أثار حنقا بالغا ضده ، وضد بنى جنسه ، وندمت رعيته أشد الندم على أن جعلوا له الحكم فيهم ، يوم وضعوا زمام الأمور فى يديه ، وساورهم الخوف ، فلما رأوا الا نهاية لمطامعه وتطلعاته خافوا ان ينتهى الأمر به أخيرا الى تجريدهم من كل شىء يملكونه ، ومن ثم راحوا يحيكون ضده مؤامرة مع بعض ولاة الناحية الأتراك ، ويرسمون خطة تؤدى الى اغتياله دون توقع منه حتى يبدو الأمر وكأنه جرى بمحض الصدفة ، فان لم تسعفهم المؤامرة بقتله فلا أقل من أن تنتهى بطرده من المدينة واخراجه منها ، وحملتهم هذه المحاولة على أن يودعوا كل ثرواتهم وجميع ما يملكون عند أصدقائهم من أصحاب القلاع والمدن المجاورة ، وبينما كانوا منهمكين انهماكا دقيقا فى تنفيذ مخططاتهم هذه اذا بكلمة عن هذه المؤامرة تصل الى سمع بلدوين نقلها اليه أحد أصدقائه الأوفياء ، فلما تقصى الكونت الخبر وتجمعت بين يديه البراهين التى لا تجحد عن صدق هذا المشروع بعث قوة كبيرة من خاصة رجاله للقبض على المتآمرين وتقييدهم واعتبارهم قتلة ، وأدت اعترافاتهم الى كشف كل جوانب القضية ، واذ ذاك أمر بسمل عيون زعماء المؤامرة ، وحكم على من دونهم جرما بالنفى من المدينة ومصادرة أملاكهم ، ، أما غير هؤلاء وهؤلاء فقد تفضل بالاذن لهم بالمقام فى الرها مع الزامهم

بدفع غرامة مالية ضخمة صادر بها كل ما ملكته أيديهم وجعله ملكا خالصا له لايشاركه فيه مشارك ، واستطاع الكونت بهذه الوسيلة أن يحصل على قدر من الذهب بلغ عشرين ألف قطعة ، سخى بها كلها على ضيوفه (اللاتين) الذين أدت مساعدتهم اياه الى سيطرته على البلاد والقلاع المجاورة حتى أصبح ذكر اسمه مبعث فزع للمدن وسكان تلك الناحية ، مما حمل الكثيرين منهم على العمل جديا لتدبير ما فيه هلاكه ، حتى لقد فر حموه خلسة الى الجبال معتصما فيما له بها من المعاقل ، وذلك خوفا من أن يلح فى مطالبته بما تبقى له عنده من مهر ابنته الذى كان قد تعهد له بدفعه ، ولكن لم يف له بعهده حتى الآن ٠

ـ ٧ ـ

كان هناك شريف تركى الجنس اسمه « بالاس » يعيش فى تلك الناحية من البلاد ، ولى ذات مرة حكم مدينة « سروج » ، وقد ارتبط مع الكونت بحلف صارت الصداقة بمقتضاه بين الاثنين على أتم ما تكون الصداقة بين خدنين ، وذلك قبل وصول اللاتين فى هذه الأعداد الضخمة ، ثم لاحظ هذا الرجل تضاؤل ود بلدوين نحوه ، فذهب الى الكونت لأمر فى نفسه ، مدعيا انه يرجوه أن يتفضل مشكورا بالحضور اليه ليتسلم بنفسه القلعة الوحيدة التى لازالت باقية فى حوزته ، وربما كان مدفوعا للقيام بهذا العمل باحساسه بالضيق ، أو ربما كان ذلك نزولا على التماس الأهالى ، وصرح لبلدوين انه قانع بعطفه عليه ، وانه يعتبر ذلك جميلا يسديه اليه ويقدره هو كل التقدير له ، وأنه غاية ما يتمناه ، وأعلن اليه أنه معتزم احضار زوجته وأطفاله وكل ما تملك يمينه الى الرها ، وتظاهر بانه فى خوف مقيم من أهل بلده لما بينه وبين الصليبيين من روابط

الود الأخوى ، وراح يلاحق الكونت لتحقيق اربته ، راجيا أن يضرب له بلدوين يوما يزور فيه ذلك المكان ، فلما جاء اليوم المحدد خرج الكونت على رأس مائتى فارس من فرسانه وسار الى القلعة وقد سبقه اليها « بالاس » الذى عمد سرا الى تقوية وسائل الدفاع عن القلعة ، فرتب بداخلها مائة فارس معلمين ، وزودهم بأقوى سلاح ، وأخفاهم داخل ذلك المكان بصورة لم يظهر معها أى واحد منهم .

فلما أصبح بلدوين أمام القلعة التمس منه « بالاس » أن لا يدخلها الا فى رهط قليل جدا من رجاله ، مبررا هذا بخوفه من الخطر على موجوده ان دخل الفرسان كلهم معه ، ونجحت توسلاته فى حمل الكونت على الرضوخ لكل ما طلبه منه « بالاس » ، غير أن حسن حظ بلدوين ابى الا أن بعضا ممن معه ــ من أهل الحجا والعقل ــ توجسوا خيفة وخشوا أن يكون الغدر وراء ذلك الالحاح ، فحالوا بالقوة بين الكونت ــ رغم احتجاجه ــ وبين السماح له بدخول الحصن ، وكانوا على حق فى شكهم فى نوايا هذا الرجل الخسيس ، ورأوا السلامة تقتضى تقديم نفر سواه أولا ليعرف ماذا يكون مصيرهم ، فاستجاب الكونت لهذه المشورة الحكيمة ، وأمر أن يدخل المكان اثنا عشر رجلا من أشجع رجاله وعليهم من السلاح أحسنه ، على أن يقف هو مع بقية رجاله ساكنين فى الخارج على مقربة من المكان يرقبون ماذا تكون خاتمة التجربة ، فما جاوز هؤلاء الفرسان الأشاوس عتبة المكان حتى وقعوا ضحية الخيانة الدنيئة التى دبرها بالاس الخبيث ، اذ طلع عليهم الأتراك المائة الذين أشرنا اليهم من قبل من مخابئهم وهم فى كامل سلاحهم ، وأمسكوا بالفرسان الذين جازت عليهم الحيلة غدرا ، ولم تفلح مقاومتهم فوقعوا فى أسرهم فقيدوهم بالسلاسل ، فكان حزن الكونت شديدا ، وأفزعه مآل رجاله الأوفياء اذ فقدهم بهذه المكيدة القذرة ، فراح

يدنو من الحصن حتى صـــار أقرب ما يكون اليه ومضى يهتف ببالاس ، مذكرا اياه بيمين الولاء الذى قطعه له على نفسه ، وحاثا اياه على اعادة الأسرى الذين أخذهم غدرا ، ووعده بقدر كبير من المـــال فـــدية لهم ، فأبى بالاس كل الاباء الا اذا رد الكونت عليه « سروج » فلما أيقن بلدوين عجزه عن عمل أى شىء أكثر من هذا لوقوع القلعة على أرض شديدة الانحدار واستحالة اقتحامها بسبب شدة حصانتها واحكام بنائها استبد به الغضـــب أن يأخذ بالاس رجاله أسرى ، وانقلب راجعا الى الرها يفكر مليا فى الخديعة التى جازت عليه ٠

فى ذلك الوقت كانت مدينة سروج المذكورة حالا فى حراسة « فولبيرت دى شارترز » صاحب الخبرة الكبيرة فى فن القتال ، وكان معه حامية مؤلفة من مائة فارس فى كامل عدتهم الحربية ، مجهزين تمام التجهيز للعمل ، فلما سمع بالحيلة التى جازت على مولاه تفطر قلبه رحمة به ، وشرع يخطط جديا كيف يرد هذه الاهانة، فنصب ـ ذات يوم لهذا الغرض ـ أمام قلعة بالاس كمينا تخير له بقعة ملائمة كل الملاءمة لمشروعه ، ثم تعمد أن يخرج فى شرذمة قليلين من الحرس اقترب بهم من الحصن بصورة يخيل لرائيها كما لو كان يحاول نهب قطعان من الغنم٠ أما غرضه الحقيقى فهو أن يغرى العدو بمطاردته ، فلما رأت الحامية التى بالداخل أنه يحاول سرقة القطعان من سرحها هبت الى سلاحها ومضت تطارده ، فتظاهر « فولبيرت » بالفرار فألح العدو فى تقصيه حتى جاء عند الكمين الذى كان رجاله مختفين به فبرزوا من مخبئهم ، فاشتد عزم فولبيرت بهم وكر راجعا على مطارديه وهاجمهم ، فقتل بعضهم ، ونجا غيرهم بشق النفس ، ففروا الى الحصن معتصمين به ، ولكنه أسر منهم ستة نفر ٠

وتم بعد وقت قصير تبادل الأسرى بين الجانبين ، واسترد

« فولبيرت » ستة من الصليبيين مقابل من أسرهم ، كما نجح اربعة من نفس الاثنى عشر فى التخلص من حراسهم واسترداد حريتهم ، أما الاثنان الباقيان فقد قطعت رقابهما بأمر من ذلك الرجل الخبيث الفاسق ٠

ولقد أخذ بلدوين منذ ذلك اليوم يرفض عقد أى حلف صداقة مع الترك ولم يعد يثق بأيمانهم ، وقدم الدليل الواضح على ذلك بعد قليل ٠

* * *

كان فى نفس الناحية أمير تركى آخر اسمه « بالدوك » هداه تفكيره أن يبيع للكونت (بلدوين) مدينة سميساط القديمة المنيعة التحصين ، وكان « بالدوك » التزم حسب نص الاتفاق المبرم بينه وبين الكونت على أن يحضر زوجته وأولاده وكل أهل بيته الى الرها ، غير أنه كان يقدم من الأعذار المقبولة كل مرة ما أرجأ معه الوفاء بعهوده هذه ، كل ذلك ارتقابا منه لفرصة تسعفه بانزال الضرر ببلدوين ، وحدث فى أحد الأيام أن جاء الرجل الى الكونت ليقدم كعادته عذرا تافها يبرر به تأخره فى الوفاء بما وعد ، فما كان من بلدوين الا أن أمر باطاحة رأسه ، واستطاع بهذا العمل الوجيز أن يمنع امكانية حدوث خيانة اخرى فى المستقبل ٠

ـ ٨ ـ

بينما كان جودفروى لايزال مقيما فى ناحية تل باشر ، وبينما كانت الأحـــداث التى ســـجلناها حالا تجرى فيما حول الرها ، اذا بكونت تولوز ينهض من أنطاكية وفى صحبته أتباعه وطائفة كبيرة من فقراء الناس بها ، واذ كان حريصا على الا يبقى ساكتا

خلال فترة سيره هذه ، فانه قام بحصار « البارة » وهى من المدن القوية التحصين فى ولاية « أفامية » التى تبعد عن أنطاكية مسيرة يومين تقريبا ، فلما تم لريموند غزو جميع الاقليم المجاور له وسقوط «البارة» فى يده ، نصب فيها أسقفا هو بطرس النربرنى أحد خاصته، وكان رجلا ورعا طاهر السيرة ، كريم الخلق ، فوهب (ريموند) للأسقف الجديد فى لحظته هذه نصف المدينة ونصف ضاحيتها شكرا لله على ما أثابه من أن أصبح للشرق أسقف لاتينى ٠

واستجاب بطرس لتوجيهات الكونت فشخص الى أنطاكية لتتم فيها مقاليد الترسيم ، وهناك تقلد جميع الصلاحيات الكنسية ، وحدث فيما بعد — حين أخذ برنارد فى تنظيم الكنيسة بأنطاكية — ان نقل بطرس — وهو أول بطرك لاتينى للمدينة — تبعية مطرانيته الى تلك الكنيسة ، وأصبح هو ذاته كبير أساقفتها ، كما تسلم شارة الترسيم من يد برنارد ٠

كان فى رفقة كونت تولوز حينذاك شريف اسمه « وليم » شاء حسن طالعه أن يأسر — لحظة الاستيلاء على مدينة انطاكية — زوجة واليها ياغى سيان وطفلين صغيرين لابنها شمس الدولة ، فبقى ثلاثتهم فى رعاية «وليم» الذى بسط عليهم ظل رعايته، فافتداهم شمس الدولة منه بقدر كبير من المال ، فلما تسلم وليم الفدية أطلق سراح السيدة والطفلين وردوا الى حريتهم السابقة ٠

* * *

كذلك حدث قرب هذا الوقت أيضا أن أرست بميناء السويدية طائفة كبيرة من الناس تقدر بألف وخمسمائة شخص ، وكان رسوهم فى أعقاب رحلة حالفهم فيها التوفيق ، وأصلهم من اقليم « راتسبون »

من بلاد التيوتون[٧] ، لكن مالبث هؤلاء القوم جميعا ان ضربهم الطاعون الذى كان منتشرا اذ ذاك ، فماتوا فى فترة وجيزة ، وقد ظل هذا المرض الخبيث يفتك بالناس طوال ثلاثة أشهر متتالية حتى مستهل ديسمبر ، وفنى بسببه أكثر من خمسمائة رجل من طبقة الفرسان وحدهم ، أما ضحاياه من العامة فكانوا فوق الحصر .

ـ ٩ ـ

عاد الى المدينة يوم أول نوفمبر جميع القادة الذين كانوا قد غادروها فرارا من الطاعون حسب اتفاقهم على ذلك ، وكانت مدينة البارة قد سقطت فى أيديهم كما ذكرنا من قبل ، ثم جاء اجماعهم الآن على قبول الاقتراح القاضى بمهاجمة « المعرة » ، وهى مدينة شديدة المناعة بفضل تحصيناتها القوية ، وتبعد عن « البارة » ثمانية أميال ، وكان من الضرورى خلال هذه الفترة القيام بشىء من التحرك نظرا لالحاح الناس الدائم على قادتهم بوجوب متابعة الزحف الى بيت المقدس ، وهو الحاح لم يكن فى الاستطاعة التهرب منه ، ومن ثم اتخذت الاستعدادات اللازمة ، حتى اذا وافى اليوم المقسوم خرج كونت تولوز وكونت فلاندرز وكونت نرماندى ، كما نهض الدوق (جودفروى) ومعه أخوه استاس وتانكريد ، وزحفوا مجمعين العزم على حصار مدينة المعرة التى كان أهلها شديدى الدل والتفاخر بثرائهم الفاحش ، وزاد من تيههم تباهيهم بأنهم فتكوا ذات مرة من قبل بعدد كبير من رجالنا ، وهو فتك عدوه نصرا باهرا لازالوا يعتدون به اعتدادا حملهم على الاستهانة بالجيش الصليبى وتجريحهم قواده بالاهانات المؤلمة يصبونها عليهم صبا ، حتى انهم

---

(٧) تشير الترجمة الانجليزية (ج١ ص ٣١٠ ، حاشية رقم ١٢) الى أن العهدة على « البرت ديه » فى هذا الخبر .

رفعوا الصلبان على حصونهم وابراجهم ازدراء منهم بشعبنا ، وتمادوا فى غيهم فأخذوا يبصقون على الآثار المقدسة ٠

واذ بلغت هذه الفعال منهم حد انتهاك حرمة الأحرام الطاهرة فقد فاضت نفوس الصليبيين غيظا ، وتسعرت حنقا فلم يملكوا منع أنفسهم من القيام بشن سلسلة من الهجمات العنيفة على المدينة التى كان من الممكن سقوطها فى أيديهم غداة وصولهم لو كان قد توفر عندهم الكافى من السلالم ٠

***

ولما كان اليوم الثالث انضم اليهم بوهيموند بامدادات كبيرة ، واستمر فى محاصرة المدينة فأحدق بالجانب الذى ظل مفتوحا منها حتى هذه اللحظة ، وبعد بضعة أيام من وصوله تأفف الحجاج لطول توقفهم عند المعرة من غير طائل ، فصنعوا أبراجا خشبية ، وأرادوا حمايتها فنسجوا لها عصائب من الليف جعلوها جدائل كسوها بها ، ثم نصبوا آلات الرمى ٠

غير أن صبرهم ارفض لطول تأخرهم وضاقوا به ذرعا ، وانطلقوا يقصفون المدينة هذه المرة قصفا فاق كل قصف سبقه ، فقاومهم المدافعون الواقفون خلف الأسوار مقاومة عنيفة ، باذلين فى ذلك غاية جهدهم ، وراحوا يرمون أعداءهم بشتى صنوف القذائف ، حتى اذا يئسوا من طرد العدو من تحصيناته راحوا يقذفونه بالحجارة وخلايا النحل وهى تشغى به ويرمونهم بالنيران والكلس ، ولكن الرحمة الالهية الواسعة لم تمكنهم من أن يوقعوا الضرر - اذ وقع - الا برهط قليل من رجالنا ٠

تبين الآن بوضوح تام أن جميع جهود المدافعين راحت هباء ، وأن قوتهم أخذت تتضعضع مما شجع الصليبيين على أن يشددوا الحصار عن ذى قبل ، وراحوا يقذفون المدينة من كل ناحية ، واستمر الهجوم بلا انقطاع من مطلع النهار الى غروب الشمس ، فدب الارهاق فى أبدان المدافعين وأضناهم ما صرفوه من جهد عنيف ، فتراخى بأس مقاومتهم ، وقل عزمهم ، وحينذاك نصب الصليبيون السلالم على الأسوار فنجحوا فى عبور الخنادق بالقوة • وكان أول المتسلقين « جلفيروس » المعروف « بجوفييه » « البرجى » وهو من أشراف أبراشية « ليموجس » وتبعه كثيرون غيره ، فسقطت فى أيديهم بعض الأبراج ، ولكن حال دخول الليل دون متابعتهم عملهم والاستحواذ على المدينة بأكملها ، ولذلك أجلوا هذا الأمر الى الغد، واستعدوا لمعاودة الهجوم مع مطلع الفجر — واستمر الفرسان — ومعهم عدة طوائف من الرجال البارزين — يقومون بمراقبة ما حول المدينة طول الليل منعا للعدو من مغادرتها •



على أنه حدث فى هذه الأثناء أن ضاقت العامة ذرعا بالجهد الطويل الذى بذلوه ، وأضنتهم قسوة المجاعة التى طال أمدها ، فاقتحموا البلد دون علم من كبارهم ، مغتنمين فرصة عدم ظهور أحد من الأعداء على أسوار المدينة التى بدت لهم وقد لفها الصمت المطبق ، فدخلوها ، فاذا هى بلا مدافع عنها ، فامتدت أيديهم الى الغنائم تنهبها، وانصرفوا خلسة يحملونها معهم ، وكان الأهالى اذ ذاك قد فروا الى الخنادق التى تحت الأرض لضمان سلامتهم وحفاظا على أرواحهم ولو الى حين •

ولما طلع الصباح هب القادة واستولوا على المدينة من غير كيد ، ولكنهم لم يجدوا أسلابا كبيرة يأخذونها معهم ، وتبين لهم

أن الأهالى قد اختفوا فى السراديب فأضرموا حولها نيرانا تعالت فعقدت سحبا كثيفة من الدخان حملت الهاربين على الاستسلام ، ولقى القتل بعض من اضطروا لمغادرة المخابىء ، وأسر سواهم .

ومات فى هذا الحصار وليم أسقف أورانج الطيب الذكر المخلص للرب ، الخائف منه .

وبقى الدوق ومن معه فى المعرة خمسة عشر يوما ، ثم عاد الى أنطاكية حيث تطلبت شئونه الخاصة عودته هذه ، وكان فى معيته فى الرجوع كونت فلاندرز .

— ١٠ —

رأى جودفروى دوق اللورين فى هذه الأثناء أن الناس يعدون العدة للخروج ، وأنهم دائبو الالحاح على القادة لمواصلة زحفهم شطر بيت المقدس ، غير أنه عزم قبل مغادرته تلك الناحية على زيارة أخيه ليسعد بالحديث معه ، ومن ثم خرج مع حرسه الخاص الى مملكة بلدوين ، وبعد أن انتشت نفسه بلقائه اياه ، وفرغ من الأمر الذى جاء من أجله ، استأذنه فى الرحيل وانقلب راجعا الى أنطاكية حيث كان القادة الآخرون فى انتظاره ، فلما كان على بعد خمسة أميال أو ستة من المدينة استلفتت نظره بقعة مخضرة لطيفة يجرى بجوارها نبع يتدفق منه الماء عذبا فراتا ، فترجل عندها عن جواده ليتناول طعامه ، وبينما كان رفاقه مشغولين بعمل مثل هذه الترتيبات بقدر ما يسمح الزمان والمكان اذا بكوكبة من فرسان العدو تبرز لهم فجاة من بين عيدان القصب المتشابكة ، وكانت مدججة بالسلاح من رأسها الى أخمص قدميها ، فاندفعت نحو الدوق ورفاقه وهم متحلقون حول طعامهم ، فهب الدوق ورفاقه الى سلاحهم قبل أن يصل الترك

اليهم ، ووثبوا على صهوات جيادهم ، ونشب فى أعقاب ذلك قتال خرج منه الدوق بفضل الرب منصورا ، اذ تمكن من قتل الكثيرين منهم ، وأرغم بقيتهم على الفرار ، ثم تابع سيره الى المدينة مظفرا منصـــورا •

— ١١ —

حدث بعد الاستيلاء على المعرة أن شـــب خلاف عنيف بين بوهيموند وكونت تولوز الذى اقترح تسليم المدينة المفتوحة الى أسقف البارة ، فأبى بوهيموند أن يستجيب لاقتراح ريموند بالتنازل للأسقف عن ذلك الجزء من المدينة التى استولى هو بنفسه عليها الا اذا وافق الكونت أولا على أن يسلمه الأبراج التى لازالت فى قبضته بأنطاكية، وانتهى الأمر أخيرا الى انصراف بوهيموند عن القتال فى المعرة ، وعاد غضبان حنقا الى أنطاكية حيث استولى عنوة على الأبراج التى كان أتباع الكونت ريموند قد حصنوها ، وكانت لم تزل فى يدهم بعد أن أخرجوا قسرا منها المدافعين عنها ، واستطاع (بوهيموند) بهذه الحركة السريعة أن يستولى على المدينة كلها وجعل من نفسه سيدها ولا سيد لها سواه •

ولما رأى الكونت أن خصمه قد انسحب مما ترتب عليه أن أصبح فى قدرته هو وحده أن يقضى فى المدينة المفتوحة بما شاء فقد أقطعها لأسقف البارة حسب عزمه فى الأصل ، ثم شرع فى مفاوضة الأسقف بشأن حماية المكان من العدو ، وأقام حراسا من الفرسان والمشاة قبل أن يكشف الناس(*) خطته ، فلما كشفوها سخطوا عليه

(*) يقصد الصليبيين •

أشد السخط ، وعمت شكاية بعضهم لبعض من أن القادة يحاولون على الدوام اختلاق معاذير يبررون بها تراخيهم ، وقالوا انه يبدو أنهم نسوا تمام النسيان هدفهم الأصلى من أمر حجهم ، وذلك لأنه مامن مدينة كانت تقع فى أيدى الزعماء حتى كانوا يتشاحنون فيما بينهم حولها ويختلفون عمن يملكها منهم ، لذلك قام العامة من تلقاء أنفسهم بعقد اجتماع من بينهم أسفر عن قيامهم بتخريب مدينة المعرة حالما يبعد الكونت عنها لأى سبب من الأسباب ، وكان هدفهم من هذا التدمير أن يزيلوا أى عائق يعوق المشروع الذى اقسموا الأيمان على انجازه ٠

وحدث فى هذا الوقت(٨) بالذات أن اجتمع القادة فى مدينة الروج الواقعة فى منتصف الطريق بين انطاكية والمعرة ، وكان الغرض من اجتماعهم هذا هو النظر فى طلبات العسكر الملحة بوجوب متابعة الحج ، وحدث أن تلقى الكونت (ريموند الصنجيلى) دعوة لحضور هذا الاجتماع فحضره ، واختلفت آراء القادة كلهم ، وتباينت حول هذا الموضوع تباينا أدى الى عدم وصولهم الى اتفاق مثمر أو قرار مفيد بشأنه ٠

لكن بينما كان الكونت فى « الروج » اذا بالناس الذين تركهم فى المعرة يغتنمون فرصة غيابه لتنفيذ عزمهم ، فقاموا بهدم الأسوار والأبراج من أساسها رغم معارضة الأسقف وذهبه اياهم نهيا باتا عن ذلك العمل ، لكنهم لم ينتهوا ، فقد حطموا أسوارها وأبراجها وسووها بالأرض حتى لا يجد الكونت (ريموند) عند عودته أى مبرر لتأخير السير مرة أخرى ٠

---

(٨) كان ذلك فى الاسبوع الأول من يناير ١٠٩٩ وتحددها الترجمة الانجليزية بالرابع منه ٠

ولما عاد ريموند شجته هذه الكارثة وغمته ، ولكنه اذ كان يدرك رغبات الناس فقد رضخ للعقل والحكمة فكتم مشاعره ، على حين ظل القوم متمسكين بمطالبهم لا يتزحزحون عنها قيد أنملة ، وتضرعوا اليه أن يقوم بما يفرضه عليه واجبه كقائد لعيال الرب فى اتمام الحج الذى كانوا قد بدءوا رحلته ، ثم راحوا يهددونه ــ ان أبى عليهم ذلك ــ أنهم عامدون الى واحد من الجند وجاعلوه قائدا عليهم ليسير بهم فى طريق السديد ٠

ومما زاد فى بلاويهم تفشى المجاعة فى صفوف الجيش اذ ذاك، ونقص ماعندهم من الطعام نقصــــا بينا حمل الكثيرين منهم على الخروج على العرف ، فنهجوا نهج الوحوش الكاسرة اذ لم يعفوا عن أكل لحوم الحيوانات القذرة ، ويؤكد البعض ـ وان كان ذلك أمرا يكاد العقل لا يصدقه ـ أن حاجتهم الى الطعام النظيف حملت الكثيرين منهم على التردى فى هوة سحيقة أكلوا معها لحوم البشر ٠

وتفشى الطاعون بين الحجاج أيضا وهو أمر لم يكن ثم مفر منه لاضطرار الناس التعساء الى العيش على الأطعمة الفاسدة القذرة (ان جازت تسمية هذه المأكولات المخالفة للطبيعة بالطعام) ولم تكن هذه المجاعة الفظيعة التى اجتاحت الناس حدثا عابرا لا يلبث أن يزول بعد قليل ، بل ظل القوم عرضة لهذا الوباء لمدة طالت حتى بلغت خمسة أسابيع أو جاوزتها ، كل ذلك وهم مرابطون أمام المعرة يحاولون الاستيلاء عليها ٠

ولقد هلك أمام هذا البلد طائفة من السراة أصحاب الجاه العريض والرتب السامية ، ولم يكن هلاكهم بسبب أحداث القتال وحده ، بل وأيضا نتيجة لشتى الأمراض ، وكان من بينهم واحد فى شرخ الشباب يبشر طالعه بمستقبل زاه ، ذلك هو « انجراند بن هيج » كونت سنت بول اذ ألم به مرض خطير أودى بحياته ٠

اضطرب خاطر كونت تولوز - ذلك الرجل البارز العلم - وتبلبل فكره ، وتحير لا يدرى أى طريق يتحتم عليه سلوكه ، فكم كان ثقيلا على نفسه البؤس الذى ران على أتباعه المعرضين للخطر ، وأحزنه موقفهم العصيب ، فقد كانت قلوب القوم - صغيرهم وكبيرهم - وهم المعرضون للخطر تصطرم برغبة جامحة لمتابعة الحج ، كما أن مطالبهم الدائمة وبكاءهم المستمر وتوسلاتهم الحارة حرمت الكونت من أن يذوق للراحة طعما ، ومن ثم فان أمله فى ايجاد علاج ناجح لكل هذه المتاعب حمله على تحديد الخامس عشر من الشهر(٩) موعدا لبدء زحفهم الى بيت المقدس ، وقد فعل ذلك ارضاء لمطالب الناس وبدافع من ضميره رغم يقينه الجازم بعدم رضاء الزعماء الآخرين أن يتابعوه فى هذا المسلك .

ودفعت ريموند رغبته فى انقاذ القوم من خطر المجاعة الجائحة المتزايدة لأن يستعرض أشد رجاله بأسا ، وانتقى منهم طائفة من الفرسان وأخرى من المشاة ، واقتحم بهم أرض العدو . أما من سواهم فقد تركهم فى المدينة راميا من وراء ذلك أن يحصل بأى ثمن على كل ما هو لازم لتوفير العيش للناس ، ودخل بهؤلاء الرجال الأقوياء أرضا للعدو كانت شديدة الخصب ، وأغار على كثير من بلدانها الحصينة ، وأحرق بعض أرباضها ، وعاد من هذه الغزاة بقطعان كثيرة من الماشية والدواب ، والعديد من العبيد والجوارى ، وكميات ضخمة من المآكل اكتظت بها بطون الجوعى الخماص فأكلوا حتى أصابتهم كظة ، كما أصبح فى مقدور (ريموند دى

(٩) المقصود يناير ١٠٩٩م .

تولوز) أيضا أن يبعث بجزء وفير من المئونة لمن ظلوا باقين فى مدينة المعرة لحراســـتها ٠

* * *

تردد الكونت (ريموند دى تولوز) بعد عودته من هذه الغزاة حول الطريق الذى يسلكه ، ذلك لأن الناس عادوا يصيحون من جديد بأن اليوم المحدد للرحيل قد دنا ، ورفضوا أى توان عن الزحف ، ولما كان ريموند موقنا أن القوم فى الواقع على حق فقد شعر أنه لم يعد قادرا على الوقوف فى وجه توسلاتهم ، واذ ذاك عمد الى اضرام النيران فى المدينة حتى صارت هشيما ، ذلك لأنه أصبح وحده فى جانب الخروج اذ لم يوافقه أحد من الزعماء الآخرين على السير معه ، ومن ثم شرع فى سفره ، لم يصحبه غير أتباعه وحدهم ٠

ولما لم يكن معه غير عدد ضئيل من الفرسان فقد التمس من أسقف البارة أن يرافقه فى زحفه ، فلم يخيب الأسقف التماسه ولم يرده خائبا فيما طلب ، فعهد بأموره الخاصة الى واحد من كبار النبلاء اسمه « وليم الكومليا كو » تاركا معه سبعة من الفرســـان وثلاثين من الجند المشاة ، وقد أدى هذا الرجل ما عهد اليه به باخلاص وصدق عظيمين ، حتى لقد زاد عدد فرسانه السبعة فبلغوا أربعين ، وبلغ مشاته ثمانين أو أكثر ، بعد أن كانوا ثلاثين فقط ، وترتب على مجهوداته هذه ان اتسعت أملاك مولاه اتساعا كبيرا ٠

خرج الكونت فى اليوم المحدد للسير لم ينتظر أحدا ، وسار فى صحبته مايقرب من عشرة آلاف رجل ، ليس فيهم من الفرسان أكثر من ثلاثمائة وخمسين فارســـا ، كما انضم اليه كونت نرماندى وتانكريد ، ومع كل واحد منهما أربعون فارسا ، ورفقة كثيرون من

العسكر والمشاة ، ولم يفارقاه قط فى سيره ، وصادفوا فى طريقهم بعد خروجهم وفرة كبيرة من كل مايحتاجونه حتى لم يعودوا فى حاجة الى مزيد ٠

ولما مروا بشيزر وحماة وحمص التى تسمى فى اللغة الدارجة « بكاميلا » أمدهم حكام هذه الأماكن بالحراس ، وجهزوا لهم أسواقا يتم فيها البيع والشراء على أحسن ما يكون البيع والشراء ، هذا بالاضافة الى مبادرة المدن الحصـــينة والقرى التي مروا بها الى اهدائهم الكثير من الذهب والفضة وتزويدهم بالماشية والأغنام ، كما قدمت اليهم جميع أنواع المئونة منعا لأيديهم من أن تمتد بالسوء الى تلك المناطق ، وأخذت قوة الجيش تزداد يوما بعد يوم ، وتتحسن أموره بسبب توفر كل مايلزم العسكر ، كما تمكنوا شيئا فشيئا من الحصول على أعداد كبيرة من الخيل التى كان نقصها يعود بالضرر العظيم عليهم ، فكان حصولهم عليها بالشراء تارة والهدية تارة أخرى ، أما الآن فقد صار تحت أيديهم ـ وقبل التقائهم بالزعماء الآخرين ـ أكثر من ألف جواد صالحة لخدمة الجيش ، لم تكن عندهم من قبل ٠

وبعد سيرهم بضعة أيام فى الطريق الداخلى اتفقوا جميعا على العودة الى الطريق الساحلى ، لأنه ييسر عليهم التأكد من وضع الزعماء الآخرين الذين كانوا قد خلفوهم وراءهم فى أرض أنطاكية ، كما أنه يساعدهم على شراء ما قد يحتاجونه مما تحمله الســـفن القادمة من أنطاكية واللاذقية ٠

ـ ١٣ ـ

جرت أمور الصليبيين طوال سفرهم ـ منذ مغادرتهم المعرة ـ على أحسن وجه ، ولم يضايقهم سوى أوشاب الناس الذين دأبوا

على الاغارة على مؤخرة الحملة ، وعلى القيام بين آن وآخر بسرقة المرضى والشيوخ الذين لم تسعفهم قوتهم بمجاراة الجيش فى سرعة زحفه ، فهلك بعضهم ، ووقع البعض الآخر منهم فى الأسر ، ولكن رد الكونت على هذه الهجمات كان عنيفا ، اذ أمر الجيش بالزحف بقيادة كل من تانكريد وروبرت دوق نرماندى وأسقف البارة ، أما هو فقد تخلف وراءهم مع رهط من رجاله الشجعان يتربصــــون للصوص فى كمين نصبه لهم ، وعزم على أن يتحين اللحظة الملائمة ليهاجم هؤلاء الأوغاد الذين كانوا يتعقبون مؤخرة العسكر الزاحف ، ويقطعون الطريق على كل ضال وشريد منه ، لذلك فانه ماكاد هؤلاء الأشرار يهاجمون المؤخرة على مألوف عادتهم حتى برز لهم الكونت فجأة من مخبئه ومن حيث لا يدرون ، وهاجمهم مستأصلا شأفتهم ، ثم عاد الى جنده فرحا مسرورا ومعه ما استولى عليه من الخيول ، وما أصابه من الغنائم وطائفة من الأسرى استصحبهم معه ، واذ ذاك تابع الصليبيون سيرهم آمنين غير ملاقين نصبا ، بعد أن أصبح فى حوزتهم الكثير من كل احتياجاتهم الضرورية ٠

ولم توجد مدينة أو بلدة على يمين أو يسار هذا الاقليم الذى سار فيه الصليبيون الا وبعثت بهداياها الى الجيش وقواده مصحوبة بالتماساتها فى عقد معاهدات صداقة معه ، ولم يشذ عن هذه كلها سوى مدينة واحدة قد أخذت العزة أهلها بالثقة فى عددهم الكبير وحصانة الدفاع عن بلدهم ، فأنكروا عقد سوق للبيع والشراء ، ولم يسعوا فى عقد اتفاقية ، واستكبروا أن يبعثوا للقواد بالهدايا ، بل ساروا على النقيض من ذلك كله اذ جمعوا كل عسكرهم وحاولوا عرقلة مسير الحملة ، فلما رآى الصليبيون ذلك منهم اشتد سخطهم عليهم ، وكروا عليهم كرة رجل واحد ، وما لبثوا غير قليل حتى فرقوا صفوفهم وأسروا جماعة منهم ، واستولوا على المكان عنوة ،

وساقوا أمامهم ما وجدوه من قطعان الدواب والأغنام والخيول التى كانت فى المراعى المجاورة ، وغنموا كل ما العدو من متاع ٠

كان مع الجيش فى هذه الأثناء رسل من بعض الحكام المجاورين الذين جاءوا ينشدون السلام فشاهدوا بأنفسهم قوتنا واقدامنا ، فعادوا الى بلادهم وهم يرجون السلامة لسادتهم الذين أوفدوهم ، وقصوا عليهم ما رأوا من عادات الصليبيين وبسالتهم ، ثم مالبثوا أن رجعوا على جناح السرعة الى الجيش الصليبى محملين بالهدايا من الجياد وشتى أنواع السلع ٠

وانقضت عدة أيام أمضاها الجيش آمنا فى عبور هذه المنطقة الوسطى ، ثم نزل بعدها سهلا قريبا من البحر ، قد حصنته الطبيعة احسن تحصين ، وبه مدينة قديمة العهد اسمها « عرقة » ، فضرب الصليبيون معسكرهم قربها غير بعيدين عن أسوارها ٠

ـ ١٤ ـ

وعرقة هذه هى احدى مدن ولاية فينيقية ، وتقع على مرتفع شديد المناعة عند سفح جبل لبنان ، وتبعد عن البحر مسافة أربعة أو خمسة أميال ، ويمتاز السهل الفسيح الذى توجد فيه بخصبه وكثرة خيراته ، ومراعيه الفسيحة الرائعة ، كما تكثر به القنوات المائية ، وتقول الروايات القديمة ان اسمها مشتق من اسم مؤسسها « اراديوس » سابع ابناء كنعان ثم تحرف هذا الاسم فى وقت متأخر الى Archis أرخيس ٠

نصب الصليبيون ـ كما قلنا ـ معسكرهم أمام هذه المدينة ، ولم يكن ذلك منهم اعتباطا ولكن نزولا على نصيحة تضمنتها الرسائل

التى بلغتهم من بعض قومنا الذين كانوا فى أسر العدو ، فقد كان هناك رهط من الصـــليبيين عوقوا رغم أنفهم فى مدينة طرابلس الساحلية الرائعة التى تبعد مسافة خمسة أو ستة أميال عن عرقة ، ذلك أن قلة الميرة عند الصليبيين منذ بداية حصار مدينة أنطاكية حتى زمن متأخر بعد فتحها فرضت على هذا النفر (من الصليبيين) الضرب فى أرباض تلك النواحى التماسا للطعام، ولما كانوا لايأخذون حذرهم فى خروجهم فقد كان من الطبيعى أن يكونوا عرضة للوقوع فى يد العدو ، وترتب على ذلك أنه مامن مدينة أو قلعة فى تلك الناحية الا وكان بها من رجالنا نفر من الأسرى الذين كان منهم فى مدينة طرابلس ـ التى ذكرناها حالا ـ أكثر من مائتى أسير ، فلما سمعوا أن جيش الصليبيين آخذ فى الاقتراب بعثوا الى القادة يحذرونهم ان تفوتهم عرقة ، بل يتحتم عليهم حصارها بكل السبل ، اذ من اليسير عليهم الاســـتيلاء عليها فى أيام قلائل ، والا ففى مقدورهم أن يستخلصوا من والى طرابلس مبلغا كبيرا من المال ثمنا لمجاوزتهم مدينة عرقة دون أخذهم اياها ، كما أنهم يستطيعون حين وضعهم شروطهم أن يخلصوا من بها من اخوانهم المعتقلين ، ونفذ الصليبيون هذه الوصية فزحفوا فى الحال على مدينة عرقة ، وضربوا مخيماتهم حولها ، وشـــرعوا فى حصـــارها ، واضعين نصـــب أعينهم أمرين : أولهما معرفة مدى صحة الخبر الذى جاءهم ، وثانيهما أن يشغلوا أنفسهم بشى ما أثناء انتظارهم بقية الزعماء الذين كان من المتوقع حضورهم سريعا فى أعقابهم ٠

ـ ١٥ ـ

غادر المعســـكر مائة فارس وطائفتان من المشــــاة تقدران بمائتى رجل بقيادة « ريموند بيليه » سعيا وراء حاجات المعيشـــة الضرورية وبحثا عن العلف ، فلجوا فى السير وأبعدوا حتى بلغوا

مدينة « انطرسوس »(١٠) المعروفة عادة باسم طرسوس والتى تبعد عن عرقة مسافة عشرين ميلا •

وتقع « انطرسوس » أو Tortosa« طرسوس » على ساحل البحر ، ويوجد على بعد ميلين تقريبا منها جزيرة صغيرة كانت بها فى الأزمنة الموغلة فى القدم مدينة « أرواد »(١١) القديمة التى ذاعت شهرتها على مدى عدة عصور ، ويشير حزقيال(١٢) النبى الى هذا المكان حين يكتب الى أمير صور فيقول : أهل صيدون وأرواد كانوا ملاحيك » ويقول فى موضع آخر(١٣) : « بنو أرواد مع جيشك على الأسوار من حولك ، والأبطال كانوا فى بروجك » •

وقد استمد المكان الذى هو موضوع كلامنا الآن اسمه من المدينة القديمة التى كانت تدعى « انترادوس » لأنها كانت واقعة مقابل

---

(١٠) وردت هذه المدينة فى الترجمة الانجليزية باسم Antarados ثم وضع المترجمان مرادفا آخر لها هو Tortosa وبالرجوع الى فهرست المدن الملحق بكتاب :
Le Strange : Palestine under Moslems, P. 562, Vol. I, P. 602, Col. 2.
نجد أنه وردت المرادفات التالية :
Antaratus, Antradas, Antarsus & Tartus
وقد أشير اليها كلها بكلمتى « انطرسوس » وأنطرطوس •

(١١) جززيرة « أرواد » ـ وتعرف أيضا باسم « رواد » ـ وأراديوس Araddius وقد ورد ذكرها فى سفر حزقيال كما سيورد وليم حالا وهى واقعة (كما يقول الادريسى القرن الثانى عشر) على مقربة من « أنطرسوس » ، انظر Le Strange : Op. Cit., PP. 399 — 400.

(١٢) حزقيال ٢٧ : ٨ •

(١٣) حزقيال ٢٧ ، ١١ •

المدينة الأخرى « أرواد » وكل من المكانين فى ولاية فينيقية ومؤسسهما واحد هو « أراديوس » أصغر أبناء كنعان بن حام بن نوح ٠

***

كانت الفصيلة من جيش الكونت المشار اليه حالا قد تقدمت الى انطرسوس وهاجمتها أعنف هجوم ، فقاومها المواطنون بروح عالية فلم يسعف هذا الهجوم الصليبيين فى الحصول على كثير مما كانوا يؤملون من ورائه ، ذلك لأنهم رأوا - وقد دخل الليل - أن يرجئوا كل عملياتهم الحربية الى صباح الغد حين ينضم اليهم رفاقهم الذين سوف يأتون فى اثرهم فى اليوم التالى ، مؤملين أن تكون هجمتهم التالية يومذاك أقوى مما عليه هجمتهم فى يومهم هذا ، غير أن الخوف تسرب الى قلوب أهل البلد وخافوا ان وصلت الامدادات الى عدوهم تحت جنح الظلام أن يصبحوا هم عاجزين عن المقاومة ، غير قادرين على الصمود ، ومن ثم تسربلوا بالظلام وحملوا نساءهم وأطفالهم وكل ماملكته أيديهم وفروا الى الجبال يلتمسون فيها الأمان ٠

ولما بدت طلائع الفجر الوليد حمل الصليبيون سلاحهم ، وهم لا يدرون شيئا عما جرى من الأحداث تحت جنح الدجى ، وراح كل واحد منهم يصيح بصاحبه منتشيا ، وزحفوا على المدينة لاتمام هجومهم الذى بدأوه بالأمس ، غير أنهم لما قاربوها رأوها خاوية على عروشها فدخلوها وقد زايلتهم الرهبة ، واقتحموها بقلوب شجاعة لا تحس خوفا ، وأسعدهم الحظ اذ عثروا على كميات ضخمة من المئونة والغنائم ، وانقلبوا الى خيامهم فرحين بما أصابته أيديهم ، وقصوا على رفاقهم كل ما جرى لهم أثناء غيابهم عنهم ، ولقد أترع نجاح هذه الحملة قلوب الجيش كله بالفرح الطاغى ٠

وأهل شهر مارس فاقترب اليوم المقسوم لمتابعة رحلة الحج ، واذ ذاك شـــرع من كان قد تخلف فى أنطاكية من الصليبيين فى الضغط الشديد على الزعماء لحملهم على بدء السفر ، وراحوا يلحـــون على « جودفروى » دوق اللورين وروبرت كونت فلاندرز والقائد الآخر(١٤) أن يتهيئوا للخروج وقيادة الناس الذين أمضهم الشوق للوفاء بأيمانهم التى قطعوها على أنفسهم(١٥) ، ولهجت ألسنتهم بالثناء على ما عليه كونت تولوز ودوق نرماندى وتانكريد من اخلاص راســـخ ، وأطنبوا فى مدح ما أبداه هؤلاء القادة من العطف على شعب الرب حين قادوه أياما طويلة قيادة صادقة فى طريق السيد • وقد أثارت هذه الكلمات وأمثالها خامد همة القادة الذين ذكرناهم حالا ، فحـــركتهم للعمل ، فأخذوا فى اعداد متاعهم وكل ما يحتاجه سفرهم هذا ، واستصحبوا معهم جميع الفرســـان والجند المشاة ، وقد فاضت نفوس الجميع بالرغبة العارمة فى الســـير فى الطـــريق المؤدى الى بيت المقـــدس ، فلمـــا كان اليوم الأول من مارس ، تجمع فى اللاذقية بالشام خمسة وعشرون ألف محارب فى أحسن عدتهم الحربية تحت قيادة الزعماء المذكورة أسماؤهم من قبل ، ورافقهم بوهيموند وجيشه حتى اللاذقية ، ولم يستطع مزاملتهم الى ما بعدها ، أو اطالة مكثه فى ذلك الموضع حتى لا يترك أنطاكية ـ التى استحوذ عليها منذ قريب ـ من غير راع قوى ، اذ ما كان لها أن تظل ولو لفترة وجيزة بلا حام لها ، يدفع

---

(١٤) المقصود بكلمة « الآخر » هنا الكونت ريموند الصنجيلى ، كما سيرد بعد قليل •

(١٥) يقصد بذلك ما كانوا قد تعاهدوا عليه من الخروج والزحف الى بيت المقدس والوصول الى كنيسة القيامة •

عنها غائلة الأعداء(١٦) المحيطين بها من كل جانب ، لكن تذكره محالفته الزعماء الآخرين وروابط الصداقة التى قامت بينه وبينهم وهم جميعـــا فى طريق السيد دعاه الى مرافقتهم حتى اللاذقية ، مخلصا لهم كل الاخلاص ، ومبديا تجاههم كل ضـــروب المجاملة والرقة ، مما عمق ذكراه على الدوام فى نفوسهم حتى بعد افتراقهم بعضهم عن بعض ، فلما بلغوا جميعا اللاذقية فارقهم ، وودع الزعماء بكبد تتفطر أسى وعيون دامعة ، ثم استأذنهم فى الرحيل وعاد ليولى المدينة صادق عنايته ·

* * *

واللاذقية من أجمل المدن الساحلية المطلة على البحر ، وهى ذات تاريخ موغل فى القدم ، وسكانها من النصارى ، كما أنها المدينة الوحيدة بالشام الخاضعة لسيادة الامبراطور الاغريقى ، وقد جاءها واحد اسمه « جينمار » من أهل بولونيا ، وكان قد أرسى كما ذكرنا من قبل(١٧) بأسطوله فى مدينة طرسوس من أعمال قيليقية وقت أن كان بلدوين ــ أخو الدوق جودفروى ــ يحتل هذه المدينة ·

وقد فشـــل جينمار « فى محاولته الاستيلاء على اللاذقية وادخالها فى طاعته لعدم توفر القوات الكافية تحت يده اذ ذاك ، فأمسك به أهل البلد وزجوا به فى الحبس مع جميع من معه تقريبا ·

---

(١٦) اذ كانوا يعدون انطاكية هذه اللحظة تابعة لهم ، وكانوا يتوقعون أن يردها الصليبيون اليهم بعد فتحهم اياها تنفيذا للاتفاق المبرم بين الطرفين، انظر ترجمتنا لكتاب الكسباد للاميرة « أنا كومنينا » ، وراجع أيضا Chalandon, Alexius Comménes I.

(١٧) راجع ص ٢٤٤ من الجزء الأول من ترجمتنا هذه ·

فالتمس الدوق جودفروى من الحاكم ووجوه رجاله أن يطلقوا سراح «جينمار»، وكان الدافع له الى ذلك أن جينمار هذا كان قادما (١٨) من أرض جودفروى ، هذا بالاضافة الى ما أداه من خدمة جليلة لأخيه بلدوين فى طرسوس ، فاستجاب أهل اللاذقية للدوق اذ كانوا لا يجرءون على مخالفة كلمة واحدة مما يقول ، وزادوا فمنوا على أسيرهم جينمار بفك سراحه هو وجميع رفاقه ، كما أسلموا الى الدوق الأسطول الذى جاء فيه هؤلاء الناس ، فبادر جودفروى باعادة جينمار فى لحظته هذه الى قيادة سفنه ، وأشار عليه أن يتابع رحلته بحرا فى خط يوازى تقدمه هو ذاته برا ، فأطاعه جينمار فيما أشار به عليه .

ـ ١٧ ـ

خرج الجيش بعدئذ من لاذقية الشام وقد اشتد بأسه بالمسيحيين من أهل تلك المدينة ، كما جاء غيرهم من أنطاكية وقيليقية ومدن تلك الناحية ممن لم يكونوا قادرين من قبل على المغامرة لأمور كانت تشغلهم ، فانضموا هم أيضا الى الجيش وساروا برا مصاقبين للساحل حتى بلغوا مدينة « جبلة » المعروفة أيضا باسم « جبلين » والواقعة على بعد اثنى عشر ميلا من اللاذقية ، فعسكروا متحلقين حول المدينة وشرعوا فى عمليات الحصار فترة من الوقت .

وان كانت هذه هى أولى المدن الساحلية الخاضعة لنفوذ خليفة مصر ، فقد جاء واليها بصحبة نائبه الى الدوق يعرض عليه ستة آلاف قطعة من الذهب ، الى جانب العديد من الهدايا ان رفع الحصار عن المدينة ، لكنه لما رأى ازدراء جودفروى لعرضه الخسيس

(١٨) انظر الحاشية السابقة ، ص ٢٤٤ ، س ٤ من الجزء الأول .

وأنه ليس بالرجل الذى يقبل الرشوة فقد سلك طريقا آخر ، اذ أرسل مبعوثين من قبله الى كونت تولوز لما يعرفه فيه من الطمع ، وعرض عليه نفس القدر من المال ان هو انتزع المدينة من يد الدوق ، ويقال ان الكونت قبل هذه الرشوة سرا ، لكنه ادعى أن جيشا كثيفا من عسكر العدو بقيادة كربوغا موشك على المجىء من أرض فارس ، انتقاما للأهوال التى حاقت ببنى جلدتهم الموجودين فى أنطاكية ، كما ادعى أنهم يتأهبون لمعاودة قتال قواتنا من جديد ، وعلى مجال أكبر من حربهم السابقة ، وزعم (ريموند كونت تولوز) أنه تلقى هذه المعلومات المفصلة والموثوق بها من رسل لايمكن الشك فى صدق ما يقولون ٠

ثم بعث بأسقف « البارة » الموقر على رأس سفارة الى الدوق والى كونت فلاندرز ، وأرسل معه كتبا تلح عليهما الحاحا قويا برفع الحصار عن « جبلة » والاسراع لدرء الخطر المشترك بدافع مابينهم من الحب الأخوى ، فما كاد القادة يعلمون من ظـــاهر الأمر أن اخوانهم مهددون بمثل هذا الخطر حتى بادروا بحسن نية الى فك الحصار والزحف فى الحال ، وأسرعوا فى سيرهم فاجتازوا بفالينيا احدى المدن البحرية الواقعة تحت حصن المرقب ، ثم ساروا فى « مراقية » وهى أول مدينة فينيقية يصادفها القادم من الشمال ، ثم وصلوا بعد ذلك الى انطرطوس المسماة أيضا طرطوس فى الاقليم المذكور أعلاه ، والواقعة هى الأخرى أيضا على ساحل البحر ٠ فأبصروا المكان مقفرا من أهله ، ثم أعجبتهم جزيرة مجاورة فى مواجهة المدينة من الناحية الغربية ،وقد رست بعض سفننا فى احدى المرافىء الملائمة ، واستفاد الصليبيون اذ سلكوا أقصر الطرق من طرطوس حتى أصبحوا بعد أيام قلائل بكامل جيشهم أمام أسوار « عرقة » فهب تانكريد لاستقبالهم ، وشرح للزعماء كل تفاصـــيل

خيانة الكونت ، فلما فرغوا من الانصات الى ما قاله تانكريد نصبوا معسكرهم على حدة ، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء من معسكر القوات التى سبقتهم •

سرعان ما تبين للكونت تغير قلوب الزعماء الآخرين عليه ، فراح يصلهم بالهدايا ويبذل الجهود الكبيرة لاسترضائهم ، ومالبث أن استمالهم اليه بهداياه التى أصلحت ذات البين بينه وبينهم ، ولم يشذ عنهم فى ذلك سوى تانكريد الذى لم يكف عن رمى الكونت بكل تهمة نكراء •

على أن جميع القوات أصبحت الآن حول عرقة متحدة كجسم واحد •

※ ※ ※

كان الكونت (ريموند) قد أعد كل عسكره أمام هذه المدينة قبل وصول الدوق ببضعة أيام ، فلم تأت جهوده هذه كلها ثمرتها المرجوة بل ضاعت هباء ، غير أن مجىء القادة الآخرين فتح له باب الأمل فى الاستيلاء على المدينة فىيسر وسهولة ، وفى الوصول الى الغاية المنشودة من جراء هذا الحصار المرهق ، بيد أن الخاتمة جاءت على غير ما كان يطمع فيه ، ذلك لأن الرب كان قد أمسك رحمته عن خطة الصليبيين قبل وصول هذه القوات وبعد وصولها ، فلطالما أغاروا على المدينة لكن بلا جدوى ، فتفننوا فى ابتداع وسائل يضايقون بها المحصورين كنقبهم السور ، لكن ما كان أكثر العقبات التى اعترضت طريقهم فأذهبت مساعيهم أدراج الرياح ، واتضح لهم أن العناية الالهية تخلت عنهم فى حصارهم هذا لعرقة ، وادركوا أن

من هلك من رجالهم انما هلك من غير طائل ، وان السراة الأمجاد الذين ضحوا بحياتهم انما ضحوا بها من غير فائدة ٠

وشاء الحظ العاثر أن يلقى نفس هذا المصير اثنان من ذوى الشرف الصاعد فيهم ، فأما أحدهما فهو « انسلم دى بيمونت » وكان أخ غمرات لا يهدأ عن خوض غمار الحرب فاستحق خلود الذكر ، وأما الآخر فهو «بونس دى بلازون »الرفيع القدر وأحد أصدقاء كونت تولوز العالى المنزلة ، وقد لقى هذان مصرعهما من قذيفة حجر أصابتهما ،وزيادة على ذلك فقد عوق الناس فى عرقة رغم أنوفهم ، لأن رغبتهم الوحيدة كانت تتمثل فى اتمامهم الحج الذى نهضوا من أجله ، ولم يعد يعنيهم أمر حصار البلد ، ولايهمهم ماذا تكون نتيجته، لاسيما بعد وصول الدوق ، حتى ان أتباع الكونت وأصدقاءه الخلص ممن جاءوا فى معيته قد أقاموا هناك على كره منهم ورغم ما تمليهم ضمائرهم ، ولم تكن اقامتهم هذه الا طاعة لمشيئة الكونت القوية ، حتى انتهى الأمر بهم أخيرا الى أن دبروا خطة انسحابهم ، مؤملين من وراء ذلك أن يشاطرهم الكونت ضجرهم فينهج نهج القادة الآخرين ويقتفى أثرهم فى زحفهم فى طريق السيد ٠

— ١٨ —

فى هذه الأثناء أثير من جديد موضوع الحربة التى عثروا عليها فى أنطاكية ، وتساءلوا : أحقا هى الحربة التى فجرت الدم والماء من جنب المسيح ؟ أم أن الأمر كله مجرد خدعة ؟ وتشكك الناس فى الخبر ، بل وتبلبلت خواطر القادة فأكد البعض أنها كانت نفس الأداة التى اخترقت جنبه ، وهو مرفوع على الصليب ، وما كان كشفها الا لأن العناية الالهية قد أرادت أن تشد عزائم الناس ،

وقال آخرون بل هى برهان صريح على خبث الكونت وانها حيلة احتال بها لخدمة مآربه ٠

كما قالوا ان المؤلف الحقيقى لهذه القضية التى صارت مثار جدل انما هو رجل اسمه « ارنولف » وكان صديقا واشبينا لكونت نرماندى ، وكان يحيا حياة فاسقة شهوانية ، ويجد اللذة فى اثارة النزاع بين الناس على الرغم من انه كان رجلا عالما ، وسيرد الكثير عنه فى الفصول التالية ٠

ولقد ظلت هذه المسألة موضع جدل طويل بين الحجاج حتى انتهى الأمر أخيراً بقيام بطرس (بارتلميو) الذى زعم أنه قد أوحى اليه بخبر الحربة ، وسأل القوم أن يوقدوا ناراً كبيرة ، وقال لهم انه بعون الرب سيبدد شكوك المتشككين عن طريق التحكيم الفعلى للنار ، وأن ليس فى الأمر شىء من الاحتيال ، وسيؤكد لهم — رغم ظنونهم — أن الوحى الالهى هو الذى كشف عن هذه الحربة : عزاء للناس وسلوى لهم ٠

ومن ثم أوقدت نار عظيمة أثارت حـرارتها خوف الواقفين حولها ، وكان ذلك يوم الجمعة السابق لعيد القيامة المجيد ، وفى هذا اليوم الذى نقرأ عنه أن مخلصنا تعذب فيه من أجل خلاصنا اجتمع الناس قاطبة : عامتهم وخاصتهم ، صـــغيرهم وكبيرهم ، ليشهدوا التجربة الحية بشأن هذا الموضوع الهام ، فتطوع لدخول هذه التجربة الشديدة الخطورة الرجل المدعو «بطرس بارتلميو » ، وكان خوريا قليل الحظ من التعليم ، قد أجمع الناس على سذاجته واخلاصه ، فتوجه بالخطاب أول ما توجه الى الجنود الذين تجمعوا حوله ، وتقدم حاملا فى يده حربة المسيح ، واقتحم النار فاجتازها ولم يبد للناظرين أن قد مسه ضرر ولا حاق به أذى ٠

غير أن عمله هذا لم يفشل فحسب فى ازالة الشك من عقول الناس ، بل انه أثار مشكلة أكثر خطورة ، اذ مالبث بطرس هذا أن مات بعد أيام قلائل ، مما حدا بالبعض لأن يعلن أن تجربة النار هذه أدت الى هلاكه قبل أن يحين أجله ، وأنه كان سبب دمار نفسه لمعاونته على التدليس ، ودلل هذا البعض على صدق ما يقولون بأن مظاهر الصحة والقوة كانت بادية عليه قبل دخوله هذه التجربة .

وادعى آخرون أنه خرج من النار سالما معافى ، ولكن حدث ان تحمس الناس فاندفعوا اندفاعا قويا نحـــوه وتكاثروا عليه ، فأصابه منهم أذى أفضى الى موته .

وهكذا فان الموضوع الذى شب حوله الجدل لم يحسم فيه برأى قاطع ، بل بقى على النقيض أكثر من ذى قبل .

- ١٩ -

فى غضون هذا الوقت عاد الى زعمائنا المبعوثون الذين كانوا قد أوفدوهم استجابة لرجاء الرسل المصريين الذين بعثهم - كما ذكرت من قبل - خليفة مصر أثناء حصار أنطاكية ، ولقد ظل رسلنا هؤلاء فى ذلك القطر مدة عام قسرا وحيلة ، فلما عادوا عادوا ومعهم رسل من أمير المصريين مزودين برسائل يختلف فحواها هذه السنة اختلافا بينا عن فحوى ما تضمنته الرسالة السابقة ، ففى خلال فترة هذا العام بذلوا أشد الجهد وأصدقه لاكتساب ود قادتنا ، راجين وقوفهم الى جانبهم ضد غطرسة الترك وعنجهية الفرس المتناهية ، أما الآن فقد تغير ذلك كله تمام التغيير ، وراحوا يلوحـــون بأنهم يسبغون فضلا كبيرا على الصـــليبيين حين يأذنون للحجاج غير

المسلحين بالذهاب الى بيت المقدس فى زمر تتألف كل واحدة منها من مائتين أو ثلاثمائة حاج ، ثم يعودون سالمين بعد اتمام حجهم ٠

غير أن قادة القوات الصليبية عدوا هذه الرسالة اهانة لهم ، وأرغموا المبعوثين (المصـــريين) على العودة حاملين الرد بأن الجيش لن يرضى بالذهاب الى هناك فى فئات قليلة حســـب هذه الشروط التى اقترحتها مصر ، بل انهم على العكس سوف يدخلون القدس كجيش موحد ويهددون مملكة مولاهم ٠

كان السبب الذى أدى الى تغير موقف المصريين قد نشأ مما جد بعد انتصارنا فى أنطاكية ، اذ كان الترك حينذاك يمرون بظروف حرجة ، مظهرها تزعزع قواهم الحربية فى كافة أرجاء الشرق ، وتدهور سمعتهم الى الحضيض بعد أن كانت قد بلغت الذرى ، فما حاربوا أمة من أمم الأرض الا ودارت عليهم الدائرة ، مما ترتب عليه تصاعد قوة ملك مصر شيئا فشيئا وعلو نجمه على نجم الترك ، ثم مالبثت جهود أمير معين لهم هو (الأفضل) القائد العام للجيش المصرى أن أدت الى سلب مدينة بيت المقدس من أيدى الترك بعد أن كانوا قد انتزعوها من المصريين قبل ذلك بثلاثين سنة ٠

حينذاك رأى المصريون تدهور قوة خصومهم الترك بعد أن كان الرعب يداخلهم منها ، باعتبارها تفوق قوتهم ، ويرجع السبب فى هذا التدهور الى ما قام به الصليبيون من عمل أدى الى سقوط بأس الترك الى الحضيض ، ومن ثم كان هذا سببا فى ازدراء المصريين للمساعدة تأتيهم من جانب قومنا ، بعد أن كانوا حريصـــين كل كل الحرص عليها ، جادين كل الجد فى طلبها ٠

كذلك قدم رسل من قبل امبراطور القسطنطينية يشكون مر الشكوى من مسلك بوهيموند، ويعلنون أنه خالف شروط الاتفاق الذى كان قد أبرمه مع الامبراطور ، حين أعلن عزمه على الاحتفاظ بأنطاكية ملكا خالصا له ، وبذلك يكون قد حنث بيمين الولاء الذى قطعه على نفسه ، ووقف هؤلاء الرسل وسط الزعماء معلنين أن جميع من مروا عبر القسطنطينية قد أدوا يمين التبعية لمولاهم ، وأنهم قد أقسموا وأيديهم على الكتب المقدسة ألا يستبقوا لأنفسهم قلعة أو مدينة كانت تابعة من قبل للامبراطورية ، حتى ولا القدس ذاتها ، وكذلك جميع الأماكن التى يستولون عليها الا ردوها فى الحال الى الامبراطور يدير بنفسه شئونها ، ثم سكت المبعوثون (الاغريق) عن غير هذا من شروط الاتفاق .

ومن الجلى الواضح أنه كان قد تم مثل هذا الاتفاق بين الامبراطور والقادة فى القسطنطينية ، على أنه فى ختام هذا الاتفاق أضيف شرط ينص على أن الكسيوس سوف يلحق بهم من غير توان بكل بطانته ، وبقوة كبيرة من عسكره ، وانه ممدهم ومعينهم بما يكونون فى حاجة اليه ، لذلك رد القادة باجماع الآراء على مطلب السفراء بأن الامبراطور هو أول من شجب الشروط التى اتفق عليها ، وعلى ذلك فالواجب الذى ليس غيره من واجب هو أن يتحمل خسارة ما كان يحق له حسب شروط الاتفاق ، اذ لا عدل فى الوفاء بعهد مع شخص سلك مسلكا مناقضا للعهد الذى نص فيه على أن يلتزم الامبراطور بجمع جيوشه والسير فى اثر القادة حالا فى زحفهم ، وان يهيىء فرصة دائمة للحجاج للمتاجرة مع السفن القادمة بحرا ، وأن يعمل على تقديم وفرة من السلع للبيع لهم جميعا طوال سيرهم ،

ولكنه تجاهل عن عمد هذه الشروط ولم يف بها رغم أن الوفاء بها كان يسيرا عليه . ومن ثم فانهم يحبون أن يقرروا له أن الاجراء الذى اتخذوه بشأن أنطاكية يجب أن يعتبر قرارا نهائيا لا رجعة فيه ولا نكوص عنه ، لأنهم لم يفعلوا الا ما تجيزه لهم حقوقهم ، يضاف الى ذلك أن تنازلهم عن أنطاكية بمحض ارادتهم لمن ارتضوه أميرا لها يجعله حريا بتملكها وتوارثه اياها للأبد .

* * *

ولقد بذل رسل الامبراطور جهودا شاقة رجاء حمل الجيش على انتظار حضور مولاهم الذى سيكون يوم أول يوليو ، وأضافوا الى ذلك قولهم انه سوف يصبل كل الزعماء بالهدايا الجمة، وسيصرف أجورا مجزية للعسكر تمكنهم بلا شك من أن يعيشوا عيشة شريفة ، لذلك عقد الزعماء مؤتمرا لبحث هذا الموضوع ، لكنهم اختلفوا حوله اختلافا جديا فيما بين بعضهم والبعض الآخر ، فكان من رأى كونت تولوز أن مصالحهم يقتضيهم انتظار قدوم الأمير الكبير (الكسيوس كومنين) ، وراح الكونت يعضد هذه الفكرة ، وربما كان صادرا فى ذلك عن ايمان بها ، أو ربما كان بهذا الادعاء يحاول تعطيل القادة والجند حتى يفرغ من غزو المدينة التى كان لايزال يحاصرها ، اذ كان يدرك مدى العار الذى يلحقه والشنار الذى يمسه ان لم ينجح فى مشروعه ، أو عجز عن الاستمرار فى تنفيذه .

وكان هناك آخرون يرون رأيا يخالف هذا الرأى كل المخالفة ويعتقدون أنه من الأصوب ألا يتأخر الحجاج عن مسيرة حجهم التى بدأوها ، فتمامها يؤدى فى النهاية الى خاتمة موفقة للمشروع الذى تحملوا المشاق الجمة من أجله ، وكان قرار هذا الفريق الثانى قائما على تجنب حيل الامبراطور الماكرة وكلماته المعسولة التى جربوها

طويلا ، وأن قرارهم هذا أجدى عليهم من أن يلقوا بأنفسهم من جديد فى متاهات مراوغاته الماكرة التى قد يجدون من الصعب تخليص أنفسهم من حبائلها ان هم سقطوا فيها ٠

ولقد نجم نزاع بين القادة حول هذا الموضوع ، اذ كانت رغباتهم متباينة يستحيل التوفيق بينها ٠

وكان والى طرابلس قد عرض من قبل قدرا كبيرا من المال على الصليبيين ، عساهم يرفعون الحصار عن بلده ، وينزحون بقواتهم ،أما الآن ـ وقد علم بالخلاف الناشب بين قادة الجيش ـ فانه لم يكتف بالتراجع عن مدهم بالمال الذى كان قد تعهد لهم به ، بل زاد فسارع لأن يكون البادىء بمحاولة مواجهة الصليبيين وتجربة حظه فى محاربته اياهم ٠

لكن ترتب على ذلك أن أجمعوا بلا استثناء على النهوض لقتاله ، فخرجوا وقد خلفوا وراءهم لحماية المعسكر (فى عرقة) أسقف « البارة » ومعه بعض من الزعماء المتمرسين بفنون الحصار ٠ أما بقيتهم فقد صفوهم للمعركة وزحفوا بهم شطر طرابلس ، فوجدوا واليها فى انتظارهم هو وأهلها ، فأخذت الحماسة الفرسان والمشاة اذ أخذوا أماكنهم أمام المدينة متأهبين لقتالها ، أما كونت تولوز فقد ظل أكثر من شهرين متتاليين يحاول عبثا الاستيلاء على عرقة فلم تجده محاولته هذه نفعا ، بل راح الطرابلسيون ينظرون الى الصليبيين نظرة ازدراء ، وأخذ خوفهم منهم يتناقص شيئا فشيئا ، وتلاشى ما كانوا يظنونه من شجاعة هؤلاء القوم ، لاسيما وقد قامت البينة على انحرافهم عن العزم القوى الذى كانوا يظهرونه ٠

* * *

ولما بلغ الصليبيون طرابلس وأبصروا قوات العدو وقد أعدت صفوفها لقتالهم بادروهم فى الحال بكرة غاضبة ، أدت منذ اللحظة الأولى الى بث الفوضى فى عسكرهم وحملوه على الفرار ، كما أن اصـــرار الصليبيين القوى أرغم الأهالى على الهروب الى المدينة يرتجون الاستخفاء بها ، ولكن الصليبيين لم يكفوا عن مطاردتهم حتى قتلوا منهم سبعمائة شخص ، ولم يفقد من عسكرنا غير ثلاثة رجال أو أربعة ، وهنا كان الاحتفاء بعيد الفصح يوم ١٠ ابريل ٠

ـ ٢١ ـ

ثم عادوا الى معسكرهم بعد أن واتاهم النصر ، واذ ذاك بادر الناس قاطبة لرفع صوتهم عاليا مطالبين بوجوب تخلى القادة عن هذا الحصار المدمر ، وبضرورة البدء بالســـير الى بيت المقدس ، فالكل مشوق للزحف ، وقد أتى هذا الاصرار العنيد أكله المرجوة حين قرر الدوق وكونت فلاندرز وكونت نرماندى وتانكريد تقويض المعسكر وحرقه ارضاء للجماهير ورفع الحصار عن عرقة ، غير أن كونت تولوز رفض رفضا باتا التخلى عن خطته ، وراح يبذل غاية جهده فى مقاومة ما قرره الزعماء ، بيد أنهم ضربوا بمعارضته عرض الحائط ، ومضى الزحف فى طريقه شطر طرابلس لتعاود مسيرة الحج ما انقطع منها ، وكان من أكبر المتحمسين لتنفيذ هذا القرار رهط كانوا منذ البداية فى معسكر ريموند (كونت تولوز) لكنهم انفصلوا عن صاحبهم وساروا متحمسين وراء القادة الذين ذكرناهم حالا ٠

ولما تكشف للكونت ما فعله أصحابه ، وأدرك فشل كل ما يبذله لهم من وعود لصرفهم عن المسير ولارجاعهم اليه لم يجد بدا من الخضوع للضرورة، وما يفرضه الواقع ، فتتبع الآخرين ولكن على

كره منه ، وسار وساروا حتى اذا صاروا على بعد خمسة أميال تقريبا من مدينة طرابلس نصبوا خيامهم أمامها ، فتخلى حاكم المنطقة الموكول اليه النظر فى شئون الخليفة بها عن مسلكه المتعجرف الذى اظهره قبل ذلك الوقت بقليل ، حين حاول أن يتعامل مع قوادنا معاملة الند للند ، فأرسل سفارة لاجراء مفاوضات الصلح وعرض خمس عشرة ألف قطعة ذهبية الى جانب هداياه من الجياد والبغال والحرير والأوانى الغالية الثمن ، كما وعد برد جميع الأسرى الصليبيين الذين كانوا رهن قبضته ، فرضى الزعماء أن يغادروا ولايته على هذه الشروط • ثم زادوا على ذلك بأن وافقوا على التخلى له فى أثناء مسيرهم عن المدن الثلاث التابعة له، وهى عرقة وطرابلس وجبيل بملحقاتها ، ثم زاد الوالى على هداياه التى ذكرناها فأرسل من لدنه الى الصليبيين قطعانا من الماشية والأغنام وكميات وفيرة من الزاد حتى لا يحملهم نقص الطعام على العيث فسادا فى المزارع التى يمرون بها ، وانزال الأذى بالفلاحين القائمين بزراعة الأرض هناك •

* * *

وكان هناك طائفة معينة من نصارى الشام تعيش على قمم جبال لبنان الشاهقة والتى تطل ذراها العالية على المدن الواقعة الى الشرق كما ذكرت حالا ، وجاء هؤلاء النصارى (المعروفون بالمارونيين) مهنئين الحجاج ومبدين لهم حبهم الأخوى ، ولما كانوا على دراية تامة بالمنطقة وما حولها فقد استدعاهم القادة مستفسرين منهم – باعتبارهم أهل خبرة بالناحية – عن أسلم الطرق وأيسرها الى بيت المقدس ، فصدقهم هؤلاء السوريون القول ودلوهم على الدروب المختلفة المؤدية الى حيث يقصدون ، وبينوا أطوالها ، ثم زكوا لهم فى النهاية طريق الساحل لأنه أقصر الدروب المباشرة الى وجهتهم ،

ولأن الحجاج - ان سلكوا ما اشاروا به عليهم - أمكنهم الحصول على العون من سفنهم التى سوف تتبع الجيش فى تقدمه .

لم يكن الأسطول الصليبى قاصرا على سفن جينمار ورفاقه التى قدمت من فلاندرز ونورماندى وانجلترا كما قلنا ، ولكن كان هناك أيضا شوان من جنوة والبندقية واليونان ، وان كانت أغلب السفن قادمة من قبرص ورودس وغيرهما من الجزر وهى محملة بشتى صنوف البضائع ذات الفائدة القصوى لكتائبنا .

* * *

وبالاضافة الى من ذكرنا من النصارى الشاميين فقد استعان الحجاج برجال من أهل بيت والى طرابلس يدلونهم على الطريق ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل ، الى جانب من استعانوا بهم من نصارى الشام الذين ذكرناهم ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل جاعلين جبال لبنان على يسارهم ، حتى اذا اجتازوا مدينة « جبيل » عسكروا على شاطىء نهر قرب مكان اسمه « ماوس» فتلبثوا به يوما فى انتظار القادمين وراءهم من أتباعهم الضعاف الخائرى القوى وممن لم تسعفهم صحتهم بمضاهاتهم فى سرعة سيرهم .

- ٢٢ -

فلما كان اليوم الثالث نصبوا معسكرهم أمام مدينة بيروت على شاطىء نهر يمر بها ، فهاداهم واليها بالمال ، وأمدهم بكميات وفيرة من المؤونة ، ليحملهم على كف أيديهم عن التعرض للمحاصيل والأشجار ، فأقاموا هنا ليلتهم هذه مستجمين ، حتى اذا طلع اليوم التالى بلغوا مدينة صيدا حيث نصبوا خيامهم على طول شاطىء

النهر ليتوفر عندهم الماء ، ولم يقدم حاكم هذه المدينة لقوادنا أى ضيافة ولم يبد لهم ودا ، ولست أدرى دافعه الى ذلك الموقف ، الا أن تكون شدة وثوقه بقوته واعتماده الكلى عليها حملاه على مضايقة الجيش ، رغم أنه لم يوفق فى خطته هذه ، ولما ضاقت صدور بعض رجالنا ذرعا بهجمات الأهالى المتكررة عليهم ، ولم يعد فى قوس صبرهم منزع لاحتمالها كروا على الخصم كرة قتلوا فيها نفرا من رجاله ، وحملوا بقيتهم على الارتداد الى داخل المدينة ، وترتب على ذلك أن أمضى العسكر ليلتهم وهم فى هدوء لم يكدر خاطرهم أى مكدر من جانب العدو ، فلما جاء الصباح عزموا على البقاء حيث هم فترة وجيزة من الوقت حتى يسترد الناس بعض قواهم ، كما بعثوا رهطا من رجالهم المسلحين بالأسلحة الخفيفة للحصول على ما يلزمهم من الطعام من الضواحى المجاورة ، فأصابوا غنيمة وفيرة وكثرة من الأغنام والماشية ، وعادوا بذلك كله سالمين لا ينقصهم غير واحد منهم اسمه « والتر دى فيرا » ألح فى البعد عنهم طلبا لمزيد من النهب ، فلم يقدر له الرجوع ولم يوقف له على خبر ، فاستولى الحزن الشديد على رفاقه اذ جهلوا مصيره .

* * *

كان الشطر الأول من طريقهم فى اليوم التالى يمر عبر اقليم جبلى بعض الشىء ، الا أن الزحف انتهى بهم الى أرض أكثر انبساطا ، فمروا وعلى يمينهم مدينة أهل صيدا القديمة المعروفة باسم « ساريتا » التى شب فيها « ايليا »[19] رجل الرب ، ثم عبروا هذا النهر المتعرج حتى بلغوا مدينة صور عاصمة هذه المنطقة الشهيرة

---

(١٩) ملوك أول ١٧ : ٩ ـ ١٠ .

والموطن القديم لكل من اجنور « وكادموس » ، وهنا نصبوا معسكرهم على مقربة من نبع الجنان المعروف ، وهو نبع غزير الماء يعد أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، فأمضوا ليلتهم هناك فى بساتينه الفسيحة التى نفيض بكل ما تشتهيه الأنفس من الطيبات ، ولما طلع الصباح تهيأوا ثانية للمسير بعد تغلبهم على ما صادفوه من صعاب الممر الضيق الواقع بين الجبال الشاهقة الارتفاع وبين البحر ، ثم نزلوا الى السهل القريب من مدينة عكا فنصبوا خيامهم على طول شاطىء نهر مجاور للمدينة التى سارع أهلوها وحاكمها لتقديم الهدايا اليهم ، وعقدوا سوقا على أحسن ما تكون السوق ، وبالغ الوالى فى اظهار صداقته نحو الزعماء وعقد معهم اتفاقا ووعدهم أنه مسلمهم مدينة عكا دون مقاومة ان هم نجحوا فى أخذ بيت المقدس وتمكنوا من الاقامة فى المملكة عشرين يوما بعد ذلك ، أو اذا استطاعوا هزيمة القوات المصرية ٠

ثم غادروا عكا سائرين فى طريق واقع بين جبل الكرمل والبحر، جاعلين الجليل على يسارهم حتى بلغوا قيصرية التى هى ثانية مدن فلسطين العظمى المعروفة قديما ببرج ستراتون ، فعسكروا فيها على نهر ينبع من الأدغال القريبة منها ، وهنا على بعد ميلين فقط من قيصرية احتفلوا يوم ٢٨ مايو (١٠٩٩ م) بعيد الفصح ٠

ثم تابع الحجاج سيرهم الشاق فى اليوم الثالث تاركين على يمينهم مدينتى انتيباتريس ويافا ، وعبروا سهلا فسيحا ، ثم اجتازوا « اللتيريا » حتى بلغوا « اللد » التى هى « ديوسبوليس » فرأوا فيها القبر العظيم للشهيد جورج الذى يسود الاعتقاد أن بقاياه ثاوية هناك برحمة السيد ، وكان الامبراطور التقى جستنيان الخالد الذكر حاكم الرومان الأرثوذكسى قد أمر بدافع اخلاصه القوى بتشييد كنيسة فى هذا الموضع تمجيدا لذكرى هذا القديس ٠

غير أنه قبل قليل من وصول الصليبيين قام العدو ـ وقد توقع قدومهم ـ بهدم هذه الكنيسة وتسويتها بالأرض مخافة أن يحيل الحجاج أعمدتها الخشبية الطويلة المستعملة فى بنائها الى عدد وآلات رمى لدك المدينة ٠

* * *

وعلم قوادنا أنه توجد على مقربة من موضعهم هذا مدينة رائعة تدعى « الرملة » فبعثوا اليها كونت فلاندرز مع خمسمائة فارس ليعرفوا على وجه التأكيد موقف أهلها وما يقترحونه من الشروط ، فاقترب هؤلاء الكشافة من المدينة فلم يخف أحد لمقابلتهم ، فدخلوها من أبوابها المفتوحة على سعتها ، فاذا هى خاوية مهجورة تماما من سكانها الذين لم تكد تجيئهم الأخبار بقرب الصليبيين منهم حتى أمضوا الليلة السابقة فى مغادرتها هم ونساؤهم وأبناؤهم ، وحملوا معهم كل أمتعتهم ، فأصبحت المدينة خاوية على عروشها ، فبادر الكونت (دى فلاندرز) فى لحظته هذه بارسال رسول الى العسكر حاملا اليهم هذا الخبر ، ومشيرا عليهم بالاسراع الى المدينة ما وسعتهم السرعة ، ومن ثم فانه ما كاد الصليبيون يفرغون من صلواتهم المعتادة حتى زحفوا على الرملة وظلوا مقيمين بها ثلاثة أيام ، ينعمون بما فيها من غلال ونبيذ وزيت ٠

ثم جاءوا الى رجل نورماندى المولد من أسقفية « روان » اسمه روبرت ورسموه أسقفا على الكنيسة الموجودة فى ذلك الموضع ، ومنحوه مدينتى اللد والرملة ومايتبعهما من النواحى ، وجعلوهما منحة لا تسترد أبدا ، وبذلك أهدوا مخلصين أولى ثمار جهودهم الى الشهيد جورج العظيم ٠

فى هذه الأثناء ترددت الأخبار محذرة ســكان بيت المقدس باقترابنا منها ، فأدركوا ادراكا صادقا أن ليس لهذا الحشد الكثيف الذى قيل باقترابه منهم من هدف سوى الاستيلاء على مدينتهم ، فلم يدخروا وسعا ، ولا تراخت عزائمهم عن تحصـــينها ، ونافس بعضهم بعضا فى احضار وجمع كل ما استطاعوه مما يلزمهم من الطعام ومن شتى صنوف السلاح والخشب والحديد والصلب ، أو فى كلمة واحدة بكل ذى جدوى لمن هم تحت الحصار ٠

وكان صاحب مصر قد نجح - فى خلال هذه السنة - فى استرداد سيادته على مدينة القدس بعد أن كانت فى أيدى الترك ، وبسط نفوذه عليها ، لذلك ما كاد يعلم بمغادرة جيشنا لأنطاكية حتى أمر القوم أن يعجلوا كل العجلة باصلاح جميع أبراج المدينة المقدسة وترميم ما يحتاج الى ترميم من أسوارها ، ثم عمل على كسب ولاء سكانها له ، فأمر بأن تصرف لهم الأجور السخية من خزانته الخاصة، وأن يسامحوا نهائيا فى ما عليهم من الضرائب والجمارك ، واذ رغب الأهالى فى الاستفادة من مثل هذه الامتيازات والعمل على ما فيه سلامتهم وخيرهم فقد كرسوا أنفسهم لاطاعة الرغبة الخليفية ، فاستدعوا اليهم سكان المدن المجاورة لهم ، واعتنوا بتقوية وسائل الدفاع عن المدينة فحشدوا الكثيرين من الرجال الأقوياء المسلحين أكمل تسليح ٠

واجتمع الكل وهم يد واحدة فى ساحة المسجد الفسيح الأركان ليتدبروا ما يفعلون ازاء ما يتوقعون حدوثه ، وليمنعوا - ان أمكن - تقدمنا ، فقرروا الوثوب على جميع السكان النصارى وهدم كنيسة القيامة من أساسها وكذلك قبر السيد الموجود هناك حتى يكون ذلك

حائلا فى المستقبل دون مجىء هذا السيل العرم من الحجاج الذين يتقاطرون زرافات بعضها فى أثر بعض لزيارة هذه البقاع وللصلاة فيها ، غير أنهم لما أخذوا يتدبرون ما قرروه خافوا أن يزيد هذا العمل من كراهية الصليبيين لهم ، وقد يحركهم هذا على القيام بمحاولات أشد عنفا للقضاء على أهل بيت المقدس ، ومن ثم تغيرت هذه الخطط فعمدوا الى اغتصاب كل ما بيد سكانها النصارى من مال ومتاع ، وفرضوا عليهم دفع غرامة قدرها أربع عشرة ألف قطعة من الذهب تجبى من البطرك صاحب الولاية اذ ذاك فى مدينة القدس، ويشاركه فى سدادها سكانها النصارى وأهل الأديرة الموجودة فى تلك الناحية .

على أن جميع ما كان يملكه النصارى الذين يعيشون فى بيت المقدس لم يكن كافيا لسداد هذا القدر من المال، ، وعلى ذلك فقد أصبح من الضرورى على البطرك الموقر أن يقوم برحلة الى قبرص للحصول على ما يفى بهذا المطلب الفادح .

كذلك احتاج البطرك الى المال لسداد بعض احتياجاته ولسد عوز المؤمنين ، وكان يطمع أن يستجدى من مؤمنى هذه الجزيرة المخلصين صدقاتهم وزكاتهم فيرسلها الى أهل الرب المنهكين الجائعين ممن يسكنون القدس وأطرافها رجاء الابقاء على حياتهم ، لكن يبدو أن كل هذه الابتزازات لم تسد جشع القوم الذين استعملوا التعذيب والقهر فى اغتصاب كل ما بيد المؤمنين ، بل زادوا فنفوهم جميعا من البلد ، ولم يستثنوا من ذلك النفى سوى الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ، ولم يزل هؤلاء المطرودون هائمين على وجوههم فى القرى الصغيرة القريبة من المدينة حتى لحظة قدومنا ، وهم يتوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، دون أن يجرؤوا على دخول

القدس ، كما أنه لم يكن ثم موضع فى هذه الأماكن الخارجية يجدون فيه الأمن أو يمكنهم اللجوء اليه ، فقد كانوا محاطين انى ذهبوا بمضطهديهم ، وكانت كل حركة من جانبهم موضع ريبة سكان القرى الذين كلفوهم بأحط الأعمال وأقساها(٢٠) ٠

كان يعيش بالمدينة الحبيبة الى الرب ابان ذلك الحين رجل تقى نذر حياته لله اسمه « جيرالد » وهو القيم على النزل المذكور آنفا الذى ينزله القادمون الفقراء اذا قدموا القدس لأداء الصلاة ، فيجرى عليهم من الرزق ما يلائم ظروف الزمان والمكان ٠

واعتقد الأعداء ان بحوزة هذا الرجل مالا يخفيه ، وتوجسوا خيفة منه أن يبذله فى الحاق الضرر بهم حين يصل جيشنا ، فلم يتأخروا عن ضربه والزج به فى السجن حيث لاقى فيه أفظع ضروب التعذيب ، حتى تفسخت مفاصل يديه وقدميه ، ولم تعد أطرافه قادرة على الحركة ٠

ـ ٢٤ ـ

أمضى الجيش ثلاثة أيام فى الرملة عين بعدها حراسا لحماية أمنع جزء بالمدينة من هجمات الخصوم ، فلما فرغ من ذلك تأهب لمتابعة زحفه الى غايته المنشودة ، حتى اذا كان فجر اليوم التالى وصل الجنود الى « نيكوبوليس » ، مسترشدين برجال من أهل الخبرة الملمين بالأقاليم احسن الالمام ٠

---

(٢٠) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، الكتاب ١ ، ف ١١ ، ص ٩٠ ـ ٩٢ ٠

ونيكوبوليس هى احدى مدن فلسطين، وقد ورد فى كتب الانجيليين انها هى قرية « عمواس » ، ويقول القديس لوقا الانجيلى انها على بعد ثلاثة مراحل من بيت المقدس(٢١) ، ويتكلم عنها «اسوزو مينوس» فى الكتاب السادس من تاريخه التثليثى فيقول « بعد أن فتح الرومان يهوذا وخربوا أورشليم سميت عمواس بنيكوبوليس تمجيدا لذلك النصر » ، ويوجد أمام المدينة (وعند مفترق الطريق المعروف بأن المسيح مشى فيه مع كليوبا بعد قيامه كما لو كان قاصدا قرية أخرى) أقول انه يجرى هنا نبع فى مائه شفاء للناس ، اذا اغتسلوا فيه زالت عنهم أوجاعهم ، وتبرأ فيه الحيوانات الدنيا من كل ماتتعرض له من أمراض خاصة بها ، وتقول الرواية فى تفسير هذا الاعتقاد ان المسيح ذاته تجلى فى أثناء هذا السير لتلاميذه عند هذا النبع وغسل بنفسه أقدامهم فى مياهه التى أصبحت منذ ذلك الحين برءا لكل الأسقام ٠

هذه هى الحقائق التى أوردها هذا المؤرخ (سوزو مينوس) المشار اليه عن قرية عمواس ٠

***

أمضى الصليبيون تلك الليلة فى هدوء متمتعين بالماء الغزير والطعام الشهى الوفير ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد جاءتهم رسل من المؤمنين المقيمين ببيت لحم يرجون من الدوق جود فروى رجاء حارا أن يبعث اليهم بطائفة من رجاله ، ولم يكن الحاحهم عليه راجعا فحسب لرغبتهم فى أن يمد لهم يد العون ضد العدو الذى كان يسرع من كل البلاد ومن جميع قرى الناحية قاصـــدا بيت المقدس ، بل

---

(٢١) لوقا ٢٤ : ١٣ ٠

وأيضا ليجدوا هم ذاتهم مكانا آمنا لأنفسهم ، واشتد الفزع بمؤمنى بيت لحم مخافة أن يهاجم هؤلاء الكفار مدينتهم، وان يهدموا الكنيسة التى طالما تكرر انقاذ المسيحيين لها من الدمار الذى كان هؤلاء الأعداء يصبونه عليها ، وكان انقاذهم اياها بدفعهم مبالغ نقدية كبيرة لهم ٠

استمع الدوق جود فروى الى التماسات هؤلاء الاخوة المؤمنين بنفس حانية ، فقام باصطفاء مائة من أتباعه الفرسان الأشاوس المدججين بالسلاح الخفيف ، وأمرهم أن يسرعوا فى التو واللحظة الى بيت لحم لمساعدة مسيحييها ، وانضم تانكريد الى هذه الحملة ، وألقيت اليه قيادة تلك الجماعة التى وصلت مع مطلع النهار الى طيتها المنشودة مسترشدة بهداية الرسل ، فاستقبلها الأهالى بالترحاب العظيم ، وساروا بهم الى الكنيسة ومن حولهم العامة ورجال الدين يزفونهم بالأهازيج ، وينشدون بين أيديهم الأناشيد الدينية ، ففاضت القلوب بالفرحة الغامرة وهم يطالعون موضع الميلاد المجيد والمذود الذى كان مهد المخلص ذات مرة ، ثم رفع الأهالى راية تانكريد فوق الكنيسة رمزا للنصر وسط هتافات الغبطة الحماسية ووسط ترتيلهم المزامير وترديدهم أناشيد الشكر الدينية ٠

فى هذه الأثناء كانت قلوب الذين خلفوهم وراءهم تتحرق شوقا لمتابعة الزحف ، وجافاهم النوم اذ عرفوا أنهم صاروا على مقربة من الأماكن الطاهرة ، وعز عليهم الرقاد لما انطوت عليه قلوبهم من حبها وتوقيرها حبا وتوقيرا أعاناهم على احتمال كثير من المشاق والأهوال على مدى ثلاث سنوات سويا ، وراحوا يترقبون فى شوق بزوغ الفجر ليروا نجاح سفرهم وما أسفر عنه حجهم الطويل من خاتمة سعيدة ، وخيل اليهم كأن ليل حراستهم قد طال فوق كل حد ، وانه جاوز كل معقول فى انتظار الغد ، وكان كل انتظار عبئا ثقيلا

وخطرا على قلوبهم الخفاقة ، مصداقا للمثل القائل « ان كل عجلة للقلوب المشتاقة ليست مستغربة» ، وقول الآخر « انه كلما طال الوقت ازداد الشوق لهيبا » ٠

ـ ٢٥ ـ

عندما ذاع فى المعسكر أن رسلا من أهل بيت لحم جاءوا الى الدوق وانه بعث بقوات من الجيش لمساعدتهم هاج الناس غضبا وراح كل يحث الآخـــر على الثورة ، ولم ينتظروا أحدا يأذن لهم بالرحيل ، أو يترقبوا لحظة انسب من اللحظة التى يقدمها لهم طلوع الفجر ، وتذمروا من كل ابطاء فخرجوا تحت جنح الظلام البهيم غير مكترثين بمعارضة قوادهم لهم ٠

وما كادوا يسيرون مسافة قصيرة وتتخضب السماء قليلا بلون مشرق حتى غادرهم رجل نبيل شجاع هو « جاستون دى بيزييه » على رأس ثلاثين من الفرسان المدججين بالسلاح الخفيف ، واتجه بهم سريعا ناحية بيت المقدس ، مؤملا أن يجد خارج أســـوارها قطعانا من الماشية والأغنام فيستولى عليها ويعود بها الى الجيش ، وصح ما أمله اذ وجد قرب المدينة بعض الماشية فى حراسة رعاة قلائل ماكادوا يبصرون رجالنا حتى فروا مذعورين الى المدينة ٠

وانطلق جاســـتون مسرعا الى المدينة بما استولى عليه من الماشية التى فر عنها رعاتها الذين صحا أهل البلد من سباتهم على صراخهم ، فبادروا الى حمل سلاحهم وهبوا انشـــط ما يكونون لمطاردة جاستون وهو فى طريق عودته الى المعسكر ، أملا منهم فى أسترداد الغنيمة التى سلبها منهم عنوة ، فاســـتولى على الفارس المعلم الخوف من كثرة عدد مطارديه ، فتخلى سريعا عما نهب ،

وهرب مع أصحابه طلبا للسلامة ، حتى اذا بلغوا بقعة واقعة على أحد التلال توقفوا ينتظرون ما يسفر عنه الأمر ، حينما ظهر فجأة من أحد الأودية القريبة تانكريد مع فرسانه المائة وهم قافلون الى المعسكر من بيت لحم ، فأسرع جاستون اليه ، وقص عليه ما حاق به من سوء الحظ ونكد الطالع ، فضم القائدان قواتهما بعضا الى بعض وكر الجميع فى أثر العدو الذى كان عائدا بقطعانه فهاجمه عسكرنا قبل أن يتيسر له الوصول الى المدينة ، وقتلوا الكثيرين من رجاله وفر الباقون ، وعاد القائدان الصليبيان الى المعسكر ظافرين يسوقان مرة ثانية الغنيمة المستردة ٠

ولما سئلوا من أين كان حصولهم على ما نهبوا قالوا انهم جاءوا بها من الحقول التى فى أرباض أورشليم ، فلما صافحت كلمة «أورشليم» سمع الحجاج اعترتهم نشوة روحية عارمة ، لم يستطيعوا معها أن يمسكوا دموعهم من أن تسيل أو يكبتوا آهاتهم ، فهاهى ذى القدس التى تحملوا من أجلها كثيرا من الأهوال على مرآى العين منهم ، واذ ذاك خروا سجدا على الأرض ممجدين الرب وحامدين من منح شعبه المؤمن نعمة خدمته الجليلة المشكورة ، ومثنين على السيد الذى تفضل فاستمع الى دعوات شعبه ورآهم أهلا لأن يتحقق أملهم فى أن يبلغوا المدينة التى استبد الشوق بهم اليها ٠

وكان الحجاج ــ ومعظمهم مشاة حفاة ــ كلما دنوا من المدينة المقدسة واكتحلت عيونهم بمرآها على قرب منهم أفصحت دموعهم وزفراتهم الصادرة من قلوب مخلصة عن فرحتهم الروحية ، وتزايدت حماستهم فى الاندفاع نحو هدفهم ، وما لبثوا الا قليلا حتى كانوا واقفين أمام مدينة بيت المقدس فنصبوا خيامهم حولها حسب الترتيب الذى وضعه زعماؤهم ٠

وهنا تمت نبوة أشعيا وصحت كلمة السيد اذ قال « ارفعوا عيونكم الى بيت المقدس ، وتأملوا قوة الرب ، وانظروا مخلصكم يأتى ليخلصكم من قيودكم(٢٢) ، وقوله : «انتبهوا انتبهوا واستيقظوا، وأنت يا أورشليم حررى نفسك من أغلال الرقبة ·· أيتها الأسيرة يابنت صهيون » ·

❊ ❊ ❊

هنا ينتهى الكتاب السابع

---

(٢٢) هذه هى الترجمة الحرفية لما أورده وليم فى الاصل ، فهو لم يتقيد تماما ــ وذلك على غير عادته ــ بنص ما جاء فى التوراة فى سفر أشعيا ٥١/١٧ اذ قال : « انهضى انهضى يا أورشليم ، وقومى يا أورشليم التى شربت من يد الرب كأس غضبه قبل كأس » ·

الكتـــاب الثـــامن

خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على القدس

الفصـــــــول :

١ ـ وصف موقع المدينة المقدسة وذكر النواحى والأماكن الموجودة داخل حدودها ٠

٢ ـ استعراض الأسماء العديدة التى أطلقت على هذه المدينة ، وكيف جعلها داود عاصمة لمملكته ، وكيف نقلها الامبراطور هادريان من سفح الجبل الى قمته ، وبعض ملاحظات اخرى عن موقعها ٠

٣ ـ بيان أى جزء من التلين يقع فى نطاق السور ، وكذلك تحديد موقع كنيسة قيامة السيد وهيكله على المرتفعات ووصف شكل الكنيستين ٠

٤ ـ الخبر فى كيفية تشييد المدينة فى بقعة جرداء ليس بها ماء ،

وذكر خبر سلوام أيضا ، وكيف أن الأهالى حين سماعهم باقترابنا طموا الينابيع وأفسدوا الصهاريج ·

٥ ـ تحديد موعد وصول الجيش الصليبى أمام المدينة وذكر عدد قواتنا وقوات العدو وشرح كيفية ترتيب العسكر ·

٦ ـ الصليبيون يهاجمون المدينة فى اليوم الثالث بعد ترتيب أماكن العسكر ، ويسترشدون بأحد النصارى المخلصين فى الذهاب الى الغابات لقطع الأشجار التى يصنعون منها آلات الحصار ·

٧ ـ اصابة الناس بالاغماء بسبب حاجتهم الى الماء وسقوطهم فى يد العدو مرة أخرى أثناء سعيهم وراء الماء وغيره من ضرورات الحياة ·

٨ ـ الأهالى يصنعون الآلات ويستعدون للمقاومة ويرغمون المؤمنين الساكنين معهم فى المدينة على القيام بأعمال كثيرة فيها جور كثير عليهم ·

٩ ـ وصول أسطول من جنوه الى يافا وارسال الأدلاء من الجيش لمصاحبة رجاله فى ذهابهم الى موضع الحصار ، ولكن الحرس يتعرضون فى طريقهم لكمين نصبه العدو لهم ·

١٠ ـ القادمون بحرا يذهبون الى الجيش ويمدون يد العون الفعال فى بناء الآلات ، كما تم عقد الصلح بين ريموند كونت تولوز وتانكريد ·

١١ ـ اعلان الصيام وصعود كل طوائف الحجاج الى جبل الزيتون·

١٢ ــ الدوق والكونتان العظيمان يتحركون بعسكرهم أثناء الليل ، وينصبون الآلات حول المدينة .

١٣ ــ قصف المدينة وشبوب قتال عنيف بين الجانبين ولكن المعركة تتوقف لدخول الليل .

١٤ ــ المحاصرون والمدافعون على السواء يقضون الليل فى حال من القلق البالغ .

١٥ ــ العودة للقتال فى اليوم التالى ، واشتداد الهجوم على المدينة اشتدادا أفظع من سابقه ، ومصرع الساحرات .

١٦ ــ ظهور آية فى السماء على جبل الزيتون ، واذ ذاك يعود من ارتدوا منذ قليل منهكين ولكنهم يتلهفون على القتال .

١٧ ــ كونت تولوز وقواته يهاجمون المدينة بعنف شديد من الناحية الجنوبية .

١٨ ــ الدوق وأصدقاؤه يدلون الجسر من فوق البرج الخشبى الى السور ويدخلون قواتهم ، واذ ذاك تستسلم المدينة وتفتح أبوابها ويدخل عسكرنا بيت المقدس .

١٩ ــ الدوق يمضى على جواده متجولا فى المدينة هنا وهناك مع أتباعه ، ويأتى من أعمال التخريب ماهو فوق الوصف ، وأما كونت تولوز فيقتحم المدينة من ناحيتها الجنوبية ويدخل رجاله ، فيرتد بعض المواطنين الى القلعة .

٢٠ ــ الأهالى يجتمعون بساحة المسجد فيتعقبهم تانكريد الى هناك ويتمخض الأمر عن مذبحة مروعة وبسفك دم كثير هناك .

٢١ ـ الهدوء يعود الى المدينة ، وتسكن الجلبة ، وتنحى الأسلحة جانبا للصـــلاة ، ثم يتجول الصليبيون فى القدس لزيارة الأماكن المقدسة وينقضى اليوم فى أداء شعائر وقورة ٠

٢٢ ـ أسقف بوى وغيره ممن توفاهم الرب أثناء هذا الحج يظهرون فى المدينة ويتجلون للكثيرين ٠

٢٣ ـ المؤمنون الساكنون بيت المقدس يقدمون الشكر الصـــادق لبطرس الناســك الذى حملوه من قبل رسالتهم وأكرموه الاكرام الذى يستحقه عن حق ٠

٢٤ ـ تنظيف المدينة من جيف القتلى ، واستسلام الهاربين بالقلعة الى ريموند كونت تولوز ، واعتبار هذا اليوم يوما خالدا أبدا ٠

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتـــاب الثـــامن

خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على بيت المقـــدس

\- ١ -

من الحقائق المعروفة تمام المعرفة أن أورشليم المدينة المقدسة الحبيبة الى الرب تقع على تلال عالية ، وتقول الأخبار القديمة انها كانت تابعة لقبيلة بنيامين ٠

ويقع الى الغرب منها أرض شمعون وأرض الفلســـطينيين ، وكذلك البحر الأبيض المتوسط الذى تبعد أقرب نقطة منه عنها بأربعة وعشرين ميلا وذلك عن مدينة يافا القديمة ٠

وتوجد قرية عمواس بين بيت المقدس وبين البحر ، وهى التى سميت فيما بعد بنيكوبوليس ، حيث تجلى السيد - بعد قيامته - لاثنين من تلاميذه ٠

كذلك تقع قلعة « مودين » وهى احدى قلاع المكابيين الطاهرين الشديدة التحصين ، وأيضا القرية المباركة « نوب » التى أطاع فيها داود وخدمه ــ اذ جاءوا ــ الكاهن « اخيمالك »(١) فأكلوا الخبز المقدس ، كما يوجد هناك أيضا ، ديوسبوليس » وهى اللد ، التى أبرأ فيها بطرس الرجل المقعد الكسيح(٢) الذى ظل طريح الفراش مضطجعا على السرير مفلوجا منذ أن كان فى الثامنة من عمره .

كذلك توجد يافا حيث أحيى بطرس من بين الموتى التلميذة المسماة « طابيتا »(٣) صاحبة الأعمال الخيرة والاحسان ، وردها الى الحياة فى وجود القديسين والأرامل .

كذلك حدث فى يافا أن تلقى بطرس ــ وهو مقيم فى بيت سمعان الدباغ ــ رسول « كورنيليوس » كما هو وارد فى أعمال الرسل(٤) .

ويوجد فى شرقى المدينة ، وعلى بعد أربعة عشر ميلا ، مياه الأردن والصحراء المتاخمة له التى كانت معروفة قديما كل المعرفة لأبناء الأنبياء ، كما يوجد هناك الوادى الخشبى ، حيث يوجد الآن بحر الملح المعروف أيضا ببحيرة الاسفلت أو البحر الميت ، وكان

---

(١) صمويل الأول ٢١ : ١ ــ ٦ .

(٢) الرجل الذى يشير اليه وليم الصورى فى المتن ولم يذكر اسمه ولا الترجمة الانجليزية هو « اينياس » كما ورد فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣ .

(٣) جاء فى التوراة أن معنى « طابيتا » هو « الغزالة » ونضيف فى هذه الترجمة العربية ما جاء فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣٦ من « انها كانت ممتلئة أعمالا صالحة واحسانات كانت تعملها ، ولما ماتت استدعى بعضهم بطرس فصلى ثم أمرها ــ وهى ميتة ــ بالقيام ففتحت عينيها وجلست .

(٤) أعمال الرسل ٩ : ٣٦ وما بعدها .

كل هذا الاقليم ـ كما نقرأ فى سفر التكوين(٥) ـ يروى مثل جنة الرب وذلك قبل أن يعصف الرب بسدوم فيدمرها ٠

وتقع على هذا الجانب من الأردن مدينة « أريحا » التى تغلب عليها «يوشع» خليفة موسى بالصلاة أكثر من تغلبه عليها بالحرب ، وهنا رد السيد ـ فيما بعد أثناء مروره بها ـ النظر الى الرجل الأعمى(٦) ، كما يوجد هنا أيضا (جبل) الجلجلة ، وهو المكان الذى انصرف اليه ايليا ٠

وتقع فيما وراء الأردن جلعاد وبيشان وعمون ، ومؤاب التى انتهت من بعد الى الرؤبيين والجاديين ، والى نصف سبط منسى(٧)، ويعرف كل هذا الاقليم باسم عام هو « بلاد العرب » ٠

يوجد الى الجنوب من أورشليم القسم الذى به نصيب يهوذا ، وفيه بيت لحم ، وهو المكان الذى سلكه المخلص ، والموضع الذى سعد بمولد المسيح وكان مهده ، وتوجد هنا مدينة « تقوع » موطن النبيين حبقوق وعاموس ، والخليل الذى يعرف أيضا باسم كارياتربب التى توجد بها المقابر الطاهرة للبطاركة المباركين ٠

وتقع الى الشمال من بيت المقدس مدينة « جبعون » التى ذاعت شهرتها بسبب انتصار يوشع بن نون « والتى شهدت معجزة وقوف

---

(٥) سفر التكوين ، ١٣ : ١٠ ٠

(٦) الغريب أن وليم الصورى ، وهو من هو فى حفظه للانجيل ـ يشير الى أن معجزة السيد المسيح كانت لرجل واحد أعمى ، على حين أن الوارد صراحة فى انجيل متى ٢٠ : ٣٠ ـ ٣٣ أنهما كانا اثنين « وكانا جالسين على الطريق » ، ومن شاء المزيد من خبر هذه المعجزة فليرجع الى متى ٠

(٧) انظر يوشع ، الاصحاح ٢٢ ٠

الشمس ساكنة له فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل ، وهى أرض سبط افراييم التى يوجد فيها « شلواه » الذى كان ذات مرة حارسا لهيكل السيد ، « وسخار » ، وهى أرض المرأة السامرية التى تكلمت مع المسيح ، و « بيثل » عابد العجل الذهبى والشاهد على خطيئة جيروبيام »(٨) ٠

كما يوجد هنا أيضا « سبسطيه » المدفون بها كل من يوحنا المعمدان وايليا و « عبديا » ، وقد سميت هذه الناحية فيما بعد « بالسامرة » نسبة الى تل « شمر » الذى بنيت عليه ، كما كانت ذات مرة عاصمة ملوك اسرائيل ، فعرف ذلك الاقليم منذ ذلك الحين باسم « السامرة » ٠

كذلك يوجد الى الشمال مدينة نابلس التى كانت تسمى قديما « بشكيم » نسبة الى مؤسسها ، وتقول كلمات سفر التكوين ان شمعون ولاوى ابنى يعقوب قاما لدفع العار الذى جلبه » شكيم بن حمور » على اختهما « دينة » ، بفعلته الشهوانية الحمقاء ، فذبحا شكيم بن حمور وأولاده بالسيف ، وأضرما النار فى المدينة حتى صارت رمادا(٩) ٠

— ٢ —

وتقع أورشليم كبرى مدة اليهودية فى بقعة عديمة المياه والينابيع والغابات والمراعى ، واذا أخذنا بما جاء فى التواريخ

---

(٨) انظر هذا المخبر فى الاصحاح العاشر من سفر يوشع ٠

(٩) سفر التكوين ٣٤ : ٢٥ ٠

القديمة وفى أخبار الشعوب الشرقية فان هذه المدينة كانت تسمى فى البداية باسم « سالم » ، ثم صارت « يبوس » ، وبعد أن حكم داود سبع سنوات فى الخليل أخرج اليبوسيين من سالم وزاد فى حجم المدينة وجعلها قاعدة ملكية(١٠) ، وسماها أورشليم ، ونطالع فى أخبار الأيام الأول ان داود رحل بعدئذ ومعه كل اسرائيل الى أورشليم أى « يبوس » حيث كان اليبوسيون هم سكانها ، وقال سكان يبوس لداود : « لا تدخل الى هنا » . ومع ذلك فقد استولى داود على قلعة صهيون التى هى مدينة داود ، وقال داود « أن أول من يضرب اليبوسيين يكون « رأسا وقائدا » ، ولذلك كان يوآب بن صرويه أول المتقدمين فصار رأسا ، ثم سكن داود الحصن الذى سموه مدينة داود ، وبنى المدينة حوله ، فامتدت من ميللو ، كما أن يؤاب جدد بقيتها .

ثم لما حكم سليمان بن داود هذه المدينة فيما بعد سميت « بهيروسوليما » ، أى أورشليم سليمان ، ويذكر المؤرخان الشهيران ايجسبوس ويوسيفوس انه بسبب خطايا شعب يهوذا فان «تيتوس بن فيسباسيان » أمير الرومان العظيم حاصر أورشليم فى السنة الثانية والأربعين التالية لعذاب السيد، واستولى عليها وهدمها من أساسها، فصدقت كلمة المسيح انه « لن يبقى فيها حجر على حجر لم ينقض »(١١) .

ثم جددت أورشليم بعد ذلك على يد «ايلوس هادريان» امبراطور الرومان ، وهو الرابع فى سلسلة الملوك بعد تيتوس ، فسميت اذ ذاك « ايليا » تمجيدا لاسمه حسبما نطالع ذلك فى أخبار مجمع نيقية

(١٠) الأيام الأول ، ١١ : ٤ ــ ٨ .
(١١) متى ٢٤ : ٢

المسـكونى ، حيث جاء « ويكون أسـاقفة ايليا مبجلين عند الجميع »(١٢) ٠

كانت المدينة تقوم أصلا عند منحدر التل ، وهى تواجه المشرق والمغرب على السواء وكانت تقع على منحدر كل من جبل صهيون و «موريا » ولم يكن على المرتفعات سوى الهيكل وقلعة «أنتونيا» وقد نقل هادريان المدينة كلها الى قمة الجبل فصار مكان آلام السـيد وقيامته داخلين ضمن نطاق نفس الموقع حين أعيد بناؤها بعد أن كان هذان الموضعان خارج المدينة قبلا ٠

❊ ❊ ❊

وبيت المقدس أصـغر من المدن الكبرى وان كانت أكبر من أى مدينة عادية ، وهى ذات شكل رباعى بعض الشىء وان كان أميل الى الاستطالة ، اذ أن أحد أضلاعها أطول من بقية أضلاعها الأخرى، وتحدها من جوانبها الثلاثة وديان عميقة ، ويقع شـرقيها وادى « يهوشافاط » الذى يشير اليه النبى يوئيل(١٣) فى قوله « لأنه هو ذا فى تلك الأيام وفى ذلك الوقت عندما ارد سبى يهوذا وأورشليم أجمع كل الأمم وأنزلهم الى واد يهو شافاط وأحاكمهم هناك على شعبى وميراثى اسرائيل » ٠

ويوجد فى قاع هذا الوادى كنيسة رائعة أقيمت تمجيدا للعذراء أم المسيح التى يسود الاعتقاد أنها مدفونة بها ولايزال قبرها المبارك مزارا للجموع المتدفقة الى ذلك المكان ، كما يشـق هذا الوادى جدول « قدرون » الذى يفيض شتاء بمياه الأمطار المنهمرة ويشير

---

(١٢) انظر Canon VII, first Council of Niceae.
(١٣) يوئيل ٣ : ١ ـ ٢ ٠

اليه القديس يوحنا الانجيلى حيث يقول « وخرج يسوع مع تلاميذه الى عبر وادى قدرون حيث كان بستان(١٤) ٠

ويتصل بهذا الوادى من الناحية الجنوبية رافد آخر اسمه « هنوم » ، الذى صار ــ حين وزعت الأرض بين أبناء اسرائيل ــ حدا للأنصبة المخصصة لـ « بن » ، ويهوذا ، كما هو مكتوب فى يوشع : « وصعد التخم فى وادى ابن هنوم الى جانب اليبوسى من الجنوب هى أورشليم ، وصعد التخم الى رأس الجبل الذى هو قبالة وادى هنوم غربا »(١٥) ٠

ولايزال يرى هنا الحقل الذى اشتراه أكبر التجار الملعونين يهوذا بالمال الذى قبضه ثمنا لتسليمه المخلص لليهود ، ويعرف هذا الحقل باسم « الخلذمة » ثم جعلوه مدفنا للحجاج ٠

كما نقرأ أيضا عن هذا الوادى فى « أخبار الأيام الثانى » فيما يتصل بأحاز (بن داود) ، وهو « أوقد فى وادى هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل(١٦) ٠

ويحد بيت المقدس من الغرب جزء من نفس هذا الوادى الذى كانت فيه بركة قديمة ذهبت بالشهرة فى أزمان ملوك يهوذا ، ويمتد الوادى من هنا الى البحيرة العليا المسمـــاة عادة ببحيرة البطرك المجاورة للمقبرة العتيقة فى جب الأسد ٠

---

(١٤) يوحنا ١٨ : ١ ٠
(١٥) يشوع ١٥ ٠
(١٦) الايام الثانى ٢٨ : ٣ ٠

ويقارب المدينة من الشمال طريق مستو لايزال يرى به الموضع الذى رجم اليهود فيه استيفان أول الشهداء وهو الموضع الذى ركع فيه واستغفر لمضطهديه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة(١٧) ٠

— ٢ —

يقع بيت المقدس على جبلين بناء على ما يقوله داود « أساسه فى الجبال المقدسة » ٠

وتقع قمتا هذين الجبلين داخل نطاق الأسوار ويفصلهما عن بعضهما واد صغير يقسم المدينة الى قسمين ، ويسمى الجبل الواقع الى الغرب بجبل صهيون وقد أشير اليه فى قول القائل : « الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب »(١٨) ٠

أما الجبل الآخر الواقع الى الشرق ويعرف بجبل « المريا » ، وقد وردت الاشارة اليه فى أخبار الأيام الثانى(١٩) ٠ حيث قيل : « وشرع سليمان فى بناء بيت الرب فى أورشليم فى جبل المريا حيث تراءى لداود أبيه حيثهيأ داود مكانا فى بيدر ارنان اليبوسى » ٠

ويوجد الى الغرب على نفس قمة الجبل كنيسة تسمى بكنيسة صهيون ، ويقوم على مسافة قصيرة منها برج داود ، وهو بناء شديد الضخامة ، سامق الأبراج والأسوار والتحصينات المتصلة به وبذلك يشرف على المدينة التى تجثم تحته ويكون هو قلعتها ٠

---

(١٧) المزامير ٨٧ : ١ ٠
(١٨) المزامير ٨٧ : ٢ ٠
(١٩) الأيام الثانى ٣ : ١ ٠

كما يوجد على مقربة منها كنيسة القيامة الطاهرة الدائرية الشكل ، ولما كانت هذه الكنيسة تقع على منحدر التل الذى ذكرنا حالا أنه يشرف عليها من أعلى ويتاخمها فانه يجعل داخلها حالك الظلمة ، على أن سقفها مشيد من عروق الخشب الشديدة الارتفاع ، المصنوعة أبدع صنعة على شـــكل تاج ، وهى مبنية هكذا لتكون مفتوحة دائما الى السماء مما يتيح للداخل ما يحتاجه من الضوء ، ويقع تحت هذه الفتحة المتسعة قبر المخلص ٠

كان موضع آلام السيد المسمى « كلفارى » أو الجلجلة يقع قبل مجىء شعوبنا اللاتينية خارج حدود هذه الكنيسة ويقال انه وجدت هنا خشبة الصليب الأصلى ، كما تذكر الأخبار أيضا أنهم لما أنزلوا جسد المخلص من على الصليب مسحوه هنا بالزيت وضمخوه بالعطور الزكية ، وأدرجوه فى درج لفائفه من الكتان كما جرب عادة اليهود فى الدفن ، ولم تكن هناك فى ذلك الوقت سوى كنيسة صغيرة جدا ، ولكن بعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس بعون الرب وأحكموا قبضتهم عليها رأوا ما عليه هذا المبنى الأصلى من شدة الصغر فزادوا فيه ثم استخدموا اللافتة بناء جديدا من الحجر المصمت ، شاهق الارتفاع ، أحاط بالكنيسة القديمة ، ورتب ترتيبا محكما ليضم فى داخله الأماكن المقدسة التى وصفناها ٠

ويطل هيكل الســـيد على المنحدرات الشرقية والغربية لجبل « مريا » وقد شيد فى المكان الذى اشترى فيه داود الملك حقلا من « أرونة » اليبوسى وذلك حسبما ورد فى سفر صموئيل الثانى(٢٠) ، وفى أخبار الأيام الثانى ، وقد جاء هنا الأمر له ببناء مذبح للسيد

---

(٢٠) صموئيل الثانى ٢٤ : ١٦ وما بعده ٠

فبناه وقدم عليه فيما بعد « بقرا محرقة وذبائح سلامة » ، وهناك نادى هو الرب بصوت سمع فى النار الآتية من السماء على مذبح القربان المحرق كما قام سليمان بعد موت أبيه ببناء الهيكل فى نفس المكان استجابة لأمر الرب(٢١) ٠

ونعرف من التواريخ القديمة كيف كانت هيئة هذا الهيكل وكيف سقط فى يد نابخذا نصر ملك بابل ثم أعيد بناؤه زمن كورش ملك فارس على يد زربابيل ويوســـو الكاهن الأعظم ، كما نعرف من هذه التواريخ كيف دمر تيتوس أمير الرومان نفس هذا الهيكل والمدينة كلها فيما بعد ٠

ويكفى أن نشير هنا الى من خطط رسم هذاالبناء وأن نصفشكله لأننا قلنا فى الكتاب الأول(٢٢) من هذا التأليف أن عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء هو بانى هذا الهيكل ، ويؤكد هذا القول النقوش القديمة الموجودة على جدران البناء من الداخل والخارج على السواء ٠

أما صفة البناء فكما يلى :

توجد ساحة مربعة متساوية الأضلاع ، يحوطها سور متوسط الارتفاع ، وتقع هذه الساحة على هضبة يقدر كل من طولها وعرضها مسافة رمية سهم من قوس ، ولها من الناحية الغربية بابان يؤديان الى داخلها ، ويعرف أحدهما بالباب الجميل ، ويقول الخبر الوارد فى أعمال الرسل انه « كان رجل أعرج من بطن أمه يحملونه ٠٠٠ وكانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذى يقال له الجميل يسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل »(٢٣) ٠

---

(٢١) الأيام الثانى ، ٣ : ١ ٠
(٢٢) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، ص ٦٣ ــ ٦٤ ٠
(٢٣) اعمال الرسل ٣ : ١ ــ ٨ ٠

أما الباب الآخر فقد نسينا اسمه ٠

كما يوجد باب واحد فى السور الشمالى ، وآخر فى الناحية الشرقية ٠

أما القصر الملكى المعروف الآن باسم هيكل سليمان ، فيقوم فى الناحية الجنوبية، كما توجد مآذن شاهقة الارتفاع يصعد اليها مؤذنو الاسلام فى ساعات معينة لدعوة الناس الى الصلاة ، وهذه المآذن تعلو كل باب من الأبواب المؤدية الى المدينة ، وكانت تقوم – فى كل ركن من أركان الساحة المربعة – التى أشرت اليها حالا – مآذن لايزال بعضها موجودا حتى اليوم ، أما غيرها فقد زال بسبب شتى المصائب التى نزلت بها ٠

ولم يكن مسموحا لأحد من الناس أن يعيش فى داخل هذه المواضع ، بل لم يكن أحد ما بقادر على الدخول الى هناك الا وهو حافى القدمين قد غسلهما منذ قليل ، وكان يقف على كل باب من الأبواب حرس مهمتهم مراعاة هذا الأمر مراعاة دقيقة ٠

وكان فى وسط تلك البقعة المجاورة ساحة أخرى ترتفع عن هذه بعض الشىء ، وصورتها أقرب ما تكون الى المربع المتساوى الأضلاع ، ويوجد الى الغرب والجنوب سلمان مدرجان يصعدان الى الساحة ٠

أما من الناحية الشرقية فثم مدخل واحد فقط ، ويوجد فى كل ركن من هذه الساحة مسجد صغير ، ولايزال بعض هذه المساجد قائما حتى اليوم ، أما ماسواها فقد هدمت لتفسح مكانا لأبنية مستحدثة حلت محلها ٠

وفى وسط هذه الساحة العليا يقوم المسجد ، وهو مثمن الشكل متساوى الاضلاع ، كما أن جدرانه الداخلية والخارجية على السواء مرخمة ومحلاة بالفسيفساء ، أما السقف فدائرى مكسو بالرصاص الدقيق الصنعة ، وقد رصفت الساحتان العليا والسفلى ومدرجاتهما بالرخام الأبيض ، ومن ثم فان الأمطار التى تسقط بغزارة فى الشتاء ، وما ينحدر من المسجد ذاته وكذلك المياه التى تتدفق من جهات أخرى نقية صافية فانها كلها تنساب الى الصهاريج الكثيرة الواقعة داخل هذه الناحية التى وصفناها ٠

ويوجد فى وسط المسجد ـ وفى نطاق الصف الداخلى من الأعمدة ـ صخرة ليست شاهقة الارتفاع ولكنها تعلو كهفا ، وتقول الأخبار ان الملاك جلس هناك حينما صرع الناس بأمر الرب قصاصا على جرم داود فى تعدادهم ، ولم يتوقف السيف حتى أمر الرب ثانية بالعفو عنهم ، ثم قام داود بعدئذ واشترى هذا الحقل بستمائة شاقل من الذهب كاملة غير منقوصة الوزن وبنى مذبحا هناك كما ذكرنا من قبل ، والحق ان هذا المكان ظل خمسة عشر عاما قبل مجىء اللاتين وبعدهم مجردا من كل ما يغطيه ، حتى رخمه أخيرا بالرخام الأبيض من استولوا عليه ، كما بنى أعلاه مذبح وهيكل لجوقة المرتلين ، وعين قسيس هناك لاداء الخدمات الدينية ٠

وتقع مدينة أورشليم المؤمنة بالله فى أرض يهوذا التى تعرف أيضا باسم فلسطين الأولى، ويرجع اسم يهوذية هذا الى الوقت الذى انفصل فيه الأسباط العشرة عن « ريغام بن سليمان ليتبعوا جيروبيم ابن نباث ، ولم يبق مع ريهوبوم سوى جماعتى بن ويهوذا ، ومنذ ذلك الحين سميت أرض هذين الشعبين بأرض يهوذا من اسم يهوذا كما نقرأ هذا فى الانجيل « انهم عادوا الى أرض يهوذا » ومنذ ذلك الحين سمى « ريهوبوم » وخلفاؤه بملوك يهوذا ، أما حكام القبائل العشر الأخرى فقد عرفوا باسم ملوك اسرائيل أو السامرة ٠

***

وتعرف فلسطين أيضا باسم «فلسطيا» ، وهو مشتق من أصحابها الفلسطينيين ، ويقال ان هناك ثلاث بقاع تعرف كل منها بفلسطين ، أولاها تنفرد باسم يهوذا وعاصمتها أورشليم ، وأما الثانية فمدينتها العظمى قيسارية البحرية ، وأما عاصمة الثالثة فهى بيســـان أو سكيتوبوليس التى تطل عليها الآن كنيسة الناصرة ، واذا خلينا جانبا الاسم الذى يمكن اطلاقه عليها فليس من شك فى أن يهوذا « كانت تعتبر من أرض الميعاد وبلاد الشام ، ونستدل على ذلك من كلمات تلك الرسالة التى نقرأ فيها : « وفى سورية لاسيما فى اقليم فلسطين التى هى جزء من سورية ، وفى الأرض التى تعطف الرب فتجســد فيها بشـــرا من لحم ودم فقد جـــرت العادة اطلاق الحرية فى المسميات » ٠

وتقع هذه المدينة فى الحقيقة وسط أرض الميعاد بناء على ما يستفاد من وصف الحدود حيث قيل(٢٤) « من البرية ولبنان ، هذا الى النهر الكبير : نهر الفرات جميع أرض الحيثيين « والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » ٠

وتقع المدينة وسط بقاع جدباء خالية تماما من الماء ، ونظرا لخلوها من الجداول والينابيع والأنهار فكل اعتماد أهلها يكون على مياه الأمطار التى اعتادوا — اذا ما حل الشتاء — أن يجمعوها فى الصـــهاريج الموجودة بكثرة فى كل أنحاء المدينة(٢٥) ، ويدخرونها للاستعمال على مدار السنة ، ومن ثم فان الدهشة تتملكنى مما يقرره سولينوس من اشتهار أرض يهوذا بمياهها اذ يقول فى تاريخه « وتشتهر كورة يهوذا بمياهها وان اختلفت طبيعة هذه المياه بعضها عن بعض » ٠

---

(٢٤) يشوع ١ : ٤ ٠
(٢٥) أخبار الأيام الثانى ٢٨ : ٢ — ٥ ٠

ولايمكنني التعليق على هذا التباين الا بقولي : اما أن سولينوس جـــانب الحق في هذا الأمر فلم يقل الواقع ، واما أن عـــوامل التغيير قد اعترت فيما بعد سطح البسيطة ، ومن المعروف جيدا ان حزقيا ملك يهوذا وهو صديق الرب قد توقف عند الينابيع الموجودة خارج المدينة حينما سمع أن جيش سنخريب بن «شلما نصر» أصبح على الأبواب ٠ ونقرأ في هذا الصدد في أخبار الأيام الثاني(٢٦) ولما رأى حزقيا أن سنخاريب قد أتى وقصده محاربة أورشليم تشاور هو ورؤساؤه وجبابرته على طم مياه العيون التي هي في خارج المدينة ، فساعدوه ، فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر الجاري في وسط الأرض قائلين لماذا يأتي ملوك آشـــور ويجدون مياها غزيرة » ٠ وأهم هذه الأنهار هو المسمى جيحون(٢٧) المشار اليه في نفس الكتاب بقوله : « وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون وأجراها تحت الأرض الى الجهة الغربية من مدينة داود »(٢٨) ٠

ويقع جيحون الى الجنوب وسط وادى هنوم ببيت المقدس حيث تقوم الآن الكنيسة التي شيدت تمجيدا للشهيد المبارك «بروكوبيوس»، ويقال ان سليمان مسح في هذا المكان ليكون ملكا وذلك طبقا لما جاء في سفر الملوك الأول فقال الملك لهم(٢٩) « خذوا معكم عبيد سيدكم واركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وأنزلوا به الى جيحون ، وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكا على اسرائيل ،

---

(٢٦) الكلام هنا على لسان المؤلف وليم الصوري ، ونلمح فيه وفي السطور التالية مقدرة وليم على نقد ما يقرأ ٠

(٢٧) أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٣ ٠

(٢٨) الملوك الأول ١ : ٣٣ ـ ٣٤ ٠

(٢٩) المقصود بهم هنا صادوق الكاهن وناثـــان النبي ونباياهن بن يهويا ٠

واضربوا بالبوق ، وقولوا « ليحيى الملك سليمان » • على أنه يتضح أن هذه الحوادث وقعت قبل زمن (المؤرخ) سولينوس ، لأن مطالعة كتابه المسمى « بوليهستور » يوضح تمام الايضاح أن هذا الكاتب كان موجودا بعد عصر تيتوس أمير الرومان الذى خرب بيت المقدس ، وقبل زمن ايليوس هادريان الذى أعاد بناءها ، اذ تقرأ فى الفصل الأربعين من هذا المؤلف(٣٠) أن أورشليم كانت عاصمة يهوذا ولكنها خربت ، فحلت محلها أريحا لتكون هى العاصمة ، بيد أنه لم تعد لها الصدارة بعد أن غزاها أرتا اجزرسيس •

وعلى بعد ميلين أو ثلاثة أميال فيما وراء المدينة توجد بعض الينابيع ، ولكنها قليلة العدد ، شحيحة المياه ، ومع ذلك فعلى بعد ميل واحد تقريبا الى الجنوب من القدس حيث يلتقى الواديان اللذان أشرنا اليهما من قبل توجد بركة « سلوام » الشهيرة التى بعث اليها المسيح بالرجل الكفيف منذ مولده ليغتسل فيها ويرتد اليه بصر(٣١) •

وسلوام هذه بركة صغيرة توجد فى القسم الأسفل من الوادى، وليس ماؤها بالعذب ولا هو بالدائم التدفق ، لأنه يخرج متقطعا ، ثم أنها تجرى يوما وتتوقف يوما آخر •

***

ما كاد الأهالى يعلمون باقتراب الجيش الصليبى حتى طموا منابع الآبار وأفسدوا مخازن المياه التى حول المدينة الى مسافة

---

(٣٠) نقلا عن الترجمة الانجليزية Solinus : Polyhistor, XXXV.

(٣١) انظر يوحنا ٩ : ٧ •

خمس أو ست مراحل ، أملا منهم فى أن ينصـــرف الصليبيون عن حصار المدينة حين يجدون أنفسهم يعانون الظمأ الشديد ، وقد نجحت خطة الأهالى هذه فى تكبيد جيشنا عذابا ليس من بعده عذاب أثناء الحصار الذى أعقب ذلك الأمر ، حسبما نورده فى الفصول التالية ،

ومن ناحية أخرى فقد توفرت المياه الكثيرة لمن كانوا فى داخل المدينة بفضل ما كانوا قد خزنوه من مياه الأمطار ، بالاضافة الى ما جلبوه اليها من الينابيع الموجودة خارجها ، والتى كانوا يجلبونها فى القنوات فتصب فى بحيرتين كبيرتين ملاصقتين تماما لجدران المعبد من الخارج ، وان كانتا داخل حدود المدينة ، ولاتزال احداهما تعرف حتى اليوم « ببركة الضأن » لأنهأ كانت مخصصة لغسيل أغنام الأضاحى ، ويشير يوحنا الانجيلى الى أنه كان لهذه البحيرة خمسة أروقة ، ويقول انه كان ينزل اليها من وقت لآخر ملاك يحرك ماءها ، فمن نزل أولا بعد تحريك الماء برأ من أى مرض اعتراه ، ولقد شفى السيد هنا الرجل المفلوج وأمره أن يحمل سريره ويمشى(٣٢) .

ـ ٥ ـ

ولما كان اليوم السابع من يونيو من عام ١٠٩٩ لمولد المسيح عسكرت كتائب الجيش الصليبى أمام بيت المقدس ، ويقال ان عدد الحجاج كان يقرب من أربعين ألفا من كلا الجنســين ومن شــتى الأعمار والطبقات ، وكان فيهم من المشاة عشــرون ألف راجل ، ومن الفرسان ألف وخمسمائة الى جانب حشد لارجاء فيه من المرضى والعجزة .

---

(٣٢) راجع القصة كاملة فى يوحنا ٥ : ٢ ـ ١٢ .

وتقول الأخبار انه كان بداخل بيت المقدس أربعون ألفا من المحاربين الشجعان(٣٣) المزودين بأحسن السلاح ، الى جانب من انهال عليها من أهل القلاع الموجودة فى منطقتها وما جاورها ، وكانوا أعدادا كبيرة جاءوها هربا من وجه الجيش (الصليبى) وطلبا للسلامة ، فقد كانت تحدوهم أيضا الرغبة فى مد يد المساعدة للدفاع عن المدينة الملوكية لانقاذها من الخطر الذى يهددها ، كما جاءوا معهم بامدادات من الرجال المســلحين وبكميات وفيرة من الزاد ٠

فلما اقترب الصــليبيون من المدينة حرص قوادهم على عقد اجتماع مع أهل الخبرة والدراية للاستفسار عن الجهة التى يمكنهم منها مهاجمة المدينة هجوما يكفل لهم النجاح ، واذ كانت الدروب العميقة المشار اليها من قبل تحول دون الاغارة عليها من الشرق أو من الجنوب ، فقد قرر القادة مباغتة البلد من الشمال ، فرتبوا الأمر على أن تمتد صفوف عسكرهم من الباب المعروف اليوم بباب القديس استيفان المواجه للناحية الشمالية حتى الباب الموجود أسفل برج داود القائم فى الطرف الغربى من المدينة ، والذى يشارك البرج نفسه فى التسمية باسم هذا الملك ذاته ٠

ورتب العسكر على الصورة التالية :

كان أولهم فى الترتيب عسكر جود فروى دوق اللورين ، ثم يليه عســكر روبرت كونت فلاندرز ، ثم الثالث بقيادة روبرت كونت نورماندى ، فالرابع وهو مؤلف من قوات تانكريد وبعض الأشراف

---

(٣٣) كان هؤلاء بطبيعة الحال من المسلمين كما يستدل من سياق الكلام ٠

الذين وقفوا حول البرج القائم بالركن هناك ، والذى عرف فيما بعد ببرج تانكريد ٠

أما (ريموند) كونت تولوز ومن معه فقد أكملوا خط الحصار الممتد من البرج حتى البوابة الغربية ، غير أنه وجد بعدئذ أن موضعه هذا لن يساعده كثيرا على نجاح الهجوم على المدينة من تلك الناحية، اذ كان يسيطر على معسكره البرج الموجود فوقه ، والذى كان فى الوقت ذاته يحمى البوابة من أسفلها حماية قوية ، كذلك كانت مجاورته الشديدة للوادى الواقع بين معسكره وبين المدينة تقف سدا فى وجه تحركاته ، ومن ثم فقد نزل على مشورة رهط من الرجال الأذكياء الخبيرين بالموضع ، ونقل جزءا من جنده الى التل الذى يقوم عليه بيت المقدس ، وكانت هذه الناحية واقعة بين البلد وبين كنيسة صهيون التى هى على بعد رمية قوس من المدينة من ناحية الشمال ، كما خلف الكونت جزءا من معسكره فى موضعه الأصلى ، ويقال انه فعل ذلك كله لهدفين : أولهما أنه أراد أن يكون رجاله على مقربة من المدينة قربا ييسر لهم الهجوم عليها ، وثانيهما أنه أراد أيضا حماية كنيسة صهيون من أى أذى يريد العدو انزاله بها ٠

وكان هذا هو المكان الذى يعتقد الناس أن المخلص تناول فيه عشاءه الأخير مع تلاميذه وغسل لهم أقدامهم فيه ، كما يقال أيضا انه الموضع الذى نزل فيه الروح القدس على حوارييه على شكل لسان من اللهب فى يوم عيد العنصرة ، ويضاف الى ذلك ما تقوله الرواية القديمة من أنه المكان الذى ماتت فيه مريم الطاهرة ، كما أن به أيضا موضع قبر ستيفان أول الشهداء ٠

على هذه الصورة التى وصفناها كان ترتيب المسكر ٠

وهكذا كانت قوات الحصار تحوط بما يقرب من نصف المدينة ، ولم يبق خارج دائرة الحصـــار ســـوى القسم الممتد من البوابة الشمالية — المسماة عادة ببوابة القديس استيفان — الى البرج الواقع فى الركن والمشرف على وادى يهو شافاط ، وكذلك المنطقة الممتدة من البرج المقابل لزاوية المدينة فى الجنوب والكائن فوق منحدر نفس الوادى ، ثم يمتد من هناك الى البوابة الجنوبية المعروفة الآن باسم بوابة جبل صهيون ٠

فلما كان اليوم الخامس من مرابطة جيشنا أمام الأســـوار نودى فيهم — صغارا وكبارا — بالاســـتعداد لغزو المدينة ، وأن يكونوا فى كامل سلاحهم ودروعهم ، فتم ذلك على أكمل وجه ، اذ قام الجميع قومة رجل واحد لانجاز هذه المهمة، وشنوا على شتى النواحى المحاصرة من المدينة هجوما ضاريا نشيطا عجل بالقضـــاء على التحصينات الخارجية ، وافزع العدو فزعا حمله على الارتداد على أعقابه لحماية الأسوار الداخلية ، والواقع ان الشك اخذ يساور الأهالى عما اذا كان ثم جدوى فى بذل المزيد من المقاومة ٠

والحق أنه لو كان قد توفر للصليبيين يومذاك سلالم التسلق ، أو كان لديهم الآلات التى يتمكنون بها من الاستيلاء على الحصون ، لاستطاعوا من غير شك أخذ المدينة فى ذلك اليوم حين هاجموها بهذه الحماسة ،لكنهم بذلوا من الجهد العظيم ما ذهب هباء منذ مطلع الفجر حتى الساعة السابعة تقريبا ، واذ ذاك تبدد أملهم فى النجاح لعدم وجود الآلات معهم ، لذلك أرجأوا القيام بأى عمليات أخرى

حتى يتم صنع هذه الآلات التى سوف تمكنهم بمعونة الرب من معاودة الهجوم هجوما يضمن لهم نجاحا أكبر ٠

لذلك ركز الزعماء اهتمامهم على موضوع الحصـــول على المواد اللازمة لبناء آلات الحصار ، فرأوا أن ليس فى النواحى التى حولهم ما يحقق لهم غرضهم ، لكن شاء حسن طالعهم أن يكون فى المعسكر اذ ذاك نصرانى من أهل الشـــام خرج مع بعض القادة وأرشدهم الى واد منعزل يبعد عن القدس ستة أميال أو سبعة ، وهو واد غنى بالأشجار الباسقة الكثيرة ، وان لم تكن كلها ملائمة تماما للوفاء بالغرض المنشود، وان وجدوا بينها قدرا كافيا لتحقيق اربتهم فاستدعوا أعدادا كبيرة من الفعلة والنجارين ، فقطعوا الأشـــجار وحملوها على ظهور الجمال وعربات النقل ونقلوها الى المدينة ، ثم بعثوا فى طلب الصناع والمهرة الحاذقين فى هذا النوع من العمل ، فاقبلوا جميعا عليه بنفوس متحمسة ، وقلوب لا يتطرق اليها الكلل ، ولا تكل عن المثابرة على اســـتعمال الفؤوس وغيرها من الأدوات المستعملة فى عمليات الحفر حتى استطاعوا بما توفر بين أيديهم أن يبنوا ما شاءوا من الأبراج وآلات الرمى المعروفة بالمنجنيق وصنعوا كباش الهدم والدكات لنقض الأسوار ٠

أما العمال الذين تطوعوا للعمل بلا أجر رغم نقص المادة بين أيديهم، فقد كانت أجورهم من الهبات التى قدمها المخلصون، والواقع أنه لم يكن عند أحد من الزعماء من المال مايزيد عما لدى غيره وما يكفى لسداد أجور البنائين باستثناء كونت تولوز الذى كان أكثرهم ثراء ، فقام وحده من غير مساعدة من أى أحد آخر بدفع نفقات العمال التابعين له من جيبه وخالص ماله ، كما مد يد العون بالمال الى كثير من النبلاء الذين نضبت مواردهم ٠

بينما كان اكبر الزعماء مشغولين بهذه الأمور الهامة خرج غيرهم من وجوه القوم والبارزين فيهم ناشرين ألويتهم ، وساروا بالناس الى الأماكن التى كانت زاخرة بالغابات القصيرة الأشجار والأحراج ، فأخذوا منها أعواد الخيزران المستوية والفروع اللدنة ، وعادوا بها الى المعسكر على ظهور الجياد والحمير وكل ماالديهم من دواب النقل ليعملوا منها شباكا لابد منها لاستكمال أعمال البنائين الهامة ، ودب النشاط فى كل ناحية ، وعمل الجميع فى حماسة لا تهن، ولم يعد هناك واحد فى هذه المجموعة الكبيرة من الناس نراه عاطلا أو لاهيا ، بل اشتغل كل منهم بمايناسبه دون تفرقة بين فرد وآخر ، أو اعتبار لمكانة الشخص منهم فعد كل عمل مجد عملا شريفا ، وهكذا تعاون القوم : غنيهم وفقيرهم على السواء فى القيام بما بين أيديهم من الأعمال حتى لم يعد فيهم أحد الا وهو متحمس للعمل مقبل عليه اقبالا يستوى فيه الجميع ، لا يتأخر من كان منهم رفيع القدر عن مد يد المعونة لصغيرهم الذى كان ملتزما بما فرض عليه ، وشعر الكل أن جميع ما أنجزوه فى حجهم لن يكون شيئا مذكورا ان لم يؤد بهم الى دخول المدينة ، فذلك ثمرة جهدهم والغاية التى تحملوا من أجلها كثيرا من الأهوال ، واعتبروا كل ما يكلفون به شيئا تافها ان أدى الى ما يصبون اليه ، وفاء بالعهود التى قطعوها على أنفسهم .

— ٧ —

ثم بدأ الجش يكابد الظمأ مكابدة فظيعة وذلك لوقــوع بيت المقدس — كما قلنا — فى أرض مجدبة تماما خالية من الماء ، أما القنوات والينـــابيع والآبار العذبة فكانت بعيدة عنها ، وزاد الأمر مشقة أن لم يكد الأعداء يسمعون باقتراب الصليبيين حتى أفسدوا مصـــادر المياه هذه ، اذ راحوا يلقون فيها بالأوساخ ومختلف

الفضلات ليغدو المكان غير صالح لحصار طويل المدى ، وعمدوا الى بعض الصهاريج وخزانات مياه المطر فثقبوها فلم تعد تمسك ماء ، ومضوا الى البعض الآخر منها فأخفوها عن عيون الحجاج حتى لا يجدوا ما يروى لهم غلة أو يبل لهم صدى وهم فى حالة تبعث على اليأس .

ومع ذلك فطالما تردد أهل بيت لحم ومؤمنو مدينة الرسل «تقوع» على الجيش فيسترشد بهم الحجاج فى خروجهم الى العيون التى تبعد أربعة أو خمسة أميال من موضع الحصار ، فكانوا اذا بلغوها ـ وما يبلغونها الا بشق النفس ـ تدافعوا بالمناكب ، وزاحم بعضهم بعضا عليها ، وحاول كل منهم أن يستأثر وحده دون صاحبه بالماء فيشب العراك بينهم فيؤخرهم ذلك طويلا ، حتى اذا عادوا الى المعسكر عادوا بقربهم الجلدية وفيها الماء الممزوج بالطين الذى قل أن تشفى القطرة منه ظمأ الظمآن ، ثم يبيعونه جرعات صغيرة بأثمان باهظة .

ولم تكن بركة سلوام القريبة من المدينة والتى وصفناها حالا بقادرة على اسعاف العطاش المتضررين بما يكفيهم ، لأن مياهها ـ وان تكن كثيرة ـ لم تكن موصولة التدفق فى أوقات منتظمة ، كما ساعد الجو وقيظ يونيو على مضاعفة عذاب الحجاج ، فتزايدت شدة ظمئهم حدة حتى جفت حلوقهم ، وضاقت صدورهم بسبب طبيعة عملهم والتراب المتصاعد ، لذلك أصبحوا يخرجون فى زمر متفرقة وينتشرون فى فجاج الأرض متحملين المشقة بحثا عن الماء ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تظن هذه الجماعات الصغيرة أنها عثرت على الماء الذى سعت اليه طويلا لكنها تصادف عند بلوغها اياه جموعا كثيفة تسعى هى الأخرى اليه أيضا ، ولذلك فكثيرا ما كانت تشب المنازعات بين بعضهم والبعض حين يعثرون على الينابيع . واذ كان

كل فريق منهم يحاول صد الآخر عنها فكثيرا ما كان ينتهى الأمر بهم الى قتال بعضهم البعض ، وكان المترجلون منهم أقدر ــ الى حد ما ــ على التخلص من عذابهم اذ يقتصدون فى استعمال الماء حين يعثرون عليه ، أما أصحاب الجياد الكثيرة فكان خطبهم جسيما ، اذ كان عليهم قيادة هذه الحيوانات الظمآى أربعة أو خمسة أميال حتى يصلوا الى الماء ٠

وكانت الحيوانات الشاردة التى عجز أصحابها عن امدادها بالماء تهيم وحدها على وجوهها فى الحقول وتمضى خائرة القوى فى خطى قصيرة ، وكانت الجياد والبغال والحمير وقطعان الماشية والأغنام وقد أمضها الظمأ القاتل تنفق حيث هى ، وترتب على ذلك أن فسد هواء المعسكر من جراء الروائح الكريهة الموبوءة المتصاعدة من رمم هذه الحيوانات النافقة ٠

ولقد أصاب الناس خلال هذا الحصار ــ ما أصابهم وهم أمام أنطاكية ــ من ظمأ قاس لا يقل عن حاجتهم للطعام ، معا دفعهم الى التجوال فى غير حذر فيما يحيط بهم من النواحى يذرعونها بحثا عن الطعام ، وطلبا للعلف اللازم للجياد ، واذ كان العدو عارفا تمام المعرفة بحاجة هذه الجموع الى العلف فكثيرا كان يباغتهم بالهجوم عليهم من نواحى المدينة التى خلت ممن يحرسها فيفتك بالكثيرين منهم ويسلبهم خيولهم ، أما الذين يفرون وقد أثقلتهم جراحهم فكانوا هم السعداء ٠

أخذ عدد رجالنا يتقلص يوما بعد يوم ، اذ لم يكن ينقضى يوم الا ويهلك الكثيرون بسبب شتى الحوادث التى يتعرض لها الانسان، بالاضافة الى انقطاع أية أمدادات أخرى تصلهم لتحل محل هؤلاء الهلكى وتؤدى ما كانوا يؤدونه من الأعمال ٠

أما قوات العدو فكانت فى تزايد مستمر وتكاثر موصول اذ كان حلفاؤهم يجدون طريقهم الى المدينة مفتوحا أمامهم من خلال النواحى التى لم يفرض عليها الحصار ، فيسرعون اليهم منضمين الى قوات الأهالى لتدميرنا ٠

— ٨ —

كان عسكرنا فى هذه الأثناء يبذلون فى العمل أقصى جهدهم ويصنعون الآلات وينسجون الشباك المجدولة ، ويشدون الســــلالم بعضها الى بعض فى مهارة عظيمة ، كما كان المحصورون دائما على اتم أهبة لمقابلة المكيدة بالمكيدة ، ويحسنون الاستفادة من كل حيلة تساعدهم على المقاومة ، هذا الى ما كان متوفرا بالمدينة من العروق الخشبية المقطوعة من الأشجار الباسقة التى حملهم بعد نظرهم فى الدفاع عن القدس الى جلبها قبل وصول الصليبيين ، كما راحوا يعملون ما نعمله فصنعوا من هذه الكتل فيما وراء الأسوار آلات تطاول آلاتنا فى الارتفاع ، وان تكن من مادة أفضل ، وبذلوا فى ذلك غاية البذل حتى لا تكون آلاتهم دون آلاتنا صنعة ولا مادة ، ولم يقصروا فى أن يقيموا على الأسوار والأبراج الكشافين الذين لاتغمض لهم عين عن مراقبة كل ما يجرى فى معسكرنا ، لاسيما فيما يتعلق بالفنون الخاصة بآلات الحرب ، فكانت لا تفوتهم شاردة ولا واردة وان دقت الا وينقلونها فى الحال الى كبار رجالات القدس الذين يجاهدون فى مهارة فائقة فى محاكاة عمل الصليبيين ومقابلة كل جهودهم بنفس البراعة ، وكان هذا أمرا ميسورا نسبيا بسبب ما توفر لأهل بيت المقدس من العمال الذين هم أمهر من عمالنا ، كما كان عندهم من أدوات البناء مايفوق أدواتنا دقة صنعة ٠ هذا الى جانب أنهم كانوا ظاهرين علينا بفضل ماتوفر عندهم من الحديد والنحاس

والحبال وغير ذلك من الأشياء اللازمة لهم ، كما أصدروا مرسوما عاما يلزم جميع المواطنين بالمساعدة فى العمل وفرضوا كثيرا من الالتزامات المرهقة على المؤمنين القاطنين بالمدينة ، المتحملين عذاب الرق اذ يرغمونهم على ممارسة أعمال لم يألفوها ، ويغتصبون منهم الأموال الجمة بالعنف ويسوقونهم الى السجون مصفدين فى الأغلال، حذرا من أن يؤدى تعاطفهم مع الصليبيين لأن يكشفوا لهم عن عورات البلد الخفية ، ولم يكن أحد من المؤمنين يجرؤ على اعتلاء الأسوار أو حتى على الظهور علانية مالم يكن معه حمل يحمله ويجرى به كأنه الدابة ، كما أرغموهم على رفع الأحمال الثقال ، وأجبروا كل من هو متقن لحرفة على القيام بها ، وكانوا يسرعون بتوقيع العقاب عليهم لأتفه التهم والوشـــايات التى يرمون بها ، ويلزمونهم بأن يستضيفوا فى بيوتهم من فروا الى القدس من اللاجئين من القلاع والقرى المجاورة ، ويحملونهم على امدادهم بكل ضروريات العيش ، وعلى الرغم من أن مواد معيشتهم لم تكن كافية لسد أدنى احتياجاتهم هم أنفسهم وحاجات أهل بيتهم ومن يعولونهم الا أنهم فرضوا عليهم السماح للأغراب أن يشاطروهم القليل الذى يملكون ، مع أنهم هم ذاتهم كانوا فى مســيس الحاجة الى هذا القليل هم وذووهم ، وكان أولو الأمر اذا احتاجوا لشىء ما فى عمل عام بادروا الى اقتحام بيوت المؤمنين فيأخذون غصبا من ملاكها كل ما هم فى حاجة اليه وكان المسيحيون أنى وجدوا وفى أى ساعة من ليل أو نهار عرضة للاستدعاء ، فان حال أى حائل بينهم وبين الاستجابة فى الحال لما طلب منهم أمسكوهم فى الحال مسكا فاحشا اذ يجذبونهم من شعورهم ، أو يأخذونهم من لحاهم ويسحبونهم على وجوههم فى فظاظة تحمل حتى العدو على الرثاء لهم ٠

ويبدو أنه لم يكن ثم حد ولا نهاية للأهوال والصعاب التى تطحنهم بثقلها ، ولاقوا من العذاب فوق ما يحتمل مما أسلمهم الى اليأس الذى ليس بعده يأس حتى تمنوا الموت فى سبيل السيد على استمرارهم فى الحياة على ظهر الأرض ، ولامراء فى أن وجودهم التعس لم يكن يزيد عن أن يكون كالعدم ، اذ لم يعودوا ينعمون ولو بيوم راحة أو هدوء تغمض لهم فيه عين ·

فكان اذا حدث شىء كريه نسب حدوثه اليهم مما حملهم على اغلاق دورهم فأغلقوها على أنفسهم ، لا يجرؤون على مغادرتها والا ثارت حولهم الشكوك وتعرضوا للاهانات من كل واحد ، وما مرت لحظة الا واتهموا ظلما وبهتانا ·

- ٩ -

بينما كانت هذه الأمور تجرى على هذا المنوال والحصار مضروبا على القدس اذا برسول يفد مخبرا بوصول مراكب من جنوة الى ميناء يافا ، وقد بعث هؤلاء القادمون الجدد الى الزعماء الصليبيين يلتمسون منهم أن يزودوهم بعسكر من الجيش يحرسهم عساهم يمضون فى حراستهم وقيادتهم سالمين الى القدس ·

ويافا مدينة على ساحل البحر يتكلم عنها «سولينوس» فى الفصل التاسع والثلاثين من كتابه « أخبار عالمية » فيقول : انها أقدم مدن العالم كلها ، اذ يرجع تأسيسها الى زمن ما قبل الطوفان ، ويمكن للانسان أن يشاهد هناك صخرة لاتزال تحمل آثار السلاسل قيدت

بها « اندروميدا » التى تعرضت فى هذا الموضع (حسبما جاء فى احدى القصص القديمة الصادقة) لوحش بحرى ، كما أن « ماركوس سكاوروس »يشير الى حقيقة هى أنه فى أثناء ولايته لروما عرض عظام هذا الوحش مع أشياء أخرى عجيبة ، وقد وردت هذه الحقيقة فى الحوليات ، كما ذكرت مقاييس الوحش الحقيقية ، فأضـــلاعه تجاوزت الأربعين قدما طولا ، أما ارتفاعه فأعلى من فيلة الهند ، كما أن الواحدة من فقرات ظهره كانت أكثر من نصف قدم عرضا »٠

ويشير جيروم — فى وثيقة رثائه سنت باولا — الى نفس الشيء فيقول هذه الكلمات : « لقد رأت هى أيضا ميناء يافا الذى هرب اليه « جوناس » ، وهى نفس المدينة التى شاهدت « أندروميدا » مقيدة الى الصخرة كما تقول قصص الشعراء » ٠

ولقد استجاب الى هذا الالتماس(٣٤) كونت تولوز الذى كان له من الأموال مايفوق به بقية الزعماء ، فأرسل — بموافقة الجميع — الى هناك واحدا من النبلاء الذين فى معيته وهو « جيلدمار » الملقب « بكاربنيل » على رأس جماعة تتألف من ثلاثين فارسا وخمسين من المشاة ، ولكن تبين للزعماء بعد رحيل تلك الجماعة أن هذه القوة ليست بكافية لأداء مهمة شاقة كهذه المهمة ، فالتمسوا من الكونت أن ينجدهم بقوات اضافية ، فاستجاب لهم ، وأرسل زيادة على ذلك خمسين فارسا آخرين يشدون أزر الطائفة الأولى ، وجعل عليهم رجلين قادرين بارزين ، هما « ريموند » بيليه ووليم «السابرانى» ٠

---

(٣٤) المقصود بهذا الالتماس ماطلبه بحارة الأسطول الجنوبى من ارسال طائفة من العسكر الصليبى لحمايتهم فى التقدم الى بيت المقدس ٠

كان جيلدمار ـ الذى سبق هذه الجماعة فى الخروج ـ قد دخل السهل المحيط باللد والرملة حين اعترضته جماعة من العدو تقدر بستمائة من الرجال الأشداء الذين سرعان ما وثبوا عليه وفتكوا بأربعة من فرسانه ، وبالحديد من مشاته ، وعلى الرغم من قلة المسيحيين الا أنهم قاوموا ، وأسعفتهم المقاومة وراح كل منهم يشد من عزم أخيه على القتال ، حين شاء حسن الطالع أن يصل اليهم القائدان الآخران اللذان كانا وراءهم ، وذلك قبـــل الفراغ من المعركة ، فرميا بنفسيهما فيها بمن معهما ، وانضم العسكر كلهم بعضا الى بعض وكروا على العدو كرة مكنتهم بفضل المعونة الالهية من قتل مائتين من رجاله ، وأجبروا بقيتهم على الفرار ، أما المسيحيون فقد هلك منهم فى هذا الصراع اثنان من كبارهم ، هما جيلبرت دى تريف « وايكارد دى مونتميرل » فلما عرف الجيش خبر مصيرهما عمه أسى غير قليل • وبعد أن جادت العناية الالهية عليهم بهذا النصر تابعت الكتيبة مسيرها الى يافا التى هى غايتهم ، فوصلوها آمنين ، فتلقاهم البحارة الجنويون بالفرحة ، وعمتهم السعادة لفرط ما صار بينهم من ود ، وما كان بينهم من شيق الحديث ، ثم أقاموا بها فترة من الوقت فى انتظار أن يفرغ هؤلاء القادمون بحرا من انزال متاعهم واعداد أنفسهم للسير •

لكن ظهر الأسطول المصرى فجأة ذات ليلة أمام المدينة على غير توقع من أحد ، وكان هذا الأسطول راسيا عند « عسقلان » يتحين الفرصة لايقاع الأذى بالصليبيين ، فما سمع الناس بهذا النبأ حتى هبوا مسرعين الى الساحل ، وحاولوا فى بادىء الأمر حماية السفن مما يدبره العدو ، بيد أنهم سرعان ما أدركوا ضآلة قواتهم ضآلة لا تسعفهم بمقاومة مثل هذا العدد الكبير ، ومن ثم جردوا المراكب

من أشرعتها وحبالها وبقية تجهيزاتها وحملوا كل ذلك معهم ، ثم انسحبوا بما حملوا الى القلعة •

غير أن سفينة واحدة كانت غائبة فى حملة استكشافية ثم عادت موسوقة بالغنائم ، فلما رأت العدو قد ملك ميناء يافا تابعت اذ ذاك أبحارها وكانت الريح رخاء فمضـــت حتى بلغت اللاذقية سالمة •

كانت مدينة يافا فى هذه الآونة مقفرة تماما من سكانها الذين تضاءلت ثقتهم فى قدرة تحصيناتها فهجروها قبل وقت قصير من وصول المسيحيين ، فانصرف جنودنا لاحتلال القلعة دون سواها ، حتى اذا أصبح كل شيء على أهبة الرحيل شخص الوافدون الجدد الى بيت المقدس بكل ما معهم من المتاع ، ومضوا تحت الحراسة المسلحة التى جاءتهم لتدلهم على الطريق ، فلقيتهم الفيالق المعسكرة امام القدس بالفرحة الغامرة ، لأن حضورهم جدد الأمل فى النفوس بالعون الكبير ، اذ كانوا أهل تجربة ومراس ، كما كانوا مهرة فى فن البناء كعادة البحارة دائما ، هذا الى جانب براعتهم فى قطع الأشجار ومسحها وتهيئة الكتل الخشبية المناسبة وصنع الآلات فى أقصر وقت ممكن ، يضاف الى هذا ما أحضروه معهم من أشياء متنوعة برهنت على جدواها فى الحملات الحربية ، وتيسر لهؤلاء الحجاج ـ بمساعدة أولئك الجنوية لهم ـ من انجاز ما كان صعبا مستحيلا قبل مجيء هؤلاء الجنوية •

ـ ١٠ ـ

دأب الذين تخلفوا فى مكان الحصار على القيام ببناء الآلات، وتم لهم اتمام جانب من عملهم هذا ، وكان الدوق وكونت فلاندرز وكونت نورماندى قد وكلوا الاشراف العام على العمل الى « جاستون

دى بيارن » وكان رجلا حازما عظيم القدر ، فالتمسوا منه أن يشدد الرقابة الفعالة على العمال حتى لا يتراخوا فى العمل الموكول اليهم اداؤه ، كما أن الزعماء طالما خرجوا بأنفسهم على رأس طوائف كبيرة من الناس لقطع الخشب الذى يعودون به الى المعسكر لاتمام عمليـــات البناء المختلفة ، وكان البعض منهم يقوم بقطع الفروع والشجيرات والأغصان وتكويمها ، ثم يجدلونها ضفائر يكســـون بها الآلات من الخارج ، ويقوم غيرهم بســـلخ جلود الحيوانات النظيفة منها والقذرة على السواء ، التى تكون قد نفقت ظمأ أو ذبحت وراحوا يغطون أسطح الآلات بهذه الجلود لحمايتها من أن ينالها ضرر ان قذفها العدو بالنار من أعلى حتى يعطبها .

ولقد أدت حماسة الدوق والكونتين المذكورين الى بث النشاط العظيم فى العسكر الموجودين على الجانب الشمالى من السور ، كما دبت نفس الحماسة فى القائمين على امتداد هذا الجزء من التحصينات من البرج الموجود فى الركن حتىالبوابة الغربية الموجودة تحت برج داود ، كما أن قوات لورد تانكريد وغيره من السادة الآخرين المبثوثة معسكراتهم فى تلك الناحية قاموا بنفس العمل ، وأظهروا من النشاط مالا يقل عما أظهره غيرهم .

وتابع عسكر كونت تولوز وجميع من معه عملهم فى الناحية الجنوبية فى حماسة لا يتطرق اليها الكلل ولا يعتريها الفتور ، بل ان حماستهم فى هذا المجال لم يكن لها مثيل ، ذلك لأن الوسائل المادية المتوفرة لريموند (كونت تولوز) كانت أكبر مما توفر للزعمـــاء الآخرين ، بالاضافة الى ما جاء له منذ قريب من امدادات جديدة من الرجال والعتاد ، فقد انضم الى معسكره كل الذين جاءوا على السفن (الجنوية) وجلبوا معهم كثيرا من المعونات كالحبـــال

والفؤوس وغيرها من الأدوات الحديدية التى لا يمكن الاستغناء عنها لصنع الآلات الحربية ، وكان فى هؤلاء الرجال عمال مهرة دربوا على صنعها واقامتها ، وكانوا ـ كما قلنا ـ أهل خبرة ، قادرين على ابتداع كل جديد يؤدى الى سرعة العمل ، كما ان الشريف وليم « أمير ياكوس » قائد الجنوية لم يدخر جهدا ولا وقتا فى موضوع بناء الآلات .

ظل الجيش بأكمله يبذل قصارى جهده على مدى اربعة أسابيع فى أداء العمل الذى تم بعد مشقة كبيرة ، واذ ذاك اخذ الزعماء فى التشاور فيما بينهم فاتفقوا على يوم معين للهجوم على المدينة .

على أنه فى هذه الأثناء شب خلاف حاد بين كونت تولوز ولورد تانكريد ، كما دب الشقاق بين بعض النبلاء الآخرين لأسباب متعددة ، وحينذاك رأى الزعماء والأساقفة ورجال الدين ، بل وعامة الناس أن الضرورة تحتم ـ قبل كل شيء ـ اعادة الوفاق والود على احسن ما يكون الوفاق والود ، فاتجهوا بقلوب صافية الى العناية الالهية يسألونها العون .

ـ ١١ ـ

لذلك نودى فى الناس نداء عام بصوم يوم حدد لهم ، فلما جاء هذا اليوم المحدد خرج الأساقفة ورجال الدين حفاة فى مسوحهم الكهنوتية يجللهم الوقار التام ، وساروا ومن خلفهم كل اتباعهم ، ويمموا وجوههم شطر جبل الزيتون ، رافعين فى أيديهم الصلبان وآثار القديسين ، ووقف الموقر بطرس الناسك وأرنوف الرجل العالم صديق كونت نورماندى فى الناس خطيبين ، واسعفتهما بلاغتهما ،

فطالبا الجميع بالتمسك بالصبر ، والتحلى بروح التســامح تجاه بعضهم البعض .

* * *

ويقع جبل الزيتون على مسافة ميل واحد من شرقى المدينة وراء وادى يهوشافاط ، الذى يتكلم عنه القديس لوقا فيقول انه على مسيرة مرحلة(٣٥) يوم من بيت المقدس ، وقد صعد من هذا الجبل مخلصنا الى السماء بعد أربعين يوما من قيامته ، وكان ذلك على مشهد من تلاميذه ، فلفته سحابة حجبته عن أنظارهم .

ولما وصل المؤمنون الى هذا المكان توجهوا الى الله بقلوب خاشعة ونفوس منكسرة ، يرجون منه العون ، وقد تصاعدت زفراتهم وأناتهم من صميم أفئدتهم ، وتصافى الزعماء بعضهم مع بعض ، فلما فرغوا من ذلك كله نزلوا من الجبل ، ودخلوا ثانية كنيسة جبل صهيون ، الواقعة كما قلنا قرب المدينة من الناحية الجنوبية على قمة التل .

واذ ذاك استبدت الدهشة بالأهالى من رؤية هذا الموكب وهو يدور حول المدينة ، ولم يدركوا مغزى هذا الدوران ، ثم اتخذوا أماكنهم على الأسوار والأبراج ، وشرعوا يقذفون السهام ويرمون بالمنجنيق صفوف الصليبيين المتراصة ، فأصيب بعض من رجالنا الذين لم يأخذوا حذرهم .

وعمد الأعداء الى اظهار احتقارهم وازدرائهم للصليبيين اذ رفعوا الصلبان على الأسوار وراحوا ينالونها بكل قبيح وزادوا

---

(٣٥) ورد بدلها كلمة « سبت » فى اعمال الرسل ١ : ١٢ ـ حيث يقول « جبل الزيتون بالقرب من أورشليم على سفر سبت » .

فبصقوا عليها ، ونالوها بألفاظ زرية ، كما راحوا يجدفون فى حق سيدنا عيسى المسيح وفكرة الخلاص ٠

أما المسيحيون فعلى الرغم من تسعر غضبهم عليهم الا أنهم استمروا فى الوفاء بما عاهدوا أنفسهم عليه حتى بلغوا الكنيسة وهى قبلتهم ٠

ولما فرغوا للمرة الثانية من صلاتهم اجمعوا على تحديد يوم يشنون فيه هجومهم على المدينة ، ثم عاد الجيش الى معسكرهم بعد أن فرغ الموكب من دورانه حول البلد ، وصدرت الأوامر أنه اذا تبين لهم نقصان أى شىء لابد منه لاتمام نجاح مهمتهم فعليهم احضاره فى الحال حتى لا يترتب على ذلك أى تأخير فى الهجوم ٠

واقترب اليوم المحدد للهجوم على المدينة ، فلما كانت الليلة السابقة له نقل الدوق والكونت العظيمان معسكرهما لأنهما رأيا أن سور هذه الناحية التى يحاصرانها كان شديد الحصانة ، بسبب ماهو متوفر فيه من الآلات والأسلحة والمحاربين المهرة ، ولما كان الأعداء على حق فى توجسهم الخيفة من هذه الناحية فقد اهتموا بتحصينها تحصينا عرف منه القادة (اللاتين) الا أمل لهم فى انجاز الكثير فى غدهم ٠

ثم نظروا فرأوا ــ عن حق ــ ما عليه الجانب الآخر من القدس الذى لم يحاصروه من ضعف فى الحراسة ، ومن ثم عمدوا فى ليلتهم هذه الى اعمال النظر وبذل الجهد الكبير فى نقل آلاتهم الحربية ــ والبرج الذى شيدوه ــ قطعة فقطعة قبل ضم بعضها الى بعض الى ذلك القسم من المدينة ، وهو القسم الواقع بين بوابة القديس استيفان وبين البرج الموجود فى الركن الشمالى المطل على وادى يهوشافاط ،

وانتقل المعسكر الى هناك ، وكان العمل الشاق الذى نهضوا به طوال الليل قد مكنهم من نقل الآلات الحربية وتركيبها ووضعها فى الأماكن المناسبة قبل شروق الشـــمس ، كما نصبوا البرج المتحرك على التحصينات عند مكان كان الســـور فيه منخفضا بعض الشيء ، والوصول اليه سهلا ، وقد تم وضعه على هذه الصورة حتى يستطيع المدافعون الذين فى البرج القتال بالأيدى ، ومن هذا يستدل على أن المهمة التى أنجزوها لم تكن يسيرة ، لأنه كان قد تم نقل الآلات قبل بزوغ الشمس مسافة نصف ميل من الموضع السابق للمعسكر ، ثم ضموا الأجزاء بعضها الى بعض ، ووضـــعوا الآلات فى أماكنها الجديدة ٠

ولما بزغ الفجر أسرع الأهالى الى الأسوار لمشاهدة ما كان يفعله الصليبيون وراءها ، فراعهم أنهم لم يروا أثرا للقســـم من العسكر الذى كان موجودا على مدى اليومين السالفين ولا لمعداته هناك ، لكنهم لما تفرسوا فى ناحية منطقة السور تكشف لهم أن معسكر الدوق قد انتقل من هذا الموضع ، ونصـــبت بدله المعدات الحربية ٠

وفى خلال هذه الليلة ذاتها ، تابع الزعماء الآخرون أيضا عملهم فى جهات أخرى من المدينة ، فنقلوا معسكراتهم على النسق الذى اتفقوا عليه ، واستمروا قائمين بالحراسة بعين لايغمض جفنها ، ونصبوا آلاتهم ، وقام كونت تولوز فى الوقت ذاته الى البرج الذى اهتم بصناعته كل الاهتمام، ونصبه على الاستحكامات الموجودة فيما بين كنيسة جبل صهيون وبين المدينة ، كما أن الزعماء الآخرين الذين يحتلون المكان الواقع حول البرج الموجود فى الزاوية والمعروف الآن ببرج تانكريد كانوا قد نقلوا ـ بمثل هذه العناية وذلك الجهد ـ برجا خشبيا يكاد يضاهى الأبراج الأخرى فى ارتفاعه وقوة بنائه ٠

كان الشبه قويا بين الآلات الثلاث فى الشكل وفى دقة الصنعة ، فهى مربعة الصورة ، كما كان هناك سور مزدوج يحمى جانب كل واحدة من هذه الآلات القائمة فى مواجهة المدينة ٠

ثم عمدوا الى حيلة ماهرة مكنتهم من انزال البرج الخارجى بصورة معينة ليصبح معها جسرا يربط بالسور ، مما أمد الجنود بالوسيلة التى ساعدتهم على دخول المدينة ، ولم تدع هذه الحيلة القسم الذى به الآلة معرضا لشىء ما ، لأنه حين ارخاء الساتر الخارجى فان الطبقة الثانية التى تحته تتيح حماية كالحماية التى تنعم بها الجوانب الأخرى ٠

ـ ١٣ ـ

رتب الصليبيون أمرهم على أن يكون جيشهم واقفا بأجمعه وفى كامل عدته أمام المدينة عند طلوع النهار استعدادا للهجوم ، ولم يكن يشغل القلوب سوى شاغل واحد هو : اما أن يستردوا بيت المقدس لتنعم بحريتها المسيحية ، واما أن يضحوا بأنفسهم من أجل المسيح ، ولم يكن فى هذا الجيش الكثيف مسن أو مريض أو غلام الا وقد تملكته الحماسة وعصفت به اللهفة واستبد به الشوق الى القتال ، حتى ان النساء لم تمنعهن أنوثتهن ولا ضعفهن الطبيعى من الاقدام بلا مبالاة على حمل السلاح لخوض المعركة بجنان ثابت فوق طاقتهن ، وهكذا تقدم الصليبيون جميعهم صفا واحدا للمعركة ، محاولين دفع الآلات المستحدثة البناء الى السور عسى أن تسهل عليهم مهاجمة من يشتدون فى مقاومتهم فوق الحواجز والأبراج ٠

أما الأهالى فقد صمموا من ناحيتهم على صد عدوهم حتى آخـــر رمق فيهم ، فراحوا يمطرونهم بوابل هتـــان من النبـــال

والسهام ، ويرمونهم بالحجارة تقذف بها الأيدى أو الآلات بصورة مروعة ، لأنهم كانوا مجمعين العزم على أن يحولوا بين رجالنا وبين الاقتراب من السور ، غير أن الصليبيين الحجاج لم يكونوا يقلون عنهم نشاطا ، فاحتموا بدروعهم ، ونشروا أمامهم ستائرهم المجدولة، وراحوا يمطرونهم بسيل من السهام يطلقونها من أقواسهم، واكتنفوهم بالقذائف وبالطلقات تنصب عليهم من الآلات ، كل ذلك والحجاج يحاولون الاقتراب من التحصينات ، وكانوا يبذلون غاية جهدهم لفل عزائم خصومهم ، فلم يكونوا يتيحون لهم لحظة واحدة يلتقطون فيها أنفاسهم ، وحاول بعض من فى داخل البرج المتحرك أن يدفعوه الى الأمام بواسطة الأعمدة ، كما أن غيرهم من الواقفين عند الآلات شرعوا يقذفون الأسوار بالأحجار الضخمة ، أملا منهم فى أن يدب فيها الضعف فتسقط من الرمى المستمر والقذائف الموصولة ، المتصل بعضها ببعض • وكان هناك قوم غير هؤلاء قد تسلحوا بأسلحة صغيرة يسمونها المنجنيق ، ترمى حجارة دون هذه حجما ، ويعملون فى غير تراخ عساهم يمنعون المدافعين الموجودين بالأبراج من اصابة مقاتلينا بأى ضرر •

على أن الصليبيين الذين كانوا يحاولون دفع الآلة الى الأمام لم ينجحوا النجاح الذى كانوا يطمعون فيه بسبب وجود خندق واسع عميق أمام المتاريس ، وقد وقف هذا الخندق عقبة كأداء عطلت تقدم الآلة الى الأمام ، كما أن الذين كانوا يحاولون عمل ثغرة فى الأسوار لم يحرزوا النتائج المرجوة ، وذلك لأن الأهالى الذين كانوا وراء الأسوار دلوا زكائب مملوءة بالقش ، وعلقوا كتل الخشب الضخمة والوسائد المحشوة بالحرير ، فأفسدت هذه الأشياء اللينة اللدنة مفعول ضربات القذائف ، وقضت على جميع محاولات المهاجمين ، هذا بالاضافة الى أن ما نصبه العدو داخل المدينة من

الآلات كان أكثر عددا مما عندنا ، وكانت السهام والأحجار التى لا تكف آلاتهم عن رميها تفوق عمل الصليبيين ٠

على أنه كان كل من الجانبين يبذل أقصى جهده ، كما تدفعه كراهية حادة نحو الآخر لقتاله ٠ لذلك اســـتمرت المعركة من الصباح حتى المساء ، وكانت معركة حامية الوطيس موصولة بصورة تجاوز كل ظن ، فكانت الرماح والقسى تنهال كصيب من السماء على كلا الجانبين ، وكانت قذائف الأحجار التى يرمى بها كل خصم خصمه يصطدم بعضها ببعض وهى مازالت فى الجو ، ثم تسقط فتهلك المقاتلين وتصيبهم بشتى أنواع الهلاك ٠

وتساوى جميع مقاتلينا فيما لاقوه من عنت ، سواء منهم من كان مع الدوق ، أو كان مستظلا بعلم كونت تولوز ، أو غيرهما من القادة ، ذلك الهجوم كما قلنا كان يأتى فى آن واحد من ثلاثة محاور ، ويتسم بنفس الســـمة من العنف والضـــراوة ، كما أن العمل تزايد أمام الصليبيين زيادة كبرى ، لأنه كان يتحتم عليهم ردم الخندق بالأنقاض والأحجار والتراب ، قبل أن يتمكنوا من شق طريق تتحرك عبره آلات القتال ٠

وكانت مهمة المدافعين فى اعاقة القوات المحاصرة شاقة كل المشقة ، فقد استمروا فى بذل الجهد الجبار لصد أنشطة المحاصرين العنيفة ، كما دفعهم اليأس الى محاولة اشعال النار بآلات الصليبيين الحربية فشرعوا يقذفونها بالجمر المتقد ، ويرمونها بالسهام المحملة بالكبريت المشتعل والقار والزيت ، وبكل ما يؤجج النيران ضراما ، وزيادة على ذلك فقد كانت آلات العدو الضخمة التى بنيت داخل المدينة تسدد قذائفها تسديدا محكما الى آلات الصليبيين الموجودة فى الخارج ، حتى أخذت هذه الآلات تضـــعف وكثرت فى جوانبها

الثقوب ، فاشتد جزع المقاتلين المسيحيين الذين كانوا قد صعدوا الى أدوار البرج العليا لمهاجمة المدينة من هذا الارتفاع ، ولم تقدر لهم الحياة الا بطرح أنفسهم من شاهق ، وأخيرا عمد الصليبيون الى صب المياه بكثرة من عل ، فقيض لهم النجاح فى تعطيل جهود رماة النيران ، وبذلك أمكنهم اخماد لهيبها .

ـ ١٤ ـ

أدى دخول الليل لوضع خاتمة لهذا القتال الذى كان قد اضطرم اضطراما كبيرا وسط الخطر البالغ وان لم يحسم الأمر ، غير أن المقاتلين أصابوا خلال الحراسة الليلية ـ قسطا من الراحة الجثمانية، وان كان القلق النفسى الذى لم ينقطع اطار النوم من عيونهم ولم يقلل من مشقتهم ، فقد كانت قلوبهم التى اترعت غما تضطرب بين صدورهم حرصا منهم على تحقيق غرضهم ، فانتظروا طلوع النهار حتى يعاود كل جانب منهم القتال ، وكانوا أثناء ذلك يتحرقون شوقا لخوض المعركة مرة أخرى ، لأن ايمانهم بالرب كان يحملهم على الثقة فى أنهم ملاقون حظا أطيب يؤتيهم بالنصر .

بيد أن ذلك لم يقلل من فزعهم من أن يتمكن العدو ـ بحيلة أو بأخرى ـ من أن يضرم النار خلسة فى الآلات ، ومن ثم فرضوا عليها الحراسة المستمرة ، وأمضوا ليلة لم تذق عيونهم فيها للكرى طعما .

وكان فزع المحصورين لا يقل عن فزع هؤلاء ، فقد كان أشد ما يقلق بالهم ويزعج خاطرهم أن يغتنم العدو فرصة سكون الليل فيدخل عليهم المدينة لاسيما بعدما رأوا هجمته الشرسة بالأمس عليهم ، وقد يكون سبيله فى ذلك اما باحداث ثغرة فى سورها أو بتسلق حصونها، لذلك أمضوا الليل بأكمله وهم يبذلون أقصى العناية فى حراسة

منطقة التحصينات ، وكان الوضع يتطلب منهم غاية الجد لأن الأمر عندهم كان أمر حياة أو موت ، لذلك أقاموا فى كل برج ضباطا للدراسة الليلية .

وكان كبارهم فى هذه الأثناء ، ومن وكلت اليهم مسئولية حفظ المدينة لا يكفون عن السير فى شوارعها ، يوصون الناس باليقظة التامة حفاظا على نسائهم وأبنائهم وماملكت أيديهم ، ورعاية للسلامة العامة ، كما أخذوا انفسهم بالتدقيق فى فحص الأبواب وضبط الطرق ، حتى لاتتاح للعدو فرصة يباغتهم فيها بحبائله .

هكذا كانت الكروب تضرب هذا الجانب بما تضرب به الجانب الآخر فلم يذق أحدهما طعما للراحة لانشغال باله ، وكان الفزع العقلى الدائم الذى ران على قلوبهم قد وقر فى أذهانهم من الاضطراب ماهو أشد هولا فى الواقع من معركة الأمس .

ـ ١٥ ـ

أوشك الليل على الانصرام ، وبدأت خيوط الضياء الأولى تعلن اقتراب النهار الذى كانوا يترقبونه بفارغ الصبر حين نودى فى الناس مرة أخرى للقتال الذى كانوا يشتاقونه اشتياقا كبيرا ويتحمسون له حماسة بالغة ، فبادر كل منهم فى لحظته الى المهمة التى نيطت به البارحة ، فوقف البعض عند آلات الرمى قاذفين الأسوار بالأحجار الضخمة الثقيلة الوزن ، ووقف البعض الآخر فى أماكن تحت هذه باذلين أقصى الجهد ومنتهى القوة فى دفع آلة الحصار الى الأمام .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء من اتخذوا مكانهم فى الطابق العلوى من نفس الآلة ينضحون العدو الموجود فى الأبراج المواجهة

بوابل هتان عن أقواسهم وسهامهم وبما عندهم من الأسلحة ، وهكذا كان القصف مستمرا وفعالا حتى عجز المدافعون عن رفع أيديهم عما هى مشغولة به ، واضطروا الى البقاء حيث هم ، فلما تم ردم الخندق ونقب الأسوار الأمامية استمات بعض المحاصـــرين فى دفع البرج ليصبح أقرب مايكون الى السور ، كما أن قوة أكبر من هذه القوة واصلت فى هذه الأثناء رمى الحجارة والسهام لرد المهاجمين على أعقابهم ، حتى لايكونوا عقبة فى وجه من يقومون بدفع الآلة الى الأمام ٠

فلما رآى الأهالى تزايد جهود الصليبيين استماتوا من جانبهم فى شجب كل خطة فيقابلونها بخطة مثلها ، وراحوا يردون القوة بالقوة ، وتابعوا نشاطهم فى صد المحاصرين ومن يحاولون التقدم بالبرج ، فأخذوا فى رميهم بالسهام والأحجار ، وأسفر نشـــاطهم العجيب عن نجاحهم فى صد تقدمنا ، ولما كانوا يطمعون فى القضاء المبرم على محاولتنا هذه فقد عمدوا الى قذف الآلات بالنار يصبونها عليها فى جرار هشة وماشاكلها مما يتوفر بين أيديهم ، كما رموهم بالكبريت والقطران والزيت والدهون والشمع والخشـــب اليابس والحشائش الجافة وبكل مايصلح أن يكون وقودا يذكى النار اشتعالا، مما أسفر عن انزال الأضرار الفادحة المزعجة بكلا الجانبين المتقاتلين فهلك كثير من الفرسان والجند المشاة بسبب تلك الأهوال والأحداث التى لم تكن فى الحسبان اذ أصابت بعضـــهم القذائف من الآلات فتفتتوا ومزقوا تمزيقا ، وســـقط بعضهم فجأة بســـبب القسى والحراب ، فانحشروا ما بين جواشنهم ودروعهم ، وربما مات بعضهم فى لحظته من حجر رمته به يد أو من قذيفة قذفته بها آلة فصرعته ، وخرج بعضهم ليعيشوا أياما أو الى آخر عمرهم بأطراف مبتورة ، أو أصابهم الشللفلم يعودوا يستطيعون حراكا ٠ على أن هذهالأخطاء

كلها لم تكن قادرة على منع الرجال من الجانبين المتصارعين من الاستمرار فيما هم فيه ، أو فل عزمهم عن مواصلة القتال فى اصرار متسم بالعنف ، وما كان هناك من احد ما بقادر على أن يقرر أى الفريقين كان أكثر حماسة من الآخر ٠

على أنه ليس من الحق أن نمسك عن الاشارة الى حادث بارز يقال انه حدث فى هذا اليوم ، وذلك انه كان عند الصليبيين آلة من بين آلاتهم التى كانت خارج الأسوار أحدثت هلاكا مدمرا فى صفوف المدافعين بسبب ما كانت ترميهم به من صخور ثقيلة رميا جبارا ، فلما رأى المارقون أن ليس عندهم آلة تضاهى هذه الآلة فى عنفها ، جاءوا بساحرتين عسى أن يبطل سحرهما فعل الآلة ابطالا لا تعود فيه للعمل ٠ فارتقت المرأتان السور ، وراحتا تمارسان سحرهما ، واذا بحجر ضخم ينطلق من نفس الآلة فيصيبهما ويسحقهما ومعهما ثلاث بنات كن فى خدمتهما ، فهوت جثثهن جميعا من السور ، فلما طالع الجيش الصليبى هذا المنظر ، تعالى تصفيقه وضج بالهتاف ، ولم يبق أحد فى معسكرنا الا وقد غمرت الفرحة قلبه ، أما أهل بيت المقدس فقد امتلأت نفوسهم غما بسبب هذه النكبة ٠

— ١٦ —

على الرغم من استمرار القتال حتى الساعة السابعة من ذلك اليوم الا أنه لم يسفر تماما عن أى الجانبين سوف يحرز النصر ٠ وبدأ اليأس يتسرب الى نفوس الصليبيين الذين أثقلتهم فداحة الجهد الذى بذلوه ، فتراخوا فى عملهم ورأوا البرج يكاد أن يكون قد دمر تمام التدمير بسبب ما ناله من القذف المستمر ، كما تعالى الدخان من الآلات الأخرى من جراء ما رميت بما جاورها من الحطب المشتعل، فرأى الصليبيون أن خير ما يفعلونه فى هذه الظروف هو أن يسحبوا

هذه الآلات الى الوراء قليلا على نية مواصلة القتال فى الغد ، وترتب على ذلك أن تشكك قومهم فى نجاحهم فراحوا يتسللون لواذا .

أما العدو فكان الأمر عنده على العكس من ذلك ، اذ ضاعف من ضراوته وعربدته ، واندفع يقاتل بعنف أشد من العنف الذى اتسم به قتاله حتى الآن .

على انه فى وسط هذا اليأس الغامر المطلق جاءت النجدة السماوية للمؤمنين فأسعفتهم بما يرتجون ، اذ تراءى لهم على جبل الزيتون محارب لم يره أحد أبدا بعدئذ فى هذا الموضع ، وقد راح يلوح لهم بدرع يكاد بريقه يأخذ بالأبصار ، ويشير به الى العسكر أن يعودوا لمتابعة ما هم فيه من قتال .

وكان دوق جود فروى وأخوه استاس قد أخذا مكانهما فى الطابق الأعلى من البرج المتحرك ليساهما بدورهما فى الهجوم وليتأكدا من صيانة آلة الحصار صيانة تامة ، فلما شاهد الدوق هذا الشبح العجيب صفقت جوانحه سرورا ، وشرع فى لحظته ينادى على الناس وكبار القواد بصوت جهورى أن عودوا لما كنتم فيه ، فعاد الناس جميعهم برحمة الرب الى ساحة القتال وقد قويت عزائمهم ، ودبت الحماسة فيهم من جديد دبيبا كان يخيل معه للناظر اليهم أنهم يعاودون المعركة بقوة فتية جديدة ، حتى ان من كانوا قد انسحبوا منذ قليل مثخنين بجراحهم ، ومن أعياهم الارهاق حتى كادوا أن يغمى عليهم ، عادوا الآن من تلقاء أنفسهم وتقدموا للهجوم بعزيمة جبارة وحماسة طاغية ، كما أن القادة والرجال البارزين الذين كانوا يعتبرون سند الجيش تقدموا وشقوا الطريق فكانوا مثالا احتذاه سواهم واقتدى بهم غيرهم ، كما زاد من شجاعة هؤلاء ما رأوه من تلهف النساء على أن يكون لهن نصيب فى القتال ، ورحن يثرن

نخوة المحاربين ويلقين اليهم من القول ما يرد عليهم بأسهم ، ويدفعن عنهم الاغماء بما يجلبنه لهم من الماء وهم فى ساحة المعركة. ورفرفت الفرحة فى كل أرجاء المعسكر كما لو كانوا قد انتصروا ، فما انقضت ساعة من نهار حتى كان الخندق قد طم عن آخره ، وحتى كان السور الخارجى قد تصدع وأسندت آلة الحصار عنوة الى الأسوار .

ولقد أشرنا حالا الى أن الأهالى كانوا قد دلوا من الجدران كتلا ثقيلة بالغة الطول ليبطلوا مفعول ضربات الآلات ، غير أن مقاتلينا الموجودين فى برج الحصار نجحوا فى قطع الحبال التى تشد اثنين من هذه الحواجز فسقطا الى الأرض فتلقاهما من كانوا تحتهما ، وان لم يخل الأمر من خطر كبير ، فحملوا العارضتين فى الحال الى داخل الآلة ، واستعملتا فى دعم الجسر الذى جعلوه ـ كما سنشرح ذلك فيما بعد ـ يصل من البرج المتحرك الى السور، لأن الخشب الذى كان الجسر مصنوعا منه كان أوهى من أن يتحمل ثقل من يجتازونه ان لم تدعمه هذه العوارض القوية التى وضعت أسفله .

ـ ١٧ ـ

بينما كان الهجوم يشن بهذا العنف القوى من جانب المدينة الشمالى كان كونت تولوز ومن معه يهاجمونها من الجنوب بنفس الضراوة ، وقد ظلوا ثلاثة أيام سويا يعملون بلا انقطاع فى ردم الخندق ، فلما أتموا ردمه ألصقوا احدى آلات الحصار بالسور بالقوة ، وجعلوها فى وضع يجعل كلا من المدافع الموجود داخل الأبراج والصليبى الموجود فى آلات الحصار قادرا على أن يطول الواحد منهما الآخر برمحه فيصيبه ، وكانت الحماسة قد عمت

المقاتلين انى كانوا ، ولم تقل عنها مثابرتهم فاستمروا فيما هم قائمون به رغم الصعاب المحيطة بهم ، وزاد نشاطهم عما يكون عليه فى العادة ، لأن خادما معينا من خدم المسيح اتخذ مقامه على جبل الزيتون ، وكان وعدهم وعدا أكيداً أن القدس واقعة فى أيديهم فى يومهم هذا ، كما أن شارة(٣٦) الرحمة التى شاهدوها هم أيضا من فوق جبل الزيتون زادت من تأجج حماستهم وجعلتهم أكثر ايمانا بأنهم هم الغالبون ، فتقدم هذان الجيشان الصليبيان الى الامام فى خطى متساوية ، وخيل اليهم كما لو أن الأمر كان موجها بعناية محكمة من نفس القائد الأعظم الذى عزم على أن يعوض عبيده لقاء اخلاصهم فيجازيهم المجازاة اللائقة ، والحق ان الوقت كان قد حان ليجنوا ثمار هذه الجهود الشاقة ، وان يكافأوا على خدماتهم الحربية التى أخلصوا النية من اجلها ٠

ـ ١٨ ـ

استطاعت كتائب الدوق والكونتين التى كانت ـ كما قلنا ـ تهاجم المدينة من الناحية الشمالية أن تنجح بعون الرب فى تحطيم التحصينات الخارجية وردم الخندق ، ولم يعد العدو قادرا على مزيد من المقاومة لما ناله من الارهاق ، على حين أصبحت العساكر الصليبية قادرة على الاقتراب من السور دون أن تخشى خطرا ما ، لأنهم لم يجدوا هنا وهناك سوى خصوم اقتصرت جرأتهم على محاولة مهاجمتهم من خلال المنافذ الصغيرة فى الأسوار ٠

وصدع المقاتلون الموجودون فى آلات الحصار لأمر الدوق ، فأشعلوا النار فى زكائب القش وفى الحشايا المملوءة بالقطن ،

---

(٣٦) يعنىبها شبح الفارس الذى تراءى لهم وهم فى لحظة قد غلبهم اليأس فيها انظر ما سبق ص ١٢٠ ٠

وهبت ريح الشمال فزادت اللهب ضراما وانعقدت سـحائب من الدخان الكثيف ساقتها الريح الى المدينة ، حتى ان الذين كانوا يحاولون الدفاع عن السور عجزوا عن فتح أفواههم أو عيونهم فانصرفوا عن الدفاع عن الحصون لما حدث فيهم من الاضطراب واختلط عليهم الأمر من جراء سحب الدخان الأسود ، فلما تبين الدوق ما هو حادث أمر القوم أن يجيئوا فى الحال الى أعلى بالعوارض التى استخلصوها من العدو ، وأن يضعوها على صورة يكون أحد طرفيها مثبتا الى الآلة ، والطرف الآخر على السور ، ثم أمر بعدئذ بتدلية الجانب المتحرك من برج الحصار فكان منها جسر قوى زاد من قدرة احتماله ما وضع تحته من الكتل الثقيلة ، وهكذا فان الأداة التى جاء بها العدو لنفعه عادت عليه بالمضرة • فلما تم نصب البرج على هذه الصورة قام الدوق جود فروى الشريف البارز واستصحب أخاه أسـتاس وتقدما الناس الى داخـل مدينة القدس ، وراح (جود فروى) يحرض الباقين ويشجعهم على النسج على منواله ، فتبعه فى الحال الأخوان لودولف وجيسلبيرت من مواطنى مدينة تورناى ، فاستحقا الذكر الخالد ، واذ ذاك زحف جمع كثيف من الفرسان والمشاة ، حتى لم تعد الآلة ولا الجسر بقادرين على تحمل المزيد ، فلما رأى الأعداء أن السور أصبح فى حوزة الصليبيين وشاهدوا راية الدوق تخفق من فوقه غادروا الحصون والأبراج فارين بأنفسهم الى الشوارع الضيقة •

لم يكد رجالنا يشاهدون استيلاء الدوق وأغلب القواد على الأبراج حتى بادروا الى ارتقاء الآلة ، وراحوا يتنافسون فيما بينهم فى نصب ما معهم من سلالم الصعود الى الأسوار ، وكانت كثيرة فى أيديهم ، ذلك لأنهم كانوا قد اطاعوا ما نودى به فيهم ، فقام كل اثنين من الفرسان باعداد سلم ليكون فى خدمة الجميع ، واستطاعوا

بهذه السلالم أن ينضموا الى الموجودين على السور دون انتظار الاذن لهم بذلك من الدوق ٠

وجاء فى أعقاب جود فروى فى الحال كونت فلاندرز ، ودوق نورماندى ، وتانكريد الباسل الذى لا تأتيه من أية ناحية الا وجدته أهلا لكل ثناء ٠ كما صعد مع هؤلاء هيج الكبير كونت سنت بول ، وبلدوين دى بورج ، وجاستون دى بيارن ، وجاستون دى بزييه ، وجرادر دى روسيلون ، وتوماس دى لافير ، وكونان البريتونى ، وكونت رينبولد الذى هو من مدينة أورنج ، ولودوفج دى مونكون ، وكونون دى مونتاج ، وابنه لامبرت ، وكثيرون غيرهم أعجز عن ذكر أسمائهم وحصرهم ٠

فلما اطمأن الدوق الى دخول جميع هؤلاء الفرسان سالمين لم يصابوا بأذى أنفذ بعضهم فى صحبة حرس أشداء لفتح الباب الشمالى المعروف الآن باسم باب القديس استيفان ليدخل منه من كانوا ينتظرون فى الخارج ، ففتح على مصـــراعيه بلا توان ، فتهافت الجيش بأجمعه فى الدخول من غير نظام ٠

وكان اليوم الجمعة ، وكانت الساعة التاسعة ولاح كأن قد تم بترتيب الهى أن تتحقق رغبة الذين حاربوا من أجل مجد المخلص ، وان يكون تحقيقها فى نفس اليوم الذى لاقى فيه الســـيد العذاب بالمدينة من أجل خلاص العالم ، ونقرأ أنه فى ذلك اليوم كان خلق أول انسان ، وان الانسان الثانى أسلم للموت لخلاص الأول ، ومن ثم فقد كان من الخير أن يكتب النصر باسمه على اعدائه لمن كانوا من جسمه وتشبهوا به ٠

ضم الدوق ومن معه قواتهم بعضها الى بعض ، وانطلقوا هنا وهناك عليهم دروعهم ومعافرهم ، وراحوا يذرعون شوارع المدينة مشرعين سيوفهم فاتكين بكل من يصادفون من الأعداء لايراعون فى ذلك عمرا ولا وضعا ، فكان فى كل ناحية مذبحة مروعة ، وفى كل ركن أكوام من الرؤوس المقطوعة، حتى استحال السير فى كل الأماكن أو الانتقال من موضع الى آخر الا على جثث القتلى ، وكان الزعماء قد شـــقوا طريقهم الى وســـط المدينة سالكين طرقا مختلفة ، ومرتكبين من المذابح فى أثناء تقدمهم مالا يمكن التحدث عنه ، ونهج نهجهم جمع من الناس الظامئين الى دماء العدو ، والذين لا قصد لهم سوى التدمير ٠

فى هذه الأثناء لم يكن كونت تولوز والقواد الذين يحاربون معه فى ناحية جبل صهيون يدرون شيئا قط عن خبر الاستيلاء على المدينة ، ولايعلمون أن قد كتب لنا النصر ، غير أن هتافات الصليبيين العالية وهم يدخلون بيت المقدس ، وصرخات المارقين المخيفة وهم يلقون منيتهم ذبحا بثت الذعر فى نفوس المدافعين عن هذا القسم من المدينة ، فتحيروا كأعظم ما تكون الحيرة بين الهتاف غير المألوف وبين الصراخ المعبر عن الشر ، وسرعان ما اكتشفوا ان قد فضت بيضة المدينة ، وان كتائب الصليبيين قد اقتحمتها عنوة ، فلم يتوانوا حينذاك عن مغادرة الأبراج والتخلى عن الحصون ، وفروا على وجوههم فى شتى النواحى لا ينشدون غير النجاة ولا يطلبون سواها، واعتصم أغلبهم بالقلعة لأنها كانت أقرب المواقع اليهم ٠

وأنزل العسكر الجسر لم يعارضهم فى ذلك معارض ، ثم رفعوا سلالمهم الى الأسوار ، ودخلوا المدينة دون أن يلقوا أدنى مقاومة

من جانب العدو ، وما كادوا يرون أنفسهم بها حتى فتحوا البوابة الجنوبية التى كانت أقرب الأبواب اليهم على مصاريعها وأدخلوا بقية الناس ، فكان من الداخلين من هنا كونت تولوز الباسل الشجاع ومعه ايزورد كونت داى « وريموند بيليه » و « وليم دى سابران » أسقف البارة ورهط غير هؤلاء من النبلاء الذين فات التاريخ أن يحفظ لنا أسماءهم وعددهم ، ومشت هذه الجموع وحدة واحدة ، مسلحة تمام التسليح . وانتشرت فى كل ناحية من نواحى وسط المدينة وليس لها من هدف سوى بث الدمار المخيف ، ثم راحت تعترض طريق من لم تصبهم نقمة الدوق ومن معه ، فهربوا الى نواح أخرى من المدينة ، ظانين أنهم بذلك قد فروا من الموت ، لكن تصدت لهم هذه الجموع ، وهكذا فانهم بينما كانوا يحاولون تجنب Scylla اذا بهم يقعون فى ما هو أشد خطرا منها ، الا وهو خطر Chardydis وشهدت أرجاء المدينة مذبحة فظيعة الشناعة ، وكان الدم المسفوك مخيفا ، حتى ان المنتصرين أنفسهم ساورهم الاحساس بالخوف وشعروا بالتقزز .

— ٢٠ —

فر الجانب الأكبر من الناس الى فناء المسجد لوقوعه فى موضع قاص من المدينة كان محصنا أشد التحصين بسور وأبراج وأبواب ، لكن فرارهم الى هناك لم يسعفهم بالخلاص ، اذ سرعان ما اقتفى تانكريد أثرهم على رأس معظم رجال الجيش الذين اقتحم بهم المسجد ، وأعمل مذبحة شرسة حمل بعدها معه — كما يقول الخبر — كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر ، ومع ذلك فالاعتقاد السائد انه لما هدأت العاصفة فيما بعد قام فرد هذه الثروات دون أن تمسها يد .

أما القادة الآخرون فقد ترامى الى علمهم ـ بعد فتكهم بكل من صادفهم فى شتى نواحى المدينة ـ أن الكثيرين قد فروا الى أطراف المسجد الطاهر ، فأسرعوا كما لو كانوا على اتفاق فيما بينهم وانطلقوا يتعقبونهم • ودخل المسجد حشد من الفرسان والمشاة ، فذبحوا ذبح الشاة كل من لجأ الى هنا يبتغى الحماية ، وأعملوا القتل فيهم لم تأخذهم رحمة بأحد ما ، حتى فاض المكان كله بدماء الضحايا •

وكان ذلك قضاء عادلا من الرب أمضاه فى من دنسوا هيكل السيد بشعائرهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمن ، فكان لابد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت ، وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المهراق •

كان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولى عليه الفزع ، فقد كانت الأشلاء البشرية فى كل ناحية ، وغطت الأرض دماء المذبوحين ، ولم تكن مطالعة الجثث ـ وقد فارقتها رءوسها ـ ورؤية الأعضاء المبتورة المبعثرة فى جميع الأرجاء هى وحدها التى أثارت الرعب فى نفوس جميع من شاهدوها ، بل كان هناك ماهو أبعث على الفزع الا هو منظر المنتصرين أنفسهم وقد تخضبوا بالدماء فغطتهم من رؤوسهم الى أخمص أقدامهم ، فكان منظرا مروعا بث الرعب فى قلوب كل من قابلوهم ، ويقال انه قتل فى داخل ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف من المارقين ، بالاضافة الى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم فى كل شوارع المدينة وميادينها لم يكونوا أقل عددا ممن ذكرناهم •

وانطلق بقية العسكر يجوسون خلال الديار بحثا عمن لازال حيا من التعساء الذين قد يكونون مختفين فى الأزقة والدروب الجانبية

فرارا من الموت ، فكانوا اذا عثروا عليهم سحبوهم على مشهد من الناس وذبحوهم ذبح الشياه ٠

وجعل بعض العسكر من أنفسهم عصابات انطلقت تسطو على البيوت ممسكين بأصحابها ونسائهم وأطفالهم ، وأخذوا كل ما عندهم، ثم راحوا يقتلون البعض بالسيف ، ويقذفون بالبعض الآخر من الأمكنة العالية الى الأرض فتتهشم أعضاؤهم ويهلكون هلاكا مروعا ، ومضى مغتصب كل بيت يدعى أن البيت الذى اقتحمه انما هو ملك خاص له بكل ما احتواه ، وذلك لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء على المدينة على أنها اذا وقعت فى أيديهم يكون كل ما يستولى عليه الواحد منهم ملكا خالصا له الى الأبد لا ينازعه فيه أحد ولا يعارضه فيه معارض ، ومن ثم فقد مضى الحجاج يفتشون المدينة تفتيشا دقيقا، ويقتلون أهلها فى غير خوف ، ووصلوا فى ذلك الى أقصى الأماكن حتى مالا يكون منها على قارعة الطريق ، ومضوا يحطمون مساكن العدو ، ويعلق كل منتصر منهم على مدخل البيت الذى اغتصبه مجنه وسلاحه حتى لا يتوقف بالمكان من يمر به ، بل عليه أن يجاوزه فقد صار ملكا لغيره ٠

— ٢١ —

لما تم للقادة فتح المدينة كلها وفرغوا من الفتك بمخالفيهم فى العقيدة ، ولما هدأت الجلبة بعض الشىء التقى هؤلاء القادة للتشاور فيما بينهم ، واذ كانوا راغبين فى توفير الحماية للمدينة فقد قرروا — قبل القاء السلاح — أن يقيموا بكل برج حراسا ، ويرتبوا على كل بابمن أبواب البلد رجالا مسئولين يوكل اليهم الحفاظ عليه ، وقرروا أن تظل هذه الحراسة قائمة حتى يتفق اجماع الزعماء على

اختيار واحد ينصبونه علانية حاكما على بيت المقدس ، ويكون قادرا على تحمل مسئوليتها وادارة كل شئونها حسبما يرى الأمر ملائما ٠

والواقع انهم كانوا على حق فى التخوف من مكر العدو المحدق بهم ، فهداهم بعد نظرهم للحذر من غارات فجائية يشنها هذا الخصم عليهم ٠

ولما انتظمت أمور المدينة أخيرا على ما تهوى نفوسـهم ، وضعوا السلاح جانبا وخرجوا مرتدين من الثياب جديدها ، ومضوا بأيد نظيفة ، وساروا حفاة فى خشـوع ومذلة يطوفون بالأماكن الطاهرة التى تنازل المخلص وكرسها للعبادة ، ومجدها بحضوره بالجسد ، وراحوا يقبلون هذه البقاع الموقرة قبـلات ممزوجة بالزفرات والدموع ، وتبعث عليها العواطف القلبية وساروا تجللهم السكينة ويغشاهم الوقار حتى صاروا أدنى ما يكونون الى كنيسة القيامة وهنا كان التقاء القادة برجال الدين وبالمخلصـين من أهل القدس ، وكان النصارى ـ الذين عانوا أعواما طوالا مرارة الأسر من غير ذنب ـ أكثر الجميع اشتياقا لاظهار ما يكنون من شكرهم للفادى الذى ردهم الى الحرية ، فيمموا وجوههم شطر الكنيسة وهم ينشدون الأناشيد الدينية ، ويرتلون الأغانى المقدسة ، ويحملون الصلبان وآثار القديسين ٠

وكان مما يسر العين ويثلج الصدر ما كان عليه الحجاج من حماسة دينية عميقة تجلت وهم يقتربون من الأماكن الطاهرة ، وماهم عليه من غبطة القلب ونشوة الروح وهم يقبلون اثار زيارة السيد القصيرة للأرض ، وكنت لا ترى فى أى ناحية الا دموعا منهمرة ، ولا تسمع الا زفرات متصاعدة غير أنها لم تكن كالدموع ولا كالزفرات التى تصدر عن الحزن والجزع بل تبعثها التقوى والفرحة الروحية

الغامرة يقدمونها الى الله ، وتردد فى الكنيسة وفى عامة أرجاء القدس صوت الشعب وهو يرفع عقيرته بالشكر للرب فى صوت يخيل لسامعه أنه لابد بالغ السماء ذاتها ، والحق أنهم كانوا كما جاء فى قول القائل : « ان صوت الفرحة والخلاص يكون تحت مظلة المستقيمين(٣٧) ٠

وأخذت مظاهر الرحمة النابعة عن الاخلاص الصادق تسرى فى جميع أنحاء المدينة ، وراح الكثيرون يبكون وهم يعترفون للسيد بما ارتكبوا من الآثام ، ويقطعون العهد على أنفسهم الا يعودوا ثانية الى اقتراف هذه الخطايا ٠

ومضى غيرهم — وقد بلغ الكرم منهم غايته — يخلعون كل ما ملكوا على الشيوخ والمرضى وذوى الحاجة ، ويعدون ذلك النعمة الكبرى ، ويرون الغنى كل الغنى فيما قدره الله لهم من أن تمتد بهم الحياة حتى يشاهدوا هذا اليوم ٠

وزحف غيرهم الى الأماكن الطاهرة على ركبهم وقد تصاعدت زفراتهم من قلوب فاضت بالعاطفة العميقة ، وانطلقوا يغسلون كل شىء بدموعهم ، ويوجهون قولهم لله : « ان انهارا من المياه تنهل من عينى »(*) ٠

اذن ماذا أقول أكثر من هذا ؟

---

(٣٧) لم أجد هذا النص ولا ما يليه فى المزامير ، ويظهر أن الطبعة الانجليزية أخطأت فذكرت المزمور المائة والسابع عشر ، آية ١٥ مع ان هذا المزمور اقتصر على ١٤ آية فقط وكذلك المزمور ١١٨ فآياته ٢٩ فقط ولذلك ترجمته محاولا ان تكون الترجمة العربية أقرب ما تكون للنص الانجليزى ولأسلوب التوراة ٠

(*) انظر الحاشية السابقة ٠

انه لمن الصعب أن تعبر الكلمات عن مدى ما كان عليه هؤلاء القوم المؤمنون من صادق الاخلاص وطاهره وقد راح كل واحد منهم ينافس الآخر فى عمل البر والاحسان ، شاكرين العناية الآلهية ما تفضلت باســـباغه عليهم مجازاة لهم على ما بذلوا من مجهودات كبيرة ·

فأى امرىء ـ مهما بلغ من غلظة القلب وصعوبة المراس ـ لا تصفق روحه فرحا بين جوانحه حين يؤذن له أن يشارك فى قطف ثمرة هذا الحج الغالية ، وحين يجزى الجزاء الأوفى على الجهاد الذى خاضـــه ·

ولقد كانت هذه النعمة عند أصحاب الطبيعة الشفافة تعتبر مكافأة عن البدل القادم الذى وعد السيد اضفاءه على قديســـيه فى انه على قدر العطايا التى ينالونها فى هذه الحياة الدنيا يكون أملهم الأكيد فى ثواب الآخرة ، ذلك ان رحلة حجهم التى يقومون بها الآن فى هذه الدنيا الى بيت المقدس ليست سوى وعد أكيد بأنهم لابد وأن ينالوا نصيبا من الثواب فى الحياة الأخرى ·

ثم قام الأســـاقفة والقسس بعد ذلك بالاحتفال بالقداس فى الكنائس ، وصلوا لله من أجل الناس ، وقدموا الشكر للرب على النعم التى حباهم بها ·

ـ ٢٢ ـ

فى هذا اليوم ذاته تجلى فى المدينة المقدســـة ـ بشـــهادة الكثيرين ـ اديمار أسقف بوى ، تلك الشخصية الفاضلة ، الخالدة الذكر التى ودعت الحياة فى أنطاكية كما قلنا من قبل ، وقد شهد

الكثيرون على حقيقة تجليه، كما ان هناك فى الواقع نفرا غير قليل من الموقرين الثقات أكدوا تأكيدا جازما انهم رأوه بأعينهم حيث كان هو أول من اعتلى الأسوار ، وأخذ يحث الآخرين ويشد عزائمهم ليتبعوه ، وتعددت مرات تجليه فى هذا اليوم ذاته لكثير من الناس وهم فى طريقهم الى الأماكن الطاهرة ، كما شهد العديدون من زوار البقاع المقدسة كثيرين ممن ماتوا وجرى عليهم قضاء الرب الذى لا مفر منه ، أقول شاهدهم الكثيرون فى هذا الحج وأصبح جليا من هذه الحقيقة الثابتة أن من ودعوا هذه الحياة الفانية لينعموا بالرحمة الأبدية لم يحرموا من تحقيق الرغبة(٣٨) التى ملكت عليهم قلوبهم ، لكنهم نالوا غاية ما كانوا يسعون اليه سعيا خالصا ، وهذا يقدم لنا دليلا قاطعا عن القيامة(٣٩) بعد الموت ٠

وكما حدث للسيد من قيامه من بين الموتى كذلك نام مباركون كثيرون ثم قاموا بالجسد ، وتجلوا للكثيرين فى المدينة المقدسة ، لذلك كان من الملائم أن تتكرر المعجزة الأولى لشد أزر المؤمنين وهم يطهرون موضع القيامة المقدس من خرافات الأمم ، يضاف الى ذلك انه من الخير ان يعتقد الناس بأن الذين رضوا منهم بقضاء الله فيهم قد قاموا ثانية بالروح ٠

ولقد تعدد ظهور هذه الآيات وكثير غيرها مما شابهها لشعب الرب بفضل الرحمة الآلهية وبدت كمعجزات أكثر منها عجائب ، لذلك فقد عم الناس فرح فى الروح والفكر أنساهم ما كابدوه من الصعاب التى لا حصر لها ، وعدوا أنفسهم سعداء اذ أتيح لهم أن يشاهدوا هذا العطف الآلهى ٠

---

(٣٨) يعنى الحج الى بيت المقدس والاستيلاء عليه ٠
(٣٩) يقصد المؤلف رؤية أشباح من ماتوا ٠

وعمت المدينة المقدسة فرحة روحية صعدت الى السيد ، فتعددت اقامة الشعائر الدينية كأنها استجابة من السيد ، وبدا كأن كلمات النبى (أشعيا) قد تحققت حرفيا « افرحوا مع أورشليم وابتهجوا معها ياجميع محبيها »(٤٠) .

كان يعيش فى بيت المقدس نصارى أتيحت لهم رؤية بطرس الناسك فيها منذ أربع أو خمس سنوات ، حين حمله البطرك الموقر وكبار رجال الدين فيها والأهالى على السواء رسائل آملين أن تحرك أمراء ممالك الغرب فتعطفهم عليهم ، فلما رآه هؤلاء الناس مرة ثانية عرفوه ، فخروا على ركبهم ساجدين أمامه اعترافا بجميله عليهم ، اذ تذكروا أول يوم جاءهم فيه والصداقة التى ربطتهم به ، وشكروه شكرا صادرا من الأعماق ، فقد حملته شفقته وحدها عليهم أن ينجز فى صدق واخلاص ومن غير ملل المهمة التى كانوا قد أناطوها به وعهدوا بها اليه ، وكان شكرهم فوق كل شيء لله المتجلى على عبيده لأنه قاد خطوات هذا الرجل فى طريق أدركوا معه من الآمال فوق مايرجوه البشر ، اذ الواقع أن السيد هو الذى وهب بطرس لسانا مؤثرا حمل الناس والممالك على أن يتحملوا المشاق الكبيرة بلا تأفف ولا ضجر من أجل اسم المسيح .

والحق كل الحق أن كلام هذا الرجل بدا وكأنه موصى به من السيد الذى قال : « هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى لاترجع الى فارغة ، بل تعمل ماسررت به وتنجح فيما أرسلتها له »(٤١) . وترتب على هذا الأمر أن تنافس الناس ــ أفرادا وجماعات ــ فيما بينهم فى اظهار شتى ضروب التعظيم له ، ونسبوا اليه وحده ــ بعد الرب ــ

---

(٤٠) اشعيا : ٦٦ : ١٠ .
(٤١) اشعيا ٥٥ : ١١ .

خلاصهم من رقهم القاسى الذى تحملوه سنوات طوالا ، كما عزوا اليه الفضل فى عودة المدينة المقدسة الى حريتها الأولى ٠

وكان البطرك ـ كما قلنا حالا ـ قد أبحر الى قبرص ليحصل من المال على ما ينجد به المدينة ويخلصها ويسعد المواطنين ، وتركزت سفارته فى التماس الصدقات من المؤمنين فى تلك البلاد عساه يدفع بهذه الصدقات الجزية والضرائب الزائدة التى كانت قد فرضت على نصارى بيت المقدس فرضا جاوز قدرتهم على دفعها ، وساورهم الخوف ان عجزوا عن الوفاء بهذه الالتزامات أن يقوم مبتزوهم بهدم الكنائس أو الفتك بالناس كما فعلوا ذلك مرارا من قبل ٠

كان هذا الرجل الموقر جاهلا كل الجهل بما كان قد جرى فى المدينة ، كما أنه كان وجلا من العودة فتصادفه نفس تلك الأوضاع الفظيعة ، بيد ان الرب كان قد أفاء على المدينة حالة من الهدوء الشامل غشى تلك الناحية ، وهو هدوء كان فوق كل ما كان متوقعا ٠

ـ ٢٤ ـ

حين فرغ الناس من صلواتهم وزياراتهم للأماكن الطاهرة التى قاموا بها فى صدق واخلاص رآى الزعماء أن الضرورة تتطلب قبل كل شىء تنظيف المدينة ولاسيما نواحى الهيكل حتى لا يتفشى الطاعون بسبب الهواء الملوث بالنتن المتصاعد من جيف القتلى ، فقرروا أن يقوم بهذا العمل السكان الأسرى الذين شاءت الصدفة أن يتخطاهم منجل الموت ليلقوافى السجون ، بيد أن عددهم لم يكن

كافيا لانجاز مهمة كبيرة كهذه المهمة ، ومن ثم قدم الزعماء أجرا يوميا لفقراء الجيش (الصليبى) لقاء مدهم يد المساعدة فى تنظيف المدينة من غير ابطاء ٠

ولما تم تنفيذ هذا الأمر عاد كل قائد الى الدار التى اتخذها مستقرا له ومقاما ،وكان قد تم اعداد هذه الدور لهم خلال تلك الفترة ، ورتبها لهم من كان بها من خدمها أحسن ترتيب ٠

وقد وجدت المدينة غاصة بشتى أنواع السلع والبضائع حتى توفر لكل فرد من الناس ــ من أصغرهم الى أكبرهم ــ كم هائل من كل شىء ، وعثروا فى الدور التى اغتصبوها على كميات ضخمة من الذهب والفضة سوى المجوهرات وغالى الثياب ، ووجدوا المخازن ملآى بالحبوب والنبيذ والزيت ، وأصابوا مقادير وافرة من الماء الذى أدى نقصه عند الصليبيين الى تحملهم آلاما فظيعة أثناء الحصار ، ومن ثم فان الذين اتخذوا تلك الدور سكنا لهم أصبحوا قادرين على اسعاف اخوانهم المحتاجين عن طيب خاطر ٠

فلما كان اليومان الثانى والثالث لاحتلال القدس نصبت سوق عامة لبيع شتى أنواع المتجر من غير تطفيف ، ينال كل واحد ما يريده وما تصبو اليه نفسه ، حتى ان العامة حصلوا على جميع ما يشاءون فى كميات كبيرة وانقضت الأيام فى احتفالات رائعة ، نعم الحجاج فيها بقسط وافر من الراحة ونالوا كل ما كانت تهفو اليه نفوسهم من الطعام ، كما كانت النعم الكريمة الجمة التى جادت بها السماء عليهم مثار دهشة لا انتهاء لها وكانت تذكرة على الدوام بالخير الذى أفاضه السيد عليهم الذى يحكى الغيث الهتان ٠

ورغبة من القوم فى ان يظل خبر هذا الحدث الجليل حيا على أفضل صورة فقد صدر قرار عام ، قوبل باستحسان الجميع

وتأييدهم ، يقضى باعتبار ذلك اليوم مقدسا يختلف عن غيره من الأيام ، وتقرر اعتباره يوم تمجيد وثناء للاسم المسيحى حيث يذكر بكل تعظيم ما تنبأ به الانبياء بشأن هذا الحدث ، كما تقرر أن يبتهلوا الى الرب على الدوام فى مثل هذا اليوم ابتهالا يستمطرون فيه شآبيب الرحمة على أرواح من يرجع الى جهودهم المشكورة الناجحة الفضل فى رجوع مدينة الله الحبيبة سالمة الى حريتها الأولى فى ظل الايمان المسيحى ٠

وفى هذه الأثناء رأى الأعـــداء الذين لجأوا الى قلعة داود – فرارا من غضـــبة الســيف – ان المدينة آلت تماما الى أيدى الصليبيين ، وأيقنوا أنه لم تعد لهم قدرة على تحمل الحصار ، واذ ذاك راحوا يفتشون عن كونت تولوز الذى كان مقيما فى الناحية التى بها البرج ، وحصلوا منه على وعد بأن يأذن لهم بالخروج من المدينة هم وذووهم ، وان يؤمن ذهابهم الى عسقلان ، كما انه سمح لهم باستصحاب كل متاعهم الذى كانوا قد جاءوا به معهم الى داخل البرج ، وبذلك أسلموا القلعة للكونت على هذه الشروط ٠

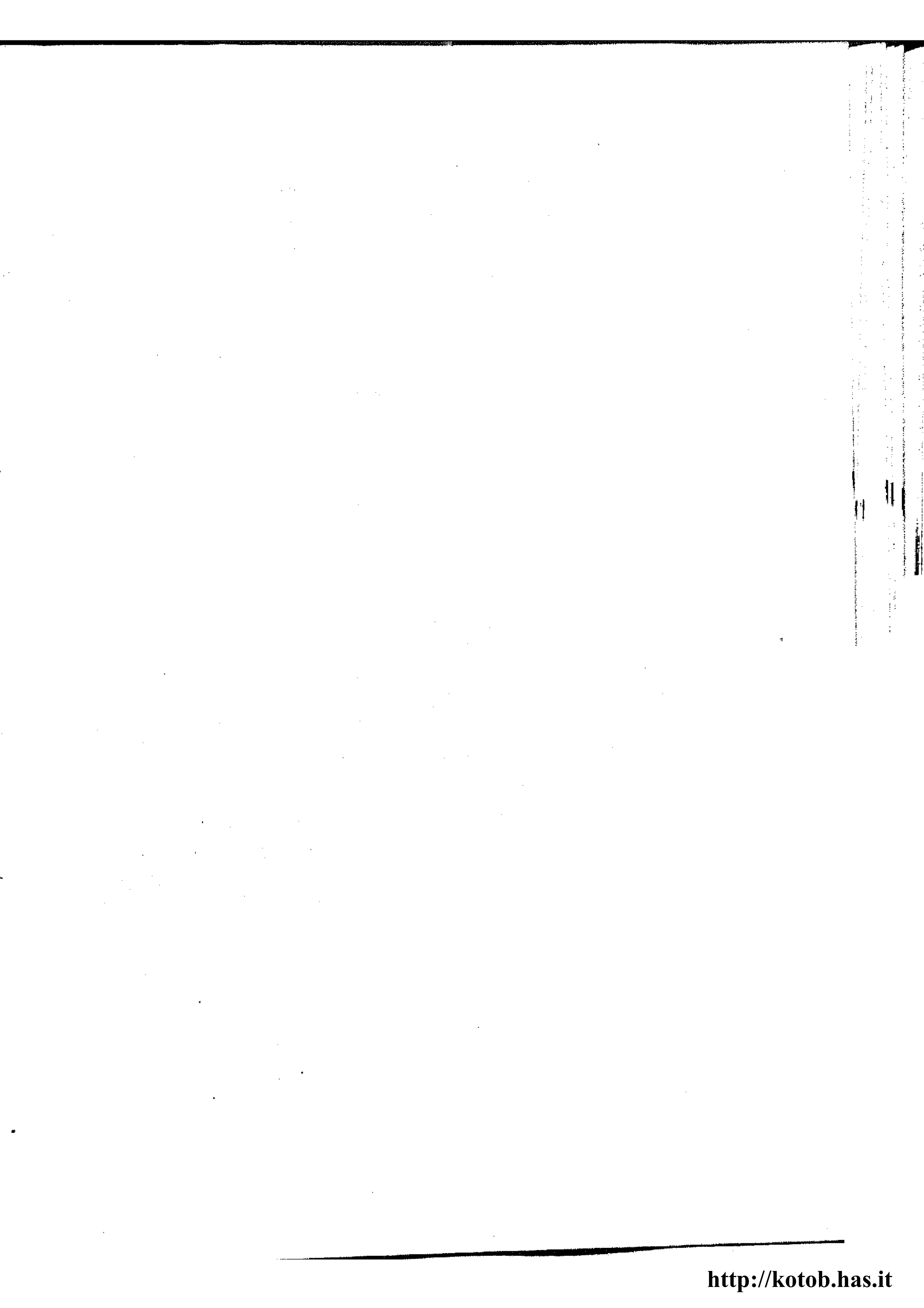


أما الذين عهد اليهم بتطهير المدينة فقد بذلوا – فيما كلفوا به – همة وجهدا كبيرين ، فاحرقت بعض الجيف ، ودفن البعض الآخر حسبما يأذن الوقت ، وأنجزوا عملهم هذا كله فى أيام قلائل معدودات، وعادت المدينة الى ماكانت عليه من النظافة ، وانطلق الناس زرافات وفى ثقة أكبر الى الأماكن الطاهرة ، وأصبح فى مقدورهم ان تتلاقى زمرهم الكبيرة فى شوارع المدينة وميادينها ، وان ينعموا بالتحدث بعضا الى بعض ٠

ولقد تم الاستيلاء على القدس حوالى الساعة التاسعة من نهار الجمعة الخامس عشر من يوليو عام ١٠٩٩ من ميلاد المسيح ، وذلك بعد ثلاث سنوات من السنة التى شرع فيها الشعب المؤمن فى تحمل مشقة هذا الحج العظيم ، وكان ذلك زمن « البابا ايربان الثانى » الجالس على كرسى الكنيسة الرومانية الطاهرة وفى عهد الامبراطور هنرى الرابع صاحب امبراطورية الرومان ، وفى زمن فيليب ملك فرنسا ، كما كان بيد الكسيوس صـــولجان الحكم على الاغريق ، وكانت يد السيد الرحيمة تقودهم وتوجههم جميعا ٠

له الشرف والمجد الى الأبد ٠

هنا ينتهي الكتاب الثامن



الكتـاب التاسـع

جودفروى حامى القبر المقدس ببيت المقدس وأنطاكية

فصـول الكتاب التاسـع :

١ ـ اجتماع الزعماء بعد ثمانية أيام من الاسـتيلاء على بيت المقدس لانتخـاب واحد منهم ليتولى أمر المدينة والأقاليم المجاورة ، أما رجال الدين عامة فكانوا يحاولون منع هذا الأمر ٠

٢ ـ القادة لا يكترثون بمعارضة رجال الدين ويختارون الدوق (جود فروى) ويمضون به الى بيت المقدس وسط أهازيج الفرح والتراتيل الدينية ٠

٣ ـ حين تؤول مقاليد الحكم الى الدوق (جود فروى) يعمد الى مطالبة (ريموند) كونت تولوز بتسليمه برج داود الذى كان

العدو قد سلمه اليه ، فيشـــب النزاع بين القائدين ولكن جود فروى ينجح أخيرا فى تملك البرج حسب طلبه ٠

٤ ـ أسقف مطيرة الخبيث الغامض يحاول رفع أرنولف ـ الذى هو من جبلته ـ الى كرسى البطركية ولكنه يفشل فى محاولته هذه ثم العثور على صليب السيد ٠

٥ ـ القول عمن يكون الدوق جود فروى ، ومن أين جاء ، ومن هم أسلافه ٠

٦ ـ تنبؤات أمه بمستقبل أولادها ٠

٧ ـ ما تم على يد جود فروى من الانجازات الخالدة فى احدى المعارك ٠

٨ ـ العمل الذى لا مثيل له الذى قام به جود فروى وأدى الى انتصار الامبراطور هنرى على رودلف مغتصـــب عرش سكسونيا ٠

٩ ـ سخاء الدوق الطيب على كنائس بيت المقدس ، وكيف دفعه تواضعه لأن يرفض وضع التاج الملكى على رأسه ٠

١٠ ـ خليفة مصر يستدعى مختلف قواته الحربية ويزحف على بلاد الشام ضد الصليبيين ٠

١١ ـ بعد أن يفرغ الدوق من اتمام فرائضه الدينية فى بيت المقدس يقوم بجمع قواته فى الرملة التى كان القادة قد تجمعـــوا فيها ٠

١٢ ـ نشوب القتال وانتصارنا بعون الله واستحواذنا على غنائم لا يحصيها العد ٠

١٣ ـ انفصال الزعماء بعضهم عن بعض وعودة كونت نرمندى ؛ وكونت فلاندرز الى وطنهما ورجوع كونت تولوز الى القسطنطينية ، واذ ذاك تصبح قيادة طبرية فى يد تانكريد ٠

١٤ ـ ذهاب بوهيموند أمير أنطاكية وبلدوين كونت الرها الى بيت المقدس للاحتفال بعيد ميلاد المسيح ٠

١٥ ـ دامبرت ـ رئيس أساقفة كنيسة بيزا ـ يصبح بطرك بيت المقدس ٠

١٦ ـ نجاح مكائد الشريرين فى بث الشقاق الحاد الذى يصل الى حد الصراع بين الدوق والبطرك حول ملكية برج داود وربع المدينة ٠

١٧ ـ لماذا وضع ربع المدينة تحت ادارة فخامة البطرك وسلطانه ٠

١٨ ـ استمرار نفس الموضوع وبيان أى الأماكن الطاهرة تدخل فى نطاق جزء المدينة الذى تكثر الاشارة اليه ٠

١٩ ـ وصف أحوال المملكة فى ذلك الوقت وذكر حصار الدوق لمدينة أرسوف الساحلية ، ثم السبب فى رفعه ذلك الحصار عنها ٠

٢٠ ـ ذكر حادث يستحق التسجيل جرى لهذا الرجل العظيم (جود فروى) أثناء ذلك الحصار ٠

٢١ ـ وقوع بوهيموند ـ امير أنطـــاكية ـ فى الأسر عند مدينة ملطية ٠

٢٢ ـ ذكر عمـــل رائع يســـتحق التخليد قام به الدوق فى بلاد العرب ٠

٢٣ ـ موت الدوق جودفروى ودفنه ٠

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتـــاب التاســـع

جودفروى حامى القبر المقدس والملك غير المتوج لبيت المقدس وأنطاكية

ـ ١ ـ

عادت المدينة المقدسة الى الشعب المسيحى بفضل رعاية الرب الغامرة ، وسعدت بشىء من النظام ، ومرت على الناس سبعة أيام نعموا فيها أقصى غايات النعمة والســـرور ، وان مازج فرحتهم الشاملة شىء من خشية الله ومن الفرحة الروحية ، فلما وافى اليوم الثامن التآم عقد القادة للتشاور ، وكان غرضهم ـ بعد التوســـل بالروح القدس ـ أن يختاروا واحدا من بينهم يلقون اليه بحكم البلد ويحملونه المسئولية الملوكية لتلك الولاية ٠

لكن بينما كانوا يبحثون هذا الأمر كان رجال الدين يجتمعون هم أيضا فيما بينهم وقد استولت عليهم روح الصـــلف ، وقدموا

مصالحهم الذاتية على مصالح عيسى المسيح ، وأرسلوا رسالة الى الزعماء الصليبيين قالوا لهم فيها أن عندهم مسائل خاصة معينة ، يريدون أن يتحدثوا فيها أمام أولئك الذين يتشاورون الآن فيما بينهم، فلما استجاب القادة لطلبهم قالوا لهم ، « لقد علم رجال الدين انكم قد اجتمعتم لاختيار أحدكم لتنصبوه ملكا ، وما نشك فى شرف هدفكم وصوابه ، فان قدر لهذا الأمر أن يتم على الوجه الصحيح كان قرارا دقيقا جديرا بالتنفيذ ، غير أن الذى لا مشاحة فيه هو أن المسائل الروحية أسمى من المشاكل الزمنية وأعظم منها خطورة ، مما يحتم أن تكون لها الصدارة ، وفى رأينا أنه يجب عليكم ـ قبل أن تفكروا فى انتخاب أحد لمنصب علمانى ـ أن تختاروا رجلا قضى حياته فى خدمة الملة ، ويرضى عنه الرب ، ويكون قادرا على رئاسة كنيسته وتدبير أمورها بما يؤدى الى تقدمها وخيرها ، فان قبلتم أن تسير الأمور على هذا السمت قبلناه نحن أيضا بكل الرضا ، وأيدناكم عقلا ووجدانا ، أما ان أبيتم وأعرضتم فاننا سوف نشجب كل ما قررتموه، لأنه يكون قد تم بدون موافقتنا ، ولا يعود لهذا الشخص الذى اخترتموه ذمة فى عنق أحد ٠

وعلى الرغم من أن اقتراح رجال الدين هذا كان فى ظاهره مقبولا وعظيما ، الا أنه كان ينطوى فى واقعه على كثير من سوء النية ، كما ستبين الخواتيم ٠

وكان أكبر المتزعمين لهذا الشقاق أسقف « كلابريا » من اقليم « مطيرة » وكان هو الصديق الحميم للمدعو « أرنولف » الذى ورد عنه الشىء الكثير فى الصفحات السابقة ، وكان اسقف كلابريا هذا يرمى الى أن يسوق كرسى البطركية لأرنولف الذى وان كان من رجال الدين الا أنه مذموم السيرة مغموزها ، ثم انه فوق ذلك ابن أحد القساوسة ، وكانت الألسن تلوك طول الرحلة سيرته بالسوء

وتتغامز عليه ، كما أن سفلة المهرجين فى الجوق كانوا يجعلون منه أضحوكة أغانيهم الجنسية ٠

هذا هو الرجل الذى كان أسقف كلابريا يحاول أن يرفعه الى منصب بطركية القدس ، مخالفا جميع القوانين الكنسية المقدسة مخالفة صريحة وعلى كره من الرجال الشرفاء ، كما أن ذلك الأسقف ذاته كان رجلا ساقط الهمة ، دنىء النفس ، فلا عجب أن تمكن فى سهولة ويسر من الوصول الى اتفاق مع أرنولف ، فقديما جاء فى الأمثال « ان الطبيعة تحمل الطيور على الوقوع على أشكالها ، وشبيه الشىء منجذب اليه » ٠

لقد أخذ هذا الرجل نفسه يساوم على كنيسة بيت لحم ، اذ عقد صفقة مع أرنولف ، اتفقا بمقتضاها على انه اذا ارتقى الأخير كرسى البطركية بفضـــل سعى الأسقف فعلى أرنولف الا يقف أبدا فى وجهه فى أن تؤول الكنيسة(١) المذكورة ليكون أسقفها ٠ غير أن الموت وضــع خاتمة لكل مشـــاريعه ، كما سنروى خبر ذلك فى الصفحات التالية ٠

***

لقد هوى الدين القيم وكل معانى الشرف الى الحضيض عند رجال الدين ، فاستشرى الفساد فى كل ناحية ، وسار فى مسيرات محرمة منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولى ، الطاهر الذيل والسيرة « اديمار أسقف بوى » ، ثم قام مكانه فى حمل مسئولية هذه الملة وليم أسقف أورنج ، الذى كان رجلا ورعا يخشى الله حق خشيته ، فأدى الأمانة على أحسن مايكون الأداء ، لكنه مالبث أن مات هو الآخر بعد قليل ، وكان موته بالمعرة ٠ فصدق (بعد هذين الرجلين) قول القائل(٢) « كما الشعب هكذا الكاهن » ٠

---

(١) أى كنيسة بيت لحم ٠

(٢) هوشع ٤ : ٩ ٠

ولم يبق بعدهما سوى أسقف البارة وقليلين من أمثالهم ، ممن فاضت قلوبهم بخشية الرب ، ونظرت عيونهم صوب الطريق القويم يسلوكنه ٠

ـ ٢ ـ

لم يكترث الأمراء باعتراضات رجال الدين التى اشرنا اليها فى الفصل السابق ، وعدوها سفسطة غير ذات موضوع ، وعلى الرغم من عزمهم على تنفيذ مشروعهم الا أنه لم يفتهم أخذ اقتراح رجال الدين بعين الاعتبار ، وتقول بعض الأخبار انه من أجل أن تجرى الانتخابات بما يرضى الرب ، وحتى تلقى ميزات المرشحين لهذا الشرف ماتستحق من العناية ، فقد استدعى الزعماء اليهم فى السر أشخاصا من أهل المتنافسين وأتباعهم ، وأخذوا على كل منهم العهد بالصدق فيما يقول ، وألا يحيد أحدهم عن ذكر الحقائق المتعلقة بمولاه وبخلقه ، وقد سلك الزعماء هذا السبيل حتى تتوفر لدى الناخبين المعلومات الكاملة الدقيقة عن قدر كل مرشح ٠

ولما سئل هؤلاء الناس أخيرا أسئلة استفسارية من جانب الناخبين التزموا بأيمانهم التى أقسموها ، ألا وهى بيان عيوب سادتهم وفضائلهم ، غير مخفين من هذه أو تلك شيئا ، على أن يبقى ما صرحوا به سرا مكتوما ، وتوقعوا أن تؤدى هذه الطريقة الى صدور حكم بعيد عن الهوى ، يفصح عن طبيعة كل مرشح وشخصيته ٠

ولما سئل بعض أتباع جود فروى ـ فيمن سئلوا ـ عما يعرفونه من فعال مولاهم الدوق ، قالوا ان أشد ما ضايقهم منه هو أنه دخل ذات مرة احدى الكنائس ، فلم يستطيعوا حمله على مغادرتها رغم الفراغ من الصلاة ، اذ استمر يسأل القسس وغيرهم من أهل المعرفة

عن مغزى كل صورة وكل أيقونة ، حتى استبد الضجر بأصحابه الذين كان هواهم يخالف هواه ، وترتب على طول انتظـــارهم أن ظلت الأطعمة على النار زمنا أطول مما كان مقدرا لنضجها حتى أصبحت غير ذات مذاق ٠

ولما سمع الناخبون هذه الشكاية منهم فى حقه تعجبوا وقالوا « سعيد والله ذلك الرجل الذى له كل هذه الصفات الحميدة ، والذى تكون نقيصته فضيلة يتفاخر بها الآخرون » ٠

وبعد أن استعرض الناخبون كل جوانب المسألة استعراضا دقيقا انعقد اجماعهم على اختيار الدوق جود فروى ، فتم انتخابه ثم ساروا به فى موكب مهيب الى قبر المسيح ، تزفه أغانى المنشدين والمرتلين ٠

❊ ❊ ❊

ومع ذلك فقد قيل ان معظم الناخبين كانوا قد اتفقوا على اختيار ريموند كونت تولوز ، لولا أنهم عرفوا عزمه على الرجوع الى وطنه فى الحال ان لم ينول أمر المملكة ٠

واذا كانوا فى حنين شديد الى ديارهم الحبيبة فقد تذرعوا بشتى الذرائع حتى وان كانت ترفضها ضمائرهم ، والتى تزعم أن الكونت غير أهل لهذا المنصب ، ومع ذلك فان ريموند أصم أذنيه عن نداء أرض آبائه وأجداده ، وأخلص النية فى متابعة المسيح فلم يعد الى وطنه وخالف ظن الجميع اذ استمر فى الحج الذى ارتضاه ولم ينصرف عنه ، واتبع بمحض اختياره طريق الفقر حتى النهاية لأنه كان يؤمن بقول القائل(٣) : « ولكن الذى يصير الى المنتهى فهذا

(٣) متى ٢٤ : ١٣ ٠

يخلص » ، كما آمن بقول الآخر[٤] (اذ قال يسوع) « ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يصلح لملكوت الله » ٠

ـ ٣ ـ

فى الوقت الذى تقلد فيه الدوق مقاليد السلطة العليا فى المملكة برضاء الجميع ،كان كونت صنجيل لايزال مستحوذا على قلعة المدينة وأعنى بها برج داود ، الذى سلمه العدو اليه فى البداية كما قلنا ٠ وكان البرج بناء نحت من الحجر الصلد ، ويقع فى الناحية الغربية فى أعلى بقعة من المدينة التى يمكن رؤيتها كلها من هذا الارتفاع الشاهق وهى جاثمة تحته ٠

ولما رأى الدوق (جود فروى) فراغ يده من هذا الحصن القوى الذى هو آخر معاقل البلد أحس بنقص سيادته ، لذلك اغتنم اجتماع القادة وطلب من الكونت أمامهم أن يسلمه البرج ، فرد عليه ريموند انه لما كان العدو قد سلمه اليه هو وحده دون سواه ، فانه راغب فى بقائه بيده حتى يقلع بحرا الى وطنه يوم عيد الفصح ، اذ أن بقاء القلعة فى يده يضفى أهمية كبرى على مركزه طوال مدة مكثه برجاله فى المملكة ، فكان جواب الدوق أنه سوف يتخلى عن الحكم كله وينفض يده منه ان لم يرد (الكونت) البرج اليه ، كما صرح أنه سيكون من العار عليه ــ وقد نودى به حاكما أعلى ــ أن يظل حصن المدينة تحت سلطان غيره ، فيعتبر هذا الغير اذ ذاك ندا له أو اسمى منه مكانة ٠

وانضم الى جانب الدوق (جود فروى) حينئذ كل من كونت فلاندرز ، وكونت نرماندى ، بل ان أصحاب كونت صنجيل أيدوا

---

(٤) لوقا ٩ : ٦٢ ٠

معارضيه ، وجاء أن يؤدى موقفهم هذا لايجاد مبرر لمولاهم ريموند يحمله على مغادرة البلاد ، وكانت النتيجة هى اجماع الكل على بقاء الحصن تحت اشراف أسقف البارة ، ليكون قواما عليه حتى يتم البت فيمن يؤول اليه شرعا • على أنه يقال ان الأسقف اسلم الحصن للدوق قبل أن يصل القوم الى القول الفصل فيه ، وحدث فيما بعد أنه لما قام نفر يلومون الأسقف على ما فعل بحق الكونت (ريموند) والحصن ، بادر الأسقف فأعلن على رؤوس الاشهاد أنه لم يفعل ما فعل الا مرغما •

حينذاك احتدم الكونت غضبا وثارت ثائرته ، لأنه أحس بحرمانه من البرج بطريقة ازرت به ، وزيادة على ذلك فقد أدرك عدم اتسام موقف الزعماء الآخرين نحوه بالود الذى هو أهل له ، ورآهم يتناسون أفضاله الجمة التى طالما أغدقها عليهم خلال الحج ، فغادرهم الى الأردن ، وبعد أن سبح فى مائه أخذ يعد العدة للعودة الى بلده نزولا على هوى رفاقه ورغباتهم •

— ٤ —

أما أسقف « مطيرة » الخبيث المحتال فقد دأب طوال هذه الفترة على اغراء الجهال بالتطاول على الزعماء الطاهرى الذيل ، حتى لقد دفعه الحسد الذى يملأ جوانحه الى الزعم بأن القادة دبروا عدم تنصيب راع للكنيسة ليتمكنوا من بسط سيطرتهم الكاملة عليها، طالما لا يوجد لها رئيس يدير شئونها ، ومن ثم قام هذا الأسقف فاختار أرنولف المذكور — رغم معارضة سواه — ووضعه على رأس البطركية ، وعاونه فى هذا المسعى رجال ممن كانوا على شاكلته فى التفكير •

ولقد اعتمد فى هذه الخطوة على تأييد (روبرت) كونت نرماندى صديق أرنولف الحميم ورفيقه فى الرحلة ، كما اعتمد

على أصوات أوشاب الناس ورعاعهم الذين ساندوه فى مسعاه استجابة للمشورة الفاسدة ، بيد انه لم يقدر لأحد هذين الرجلين أن يتمتع طويلا بثمرة هذا التدبير الكريه ،اذ سرعان ما اضطر أرنولف رغم أنفه للتخلى عن هذا المركز الذى اندفع فى طيش للحصول عليه ، وكذلك كان الحال مع مؤيده البذىء الذى شجعه على سلوك هذا المسلك المعيب ، فلقى هو الآخر جزاءه ٠

* * *

حدث فى هذا الوقت ذاته أن اكتشف فى ركن قاص من أركان كنيسة القبر المقدس جزء من صليب المسيح ، كان قد أخفاه هنا منذ زمن بعيد المؤمنون الذين كانوا يعيشون تحت عسف « الأمم » ولم يطلع على هذا السر غير نفر قليل ٠

ويرجع الفضل فى كشف هذا الكنز الثمين الموجود فى علبة فضية الى ايمان رجل سورى كان قد عرف مخبأه ، فحمله القوم وهم يرتلون الأناشيد والأغانى الدينية ، وساروا به أولا الى قبر السيد ثم الى الهيكل ، ومضى خلفهم رجال الدين والشعب جنبا الى جنب ، وسرى بين الصليبيين شعور عام هو أن الله العلى جاد عليهم بهذه المنحة عزاء لهم عما تحملوه من الأهوال ، وما صادفوه من المشاق ٠

ـ ٥ ـ

كان الدوق جود فروى الذى يتردد اسمه كثيرا فى ثنايا هذا التاريخ قد استقر ـ برحمة الرب ـ رئيسا أعلى للمملكة ، كما قضى على جميع المنازعات ان كان قد حدث منها شىء وأخذت المملكة فى أيامه تزداد قوة وبأسا حتى ثبتت دعائمها ورسخت أركانها ، لكن لم تجاوز حكومته عاما واحدا ، لأن آثام الناس لم تساعد ـ رغم

الدعاء الكثير له ــ على أن تطول أيام هذا الأمير العظيم ، فلم يقو عود السيطرة المسيحية الغض ، وانتزعه الموت من بين الرجال حتى لايتبدل قلبه فيمتلىء بالكبرياء لأنه مكتوب فى أشعيا : « باد الصديق، وليس أحد يضع ذلك فى قلبه ورجال الاحسان يضمون ، وليس من يفطن بأنه من وجد الشر يضم الصديق »(٥) ٠

❋ ❋ ❋

نشأ جود فروى أول ما نشأ فى مملكة الفرنجة اذ ولد فى اقليم « ريمز » بمدينة « بولونيا » المطلة على القنال الانجليزى ، وهو سليل آباء كرام المحتد أتقياء ، فقد قام أبوه « استاس » الكبير أحد كونتات هذه الولاية البارزين النابهين بكثير من الأعمال الجليلة، ولايزال اسمه كرجل تقى يخاف الله محل توقير ، ولا يذكره كبار رجال النواحى المجاورة الا ويثنون عليه الثناء العاطر ٠

وأما أمه « ايدا » فكريمة الأصل ، قد ذهبت هى الأخرى بين نساء الغرب الشريفات بحســـن الأحدوثة لخلقها الرفيع ومكانتها السامية ، وهى أخت « جود فروى » (الكبير) المبجل دوق اللورين الملقب « بستروما » ولما لم يكن لهذا الدوق أولاد من صلبه فقد تبنى ابن أخته وسميه وأوصى له بكل ما يملك ، ومن ثم خلف جود فروى خاله على الدوقية عند موته ٠

وكان لجود فروى الصغير ثلاثة أشقاء : أهلهم سمو خلقهم، وشجاعتهم الفائقة لأن يكونوا عن جدارة اخوة لمولى عظيم مثله ،

---

(٥) اشعيا ٥٧ : ١ ٠

هم : بلدوين كونت الرها الذى خلف فيما بعد (أخاه) جود فروى فى حكم بيت المقدس ، وأما ثانيهما ، فأستاس « كونت بولونيا » الذى سمى باسم أبيه ، وورث أملاكه ، كما آل اليه حكم المقاطعة بعد موته ، ثم هناك « ماتيلدا » ابنة استاس ، وهى التى تزوجت من « ستيفن » ملك الانجليز العظيم المبجل ٠

ولما مات بلدوين دون ولد يرثه فقد استدعى رجال الشرق البارزون « استاس » ليخلفه فى المملكة ، لكنه كان عازفا عن الذهاب الى هناك ، مخافة ألا يتم استخلافه على العرش من غير حرب ٠

أما الأخ الثالث لجود فروى فهو « وليم » ، وكان رجلا ذا شرف صاعد ، لا تنقصه الشجاعة ولا الخلق السوى اللذان كانا يميزان أباه وأخويه ، وقد صحب الأخوان اللذان ذكرناهما مولاهما وشقيقهما فى حملته ، على حين بقى ثالثهما « وليم » فى البلاد لم يبرحها ٠

كان جود فروى العظيم أكبر اخوته ، وله الصـــدارة عليهم والتقدمة فيهم لما تميز به من نبل الطبع وعمق الايمان ، كما بزهم برحمته وتقواه وعدله ، وكان يغلب عليه الجد ، ويمتاز بصدق الكلمة والبعد تماما عن كل شر ، مع ازدراء لأبهة الدنيا ، وكانت هذه صفة نادرة فى تلك الأيام ، وهى أشد ندرة فى الرجل الذى يتخذ الحرب حرفة له ، ثم انه كان ملازما للصلاة ، دؤوبا على صالح الأعمال ، معروفا بسخاء كفه ، واذ كان مفضالا لين الجانب رحيما ، مالكا لنفسه عند الغضب فقد كان محمودا عند الله ، مرضيا عليه منه ٠

وكان طويل القامة من غير اسراف كبير ، ولكنه اذا ما قيس بالرجل العادى كان أطول منه « ولم يكن هناك أحد يماثله في شدة

بأسه ، فهو عبل الساعدين ، عريض المنكبين ، تسر طلعته الناظرين، وكان شعر لحيته ورأسه أشقر بعض الشيء ، وقد أجمع الكل على أنه معدوم النظير فى استعمال السلاح وفى ممارسته أفانين الحرب •

— ٦ —

كانت أم هؤلاء الأمراء العظام امرأة متمسكة بالدين فى حياتها ، عاملة على ما فيه مرضاة الله ، وبينما كان هؤلاء الأمراء لايزالون فى سنواتهم الأولى رأت أمهم — وقد فاضت نفسها بروحانية طاهرة — أحداث أيامهم القادمة ، والوضع المقدر لهم حين يشبون عن الطوق وتتقدم بهم الأعوام ، وكان ما رأته يشبه أن يكون وحيا أوحى به اليها ، ففى ذات مرة من المرات كان صغارها يلعبون جميعا حولها ويتدافعون كعادة أمثالهم من الأطفال ،و يزاحم الواحد منهم الآخر ، ثم يفر كل منهم الى حجر أمه معتصما بها ، حين دخل عليهم أبوهم الموقر كونت استاس ، فاستخفوا منه تحت طيات عباءتها ،و كل منهم يدفع أخاه دفعا هينا بيديه وقدميه ، فلاحظ الكونت عباءة الأم تهتز عليها فسألها ما سر هذه الهزات القوية فردت عليه كما يقولون بقولها : « انهم ثلاثة أمراء عظام ، سيكون أولهم دوقا ، وثانيهم ملكا وثالثهم كونتا » ، فكان ما قالته أشبه بنبوءة علوية تمت كما قالت ، وأكدت الأحداث فيما بعد صدق ما تنبأت به ، فقد خلف الابن الأول خاله فى الدوقية ، ثم اختاره الزعماء بالاجماع فيما بعد حاكما لمملكة بيت المقدس ، وأما من يليه مباشرة وهو بلدوين فقد ولى عرش المملكة من بعده ، على حين أن الأخ الثالث أستاس » خلف أباه بعد موته كوريث لكل الولاية لا يشاركه فيها أحد ، كما قالت أمهم •

وانني أتجاوز عامدا قصة البجعة التى تزعم الأسـطورة أن

هؤلاء الأخوة جاءوا منها ، اذ على الرغم من أن كثيرا من الكتاب يقصونها كحقيقة مؤكدة ، الا أنه لا أساس لها من الصحة عندى ·

فلنجاوز هذه القصص ، ولنعد الى تاريخ الدوق ، الذى نبدأ فى سرده ، فتذكر الأخبار أنه من بين الأعاجيب التى فعلها ـ كعادته ـ أعجوبة تستحق الاشارة ، حتى لنرى أنه ينبغى ادراجها فى مؤلفى الحالى هذا ·

ـ ٧ ـ

هناك معـركة من معارك هذا الدوق العظيم الخـالدة ، لها الصدارة بين غيرها ، وتستحق أن نرويها هنا ، وهى اضطراره ـ رغم ارادته ـ للدخول فى مبارزة كان لابد أن يخسر فيها ذيوع صيته كمألوف عادات البلاد لو أنه اعتذر عنها ، ذلك أن قد آذاه وهو فى البلاط الامبراطورى ـ نبيل من وجوه النبلاء هناك ، وان قيل انه من ذوى قرباه ، وكان الأمر يتعلق بأملاك شاسعة وولاية فسيحة الأرجاء ، فتحدد يوم معين للمحاكمة للفصل فيما رمى به ، فلما وافت الساعة المحددة حضر الى البلاط الامبراطورى كل من المدعى والمدعى عليه ، وعرض موضوع النزاع فتقدم الشريف المشار اليه بدعواه ، فدافع الدوق عن نفسه كأحسن ما يكون الدفاع ، ولكن قوانين البلاد كانت تحتم المبارزة الشخصية بين طرفى الخصومة ، فبذل سراة الامبراطورية جهودهم لمنع هذين الرجلين العظيمين من القيام أمام الناس بعمل ليس من اللائق أن يراه النظارة ، اذ كان من الضرورى أن تتمخض المبارزة عن تلويث شرف أحدهما وسمعته من غير فائدة ، لكن راحت جهودهم فى هذا الموضوع هباء ، حين صدر القرار الامبراطورى بالتنفيذ ، وتحلق النبلاء حول الاثنين كما

هى العادة ، وتزاحمت العامة حين دخل المتنازعان الساحة المخصصة للمبارزة الفردية لمعرفة ما تسفر عنه هذه المبارزة •

وبينما كان هذان العظيمان المبجلان يتصارعان فى شجاعة بكل ما أوتيا من قوة اذا بدرع الخصم يصب سيف الدوق ويتهشم السيف حتى لا يبقى منه فى يده من عند مقبضه سوى قطعة لاتكاد تبلغ نصف قدم ، فلما رأى النبلاء الشهود أن موقف الدوق قد أوفى على الخطر الذى ما بعده خطر نادوا بوقف المبارزة قليلا ، وذهبوا الى الامبراطور يلتمسون منه أن يأذن لهم باقتراح يكون حلا وسطا بين النبيلين العظيمين ، وبينما كانوا منهمكين فى عرض آرائهم اذا بالدوق يعلن رفضه البات لما قد يستفيده من جهود وسطاء السلام بينه وبين منافسه ، واذا به يعود الى الحلقة وكله اصرار تام على معاودة المبارزة •

كان سيف الخصم لايزال سليما ، وقد صارت له اليد العليا . فراح يضاعف من الشد على الدوق ويأبى أن يتيح له لحظة يلتقط فيها أنفاسه ، ومع ذلك فقد استطاع جود فروى فى النهاية أن يسترد براعته المعهودة التى كان الناس يعرفونها فيه ، واندفع الى الأمام غاضبا أشد الغضب ، ومقبض سيفه المكسور فى يده ، وضرب خصمه ضربة نكراء أصابت صدغه الأيسر فجندلته على الأرض وهو بين الحياة والموت ، حتى ظنه الجميع قد فارق الحياة تماما •

ثم طوح جودى فروى جانبا بحطام سيفه من يده وأمسك بحسام خصمه المسجى على الأرض واستدعى اليه السادة الذين كانوا يتحدثون اليه منذ قليل عن حل وسط بينهما ، والتمس منهم أن يضعوا شروط الصلح ، وأن ينصرفوا للعمل على انقاذ هذا الرجل العظيم من تلك الميتة الشائنة اذ حاقت به الهزيمة ، فتملكهم الاعجاب بشجاعة

الدوق الفائقة ، وأذهلتهم رحمته التى لاتقاس بها رحمة ، وراحوا يرتبون أمر الصلح ، وهكذا انتهت المبارزة الى نهاية شريفة ، خرج منها الدوق منصورا ، واستحق فى نظر الجميع ثناء لا يبلى ٠

– ٨ –

وهناك عمل آخر لا يقل عن هذا العمل روعة ، وسوف يبقى خالدا أبد الدهر فى أذهان الناس ، ونراه نحن جديرا بالاثبات فى هذاالكتاب ، ذلك أن السكسون – وهم أشد الشعوب الألمانية غلظة – أنفوا أن يظلوا يرسفون فى قيد الامبراطورية الرومانية ، ولما كانوا يؤثرون التنقل أحرارا دون قيد أنى شاءوا فقد تخلصوا من كل الأغلال التى كان يفرضها النظام عليهم ، وتمردوا على الامبراطور هنرى ، وأوغلوا فى تمردهم المتعمد فنصبوا على أنفسهم ملكا معارضا للامبراطور ، وكان هذا الملك أحد كونتاتهم وكبيرا من كبارهم يدعى « رودلف » ٠

اغضبت هذه الاهانة الامبراطور وأثارت خفيظته فدعى اليه كل أمراء المملكة ، حتى اذا صاروا فى حضرته استعرض أمامهم الاهانات التى لم تعد خافية عن أحد ، وطالبهم بالانتقام ، فغضبوا حمية لمجد الامبراطورية ، وساءهم مسلك السكسون الهمجى ، ولم يتوان أى واحد منهم عن عرض خدماته ، ووعدوه بامدادات عسكرية ٠

ولما لم يكن من المستطاع غض الطرف عن اساءة كهذه الاساءة فقد أعلنوا أنه ما من شىء غير الموت يلقاه السكسون يكفرون به عما اجترحوه من جرم فى حق الامبراطورية ، وأنه لايمكن محو هذه الجريمة الكبرى الا بالسيف يغسل عارها ٠

وجاء اليوم الذى حدده الامبراطور لاجتماع أمراء المملكة ، فالتقوا فى الموضع الذى ضربه لهم وهم يقودن الآلاف المؤلفة من العسكر ومن الأمراء الدينيين والعلمانيين على السواء ، وقد جاءوا بهم من كل أرجاء الامبراطورية ، وكلهم مجمع العزم على مهاجمة بلاد السكسون ، والثأر لهذه الجريمة النكراء والفعلة الشنعاء •

واقترب يوم القتال •

واصطف عساكر الجانبين استعدادا للمعركة •

وحينذاك استدعى الامبراطور اليه كبار قادته ، واستفسر منهم عمن يسلمه علمه الامبراطورى ويكون مطمئنا اليه ، ويجعله القائد العام لهذا الجيش العرمرم ، فردوا عليه فى الحال وباجماع تام منهم على أن ذلك الشخص هو « جود فروى » دوق اللورين ، لأنه أقدر الجميع وأكفأهم لتحمل المسئولية ، فلما عرف الامبراطور أنه المختار من بين الألوف المؤلفة ، وأنه فى نظر الجميع الرجل الذى لا يبزه غيره فقد أسلمه راية النسر ، فلم يبطره ماجرى ولكنه قبـــل هذا الشرف على كره منه •

وبينما كان جيشا الجانبين فى هذا اليوم يتقاتلان فى براعة ، ويشد كل منهما على الآخر بالسيف شدا عنيفا ، اذا بالدوق الذى كان على رأس قوات الامبراطور ويحمل نسره يتحرك ويزحف مواجها الصفوف التى كان يقودها « رودلف » الملك المغتصب ، فاتجهت كل القوات التى تحت قيادة الامبراطور الى حيث اتجه ، فعمت الفوضى كتائب الملك (رودلف) واضطربت صفوفها حين جاءها جود فروى الذى رآه الامبراطور (هنرى) ذاته وبعض كبار رجالاته بأعينهم وقد ضرب قلب رودلف بالراية التى يحملها ضربة طرحته أرضـــا

فسقط جثة هامدة لاحـــراك بها ، واذ ذاك رفع جود فروى الراية الامبراطورية ثانية ، وقد لطخت كلها بدم الملك ٠

فلما شـــاهد السكوسون هلاك ملكهم نكصوا على أعقابهم واستسلموا للامبراطور (هنرى) ففرضت عليهم التعويضات التى تتكافأ وطبيعة جرمهم ، فأعطوه الرهائن ، وأسلموه أسلحتهم ، تأكيدا على عدم عودتهم مرة أخرى لمثل هذه المحاولة ، وهكذا عادوا من جديد يستظلون بعطفه ٠

لقد دونا هذه الأحـــداث لندلل كم كانت هيبة هذا الرجـــل العظيم(٦) ـ الذى نتحدث عنه ـ عظيمة بين أقوى أمراء الدنيا ، ولايستطيع أحد أن يشك فى أنه انفرد بالمعظمة دون بقية الرجال ، وقد شهد له بذلك الأمراء المشهورون الذين قيل فيهم أن ليس لهم من ند أو ضريب ، وقد اثبت صدق هذا الرأى فيهم ما برهن عليه حكمهم عليه وما كان من فعاله النابهة التى جاءت بالدليل البين على أن تقديرهم كان فى موضعه ٠

ولقد قام هذا الرجل الجليل (جود فروى) بعد ذلك بكثير من الأعمال الباهرة التى تستحوذ على الاعجاب والتى لاتزال حتى اليوم تروى كقصص يستحب سماعه ، ومن هذه الأعمال انه لما عزم على المضى الى الحج تنازل عن رضا وطيب خاطر لكنيسة المسيح عن قلعة « بوبون » المشهورة المنســـوب هو اليها ، والتى تشتهر بأراضيها وموقعها وتحصيناتها ، وبما تنتجه أقاليمها الفســـيحة الواسعة من شتى الخيرات ٠

---

(٦) يقصد بذلك الدوق جودفروى ٠

لكن لما كنا قد أخذنا أنفسنا بالاقتصار على ذكر أعماله التى قام بها وهو بيننا ، فهيا بنا نعود الى ما كنا فيه •

ـ ٩ ـ

كان جود فروى رجلا مخلصا ، يفيض قلبه بالرعاية الكريمة لكل من ينتمى لبيت الرب الشريف ، ذلك أنه بعد انقضاء بضعة أيام، على اختياره رئيسا للمملكة شرع فى تقديم أولى ثمار مسئوليته الى الرب ، فأقام رجالا من الكهنوت فى كنيسة القبر المقدس وفى الهيكل ، وأغدق عليهم من فيض جوده الحسنات الوافرة التى عرفت بالمرتبات الكنسية ، كما قام فى الوقت ذاته بتوفير المسكن الملائم لهم فى تلك الرحاب الحبيبة الى الرب ، وحافظ على القاعدة والتعاليم التى تتبعها الكنائس العظمى الثرية التى أنشأها الأمراء الأتقياء فيما وراء الجبال ، وكان المرجو منه أن تزداد انعاماته عليها لو لم يعاجله الموت فيحول دون ما يرتجى •

ولما شرع هذا الرجل حبيب الله فى الخروج للحج أخذ فى معيته رهبانا من أحسن الأديرة تنظيما ، ورجالا أتقياء عرفوا بطهارة الذيل ، فكانوا طوال الحج لا يكفون ليلا ولا نهارا عن أداء الخدمات الدينية للدوق فى ساعاتها المقررة ، ووفق طقوس الكنيسة ، فلما آلت اليه السلطة الملوكية أقامهم ـ حسب طلبهم ـ فى وادى « يهوشافاط » وجازاهم على خدماتهم باقطاعهم الأراضى الشاسعة •

ان الأمر يطول بنا جدا ان رحنا نعدد المنح التى أغدقها فى سخاء كريم على كنائس الرب ، ومع ذلك فان استعراض مضمون الامتيازات التى منحت للكنائس يبين مدى كثرتها وقيمة تلك العطايا التى أقطعها ذلك الرجل المتفانى فى خدمة الرب للأماكن المقدسة سعيا وراء خلاص روحه ، كما حمله تواضعه ـ حين ولى السلطة ـ

على رفض ما جرت به عادة الملوك من أن يتوج بتاج من الذهب فى المدينة الطاهرة التى توج فيها مخلص الجنس البشرى بتاج من الشوك لبسه راضيا من أجل خلاصنا ، ومن أجل هذا فان طائفة من الناس لم يقدروا خدمات جود فروى حق قدرها ، يترددون فى ادراجه فى عداد الملوك ، ومرجع ذلك أنهم يضعون الأعمال الجسدية فى مرتبة اسمى من مرتبة الأعمال التى تؤديها النفس المؤمنة بالرب ، أما نحن فنعده ملكا ـ كان من أحسن الملوك قاطبة وكان هاديا وقدوة لغيرهم ، والحق أنه لا ينبغى لأحد ما أن يظن أن هذا الأمير المؤمن ازدرى هدية تكريس الكنيسة وقربانها المقدس ، لكنه كان يحتقر زهو الدنيا وباطلها الذى يتعرض له كل مخلوق ، فأملى عليه تواضعه أن يرفض التاج الذى مآله الفناء ، طمعا منه فى أن يحصل فيما بعد على تاج لا زوال له أبدا ٠

ـ ١٠ ـ

كانت المدينة قد سقطت منذ أمد قريب ولم يبرحها بعض القادة الذين استولوا عليها لخدمة الرب حين سرت شائعة مالبث أن تأكد صدقها ، تلك هى أن خليفة(٧) مصر (الفاطمى) ـ أقوى الحكام بين الشعوب الشرقية ـ قد استدعى العسكر من كل البلاد الخاضعة لسلطانه ، وجمع منهم جيشا واحدا كثيفا ، ذلك لأنه كان غاضبا أشد الغضب أن يجىء شعب همجى من أقصى مناطق العالم فيغزو مملكته ، ويستولى عنوة على احدى الولايات الخاضعة له ، فاستدعى اليه أمير جيوشـــه الأفضل المعروف كذلك باسم أمير الجيوش(٨)

---

(٧) فى الأصل « أمير »

(٨) فى الأصل «EMIREIUS» ولكن الأفضل معروف فى المصـــادر الاسلامية باسم « أمير الجيوش » ٠

وكلفه بحشد جيش يضم كل زهرة شباب مصر وعسكر الامبراطورية أيضا ويزحف بهم على بلاد الشام ليقضى القضاء المبرم على الشعب المتطفل ، ويمحوه من على وجه البسيطة ، حتى يتلاشى اسمه من الوجود .

وكان الأفضـــل أرمنى الأصـــل ، مسيحى الوالدين ، لكن أضلته الثروة الفاحشة فأنكر خالقه ، وتخلى عن أيمانه الذى يؤدى وحده الى الطريق المستقيم ، وكان هذا الرجل قد استرد من قبل لمولاه مدينة القدس من أيدى الترك ، ثم جاء الصليبيون فى نفس العام ليحاصروها بفضل الله ويردوها الى الايمان ، لذلك لم ينقض أحد عشر شهرا على فرحة الأفضل بامتلاكها حتى جاء العسكر الصليبى فحررها من وثاق الرق الذى لا يليق بها ، وهكذا فانه لم يتمتع بثمار انتصاره الا لفترة وجيزة جدا ، مرت كأنها اللمحة الخاطفة ، ولما كان الفضل يرجع الى جهوده فى استعادة مولاه (الخليفة) للمدينة فقد سره أن يقوم بالمهمة التى نيطت به .

كان (الأفضل) يطمع أن يحرز النصر فى يسر على أولئك الذين كسفوا شمس مجده ، ومن ثم مضى الى بلاد الشام على رأس كل القوات التى استطاعت مصر أن تمده بها ، تفيض نفسه سخطا ويملؤه الكبرياء الطاغى ، مجمعا العزم على تدمير الصليبيين تدميرا تاما فلا يبقى لهم ذكر فى الوجود ، لكن الرب الذى جاء وصفه(٩) بان «فعله مرهب نحو بنى آدم» قضى بشىء غير الذى أراده الأفضل الذى سار بهذا الجيش الجرار والحشد الرائع من الفرسان وتقدم فى بلاد الشام حتى خيم أمام عسقلان ، وانضمت الى حملته قوات

---

(٩) المزامير ٦٦ : ٥ .

غفيرة جاءته من كل بلاد العرب ودمشـــق ، ولم يكن بين الترك والمصريين مودة ، حسدا من كل منهما للآخر على بأسه الحربى ، وسعى كل منهما سعيا حثيثا لمد رقعة مملكته على حساب خصمه ، غير أن فزعهما من الصـــليبيين فى هذه اللحظة أنسى كلا منهما ما يضمر للآخر من الكراهية ، وقرب هوة الخلاف بينهما ، فانضمت قواتهما بعضها الى بعض لتنفيذ مخطط يستهدف الاطاحة بالصليبيين الذى قدموا حديثا الى البلاد ، ورآى كل جانب من الجانبين ان احتمال غطرسة خصمه - حتى ولو ضاق به ذرعا - أهون عليه من أن يكابد سيوف المتبربرين الخشنة الفظة .

واذ وضع الجانبان هذا الهدف أمام نظرهم فقد تجمعت لديهم قوات لا عد لها من المصريين والعرب والترك ، وضربت مخيماتها فى السهول الواقعة أمام عســـقلان التى قرروا أن يجعلوها نقطة زحفهم على بيت المقدس ، لأنه كان يخيل اليهم أنه ليس من المعقول أن يجرؤ جيشنا على المخاطرة بمواجهة مثل هذا الحشد الكبير فى ساحة القتال .

- ١١ -

حين بلغت هذه الأخبار الصليبيين تجمعوا على بكرة أبيهم : قادة وأساقفة ورجال دين وعامة ، وكان ايمانهم سلاحهم ، وخروا سجدا على وجوههم أمام القبر الطاهر ، داعين الله بين الأنات والدموع ، ومتوجهين اليه بقلوب خاشـــعة ، يسألونه أن يكلأهم برحمته وينقذهم من الخطر الموشك على الالمام بهم ، وأنه اذا كان قد قدر لهم النصر حتى الآن وشاء أن يطهر موضع عبادته فهيهات أن يرضى له أن يلوث حفاظا على اسمه المجيد .

وأمسكوا أنفاسهم خاشعين منصرفين لسماع التراتيل والأناشيد الدينية ، ثم أسرعوا حفاة الى الهيكل ، وانطلقت قلوبهم مرة أخرى تصلى للرب قائلة : « اشفق يارب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار(١٠) ٠

ولما فرغوا من صلاتهم على مألوف العادة ، وباركهم الأسقف قام الدوق (جودفروى) فاختار رجالا ألباء أهل خبرة لحراسة المدينة وادارتها ، أما هو فقد مضى ومعه كونت فلاندرز الى سهول الرملة ، وبقى غيرهما من الزعماء ببيت المقدس ٠

كان « أستلس » الفاضل ــ أخو الدوق ــ فى صحبة تانكريد بنابلس التى شخص اليها انصياعا لأمر الدوق (جود فروى) ، واستجابة لدعوة تلقاها من أهلها ، يقولون له فيها انهم مسلموه المدينة من غير مقاومة ، فطال لبثهما بها ، ولم يكن هذا المكث الطويل راجعا فحسب الى ما كان بها من الثروات الضخمة ، بل وأيضا لوضع حامية تكفى لحراستها ، ولذلك فقد كانا يجهلان ماذا جرى بالقدس ، لكن ما كادت تصلهما دعوة الدوق بالرجوع حتى خفا للعودة فى لحظتهما ، وانضما الى بقية الزعماء ٠

ولما أصبح الدوق وكونت فلاندرز فى الرملة ، جاءتهما الأخبار الصحيحة تؤكد أن الأفضل قد عسكر أمام عسقلان بقواته ، فبادر الدوق فى الحال بارسال رسول من قبله لدعوة القادة الآخرين الذين كانوا باقين ببيت المقدس فى انتظار الخبر اليقين ٠

---

(١٠) يوئيل ٢ : ١٧ ٠

تضمنت رسالة الدوق (جود فروى) خبر تدفق العدو بأعداد كبيرة ، وأنه نصب خيامه على مقربة منهم ، فلم يتوان (ريموند / كونت تولوز ولا الزعماء الآخرون المخلصون لله - بعد سؤالهم الرب المعونة - فى جمع العسكر الذين كانوا اذ ذاك حولهم ، ودخلوا بهم فى أرض الفلسطينيين ، ميممين الموقع المعروف الآن باسم « ابلين » اذ علموا بوجود الدوق به ، واصطحبوا معهم قوة مؤلفة من ألف ومائتى فارس ، وما يقرب من تسعة آلاف جندى من المشاة ، وظل جيشنا مقيما فى « ابلين » مدة يوم ، حتى اذا قاربت الساعة الحادية عشرة نظروا فرأوا على البعد فى السهل قوة كبيرة ، فظنوها عسكر العدو ، فأرسلوا أمامهم مائتى فارس مدججين بالسلاح الخفيف للتأكد من عدد هذه القوات وما هيتها ، أما هم ذاتهم فقد أعدوا انفسهم فى الوقت ذاته للقتال .

ولما صارت كتيبة الاستطلاع أقرب ما تكون الى هذا الحشد تبينت فيه أعدادا ضخمة من الماشية والخيول والجمال ، وقد قام على حراستها طائفة من الفرسان على جيادهم ، وكانوا لها شبه رعاة ، فتقدمت كتائبنا حتى اذا صارت قاب قوسين أو أدنى منهم فر الرعاة والفرسان القائمون بالحراسة ، وولوا الأدبار ، تاركين قطعانهم وأسراب مواشيهم من غير حراسة ، فاستولى عليها الصليبيون بلا قتال .

ومع ذلك فقد سقط فى الأسر من العدو جماعة ، عرفنا منهم كل ما تجدينا معرفته ، من وضع العدو وخططه ، وصرحوا أن أميرهم الكافر نصب معسكره فى بقعة دانية كل الدنو ، لا تبعد عن هنا أكثر من سبعة أميال ، وأنه مجمع العزم على الزحف بعد يومين لاستئصال شأفة الجيش الصليبى .

حينذاك أيقن القادة أن المعركة لابد ناشبة عن قريب ، فرتبوا صفوفهم وجعلوها تسع فرق : ثلاثا منها فى الطليعة ، ومثلها فى القلب ، والثلاث الباقيات فى الساقة ، فلو هاجمهم العدو من أية ناحية تصدت له ثلاث فرق •

لكن لم يمكن الحصول على بيان قاطع بحقيقة عدد العدو ، لأن عسكره كان من الكثرة بالصورة التى يعجز عنها الحصر ، هذا بالاضافة الى الامدادات التى كانت ترد اليه كل يوم •

كانت الغنيمة التى استولى عليها الصليبيون من غير قتال(١١) غنيمة فوق التصور كما قلنا ، فقضوا الليلة فى هذا الموضع فى فرحة غامرة ، غير أن هذا لم يصـــرفهم ـ وهم الألباء الخبيرون بالحرب ـ عن أن يقيموا حول المعســكر عددا كافيا من الحراس الذين لم تغفل لهم عين عن حراسته •

فلما كان اليوم التالى نادى المنادى فى الصليبيين بالنهوض للقتال ، فنظموا صفوفهم وتقدموا كأنهم البنيان المرصوص لحرب العدو • تاركين الخاتمة الى الله يدبرها كيف شاء ، اذ النصر من عنده لأنه هو وحده القادر أن يمكن فئة قليلة من التغلب على فئة كبيرة فى غير عسر •

ولقد رأى المصريون ومن انضم اليهم من بلاد الشام من عزم الصليبيين الجاد ومن وضعهم القوى ما زعزع ثقتهم فى بأسهم ، فصاروا الآن أكثر تعقلا عن ذى قبل ، وأخذ أملهم فى أن تكون لهم الغلبة ـ اعتمادا على كثافة عددهم ـ يتضاءل شيئا فشيئا ، اذ كان ظنهم أن كل قوام الجيش الزاحف ضدهم من الجند المشاة •

---

(١١) انظر ما سبق ص ١٦٤ ، س ١٣ ـ ١٩ •

حقيقة أن عددنا كان صغيرا ، ولكن الذى حدث هو أن قطعان الماشية والدواب التى غنمناها سارت خلفنا من تلقاء ذاتها فكانت تقف اذ يقف الجيش ، وتعاود السير مباشرة اذ يعاودالعسكر الزحف رغم عدم وجود راع لها يرشدها ، وترتب على هذا أن اعتقد العدو أن عددنا لانهاية له ، وأن بأسنا لايماثله بأس ، فلاذوا بأذيال الفرار رغم عدم مطاردة أحد لهم ، لكن أملهم فى السلامة ـ حتى فى هربهم هذا ـ كان أملا واهيا ٠

بيد انه عرض فى ذلك العام عارض سوء لايدرى أحد كنهه ، اختفى معه أسقف « مطيرة » موقد المنازعات ومثير الشقاق اختفاء غامضا ، ولم يعد له يد فى تصريف أمور الدنيا ، ولم ير بعد ذلك قط ابدا ، وكان الدوق قد بعث به لاستدعاء من تخلف ببيت المقدس من الزعماء ، ويقال انه وقع فى أثناء عودته فى يد العدو فقتله أو سجنه سجنا لم يخرج منه أبدا ٠

ولما منح الله النصر للجيش الصليبى انطلق حجاجه الى معسكر العدو فعثروا على كميات ضخمة من شتى أنواع المؤنة ، فأتخمتهم وفرتها حتى انهم تعالوا عن أكل الكعك وعسل النحل ، وحق لأفقرهم أن يقول : « اتخمتنى الوفرة حتى جعلتنى بائسا » ٠

وكان فرار العدو متيحا النصر للصليبيين من غير جهد يبذلونه أو مشقة يكابدونها ، ومن ثم عاد الناس والقادة الى القدس شاكرين انعم الله عليهم ، مثقلين بالأسلاب والغنائم التى فاضت بها أيديهم ، وهكذا عادوا يسحبون أذيال الغبطة ، وتستبد بهم الفرحة ، وراحوا فى انتصـــارهم يوزعون ما غنموا من الثروات ذات اليمين وذات الشمال ٠

حين انتهت هذه المعركة قرر القائدان(١٢) الحبيبان الى الله والمخلصان فى خدمته العودة الى بلديهما فقد كللت بالنجاح رحلة الحج التى شاركا فيها ، ومن ثم خرجا مبحرين الى القسطنطينية التى تلقاهم امبراطورها بالترحاب ، ووصلهما بعطاياه الكريمة ، ثم سافرا منها فبلغ كل منهما مأمنه ســالما فى روحه ، معافا فى بدنه ٠

***

عاد كونت نرمندى الى بلده ليجد الأمور قد تبدلت تماما عما كانت عليه حين خرج للحج ، وأنها بعيدة كل البعد عما يحب لها أن تكون عليه ، فقد حدث وهو يحارب من أجل المسيح أن مات أخوه الأكبر وليم الملقب بروفوس ملك الانجليز دون وريث ، مما يقضى معه أن يؤول حكم المملكة ـ نفاذا لولاية العهد ـ الى الكونت ٠

غير أن أخاه الأصغر هنرى أقنع أمراء المملكة أن روبرت قد أصبح ملكا على بيت المقدس ، ولم تعد لديه نية العودة ، ونجح بهذه الخديعة فى تبوء العرش بدلا منه ٠

لكن ما كاد الكونت يعود حتى طالب فى الحال بحقه فى المملكة. بيد أن أخاه هنرى رفض طلبه هذا رفضا باتا وأبى اباء لا رجوع فيه أن يتخلى عنها ، فجمع الكونت العسكر ، وجهز أسطولا وهاجم انجلترا بالعسكر المدجج بالسلاح ، فحشد أخوه كل قوة المملكة وتقدم لمحاربته ، وكان القتال على وشك الوقوع بين الاثنين لولا وساطة الوسطاء بينهما ، فتم الوصول الى حل وسط مرض للطرفين ، يدفع بمقتضاه الملك لأخيه الأكبر (كونت نرمندى) مبلغا سنويا على أنه ضريبة ، فهدأت ثائرة الدوق بهذا الاتفاق ، وكر راجعا الى بلده ،

(١٢) هما كونت نرمندى وكونت فلاندرز ٠

لكنه مالبث أن طالب أخاه بقلاع معينة فى نرمندى كان هنرى قد استولى عليها قبل اعتلائه العرش ، فلما رفض الملك التخلى له عنها حاصرها روبرت وأخذها عنوة ، فلم يكد هنرى الملك يسمع هذا الخبر حتى عبر البحر الى نرمنديا على رأس قوات كبيرة ، ونازل أخاه ، وأسره وألقى به فى السجن ، فظل رهينة طول أيامه الباقية حتى وافاه أجله وهو به ، فخلفه أخوه الملك فى كل ممتلكاته(١٣) .

* * *

أما (ريموند) كونت صنجيل فقد عاد الى اللاذقية ببلاد الشام حيث كان قد خلف بها زوجته على عزم الرجوع اليها بعد قليل ، ثم شد رحاله ثانية فى حاشية كريمة الى القسطنطينية ، فاستقبله امبراطورها العظيم استقبالا رائعا ، وعامله أحسن معاملة، ثم رده سالما الى سورية محملا بالهدايا الرائعة ، فرجع الكونت الى زوجته وأهل بيته بعد غيبة طالت عامين ، كما سنقص خبر ذلك .

أما الدوق فقد استبقى معه النبيل المبجل تانكريد وكونت « جارنييه دى جراى » ورهطا معينا من النبلاء ، وراح يدير دفة أمور المملكة التى خصه الله لها بحكمة وهمة ، فأسبغ كرمه المعتاد على تانكريد ، اذ خلع عليه مدينة طبرية الواقعة على بحيرة « جيتيسارت » ، وجعلها وراثية فيه الى الأبد ، ومعها كل ولاية الجليل ، كما منحه فى الوقت ذاته حيفا الساحلية المسماة « بورفيريون » بكل ملحقاتها .

ولقد أدار تانكريد شئون هذه الولاية بهدوء رضى الرب عنه ، حتى أن أهل تلك البلاد لا يذكرونه الى يومنا هذا الا بكل احترام .

---

(١٣) اشارت الترجمة الانجليزية الى أن وفاة روبرت كورتهيوز هذا كانت فى سنة ١١٣٤ بقلعة كارديف فى ويلز ، وقد أحالت هذه الترجمة القارىء ان شاء المزيد من التوسع فى اخباره الى :
David Robert Curthose, PP. 120 — 129.

كما عنى عناية فائقة بتشـــييد الكنائس فى نواحى تلك الأسقفية ، لاسيما فى الناصرة وطبرية وعلى جبل تابور ، وحبس عليها الحبوس الواسعة ، وزودها أيضا بالتجهيزات والتهاويل الدينية ، لكن جزءا كبيرا من هذه المنح تولى الأمراء الذين خلفوا تانكريد توزيعه تارة بالحيلة وتارة أخرى بالخديعة • ومع ذلك فان ما بقى منها ساعد الكنائس على الصرف على نفسها لســـد احتياجاتها ، ولم يفتها الترحم على روح من سخا على كنائس الرب هذا السخاء الدينى العظيم ، وغمرها بالحب العميق •

ولما كان تانكريد مخلصا حتى فى الأمور الصغيرة فقد كانت نعم الرب عليه كثيرة بصورة أشعرته بما يحسه رب الأسرة من الغبطة ، وجازاه على كل شىء بذله مائة ضعف ، فكوفىء بعد سنتين على خدماته بأن استدعى الى امارة أنطاكية ، فأغدق عطاياه الكثيرة على كنيستها التى أخذ مجدها وشهرتها فى التزايد منذ عهد الرسل ، مضافا الى ذلك توســـيعه رقعة الامارة بما ضمه اليها من المدن والحصون التى استولى عليها ، حتى انبسطت طولا وعرضا ، كما سنورد ذلك فى الصفحات التالية •

— ١٤ —

بينما كانت الأمور تسير قدما على هذه الصورة فى المملكة قرر الدوق بوهيموند أمير أنطاكية وأخوه بلدوين كونت الرها الذهاب الى بيت المقدس ، فقد جاءتهما الأخبار الجمة بما أنعمت به العناية الالهية على اخوانهما ورفاقهما فى هذا الحج الأعظم من النجاح فى الاستيلاء على المدينة المقدسة مما كان انجازا ســـعيدا لهدف رحلتهم ، فحركهما هذا الخبر لتحديد يوم يرحلان فيه تحت رعاية الرب الى المدينة الطاهرة ، وذلك حين يفرغان من اتمام كل الاجراءات

الضرورية لهذه الرحلة التى كان غرضهما منها أن يكملا جهودهما بالوفاء بما عاهدا الله عليه حتى يؤدى حضورهما الأخوى الى بث الطمأنينة فى نفس الدوق وتانكريد وغيرهما من الزعماء ، اذ كان قد تخلف عنهم النبيـــلان العظيمان بوهيموند فى أنطاكية لرعاية الامارة ، وبلدوين فى الرها لحفظ البلد من غارات العدو ٠

وكان الأمر قد تقرر منذ البداية ومنذ الاستيلاء على أنطاكية على أن الصالح العام يقتضى من هذين الزعيمين الا يترك أحدهما أرضه التى منحتها له السماء ، وأن واجبهما يحتم عليهما أن يبذلا ما فى وسعهما من الاهتمام بالدفاع عنها ، فلم يكن من المستبعد أن يعاود العدو القتال بقوات جديدة وفى عنف أكبر مما كان عليه من قبل ، وحينذاك لا يجدى الصليبيين ما أنجزوه نفعا ٠

وعلى الرغم من انشغال كل من هذين الحاكمين أشد الانشغال بأمور مملكته ، الا أنهما عزما عزما أكيدا على الحج ، ومن ثم شرعا فى السفر فى اليوم المحدد ، فاستصحب بوهيموند معه رهطا كبيرا من أصحاب الخيل ومن المشاة ، كما سار على الأقدام كثيرون ممن كان الشوق ينازع نفوسهم للقيام بنفس الحج ، ووصل بوهيموند الى مدينة « فالينيسا » البحرية الواقعة عند سفح حصن المرقب حيث ضرب مخيمه وان كان ذلك على كره شديد من الأهالى ، وهنا انضم اليه بلدوين الذى كان على مقربة منه فاتحدت قواتهما وتابعا الرحلة التى قاما بها ٠

* * *

وحدث فى هذا الوقت بالذات أن أرست فى لاذقية الشام طائفة من حجاج ايطاليا ، من بينهم دامبرت رئيس أساقفة البيازنة ، وكان رجلا عاقلا متعلما ، رحيم القلب ، ميالا لكل عمل شريف ، كما كان

فى هؤلاء الحجاج أيضا أسقف(١٤) « أريانو » فى « أبوليا » وقد انضم هؤلاء الناس الى معسكر القائدين اللذين أشرنا اليهما ، فزادت بذلك القوات زيادة ضخمة ، ويقال ان عدد هذا الحشد من الرجال والنساء ، ممن عندهم ظهر ومن سار راجلا كان يقرب من خمسة وعشرين ألف نسمة ٠

تابع الحجاج سيرهم مصاقبين للساحل مارين بمدن العدو ، مما جعلهم لا يبلغون هدفهم الا بشق النفس ومكابدة المتاعب الجمة بسبب نقص الطعام عندهم ، فقد نفذ كل ما كانوا يحملونه منه فى صدررهم ، ولم تتح لهم قط فرصة للشراء ، كما لم يجدوا شــيئا يبتاعونه ، يضاف الى ذلك ما قاساه الكثيرون من العذاب الشديد بسبب زمهرير البرد القارس وهطول المطر الغزير ، لأنهم كانوا فى شهر ديسمبر ، والوقت شتاء ، وقد انفرد أهل طرابلس وقيصرية وحدهم طول هذه الرحلة الطويلة بتمكين هؤلاء المسافرين فى عبورهم البلاد من شــراء الطعام ٠ وعلى الرغم من ندرته عند الحجاج ومقاساتهم أهوال الجوع الا أنهم تابعوا مسيرتهم غير عابئين بما يكرثهم من عدم وجود دواب النقل لحمل متاعهم ٠

لكن رعاية الله أبت الا أن تحرسهم ، فبلغوا القدس حيث رحب بهم الدوق (جود فروى) ورجال الدين والأهالى أصدق ترحيب ، ثم زاروا الأماكن المقدسة بقلوب واجفة ٠ ونفوس ملؤها الخشوع ، وشاهدوا بأعينهم صدق ما كانت تأتيهم به الأخبار مما كانوا لايعرفونه

---

(١٤) جاء فى حاشية ٣٥ ، ص ٤٠١ ، ج١ من الترجمة الانجليزية ما يرجح القول بان أسقف « اريانو » كان مع بوهيموند منذ سنة ١٠٩٦ ، وتبنى الترجمة هذا الترجيح على ما جاء فى كل من
A.B. Yewdale : Bohemond, I, Prince of Antioch, P. 38, & H. Hagenmeyer, ed., Fulcher Carantensis Herosolymitana. P. 327.

الا سماعا ، فلما صاروا بمدينة بيت لحم الطاهرة احتفلوا بمولد المسيح ، وهنا راحوا يحملقون بدهشة فى المذود والكهف العجيب الذى أقامت فيه الأم الحنون التى جاءت بمفتاح الخلاص ، فلفت السيد فى الأقمشـــة البســيطة ، وراحت تهدهد من بكائه على صدورها ٠

***

ـ ١٥ ـ

على أنه قبل هذا الأمر بخمسة أشهر تقريبا خلى كرسى كنيسة بيت المقدس من صاحبه ، ومن ثم صارت الحاجة ماسة الى سواه يدبر أمورها ، لذلك اجتمع من كان وقتئذ بهذه المدينة من الأمراء ليوفروا لكنيسة الرب من يشغل هذا المكان ، وطالت بينهم المداولات العقلانية حتى انتهت الى اجماعهم على تنصيب « دامبرت » الموقر فى كرسى البطركية فتم انتخابه ، فشجب اختياره ما كان من انتخاب أرنولف الذى ذكرناه ، وعد انتخابه باطلا ، وأنه يجب التجاوز عنه لأنه تم فى عجلة وغير تبصر ٠

وما كاد رجل الرب « دامبرت » ينصب فى كرسى البطركية حتى سلم بيده كلا من الدوق جود فروى والأمير بوهيموند تقليديهما بما فى يدهما ، فتسلماه فى خشـــوع ، فأما الأول فمنحه مقاليد المملكة ، وأما الثانى فقد وكل اليه أمر الامارة ، فكان ذلك توقيرا منهما باعتبار البطرك نائب السيد على الأرض ٠

وما كادوا يفرغون من مراسيم هذا الحفل حتى رصدت للبطرك المبجل الأموال المناسبة للصرف على أسقفيته الموقرة ، ولم يقف الأمر عند حد منحه الأملاك التى كانت تابعة من قبل للبطرك اليونانى منذ أيام البيزنطيين زمن « الأمم » ، بل أضيفت اليها أملاك جديدة ٠

وبعد أن تمت هذه الأمور على الوجه الأكمل استأذن بوهيموند وبلدوين من الدوق فى عودة كل منهما الى بلده ، ونزلا الى نهر الأردن ، فظلا سائرين على طول شاطئه عبر الوادى الشهير ، ومضيا الى « بيسان سكيتوبوليس » حتى انتهيا أخيرا الى طبرية ، فتزودا — ومن معهما — بما يحتاجونه من الطعام اللازم للرحلة التى تابعوها من جديد على طول بحر الجليل الى فينيقية اللبنـــانية ، جاعلين « بانياس » التى هى قيصرية فيليبى على يمينهما ، ثم دخلا اقليم ايتوريا وجاءا الى الموضع المسمى هليوبوليس والمعروف أيضا باسم « بعلبك » وهنا عادا مرة ثانية الى ساحل البحر حتى أوصلتهما رعاية الله الى أنطاكية سالمين بمن معهم فى أنفسهم وأبدانهم ٠

— ١٦ —

فى هذه الأثناء نجمت مشكلة فى القدس بين البطرك والدوق ، وزاد من حدتها تدخل فئة معينة من مثيرى الفتن الذين يســـتوقد الحسد ضلوعهم لمن يعيشون فى هدوء ، ويفرحون غاية الفرح فى بذرهم بذور الشقاق بينهم ، ذلك أن البطرك طالب أن يعيد الدوق اليه مدينة الرب المقدسة بقلعتها وكذلك مدينة يافا بملحقاتها ، وطال النقاش واحتد بينهما بعض الوقت ، حتى اذا كان يوم(١٥) الاحتفال بدخول السيد المسيح الى الهيكل وتنزيه مريم المباركة وقف الدوق وهو الرجل المتواضع الأريحى التقى وتنازل أمام رجال الدين وكافة الناس عن ربع مدينة يافا لكنيسة القيامة المباركة ٠

ثم لما كان يوم عيد الفصح التالى المبارك قام الدوق فى حضرة رجال الدين وبين الناس الذين احتشدوا للاحتفال بهذا اليوم ، وأسلم البطرك مدينة بيت المقدس وبرج داود وكل ما يلحق به ، وألحق

---

(١٥) وذلك يوم ٢ فبراير سنة ١١٠٠م ٠

الشرط التالى بالعطية الا وهو أن يتمتع هو ذاته(١٦) بالمدينة المشار اليها ، ويكون له الحق فى استعمال ضواحيها حتى يأذن الرب له بأخذ مدينة أو اثنتين أخريين ، وبذلك يزيد فى رقعة المملكة ، كما اشترط أنه اذا مات دون وريث شرعى فان جميع الأملاك المشار اليها تنتقل من غير معارضة أو مشاحنة الى سلطة البطرك المعظم دامبرت ٠

ولقد أدرجنا كل هذه التفاصيل فى كتابنا الحالى هذا على الرغم من أنها واردة فى كتابات(١٧) الآخرين ، كما أن هناك اشخاصا من شتى المراتب بذلوا جهدا فى تدوينها فدونت ، ومع ذلك فاننا نتساءل فى دهشة عن الدوافع التى حملت البطرك على اثارة هذه المشكلة ضد الدوق اذ أننا لم نقرأ أبدا ، ولا حدثتنا الأخبار الموثوق بها أن عهد القادة (الصليبيون) المنتصرون بالمملكة للدوق على مثل هذه الشروط التى تجعله يحس بالتزامه بمنح وعود حولية أو عهود دائمية لأى شخص ، أيا كان هذا الشخص ٠

ولا يظنن أحد بنا الغفلة أو الجهل التام حين ندقق النظر أكثر من اى شخص آخر للوقوف على حقيقة هذه الأمور ، فما غرضنا الا تسجيل واقع هذا الخبر ، وهو غاية كانت فى ذهننا منذ زمن بعيد ٠

---

(١٦) أى الدوق جودفروى ٠

(١٧) يتفق المترجم مع ما ورد فى الترجمة الانجليزية من ان هذا دليل بين على أن وليم الصورى رجع فى تدوين أخباره الى بعض مؤلفات معاصريه ٠

مما لا مراء فيه أنه منذ دخـــول اللاتين بيت المقدس ـ بل وقبل ذلك بسنوات طويلة ـ كان ربع المدينة معتبرا ملكا للبطرك ، ويمكن أن نوجز كيف تم ذلك الأمر مع الاشارة الى أصل هذا التملك وسببه ، ولقد توصلنا الى حقائق هذا الموضوع بعد استقراء عميق لهذه المسألة وكثرة السؤال بشأنها ٠

تقول الأخبار القديمة ان هذه المدينة لم تنعم قط بالسلام الدائم ولو لأمد قصـــير حتى يومنا هذا منذ وقوعها فى أيدى المارقين ، بل سارت الأمور فيها على النقيض ، فقد اجتاحتها الحروب المتكررة، وتعددت مرات حصارها بسبب طمع الأمراء المجاورين فى الاستحواذ عليها لأنفسهم ، مما تمخض عن هدم أسوارها ، فتحولت أبراجها الى أطلال خلال أيام الحصار ونكباته ، وأصبح البلد عرضـــة لمكائد الأعداء من كل ناحية ٠

وكانت مملكة المصريين فى هذا الوقت قد بزت غيرها من ممالك الشرق والغرب قاطبة ، ليس فى كثرة سكانها وثروتها فحسب ، بل وفى السيطرة الدنيويةأيضا، ولما كان خليفة مصر يريد مد رقعة حدود امبراطوريته ، وبسط سلطان سيادته على القريب والبعيد ، فقد أنفذ جيوشه فاحتلت كل بلاد الشام قسرا وتوغلت حتى بلغت مدينة اللاذقية المجاورة لأنطاكية ، والتى تعتبر حدودا لوسط الشام ، ثم عين نوابا يتولون حكم جميع مدنها البحرية والبرية على السواء ، وفرض عليها الجزية ، وألزمها بالارتباط به برباط التبعية ، وزاد على ذلك بأن أرغم كل مدينة أن تعيد ترميم أسوارها ، وأن تشيد حولها أبراجا منيعة ، وترتب على هذا المرسوم العام قيام عامله على بيت المقدس بالزام سكانها بهذه الأوامر الشاملة واعادة السور والأبراج الى ما كانت عليه من قبل ٠

وتعمدوا — عن سوء نية فى أثناء توزيع هذا العمل — الزام النصارى التعســـاء المقيمين ببيت المقدس باعادة تعمير ربع تلك العمائر ، وكان هؤلاء المؤمنون قد طحنتهم السخرة وكابدوا ماهو أشد منها قسوة ، فقد أجهدتهم الضــــرائب ، وأثقلتهم الاتاوات ، وألزموهم القيـــام بالأعمال المزرية حتى لم يعد كل ماتملكه هذه الجماعات كافيا لتمكينها من اعادة برج أو اثنين من هذه الأبراج .

وحين رأى النصارى أن عدوهم يتلمس كل فرصة لمضايقتهم مضايقة لا يملكون لدفعها حولا ولا قوة فقد يمموا وجوههم شطر الوالى ، واستعطفوه فى مذلة وانكســـار سائليه أن يكلفهم بمهمة تتناسب وطاقاتهم ، لعجزهم التام عن انجاز ماكلفوا به ، فلم يرحمهم الوالى ولم تعطفه عليهم دموعهم بل أمرهم أن يغربوا عن وجهه ، وبالغ فى تهديدهم قائلا لهم « ان شجب قرار الأمير(١٨) الأعظم فيه تدنيس ، فعليكم أما أن تنجزوا العمـــل الذى وكل اليكم ، أو أن تستسلموا للسيف كمذنبين فى حق صاحب الجلالة » .

وأدى تدخل الكثيرين من الوسطاء وكثرة ما قدمه النصارى من الهدايا الى حصولهم على تأجيل تنفيذ حكم الوالى الى حين التمكن من ارسال مبعوثين الى الامبراطور بالقسطنطينية يسألونه أن يتصدق عليهم بما يستطيعون به اكمال ماكلفوا به .

— ١٨ —

فأوفدوا فى الحال الى الامبراطور الرسل الذين ما ان صاروا بين يديه حتى مضوا يشرحون له فى تفصيل وضــــع المسيحيين المحزن ، وماهم فيه من البلاء المقيم والحزن الموجع، فحركوا بكلامهم

---

(١٨) يقصد بذلك الخليفة الفاطمى .

أشجان سامعيهم ، وفصلوا لهم مافيه النصارى من نكد عظيم ، وما يتعرضون له من الضرب المهين والبصق والتقييد والزج فى الحبس بسبب اسم المسيح ، وأفاضوا فى مايكابده هؤلاء التعساء على الدوام من ضياع مايملكون بسبب المصادرات الواقعة عليهم ، ناهيك بأنهم عرضة للصلب وشتى أنواع التعذيب ، وأسهبوا فى ذكر ما يتذرع به خصومهم من الحجج للقضاء على هذا الشعب التعيس .

كان الجالس على عرش امبراطورية القسطنطينية وصاحب الصولجان يومذاك هو « قسطنطين » مونو ماخوس »(١٩) وكان رجلا عاقلا سوريا ، يدير دفة شئون امبراطوريته بنشاط جم ، وسرعان ما استجاب لالتماسات أتباع المسيح المحزنة ، ووعدهم بالمال الذى يستطيعون به انجاز ما كلفوا به ، وكان الامبراطور صادرا فيما فعل عن احساسه بالعطف الشديد الصادق على ما هم فيه من الكرب والهموم التى لا انقطاع لها ، غير أنه اشترط عليهم أنه غير قابض عنهم المال ان هم استطاعوا الحصول من والى الناحية(٢٠) على وعد بالا يسمح لغير النصارى بالسكن داخل نطاق السور الذى اقترحوا أن يقيموه من هذه المنحة الامبراطورية ، كما كتب هو من توه الى أهل جزيرة قبرص طالبا اليهم أن يعينوا هؤلاء النصارى ـ اذا ما حصلوا على هذا الامتياز فى بيت المقدس ـ بمبلغ كاف للصرف على

---

(١٩) حكم قسطنطين مونوماخوس الامبراطورية البيزنطية مايقرب من ثلاثة عشر عاما (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥) ، وتجمع المصادر التى كتبت عنه على ذم عهده ، كما أن الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بلغ ذروته فى أخريات أيامه ، ونرجح ان وليم الصورى اخطأ حين جعل الامبراطور هو مونوماخوس ، والأغلب أنه يقصد الامبراطور قسطنطين دوكاس العاشر ، يؤكد هذا ما جاء فى صفحة ١٧٨ ، من النص على سنة ١٠٦٣

(٢٠) المقصود بها القسم الخاص فى القدس .

العمل المشار اليه ، على أن يخصم من الضرائب والأموال الواجب عليهم دفعها للخزانة ·

فلما حصل الرسل على هذا الوعد من الامبراطور عادوا من حيث جاءوا ، وأخبروا البطرك الجليل وشعب الله بتفصيل مافعلوه ، فقوبل ما فعلوا بالغبطة ، وبذلت الجهود الصادقة المتحمسة لتحقيق الشرط الذى طلبه الامبراطور ، وفى الحال أوفد النصارى الرسل الى مولاهم الكبير وصاحب الأمر فيهم : خليفة مصر ، وصحبت العناية الالهية هؤلاء المبعوثين فقد نجحوا فى سفارتهم ، وحصلوا على مرسوم ممهور بامضاء الخليفة وخاتمه ·

عاد القصـــاد الى بلدهم بعد أن نجحوا فى أداء مهمتهم ، واستطاع النصارى بعون الرب ان يتموا من السور الجزء الذى فرض عليهم بناؤه ، وكان ذلك فى سنة ١٠٦٣ من مولد المســيح وقبل تحرير المدينة المقدسة بست وثلاثين سنة وفى زمن الخليفة المصرى (الفاطمى) المستنصر (١٠٣٥ ـ ١٠٩٤) ·

كان المسلمون والمسيحيون حتى ذلك الحين يعيشون جنبا الى جنب على السواء لا تمييز لواحد منهم على الآخر ولا تفرقة بينهم ، لكن نجم عن هذا القرار اضطرار المسلمين للنزوح الى نواح أخرى من بيت المقدس غير التى كانوا بها ، تاركين الربع المذكور للمؤمنين (النصارى) غير منازعيهم فيه، وترتب على هذا التغيير تحسن أوضاع خدام المسيح المادية ، غير أن ما كان قد فرض عليهم من العيش مع القوم الضالين ، أدى فى كثير من الأحيان الى حدوث منازعات بين الجانبين عملت على زيادة متاعبهم زيادة فادحة ، فلما استطاعوا أخيرا الانفراد بسكنهم من غير ازعاج ، ســارت حياتهم رخية مطمئنة ، فما من نزاع شب بينهم الا رجعوا فيه الى الكنيسة ليفصل فيه البطرك الذى كان قوله وحده هو الفيصل ·

لم يعد لهذا الحى من المدينة منذئذ ، — وفى الظرف الذى وصفناه — من قاض أو رئيس سوى البطرك ، ومن ثم فقد تمسكت الكنيسة بهذا الجزء كملك خاص بها لاينازعها فيه منازع ٠

أما صفة هذا الحى فكانت كما يلى :

كان يتألف حده الخارجى من السور الذى يمتد من الباب الغربى — أو باب داود — مارا بالبرج الكائن فى الزاوية والمسمى ببرج تانكريد حتى يصل الى الباب الشمالى المسمى بباب اسطفان أول الشهداء ٠

أما حده الداخلى فهو الشارع العام الذى يمتد من باب اسطفان حتى يصل الى الموضع الذى يجلس فيه الصيارفة الى موائدهم ، ثم يرتد الى الوراء ثانية الى الباب الغربى ٠

ويقع داخل هذين الحدين طريق الآلام وكنيســـة القيامة ، والبيمارستان ، كما يوجد أيضا ديران أحدهما للرهبان وثانيهما للنسوة الطاهرات ، ويعرفان بديرى اللاتين ٠

كما يقع سكن البطرك ودير حماة القبر المقدس وملحقاته داخل هذه النواحى ٠

— ١٩ —

فى هذه الأثناء كان معظم الزعماء الذين شاركوا فى الحملة قد عادوا الى أوطانهم ، لم يتخلف عنهم سوى الدوق الذى عهد اليه بحفظ المملكة ، وغير تانكريد الذى استبقاه جود فروى الى جانبه ليشاركه فى حمل المسئولية لما رآه فيه من رجاحة عقله ونشاطه ونجاحه ، وكانت مصادر الصليبيين المالية وقوتهم الحربية ضئيلة

جدا حينذاك ، فلو جمع كل عسكرهم لما بلغوا بعد طول الكد أكثر من ثلاثمائة فارس ولم يجاوز مشاتهم الألفين ٠

ثم ان المدن التى كنا قد استولينا عليها كانت قليلة العدد ، هذا الى جانب وجودها وسط محيط العدو بصورة لم يكن الصليبيون بقادرين معها على الذهاب من احدى هذه المدن الى الأخرى اذا اقتضت الضرورة ذلك والا كانوا عرضة لخطر جسيم ، كما أن معظم الاقليم المحيط بأملاكهم كان يسكنه الشرقيون المارقون الذين كانوا أشد الناس وحشية فى عدائهم لقومنا ، وكانوا أخطر الجميع علينا لقربهم الكبير منا ، اذ ليس هناك بلاء أشد بلاء بالمرء أو أفعل فى خطبه من عدو يكون له بالمرصاد على الأبواب ، ولم يكن ثم مسيحى يسير فى الطريق العام دون أن يأخذ حذره الشديد والا لقى الهلاك على أيدى الشرقيين ، أو وقع فى أيد تسلمه للأعداء فيسترقونه ٠ يضاف الى ذلك أنهم كانوا يرفضون زرع الحقول عسى أن تفتك المجاعة بقومنا ، بل انهم كانوا يؤثرون أن يكابدوا هم أنفسهم الجوع حتى لا يصل القوت الى المسيحيين الذين يعدونهم أعداء لهم ٠

لم يكن الخطر قاصرا على الطرق العامة فحسب ، بل كان رابضا أيضا داخل أسوار المدينة وفى البيوت ذاتها ، فما كان ثم مكان مايستطيع المرء الاطمئنان فيه على نفسه ، ويرجع ذلك الى قلة عدد السكان وبعثرتهم فى كل ناحية ، كما أن ما كانت عليه الأسوار من هدم جعل كل موضع مكشوفا أمام العدو ، فكان اللصوص يشنون هجماتهم خلسة تحت جنح الظلام ، ويهاجمون المدن المهجورة التى فر عنها أصحابها القلائل وبعدوا عنها ، ويغيرون على الناس فى عقر دورهم ، مما ترتب عليه أن تخلى بعضهم فى السر عما بيدهم من الدور التى كانت فى حوزتهم ، كما تركها معظمهم جهرا ، وشرعوا فى العودة من حيث جاءوا مخافة ان يهاجم العدو من

يسهرون على حمايتهم فلا يوجد اذ ذاك من يقيهم شر مذبحة توشك أن تلم بهم ، وقد أدى هذا الوضع الى اصدار قرار باجراء احصاء سنوى لرعاية مصالح أولئك الذين ظلوا مقيمين حيث هم وسط هذه البلايا متمسكين بأملاكهم لمدة عام ويوم بعده ، ولقد صـــدر هذا القانون ــ كما قلنا ــ فى مواجهة أولئك الذين جبنوا فتخلوا عما بأيديهم من الأملاك حتى لا يكونوا قادرين على العودة بعد مرور عام وتجديد دعواهم ٠

وعلى الرغم من أن المملكة كانت فى صراع مع الفقر الا أن جود فروى ــ حبيب الله الخائف منه ــ لم يأل جهدا فى مد رقعة المملكة ، مستعينا بالعناية الالهية ، فجمع العسكر وأهل الناحية جميعا وخرج بهم محاصرا احدى المدن الساحلية القريبة من يافا والتى كانت تدعى من قبل « انتيباتريس » أما الآن فتعرف باســـم « أرسوف » ، وكان يتولى الدفاع عنها وقتئذ رجال شجعان مهرة فى استعمال السلاح ، قد توفرت الميرة بين أيديهم ، ولديهم كل ما هو لازم لمعاشهم ، على حين كان الدوق يقاسى فى الخارج الحاجة الملحة لاسيما وأنه لم يكن عنده سفن يستطيع أن يمنع بها من فى المدينة من المحصورين من الخروج منها أو الدخول اليها ، ومن ثم فقد اضطر تحت هذه الحاجة لرفع الحصار عنها عسى أن تواتيه رحمة الله فى المستقبل بفرصة أحسن تمكنه من انجاز غايته ، غير أن موته المبكر حال بينه وبين تنفيذ قصده ، فلم يتسن له أبدا تحقيق رغبته ٠

ـ ٢٠ ـ

لقد رأينا أنه من الخير أن ندرج فى هذا التاريخ حادثا يستحق الاشارة جرى فى أثناء هذا الحصار بالذات ، ذلك أن رهطا من صغار الزعماء المقيمين فى نواحى الاقليم المحيط بجبال السامرة

حيث تقع مدينة نابلس ـ جاءوا الينا حاملين هداياهم من الخبز والنبيذ والتين والزبيب ، ويبدو لى أن الدافع لقدومهم كان لكشف أحوالنا أكثر من تقديمهم الهدايا للدوق الذى طلبوا المثول بين يديه حال بلوغهم المعسكر الصليبى ، فلما صاروا بحضرته قدموا اليه ما جاءوا به من الهدايا ، واذ كان الدوق رجلا شديد التواضع ، نابذا نبذا تماما زينة الدنيا وأبهتها فقد استقبلهم وهو مفترش الأرض على غرارة محشوة بالتبن حيث كان فى انتظار رجوع رجاله الذين كان قد أرسلهم سعيا وراء الكلأ ، فلما رآه الشيوخ القادمون عليه على هذه الصورة ألجمت الدهشة ألسنتهم ، وراحوا يتهامسون فيما بينهم : « كيف لأمير جليل القدر كهذا الأمير ، وسيد عظيم كهذا السيد قادم من الغرب ، وقد هز الشرق كله واستولى على مملكة شديد البأس بيد قوية ـ كيف له أن يجلس هذه الجلسة الزرية ؟ ولماذا لا يحيط نفسه بالطنافس والحرير ، ويقيم حوله جيشا من الحرس المدجج بالسلاح ليظهر للقادمين عليه بمظهر الباطش ؟ » ولما رآهم يتهامسون بذلك فيما بينهم سألهم عم يتسارون ، فلما وقف على ما يتهامسون به قال لهم : « ان الأرض تكفى لتكون مقعدا مؤقتا للآدمى الفانى طالما أنها ستكون مضجعه الأبدى بعد موته » ، ففاضت نفوسهم اعجابا برده ، وأكبروا فيه تواضعه ورجاحة عقله ، وانصرف الذين جاءوا لسبر غوره وهم يقولون : « ما أجدر هذا الرجل بامتلاك كل الدنيا ، وانه لحرى ـ وهذه صفته ـ أن يكون له الحكم على الشعوب والممالك » .

❊ ❊ ❊

وكان سكان النواحى المجاورة ينظرون الى هؤلاء الناس الحجاج بعين الاعجاب ، وان كانوا فى الوقت ذاته يخشون بأسهم ويخافون أن يغلبوهم على أمرهم ، وازداد هذا الخوف والاعجاب

حينما علموا بهذه الحقائق التى تلقوها من أفواه خاصة أصدقائهم ، وقد وثقوا فى كل ما حدثوهم به · ومن ثم شرق هذا الخبر المدهش وغرب حتى وصل الى أقصى ربوع المشرق ·

- ٢١ -

فى أثناء هذه الأحداث الجارية بمملكة بيت المقدس كان يحكم مدينة ملطية الواقعة بالجزيرة فيما وراء الفرات رجل أرمنى اسمه « جبريل » ، دفعه خوفه من هجوم الفرس (الدانشمنديين) عليه ويقينه بعدم قدرته على مقاومتهم الى ارسال رسل من قبله الى بوهيموند أمير أنطاكية يلتمس منه القدوم عليه فى الحال ليسلمه على الفور المدينة تحت شروط خاصة محددة ، فما كاد بوهيموند الشجاع يتسلم الرسالة حتى هب فى لحظته مستجيبا هذه الدعوة ، وخرج بأتباعه الذين جرت عادته أن يخرج بهم ، وعبر الفرات وتوغل فى أرض الجزيرة ، وبينما هو موشك على بلوغ غايته اذا بوال تركى قوى اسمه « دانشمند » يباغت رجال بوهيموند وكانت قد بلغته أخبار زحفهم من قبل ، فترصدهم فى بعض الطريق ودهمهم فجأة من حيث لا يدرون ، فأما الذين أمسكهم فقد عرضهم على السيف ، وأما الذين لم يستطيعوا الصمود أمام هذا الجيش فقد لاذوا بأذيال الفرار ·

وشاء قدر الأمير بوهيموند وسوء طالعه أن يقع بسبب خطاياه فى يد عدوه فكبله بالسلاسل(٢١) ، فكان ذلك نصرا لدانشمند ملأ

---

(٢١) فى الترجمة الانجليزية (ج٢ ص ٤١١ ، حاشية رقم ٥٠) اشارة الى أن هذا الاسر وقع حوالى ١٥ أغسطس سنة ١١٠٠ ، وأن آسرى بوهيموند حملوه الى « نكسار » التى هى قيصرية الجديدة عند الرومان ·

عطفه كبرياء ، فمضى قدما يسعى لمحاصرة « ملطية » اعتمادا منه على كثرة جنده الذين يقودهم ، وقد طمع فى الاستيلاء عليها فى لحظته .

غير أن الفارين كانوا قد نجحوا فى الوصول الى الرها ، وأفاضوا لكونتها فى تفصيل أمر النكبة التى حاقت بهم وبالأمير (بوهيموند) ، فلما سمع ذلك الحاكم الشجاع قصتهم تحرك قلبه شفقة على الأمير اذ هو أخوه ، وتأثر تأثرا عميقا من هذه النكبة الفادحة ، واشتد جزعه من عواقبها ، فأسرع باستدعاء قواته الحربية ، وتزود بكل ما هو ضرورى للزحف الذى تعجله ما وسعته العجلة .

والمعروف أن مدينة ملطية تقع على مسيرة ثلاثة أيام من الرها، لكن الكونت طواها فى سرعة كبيرة حتى اذا قاربها ترامى خبر اقترابه الى سمع دانشمند فرفع الحصار عنها ، وارتد بأسيره بوهيموند والقيد فى يديه الى أقصى ناحية من المملكة ليتحاشى الاشتباك فى القتال .

فلما علم الكونت (بلدوين) بفزع دانشمند من مجيئه فزعا حمله على رفع الحصار (عن ملطية) مضى يتعقبه ثلاثة أيام سويا، أدرك بعدها الا جدوى من هذه المطاردة فعاد أدراجه الى ملطية ، حيث رحب به حاكمها « جبريل » ترحيبا لا يليق الا بالملوك ، وبالغ فى تعظيمه ، ثم سلمه المدينة على نفس الشروط التى كان قد قدمها لبوهيموند ، فلما تم ذلك كله عاد الكونت الى امارته .

— ٢٢ —

فى هذه الأثناء كان الدوق (جود فروى) العظيم ومن أقاموا معه بالقدس لحماية المملكة بعد رحيل القادة الآخرين يقومون بعملهم

وهم يقاسون فظاظة المتربة ، وكانوا قد بلغوا من الفقر مبلغا تعجز الكلمات عن شرحه ٠

وقد جد أمر لم يكن بالحسبان ، ذلك هو مجيء الكشافة الثقات بخبر تأكد صدقه ، يشير الى وجود قبائل عربية فى بعض البلاد العربية عبر الاردن وفى أرض العمونيين ليس لديها وسائل دفاع قوية عن نفسها ، وأنه لو هاجمها أحد أو باغتها بالهجوم لغنم منها الشيء الكثير ، فأغرى بعض القوم جود فروى على مباغتتها ، ومن ثم راح يجمع سرا ما استطاعت المملكة الشـــابة أن تمده به من الفرسان والمشاة ، فلما تم حشدهم فى صعيد واحد عبر بهم الأردن مقتحما أرض العدو ٠ وكللت الغارة بالنجاح ٠

وبينما كان جود فروى عائدا وقد فاضت يداه بما غنم من الماشية والدواب والأسرى ، اذا بشريف عربى بارز من الأبطال المشهورين فى عشيرته بولعه بالحرب قد بعث اليه رسلا من قبله يرجو مهادنته ، فلم يبخل عليه بما تمنى ، ثم مالبث هذا الشريف أن قدم وفى ركبه جماعة من أهل الجاه من العرب لزيارة الدوق ، اذ كانت الأخبار الكثيرة قد جاءته محـــدثة اياه بقوة هؤلاء الناس الوافدين من الغرب وذيوع شهرتهم ،وأ نهم اجتازوا هذه المسافات البعيدة وتحملوا المشـــاق الجمة حتى تمكنوا فى النهاية من قهر الشرق بأجمعه والاستيلاء عليه ، كما ترامى الى سمعه فوق ذلك خبر شجاعة الدوق التى لا تماثلها شجاعة ، وعلم بعزمه الماضى الذى لا يلين ، فملأ الشوق قلبه تطلعا لرؤيته ٠

فلما وقف الشيخ العربى بحضرة الدوق جود فروى وحياه التحية اللائقة به توسل اليه ان يتفضل فيذبح بسيفه جملا ضخما جاء به اليه لهذا الغرض ، لأنه يريد أن يكون قادرا على أن يشهد عند

الآخرين بما عليه الدوق من قوة يكون قد رآها رأى العين ، فقبل جود فروى سؤال الشريف اكراما لقدومه عليه من بلاد نائية لرؤيته ، وتناول سيفه دون أن يشحذه وضرب به البعير ضربة قطت عنقه دون أن يكلفه ذلك جهدا وكأنه كان يحطم شيئا هاشا ، فتملكت الدهشة العربى من هذه القوة الخارقة ، وان كان قد خامره ما جعله ينسب سرا هذا العمل الى حدة مضاء السيف ، ومن ثم استأذنه أن يتكلم اليه فى صراحة وسأله عما اذا كان يستطيع القيام بهذا العمل ذاته ولكن بسيف غير سيفه ، فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتى الدوق الذى التمس من العربى أن يناوله سيفه هو ، فلما صار فى يده أمر أن يأتوه بمثيل لهذا الجمل ، فلما جىء له به رفع السيف وأهوى به مرة واحدة أطاحت عنق الحيوان ٠

فأظهر الشيخ العربى لأول مرة دهشته وتملكه الاعجاب حتى الجم لسانه ، وأدرك أن فعل الضربة الثانية لم يكن من حدة السلاح ومضائه ، ولكن بسبب قوة الدوق نفسه ، وصدق لديه كل ما سمعه عن بأس جود فروى ، وبادر فقدم اليه هداياه من الذهب والفضة وما جاء به له من الخيل ، وكسب ود الدوق ، حتى اذا عاد الى بلده كان لسانا يذيع على الجميع ما كان من خبر الدوق ويعلن لكل من يلقاه ما رآه بعينى رأسه من شدة بأسه ٠

وعاد الدوق الى بيت المقدس بأسراه وغنائمه ٠

— ٢٣ —

وفى شهر يوليو هذا أصيب جود فروى الشجاع حاكم مملكة بيت المقدس بمرض استعصى برؤه منه ، واستشرى به الداء الخبيث وتزايد ، حتى لم يعد يجدى معه أى دواء ، وان لم يكف من حوله عن التماس الدواء فى كل مكان قريب أو بعيد ٠

واخيرا قدر لتابع المسيح هذا ، الصادق التوبة أن يذهب بعد تناول القربان المقدس فى الطريق الذى لابد أن يذهب فيه كل مخلوق ، حيث يجازيه الرب مائة ضعف عن كل ما قدمت يداه ، وتخلد روحه الخلود الأبدى مع المرضى عنهم ٠

وكانت وفاته فى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو فى عام ١١٠٠ من مولد المسيح ، ودفن فى كنيسة القبر المقدس حيث صلب السيد وعذب ، وقد خصصت ناحية معينة أيضا لخلفائه مازالت باقية حتى اليوم ٠

* * *

هنا ينتهى الكتاب التاسع

الكتـــاب العــاشر

الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

فصول الكتاب العاشر :

١ ـ بلدوين كونت الرها يتولى المملكة عند موت أخيه جودفروى ·

٢ ـ صفات لورد بلدوين الجثمانية والخلقية ·

٣ ـ كونت جـــارنييه يســـــتولى على البرج عند موت الدوق جودفروى ، ويبعث الرسل سرا لاستدعاء بلدوين ·

٤ ـ رسالة دامبيرت الى أمير أنطاكية ·

٥ ـ بلدوين يسرع فى سيره الى القدس فيجد العدو قد نصب له كمينا قرب نهر الكلب ·

٦ ـ استئصال شأفة العدو ووصول بلدوين الى بيت المقدس بعد رحلة هادئة ·

٧ ـ البطرك دامبيرت يتخوف من وصـــول بلدوين فيغادر قصر البطركية ويعتصم بكنيسة جبل صهيون ٠

٨ ـ الكونت يقود حملة ضد عسقلان ويعبر الأردن ويهاجم بلاد العدو بالقوة ثم يعود أخيرا الى بيت المقدس ٠

٩ ـ الوفاق بين البطرك والكونت ، ثم اعتلاء الكونت بلدوين العرش ٠

١٠ ـ الأنطاكيون يستدعون تانكريد الذى لا ينسى مطلقا الاهانة التى الحقها به بلدوين وينفصل عنه ٠

١١ ـ الملك يعبر نهر الأردن ويستحوذ على غنائم كثيرة من أرض العدو ٠ ووصف عمل من أروع الأعمال قام بها الملك ٠

١٢ ـ أمراء الغرب يخرجون ثانية للحج ويبلغون القســطنطينية بقوات ضخمة ٠

١٣ ـ الامبراطور الكسـيوس ينهج النهج المعتــاد فيجعل الترك ينصبون الكمائن للحجاج مما يؤدى الى هلاك الجانب الأكبر منهم ، أما الباقون فيبلغون القدس فى صحبة كونت تولوز ٠

١٤ ـ الملك (بلدوين) يحاصر أرسوف ويستولى عليها قسرا ٠

١٥ ـ الملك (بلدوين) يحاصر أيضا مدينة قيســرية الساحلية ويستولى عليها ٠

١٦ ـ هلاك كثير من الأهالى فى أحد مساجد المدينة ، وتعيين رئيس أساقفة للمدينة المغلوبة ٠

١٧ ـ الملك (بلدوين) يصل الى الرملة فى انتظار العدو الذى ذاع خبر اقترابه ثم يشتبك واياه فى قتال يخرج منه منصورا ٠

١٨ ـ الملك (بلدوين) يمضى بعدئذ الى يافا فتطمئن نفوس الأهالى الذين استبد بهم الفزع حتى كاد أن يهلكهم ٠

١٩ ـ الوافدون الجدد يستولون على مدينة طرطوس ويسلمونها الى كونت تولوز ، ثم يتابعون السفر بعد ذلك الى بيت المقدس فيقابلهم الملك فى بيروت ٠

٢٠ ـ المصـــريون يهاجمون بلاد الصليبيين بقوات كبيرة فيزحف الملك (بلدوين) لصدهم ويقاتلهم فتدور الدائرة عليه اذ لم يأخذ حذره ٠

٢١ ـ فى أثناء هروب الملك من ساحة القتال يرتد الى قلعة الرملة وتكتب له الحياة بفضل شفقة شيخ عربى عليه ، أما غيره فيلاقون مصرعهم فى ذلك المكان ٠

٢٢ ـ الملك (بلدوين) يسلك فى أثناء هربه طرقا متعرجة فيصل أولا الى أرسوف ثم الى يافا ، وتهب جميع قوات المملكة الى نجدته وتنشب معركة تنتهى بانتصار الصليبيين ٠

٢٣ ـ فى هذه الأثناء يبسط تانكريد حمايته على مدينتى أفامية واللاذقية الرائعتين ٠

٢٤ ـ زواج بلدوين دى بورج كونت الرها من ابنة الدوق جبرييل ٠

٢٥ ـ بوهيموند يتخلص من أسر العدو له ويعود الى أنطاكية ، فيلجأ البطرك دامبرت اليه فيحسن لقاءه ٠

٢٦ ـ تعيين شخص اسمه ابريمار ـ بعد اخراج دامبيرت ـ بطركا لكنيسة القدس من غير أهلية شرعية ٠ فشل الملك (بلدوين) فى حصـــاره لعكا واصابته بجروح شديدة الخطورة أثناء عودته ٠

٢٧ ـ كونت تولوز يشيد حصنا أمام مدينة طرابلس ويسميه بتل الحجاج ·

٢٨ ـ الملك يحاصر عكا للمرة الثانية ويستولى عليها قسرا بمساعدة الجنوية له ·

٢٩ ـ قيام تانكريد وبلدوين وغيرهما بمحاصرة مدينة « حران » بالجزيرة ، واضطرار الأهالى لتسليم البلد بسبب اشتداد وطأة الجوع عليهم ·

٣٠ ـ ضياع المدينة من يد الصليبيين أثناء تنازعهم فيما بينهم عمن يكون له الحكم فيها ، وصول النجدة الى المحصورين ونشوب معركة هناك فى الأحياء القريبة وهلاك الصليبيين من جراء الخطر الداهم المحيق بهم ·

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتـــاب العاشر

الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

ـ ١ ـ

كان المعظم جود فروى ـ الخالد الذكر بفضل المسيح ـ أول حاكم لاتينى لملكة بيت المقدس ، فلما رحل عن هذه الدنيا ليحيى فى العالم الآخر حياة خيرا من حياته فى عالمنا هنا ، ظل العرش شاغرا ثلاثة أشهر حتى بعث القوم فى استدعاء أخيه وشقيقه من أمه وأبيه بلدوين كونت الرها ليخلفه فى تدبير شئون المملكة التى آلت اليه بالوراثة ، وربما كان الداعى لهذه الدعوة هو احترام رغبات الدوق الأخيرة ، أو ربما كان ذلك استجابة لاجماع الزعماء الذين كان عددهم قد تضاءل تضاؤلا كبيرا جدا ٠

وكان بلدوين فى شبابه قد ألم بكثير من العلوم الانسانية ، ويقال انه لبس مسوح رجل الدين فصار واحدا منهم فكان يجرى

عليه نظرا لكرم أرومته راتب يعرف بالمعاش الكهنوتى ، مما حبس من الأوقاف على كنائس « ريمز » و « كمبراى » و « لييج » ، على أنه لم يلبث ـ بسبب لا نعرفه ـ أن انصرف عن تلك الوظيفة الكنسية وتعلق بالأمور الحربية ، وانخرط فى سلك الجندية ، ثم تزوج بعد حين من سيدة فاضلة من انجلترا رفيعة القدر ، كريمة الأصل اسمها « جود هيلد » صحبها معه حين صحب أخويه جود فروى وأستاس الفاضلين ، صاحبى الذكر الذى لا يبلى فى أول حملة خرجت للحج، فصادفت النجاح والتوفيق من شتى الوجوه ٠

على أن « جود هيلد » ماتت كما قلنا فى هدوء فى مدينة مرعش ودفنت هناك بعد أن أنهكها المرض العضال ، وذلك قبل أن يبلغ جيش المؤمنين انطاكية ٠

ثم أن دوق الرها بعث بعد حين فى استدعاء بلدوين وتبناه ، فلما مات الدوق خلفه بلدوين على الدوقية بكل ملحقاتها كما فصلنا ذلك من قبل ٠ ثم تزوج بلدوين بعد ذلك من ابنة أمير أرمنى شريف عالى المكانة رفيع القدر اسمه « توروس » ، كان يملك هو وأخوه قسطنطين القلاع المنيعة فى اقليم جبال طوروس ، ويأتمر بأمرهما كثير من الأبطال المغاوير ، وينزلهما الشعب الأرمنى منزلة الملوك بفضل ما فى حوزتهما من الثروة الكبيرة ، وما تحت أيديهما من العسكر الكثيف ، ولسنا نرى هنا حاجة لاعادة القول عن أصـــل بلدوين ونسبه العظيم ، ولا أين ولد ، فقد ذكرنا من قبل ما فيه الكفاية فى معرض كلامنا عن أعمال الكونت والدوق اللذين كانا شريكين فى نبالة الأصل وكرم العرق ٠

كان بلدوين ـ كما قالوا ـ رجلا عملاقا فارع الطول ، وأضخم جثة من أخيه بصورة ظاهرة حتى ليصح أن يقال فيه ما قيل فى شاول(١) « كان أطول من كل الشعب من كتفيه فما فوق » ، وكان ذا بشرة ناصعة البياض ،أما شعر رأسه ولحيته فعسلى اللون ، وله أنف أقنى ، وشفته العليا بارزة بعض الشىء ، أما فكه الأسفل فمتراجع قليلا بصورة لا يمكن أن تشوه طلعته ، وكان وقور السمت ، متحفظا فى لباسه ، مقتصدا فى كلامه ، يلبس على الدوام عباء تتدلى على كتفيه ، ان تحدث فهو رزين فى حديثه ، كما أنه محمود فى عاداته ، وفيه من الوقار ما يحمل من لا يعرفونه تمام المعرفة على الظن بأنه من رجال الدين أكثر من أن يكون علمانيا ، ومع ذلك فلاشك أنه كان كغيره من ذرية آدم ، ووريثا للخطيئة الأولى اذ يقال انه لم يكن يستطيع كبح شهوات البدن ، وانحدر فانغمس فى الملذات الجسدية دون أن يعف عن شىء منها وان لم ينكب أحدا أو يصبه بمضرة فادحة ، والحق انهلم يكن ثم من يدرى بعاداته الفاجرة سوى نفر قلائل من خاصته ، مما يعتبر شيئا نادرا فى مثل هذه الأمور ، واذا كان أنصاره يحاولون ـ كما هو الحال ازاء جميع الخطاة ـ تبرير ما فعله الا أنه يمكن اعتبار بعض ما فعله قضاء قضى به عليه الرب ، وهذا مايراه عامة الناس كما سنذكر ذلك فى

ولم يكن بلدوين بالرجل البدين ولا بالفاحل المعروق بل كان وسطا بين هذا وذاك ، الى جانب درايته باستعمال السلاح ، وبراعته فى ركوب الخيل ، وما تميز به النشاط الجم ، كما أنه كان مستعدا على الدوام للقيام بما يطلب اليه القيام به من أعمال المملكة .

(١) صمويل الأول ١٠ : ٢٣

وربما لم يكن ثمت ضرورة لامتداح اقدامه وبسالته وخبرته بفن الحرب وغير ذلك من شتى الخصائص الرائعة التى تفرد بها ، فقد ورث هو واخوته هذه السجايا كلها أبا عن جد ، وزيادة على ذلك فانه كان شديد المحاكاة للدوق حتى ليرى أن أى انحراف ـ عن السمت الذى اختطه أخوه ـ خطيئة ، لكنه كان قد نضح وده الصادق لشخص متوعر الخلق ، دنىء الطبع اسمه « أرنولف » الذى كان رئيس شمامسة بيت المقدس ، وكان بلدوين يمتثل لكل ما يشير به عليه هذا الرجل امتثالا عيب عليه ، فما أرنولف هذا الا الرجل الذى قلت عنه من قبل انه اغتصب لنفسه كرسى البطركية فناله قسرا رغم ما اشتهر عنه من ميله للشر : فكرا وعملا ·

ـ ٢ ـ

حين ودع الدوق « جودفروى » الحياة ، وأصبح رهين قبره ، قام ـ كما قلنا ـ الذين عهد اليهم بتنفيذ رغباته التى تضمنتها وصيته الأخيرة ، فصرفوا النظر عن مشيئة الراحل ، وآثروا مصالحهم الذاتية فقدموها على ما قضى به مولاهم ، اذ لم يسلموا برج داود للبطرك « دامبيرت » ولم يضعوا المدينة تحت سلطانه حسب بنود الاتفاق الذى أمضاه معهم الدوق الخالد الذكر يوم عيد الفصح المبارك المنصرم فى كنيسة القيامة بحضرة رجال الدين والشعب ·

ولقد تزعم هذه الطائفة المثيرة للفتن رجل اسمه كونت «جارنييه دى جراى » ، وهو محارب صنديد ، ومقاتل كمى وتربطه صلة القرابة بكل من الدوق (جود فروى) والكونت (بلدوين) ، لذلك

ما كاد الدوق يلفظ أنفاسه حتى استولى الكونت (جارنييه) على برج داود وحصنه أعظم تحصين ، ثم بعث فى السر رسلا من قبله ـ دون علم أحد ـ الى كونت بلدوين يأمره بالحضور اليه على جناح السرعة ومن غير ابطاء ، وكان البطرك (دامبيرت) قد ألح مرارا على (جارنييه) تنفيذ رغبات الدوق الأخيرة برد ما للكنيسة من الحقوق ، لكن جارنييه دأب على اختلاق الأعذار والتراخى فى الرد بكل وسيلة سعيا لكسب الوقت وانتظارا لمجىء الكونت (بلدوين) الذى بعث (جارنييه) فى استقدامه، ليجد عنه حضوره جميعمايخصه سليما غير منقوص ، وقد فعل (كونت جراى) ما فعله أملا منه فى استجلاب المزيد من عطف بلدوين عليه نظير ما أظهر من الاخلاص له ، لكنه وهم فيما أمل اذ حدث ما خيب ظنه ، فلم تنقض غير خمسة أيام فقط من ذلك حتى مات جارنييه ، فاعتبر الناس قاطبة موته آية ، ونسبوا الى فضائل البطرك ما لقيه خصم الكنيسة ومضطهدها من الموت الفجائى .

على أن هلاك جارنييه لم يؤد الى تحسين وضع الكنيسة ، اذ لم يكترث الذين كانوا يسيطرون على القلعة بما جرى ، فظلوا مقيمين بها لا يبرحونها حتى يجىء (بلدوين) كونت الرها .

ولما كان البطرك يعلم تمام العلم بما جرى من استدعاء الكونت ، وكان يخشى مجيئه كل الخشية ، فانه لم يأل جهدا فى اصطناع شتى الوسائل للحيلولة دون حضوره ، فأرسل الى بوهيموند أمير أنطاكية رسالة فصل له فيها الأمر بأجمعه ، ولقد رأينا أن الحكمة تقتضينا أن ندرج صورة من هذه الوثيقة فى تاريخنا الحالى هذا لتكون بينة قاطعة بشأن هذه المسألة .

يقول البطرك فى هذه الوثيقة « انك لتعلم يابنى العزيز انك اخترتنى مدبرا وبطركا رغم عزوفى عن ذلك وبغير معرفة منى بما جرى ، وان كانت نفسى تفيض بالخير والتطلعات الطاهرة تجاه هذه الكنيسة التى هى أم الكنائس قاطبة ومليكة الأمم ، وكان اختيارك اياى برضاء من رجال الدين والقادة والشعب أجمعين ، وأعليت قدرى بتوجه من الرب ـ وان كنت لا أستحق ذلك ـ وبوأتنى أشرف مقام ، غير أننى كنت فى هذه الذروة العالية هدفا لألف نكاية ونكاية، ولايدرى أحد ما سواى أنا وحدى وسوى المسيح الذى لا تخفى عنه خافية ما لاقيت من المشاكل الجمة والمظالم ، وما قاسيت من الأخطار الكبيرة ٠

« ولقد كان مســــتحيلا على « جود فروى » فى حياته أن يضل أو ينحرف من تلقاء نفسه ، وانما كان خاضعا فى ذلك لمطامع أوغاد حملوه على ان يأخذ من الكنيسة ما كان ينبغى أن يكون ملكا خالصا لها ، وأن يغتصب بعض الأملاك التى كان يديرها البطرك بنفسه حتى فى ظل الحكم التركى ٠

« كذلك مرت الكنيسة المقدسة بمحنة يعجز اللسان عن شرحها، ووصمت بعار يقصر الوصف عنه ، كل ذلك فى الوقت الذى كان الواجب فيه يقضى بأن تحظى بتمجيد أجل وتعظيم أكبر ، ثم قدرت رحمة الله أخيرا أن يعود الدوق الى رشده ، وأن ينبذ ظهريا ذلك القصد الدنس فقام فى يوم الاحتفال بذكرى تنزيه العذراء مريم المباركة ، فأقطع كنيسة القبر المبارك ربع مدينة يافا ، حتى اذا كان يوم الاحتفال بعيد الفصح أيقظت الرحمة الالهية ضميره فصحى من غفوته ، وكره أن يظل سادرا فى غلوائه ، ورفض أن يستسلم لأبهة الدنيا فأعاد من تلقاء ذاته الى الكنيسة كل حق شرعى لها ، فأصبح

بذلك رجل القبر المقدس ورجلنا ، ونذر نفسه لله ، وتعهد أن يخلص فى المحاربة فى سبيله وفى سبيلنا ، فأعاد الى سلطاننا من غير معارضة برج داود، وجميع مدينة القدس وملحقاتها ، وكذلك ممتلكاته هو ذاته الخاصة الموجودة فى يافا ٠

« واذ كانت موارده المالية غير كافية فقد أثبت فى الاتفـــاق ـ برضاء منا ـ شرطا يخوله الاحتفاظ بكل هذه الممتلكات ، حتى يأذن الله بزيادة دخله ، ويمن عليه بفتح بابيلون(٢) وغيرها من المدن ، واتفق على أنه ان مات بلا ولد من صلبه يرثه عادت كل هذه الأملاك الى الكنيسة دون أى معارضة ٠

« ومع أنه وعد بكل هذه الأشياء فى يوم عيد الفصح الطاهر أمام القبر المقدس وعلى رءوس الأشهاد من رجال الدين والناس قاطبة ، الا أنه عاد ـ وهو مسجى على فراش مرضه الأخير ـ فأكدها فى حضور العديد من الشهود الثقات ٠

غير أنه بعد وفاة جود فروى ظهر كونت جارنييه فجعل من نفسه عدوا للكنيسة ، اذ حصن برج داود رغم معارضتنا ، ولم يعبأ بالقسم الذى أقسمه ، ولا بالاتفاق الصادق الذى أبرمه من قبل، وبعث رسله لاستدعاء الكونت بلدوين ، يخبره على لسانهم أنه منتزع من كنيسة الرب أملاكها عنوة ، ومستبق اياها فى يده قسرا حتى يحضر الكونت نفسه ، ولكن قضاء الله أبى الا ان يأخذ بناصية الكونت (جارنييه) فلفظ روحه بعد أربعـــة أيام من موت الدوق (جود فروى) ، فما ارتدع لهذا الحادث بعض رعاع الطبقة الدنيا ، اذ استولوا على البرج والمدينة بأكملها ، ومازالوا مستحوذين على

---

(٢) يقصد بذلك القاهرة ٠

ذلك كله حتى الآن فى انتظار قدوم الكونت بلدوين ليتم على يديه سقوط الكنيسة ودمار المسيحية ذاتها ·

« ولكننى مسلم نفسى ـ أيها الابن العزيز ـ الى رحمة الرب والى حنانك ، واذ كانت شتى المصـــائب والافتراءات التى دبرتها مكائد الأوغاد ، ونماها افكهم الكبير قد أحدقت بى فقد فوضـــت أمرى اليك أنت وحدك بعد الله ، ووضعت أملى فى عطفك الراسخ المتين ، وانى لأبث اليك بكلمات باكية وقلب جازع خبر البلايا التى اقاسيها أو على الأصح تقاسيه الكنيسة ·

« ومن ثم فانه اذا كان عندك عطف صادق على ، واذا أردت ألا تكون دون سمعة أبيك البهية ، وهو الوالد الذى أنقذ البابا المقدس جريجورى من مدينة رومة حين قام أوغاد الناس ـ بما جبلوا عليه من قسوة جائرة سوف تظل مقرونة بهم الى الأبد ـ فزجوا به فى السجن ، أقول اذا كان عندك العطف ولم تكن دون أبيك همة فاطرح جانبا كل عذر ، وأقبل فى الحال الى عاهدا بمملكتك وأملاكك الى رهط من المحاربين الموثوق بهم ، وبادر مشكورا بالحضور لمساعدة الكنيسة الطاهرة فى محنة صراعاتها المؤلمة ، لأنك تعلم جيدا أنك قد عاهدتنى أن تكون لى عونا ومشيرا ، كما أنك بذلت نفســـك عن طواعية وطيب خاطر لتخضع للكنيسة المقدسة ولى معا ·

« وعليك أن تكتب كتابا الى بلدوين تنهاه نهيا باتا عن ارتكاب مالا نرضى عنه ، وتأمره الا يأتى الى بيت المقدس لتخريب الكنيسة المقدسة أو لاغتصاب ممتلكاتها بأى شكل من الأشكال ، فقد شاركك هو الآخر أيضا فى اختيارى بطركا لكنيســـة بيت المقدس وراعيا لها ·

« وعليك أن تبين له أنه لا يتفق والحجا أن يكون قد تحمل كثيرا من المشاق والأخطار من أجل تحرير الكنيسة ثم نصل هذه

الكنيسة ذاتها الى قدر كبير من التدنى والمهانة فتضطر رغم أنفها لخدمة أولئك الذين كان ينبغى لها أن تكون صاحبة السيادة فيهم ، وأن يكون لها ما للأم من حق الأمر والنهى فيهم ، أما اذا أصر (بلدوين) على مقاومة العدل ، ورفض الرضوخ للعقل ، وأبى الا أن يحضر فاننى أدعوك بحق يمين الطاعة الذى قطعته على نفسك للقديس بطرس أن تمنع حضوره بكل وسيلة تستطيعها ، حتى ولو استلزم الأمر العنف ان كان ثم ضرورة للعنف » .

، ودعنى أعرف ياولدى العزيز — عن طريق نفس الرسول الذى يحمل كتابى هذا اليك — ماذا أنت عازم أن تعمله بالنسبة لهذه الأمور التى أوصيتك بها ، وأن تبعث لى المساعدة على جناح السرعة » .

— ٥ —

ونحن(٣) واثقون أن هذا الكتاب لم يقدر له أبدا أن يصل الى يد الأمير بوهيموند ، اذ كان قد وقع فى أسر العدو قبل قليل من موت طيب الذكر الدوق جود فروى ، أو بعد قليل جدا من مغادرة روحه لجسده وصعودها الى بارئها .

لكن حدث فى هذا الوقت أن ورد على بلدوين كونت الرها من الخبر السار ما أثلج صدره وشرح خاطره ، اذ استسلمت له ملطية عاصمة الميديين الرائعة ، وتم له اخضاع من حوله من الخصوم ، وهكذا استطاع — برحمة من الله — أن ينجح فى توفير شىء من السلام لنفسه ولشعبه ، وبينما هو فى ذلك اذا بوافد يفد عليه فجأة من بيت المقدس وعلى جناح السرعة يحمل اليه خبر وفاة الدوق (جود فروى) ، ويفضى اليه أيضا بأن أصدقاءه وأتباع الراحل

---

(٣) بعد ان انتهى وليم من ايراد نص الكتاب يعود فيعلق على ماجرى .

يلحون عليه أن يشد رحاله اليهم ما وسعته السرعة ليعتلي العرش مكانه ، فبادر في الحال الى جمع حرس مؤلف من مائتي فارس وثمانمائة جندي مشاة ، وبدأ رحلته الى القدس في اليوم الثاني من أكتوبر ، فأثار دهشة الجميع خروجه في مثل هذه القلة من الأتباع وقيامه برحلة طويلة كهذه الرحلة تفرض عليه المرور ببلاد العدو ، كما عهد برعاية امارته الى رجل عظيم القدر راجح العقل من ذوي قرباه هو بلدوين دي بورج الذي قدر له أن يخلفه فيما بعد ليس في الرها فحسب ، بل وفي المملكة أيضا .

ولما بلغ بلدوين (أخو جود فروي) أنطـــاكية بعث بزوجته والوصيفات من أهل بيته بكل ما عندهم من ثقيل الأثاث وجزء كبير من متاعبهم الى ناحية البحر، كما أمر باعداد سفينة لتبحر الكونتيسة عليها في أمان الى يافا التي كانت المدينة الساحلية الوحيدة التي آلت الينا حتى ذلك الوقت ، أما غيرها من المدن فكانت لاتزال في قبضة المارقين ، ويظهر أن دافعه الى ترتيب الأمر على هذه الصورة هو ما رآه — وهو موشك على اجتياز أرض العدو — من وجوب تحققه جهد ما أمكنه مما معه ليكون أحسن استعدادا لمواجهة أي صعاب أو هجمات قد تعترضه على غير توقع منه .

* * *

ثم سار هو من أنطاكية الى لاذقية الشام ، فلما بلغها مضى مصاقبا الساحل مارا بجبلة وبانياس ومرقلية و طرطوس وعرقة ، حتى أفضى به السير الى طرابلس فضرب معسكره خارجها ، حيث وافاه هنا واليها مرحبا به ، وبالغ في الاحتفـــاء به ووصـــله بالهدايا الجمة ، وعلم (بولدوين) من هذا الوالي ذاته أن « دقاقا » صاحب دمشق قد نصب له الكمائن على طول الطريق .

ثم تابع بلدوين زحفه من طرابلس مارا بجبيل حتى بلغ نهر الكلب ، حيث يوجد هنا ممر شديد الخطر يقع بين بحر عاصف وجبل شاهق الارتفاع مما يجعل المرور فى هذا الطريق يكاد أن يكون مستحيلا • ويبلغ طول هذا الممر أربعة فراسخ ، أما عرضه فذراعان، وكان السير فى هذا الشعب الضيق أمرا محفوفا بالخطر ويكاد أن يكون مستحيلا ، ناهيك بما كان من استعانة أهالى تلك الناحية ببعض الأتراك الذين استقدموهم من أقاليم نائية ، وتعاونوا على عرقلة سير كونت بلدوين •

حين بلغ الكونت هذا الموضع قدم أمامه نفرا من رجاله ليكونوا ربيئة تستطلع له الطريق ، فتبين لهم أن بعض المدافعين كانوا قد اجتازوا النهر ونزلوا الى السهل ، فلما عرفوا ذلك خشوا أن يكون العدو قد ترك أعدادا كبيرة خلفهم ترصد خطاهم وتتربص لهم • ومن ثم بعثوا واحدا من بينهم يخبر الكونت بما آلت اليه الأمور ، فبادر بلدوين فى لحظته بتنظيم رجاله للحرب ، زاحفا بهم على العدو ، فوجده متهيئا للقتال ، فأغار عليهم غارة شعواء بددت شملهم من أول صدمة ، ولقى الكثيرون منهم فيها حتفهم وفر الباقون ، ثم أمر بعدئذ عسكره أن ينزلوا متاعهم ، وأن ينصبوا خيامهم فى هذا الموضع الذى قضوا فيه ليلة ليلاء لم يغمض لهم فيها جفن لما يحيق بهم من الخطر الجسيم من جراء وقوع معسكرهم فى شعب ضيق محصور بين الجبال والبحر مما أتاح لعدوهم أن يظل طول الليل يضايقهم برجاله الذين كانوا قد جاءوا بحرا من بيروت وجبيل ، ودأبوا على رميهم بوابل هتان من النبال التى أنزلت الأضرار الفادحة بأولئك الصليبيين الذين كانت خيامهم فى الخلاء على أطراف المعسكر ، ومما زاد كربهم شدة أنهم ــ رغم قربهم من أحد الأنهار ــ كانوا عاجزين فى تلك الليلة عن سقى جيادهم ، مما جعل هذه الحيوانات العجماء

تكابد الأمرين من الظمأ الذى زادت الحرارة البالغة من وطأته ، لاسيما وقد أمضها طول السفر ·

— ٦ —

لم تكد طلائع الضياء تلوح بالأفق صباح اليوم التالى حتى أمر الكونت ـ بعد التشاور مع رجاله ـ باعداد متاعهم للزحف ، وأرسل أمامه جميع الحجاج الضعاف ومن لا يرتجى منهم نفع فى القتال وســـار هو خلفهم بمن معه من المحـــاربين الذين هم أقدر على تحمل وطأة أى هجوم قد يشنه العدو على المؤخرة أو على أحد الجناحين ، وقد هداه بعد نظره الى اتباع هذه الخطة حتى يضلل العدو ، ولم يكن ذلك لعدم ثقته فى جماعته بل ليغرى الخصم على مطاردته فى ارتداده فيعينه ذلك على مواجهته فى السهل فتتيسر له حرية مقاتلته ، لأنه كان يخاف كل الخوف أن يحصر فى الشعاب الضيقة ·

وبينما كان جيشه يجاهد فى الارتداد راح أعداؤه يضاعفون من مطاردتهم اياه ، اعتقادا منهم بأن بلدوين لم ينسحب برهطه الا خوفا منهم ، ومن ثم اندفعوا من الشعاب الضيقة ، وأخذوا فى ملاحقة الصليبيين بشدة فى النواحى المكشوفة ، واذ ذاك تشمم من كانوا على ظهر السفن رائحة الغنيمة ، فتواثبوا الى الشاطىء طمعا منهم فى كسب المعركة من غير جهد ولا مشقة ، واندفعوا كأنما قد دارت الدائرة على عدوهم ·

فلما رآهم الكونت قد غادروا المرتفعات وصاروا فى السهل الفسيح مشمرين عن ساعد الجد فى مطاردته أمر رجاله بالارتداد لقتالهم فهبوا بأعلامهم وســـار بهم مهاجما من لازالوا ملحين فى

افتقاء أثره الحاجا شرسا ، ونسج عسكره على منواله ، فاندفعوا متحمسين فى القتال مشرعين سيوفهم البراقة ، يجرعون الخصم كأس الردى قبل أن ينجح فى الارتداد الى الجبال جريا على مألوف عادته ، فعجز رجال العدو عن الصمود لهذه الهجمة يصلون بنارها ، وتملكتهم الدهشة من بأس مطارديهم وجرأتهم حتى انهم لم يحاولوا القيام بأى محاولة للدفاع عن أنفسهم ، وأيقنوا أن الفرار هو أملهم الوحيد ، وأنه طريقهم الذى لا طريق سواه لسلامتهم ٠

أما الذين كانوا قد غادروا السفن فلم يجرءوا على العودة الى البحر ، وأما من فروا الى الجبال فقد هاموا على وجوههم حيارى لا يدرون أين يذهبون ، فاعترضـــتهم المنحدرات الخطرة وترصدهم الموت بشتى ألوانه وهم عنه غافلون ٠

بعد أن استأصل الصليبيون المنتصرون شأفة الخصم على هذه الصورة عادوا آمنين فى سربهم الى الموضع الذى خلفوا فيه متاعهم ومؤنتهم ، واستراحوا هناك تلك الليلة شاكرين الله الذى أذل القوى ونصر الضعيف ، فلما طلع الغد عاودوا زحفهم حتى اذا بلغوا مكانا اسمه « جونية » وقفوا يوزعون الأسلاب والغنائم والأسرى حسب العادة الحربية ، وأعطوا أنفسهم وجيادهم حقها من العناية الواجبة ٠

فلما كان صباح اليوم التالى خرج بلدوين فى نفر من خيالته أصحاب السلاح الخفيف ، رغبة منه فى الحفاظ على بقية أتباعه ، وتقدم بهم فى جرأة الى البقعة التى جرت بها وقعة الأمس ، هادفا من وراء ذلك لأن يتأكد بنفسه تمام التأكد عما اذا كان أعداؤه مازالوا مسيطرين على الشعاب ، أم أن الممر أصبح ميسورا أمام من يريد اجتيازه ، فلما رآه خاليا عن الحراسة وليس من صعوبة تعترض

سالكه أمر باستدعاء جميع أتباعه الذين توافدوا اليه سراعا اثر سماعهم هذا الخبر البهيج وعبروا كلهم بقيادة مولاهم هذا المكان الذى سبب لهم فى الواقع كثيرا من الخوف والرعب ، ثم تابعوا بعد ذلك زحفهم الى مدينة بيروت وعسكروا أمامها ، ثم ساروا على طول شاطىء البحر فمروا بصيدا وصور وعكا ، حتى بلغوا أخيرا مدينة حيفا ٠

***

على أن الكونت كان يتوجس خيفة من تانكريد لما كان قد ألحقه به ظلما من اهانة فى طرسوس من أعمال « قيليقة » ، لذلك نهى رجاله عن دخول تلك المدينة ، مخافة أن يتذكر تانكريد الأريحى ما ناله من الأذى على يد بلدوين فيعمد الى رد الأذى بمثله ٠

غير أن تانكريد كان بعيدا عن المدينة فخف أهلها للترحيب بالكونت ، وبالغوا فى تحيته واظهار ما تضمه جوانحهم من حب ومودة أخوية له ، كما أبدوا استعدادهم لعقد سوق لبيع البضائع لاسيما مايلزم رجاله من الطعام بأثمان معقولة ٠

ثم تابع الجيش زحفه من حيفا الى قيسرية فأرسوف مؤثرا الطريق الساحلى حتى بلغ يافا ، فاحتفى ببلدوين جميع من بها من أهلها ومن رجال الدين احتفاء كبيرا ، ثم سار بمن معه شطر مدينة بيت المقدس حيث خرج للقائه جميع رجال الدين والشعب من لاتين وغيرهم من الأمم الأخرى وسودوه عليهم عن رضى وطيب خاطر ، فلما تم له ذلك سار من يافا بمن معه وطافوا بالكونت شوارع المدينة فرحين به وهم ينشدون التراتيل والأغانى الدينية ، ثم نادوا به سيدا وملكا عليهم ٠

— ٧ —

حينذاك أدرك « أرنولف » المذكور آنفا ربيب الشيطان البكر وابن الهاوية أنه نال مايستحقه لقاء أعماله الشريرة ، وهوى من كرسى يعقوب الذى اغتصبه بوقاحته الملعونة، وأخذ يثير القلاقل ويعكر صفو سلام دامبيرت الذى كان قد تم اختياره برضى الجميع رئيسا للكنيسة يدير أمورها ، ذلك أنه ماكاد يموت الدوق حتى راح «أرنولف» يرمى البطرك العظيم عند بلدوين بشتى الاتهامات ، كما حرك بعض رجال الدين ضد دامبيرت ، وذلك كله بسبب امتلاء نفسه بالشر وميلها لبذر بذور الشقاق بين الناس ، ولما كان شديد الغنى واسع النفوذ ، الى جانب أنه كان كبير مطارنة بيت المقدس ، فقد أخذت الأموال الكثيرة تتدفق عليه من هيكل الرب ومن موضع الصلب ، ونجح بفضل ثرائه الفاحش ومكره البالغ فى أن يبث الشر الكثير بين رجال الدين ، وأكثر منه فى صفوف المدنيين ٠

ولما كان البطرك المعظم (دامبيرت) عارفا تمام المعرفة بسوء طوية هذا الرجل « أرنولف » الذى كان شوكة تقض جانبه ، ويعرف أيضا سرعة تصديق الكونت له فقد توجس خيفة من حضور هذا الأخير فغادر المقر البطركى ، وفزع الى كنيسة جبل صهيون ، فلما باعد كل البعد ما بينه وبين شتى المنازعات انصرف كمواطن عادى الى القراءة والصلاة يمضى فيهما وقته ، مما ترتب عليه تغيبه عن مشاركة الأهالى احتفالاتهم الترحيبية التى أقاموها لاستقبال بلدوين ٠

ظل الكونت مقيما بضعة أيام فى القدس ليستجم وتستجم جياده ، لكنه لما كان رجلا يحب العمل ويكره الخمول فانه لم يكد يرى أمور المملكة تستقر على صورة مرضية وملائمة للوقت حتى أعد حملة مؤلفة ممن كانوا قد صحبوه ومن القوات التى وجدها بالمملكة ، وظهر بهؤلاء وهؤلاء فجأة أمام عسقلان على غير انتظار من أحد، فأحجم الأهالى عن الخروج اليه خوفا منه ، فأدرك أنه لن يجنى الكثير من هذه الحملة ، ومن ثم سار عبر اقليم واسع يقع بين الجبال والبحر ، ومر بكثير من الأماكن التى وجد دورها يبابا قفرا لمغادرة أصحابها لها وفرارهم الى المخابىء التى تحت الأرض بنسائهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم ٠

وكان قطاع الطرق واللصوص قد ازعجوا هذا القطر ، كما بات الطريق الواصل بين الرملة والقدس شديد الخطورة لكثرة ما أنزلوه بالدروب والمسالك من الأهوال بسبب هجماتهم المتكررة ، كما أنهم طالما أعملوا سيوفهم البتارة فى المسافرين يقاتلونهم فيأخذونهم غدرا ، فلما سمع الكونت بهذا القتال أمر بمطاردتهم فى عنف لا يعرف الهوادة ، وبتكديس مختلف أنواع المواد القابلة للاشتعال أمام مداخل الكهوف التى اختبأوا بها واضرام النار فيها ، مستهدفا من وراء تلك العملية ارغام الفارين المختفين فى المخابىء على الإستسلام والا ماتوا اختناقا من ذلك الدخان الكثيف ، وترتب على هذه الخطة ان لم يعد المختفون داخل المغارات قادرين على تحمل حرارة اللهيب ولا الجمر المتقد ولا الدخان المنتشر فى كل ركن وناحية ، فاستسلموا بلا قيد ولا شرط للكونت الذى لم تأخذه شفقة ولا رحمة بهم ، فأمر بقطع رؤوس مائة منهم فى لحظته فقطعت ، وكان ذلك عقابا عاجلا يكافىء جرمهم ، وأخذ من مخازنهم من الطعام ما يحتاجه رجاله ،

ومن العلف مايلزم دوابه ، ثم تابع سـيره بعدئذ فى أرض أبناء سمعان ، فانتهى به الزحف الى أرض جبلية ، فجاس خلال منطقة « الخليل » المعروفة أيضا باسم « كارياثاربى » والمشهورة أيضا بأنه قد دفن فيها ابراهيم واسحق ويعقوب ، ثم مشى عبر بساتين كروم « انجادى » الى الوادى الشهير الذى يوجد به البحر الملح ٠

ومر العسكر « بسيجور » التى وان كانت متناهية فى الصغر الا أنها كانت قادرة على انقاذ « لوط » حين هرب من « سدوم » ، ودخلوا الى أرض « مؤاب » وعبروا كل سورية الوسطى ينتظرون الفرصة المواتية لانزال المضـرة بجنس الترك الغادر ولتحسـين أوضاعهم هم أنفسهم ٠ ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا طول هذه المدة أن ينجزوا شيئا سوى أنهم أعالوا أنفسهم وجيادهم ودوابهم التى تحمل أثقالهم مما خلفه أعداؤهم سكان الناحية الذين كانوا قد فروا على وجوههم كعادتهم حين علموا باقتراب الصليبيين قبل أن يدركوهم ، وانطلقوا مسـرعين الى الغابات الموجودة بالجبال الموحشة ، لذلك فانه لما أخذ الصليبيون فى اجتياز هذا الاقليم وجدوا دياره خالية تماما ، والحقول جرداء من كل زرع ٠ واذ أدرك الكونت أخيرا أنه لن ينال شيئا لاسيما وقد دنى موعد الاحتفال بعيد الميلاد فقد كر راجعا من حيث جاء ، ودخـل القدس ثانية فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر ، فوافق دخوله يوم عيد القديس توما الحوارى ٠

ـ ٩ ـ

وفى سنة ١١٠١ من مولد المسيح نجحت مساعى وسطاء الخير الحميدة فى اصلاح ذات البين بين البطرك المبجل وكونت بلدوين ٠

وفى يوم عيد الميلاد المبارك توج بلدوين ملكا ودهن بالزيت فى كنيسة بيت لحم على يد البطرك « دامبيرت » المشار اليه ، ووضع

على رأسه التاج المرصع بالجواهر ، وذلك بحضور رجال الدين والشعب ورجال الكنيسة وأمراء المملكة ٠

ـ ١٠ ـ

كان اعتلاء بلدوين العرش على هذه الصورة ، ولكن تانكريد ـ ذو الأثر المجيد والذاكر أبدا للمسيح ـ كان يطوى صدره على ماصبه عليه بلدوين من ظلم أيام وجوده فى طرطوس بقليقية ، واذ كان من خلق تانكريد التدين العميق والعمل على راحة ضميره فقد كره أن يربط نفسه بيمين الولاء لحاكم لا يحس نحوه بالحب الصادق ، فرد على الملك مدينة طبرية ، كما تنازل فى الوقت ذاته عن مدينة حيفا التى كان جود فروى الخالد الذكر قد أقطعه اياها عن طيب خاطر لقاء خدماته الجليلة ، فلما فرغ من ذلك استأذنه فى الرحيل ، فرحل والجميع كارهون أشد الكره لرحيله عنهم ، وشخص الى أرض أنطاكية استجابة لتكرر استدعاء وجوهها له ، ليحمل على عاتقه مسئولية الامارة ويشرف على أمورها حتى يعود الأمير بوهيموند ان أذن الله بخلاصه من أسره ، فان لم يقدر له الرجوع آل حكمها بحق الوراثة الى تانكريد الذى لم يكد يبلغ أنطاكية حتى بادر أهلها وكبار رجالاتها الى تسليمه ادارة المدينة كاملة ، وأطلقوا يده يفعل فيها ما يشاء ٠

* * *

أما الملك (بلدوين) فقد أقطع طبرية ـ حين ردها اليه تانكريد ـ الى رجل رفيع المكانة ، باسل فى الحرب هو « هيج دى سنت أومير » وجعلها وراثية فى عقبه ، وظلت المملكة تنعم بالسلام مدة أربعة أشهر ٠

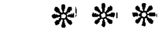
جمع الملك سرا فى خلال هذه الأيام ذاتها طائفة كبيرة من الجند ، واجتاز بهم الأردن ودخل أرض العرب ، وكان جمعه اياهم نزولا على اشارة أشار بها عليه رهط معين من الرجال كانت مهمتهم أن يتقصوا أخبار النواحى المجاورة ، وأن يتجسسوا على نقاط ضعف العدو ، وأوغل (الكونت) بمن جمعهم حتى أدى به التوغل أخيرا الى الصحراء التى اعتاد هؤلاء الناس العيش فيها ، وجاء الى موضع دلته عليه عيونه ، ففاجأهم بالاغارة عليهم متسربلا بظلام الليل ، وكان عدم توقع المارقين للهجوم عليهم دافعا اياهم للتراخى فى الحراسة اذ كانوا قد انكفأوا الى خيامهم طلبا للنوم ، فأمسك (بلدوين) بعضا من رجالهم وسبى جميع نسائهم ، واسترق أطفالهم، واســـتحوذ على كل ما ملكته أيديهم ، وحمل معه قدرا كبيرا من الغنائم ، من بينها عدد ضخم من الجمال والحمير ، غير أن الناس لما رأوا من مسافة بعيدة اقترابنا منهم ، اعتلى كثير من الرجال خيولهم الصافنات السريعة العدو ، وفروا الى أقصى بقاع الصحراء ايثارا للسلامة ، تاركين نساءهم وأولادهم وخيامهم وكل مايملكونه تحت رحمة عدوهم ٠

ثم تابع الصليبيون السير فى طريق العودة ، دافعين أمامهم ما غنموه من القطعان ، ساحبين وراءهم الأسرى ، وحدث أن كان بين السبى امرأة عظيمة القدر هى زوجة أحد كبار شيوخهم الأقوياء وقد أسرت فى الكارثة العامة ، ثم جاءها المخاض فى أثناء السير ووضعت مولودها بعد مقاساة آلام الولادة التى تصحب الوضع ، فلما أفضوا بخبرها الى الملك أمر فى الحال أن ينزلوها من فوق البعير الذى كانت تركبه ، وأن يعدوا لها فراشا مما غنموا ، وزودوها بالطعام وبراويتين من الجلد مملوءتين بالماء ، ثم خصص لها وصيفة

ـ كما أرادت ـ تقوم بخـــدمتها وتلبية حاجتها ، وناقتين تعيش على لبنهما ، ثم دثرها (الكونت) فى عباءته التى كانت عليه وخلفها حيث هى ، وتابع هو زحفه مع جيشه .

وفى هذا اليوم بالذات ـ أو لعله فى اليوم التالى ـ ظهر الشيخ العربى الكبير ، يتبعه رهط ضخم من رجال عشيرته ، يقص عن قرب ـ كماألوف عادة قومه ـ أثر الجيش الصليبى ، وكان الأسى قد بلغ منه غايته ، وغمه أشد الغم سبى زوجته الشريفة وأم أولاده وهى على وشك الوضع ، ولم يكن يعتبر كل ما خسره شيئا مذكورا اذا ماقيس بفقده اياها ، وظل يمشى ويمشى حتى وصل اليها فجأة فرآها مسجاة على الأرض ، فلما وقع بصره عليها أخذه العجب كل العجب من تلك الروح الانسانية العظيمة التى حاطها بها الملك ، وشرع يشيد بذكر اللاتين مثنيا على رحمة بلدوين العظيمة الثناء المستطاب . وأقسم ليكونن منذ هذه اللحظة الى آخر عمره وفيا له ما وسعه الوفاء ، وكان هذا عهدا أوفى به فى لحظة حرجة أشد الحرج .

فى الوقت الذى كانت تجرى ابانه هذه الأحداث فى الشرق سمع أمراء الغرب بالأمور الجليلة الرائعة التى أجراها الله على أيدى عباده الذين ذهبوا للحج ، وكيف أنه قاد جيشه الى أرض الميعاد عبر بلاد مترامية الأطراف ، وكيف نصـــرهم على الأهوال الجمة البالغة ، وهيأ لهؤلاء الحجاج أن يشاهدوا بأعينهم كيف أذل لهم الأمم وفتح عليهم البلاد ، فاغتبطت نفوس الذين ظلوا وراءهم فرحا بنصر اخوانهم ، وان تقطعت قلوبهم حسرة لأنهم لم يشاركوهم فى حملاتهم التى تكللت بالنصر والغلبة ، ومن ثم اجتمع بعضهم الى بعض ، واتفقوا على أن يشرعوا فى الخروج بحملة جديدة .



كان أعظم هؤلاء الحجاج مكانة ذلك الرجل المبجل « وليم كونت بواتو(٤) دوق أكويتية ، ومعه الرجل الذائع الصيت « هيج » العظيم كونت فير ماندوا أخو فيليب ملك الفرنجة ، والذى كان قد صحب الحملة الأولى ، ولكن اضطرته العسرة بعد الاستيلاء على أنطاكية للرجوع الى موطن آبائه . كماكان من بين هؤلاء أيضا « ستيفن » كونت « شارترز وبلوا »(٥) وهو اللبيب الفطن ، ولكنه كان قد جلب على نفسه العار المقيم وأزرى بشرفه حين كانت أنطاكية موشكة على السقوط ، فتخلى عن رفاقه وهجرهم خوفا من المعـــركة التى على الأبواب ، فلطخ هروبه المشين اسمه بعار أبدى ، ثم عن له أن يكفر عن زلته السالفة ، ويمحو ذكرى هذا الاثم الذى علق بالأذهان ، فجمع رهطا كريما من أتباعه واستعد للحج .

كذلك تأهب للقيام بنفس الرحلة « ستيفن البرجندى » الشريف المحتد الكريم الأرومة ، كما تأججت نفس هذه الرغبة فى صدور كثيرين غير هؤلاء من النبلاء المعـــروفين بثرائهم وطهارة حياتهم وكرم أصولهم ، وبراعتهم فى حمل السلاح ، فاستعدوا للسفر ، فلما كان اليوم المضروب للرحلة وقد خرج من القادة العظماء من

---

(٤) المعروف عن كونت بواتو هذا انه كان الى جانب ذلك رجلا اديبـا يقرض الشعر .

(٥) أشارت الترجمة الانجليزية (ج ٢ ص ٤٣١ حاشية رقم ٢٧) الى أن ستيفن كونت شارتر كان يواجه عاصفة شديدة منالاستهجان لمسلكه فى ترك الصليبيين ، بل ان زوجته طالما لامته لوما عنيفا على هذا المسلك وبينت له كم تكابد من الألم من كل النواحى ، وراحت تثير حميته حتى لان واستجاب وقاد هذه الحملة التى يشير اليها وليم الصورى فى المتن ، وقد أوردت الترجمة الانجليزية هذا التعليق بناء على ما ذكره المؤرخ النرمندى « أوردريك فيتال » .

يجاوزون هؤلاء مكانة أزمع هؤلاء النبلاء مشاركتهم بالعسكر الذين معهم ٠

ومن ثم أعدوا كل ما يحتاجون اليه فى سفرهم ، واستدعوا اخوانهم وخرجوا للحج فى الساعة واليوم اللذين اتفقوا عليهما ، سالكين نفس طريق الحملة الأولى ، وان لم يماثلوهم فى حماستهم ، وتلقاهم فى القسطنطينية الامبراطور « الكسيوس كومنين » لقاء طيبا ، ورأوا فى بلاطه كونت تولوز الذى جاء فى الحملة الأولى بأعمال برهنت على كفاءته العظيمة كقائد ، وكان الكونت كما قلنا قد خلف زوجته ومعظم أهل بيته فى اللاذقية ، أما هو فقد مضى الى الامبراطور ملتمسا معونته ليتمكن من العودة الى الشام وليفتح مدينة أو أكثر من مدنها ، لأنه كان منذ خروجه للحج قد أجمع العزم على أن يقضى هنا ما تبقى من عمره ، وألا تكون له رجعة قط الى وطنه ٠

وصفقت الفرحة فى صدور هؤلاء الرجال اذ قابلوا رجلا حكيما ونشيطا كهذا الرجل ، ثم جاءوا الى الامبراطور يستأذنونه فى الرحيل ، فسخى عليهم بالهدايا الغالية ، وخرجوا مجتازين البسفور ومسترشدين بالكونت ريموند سان جيل ، ووصلوا بمن معهم من العسكر الى نيقية فى اقليم « بيثينيا » سالكين نفس الطريق الذى سلكه من سبقوهم ٠

— ١٣ —

لقد عامل الامبراطور الحجاج — كما قلنا — أطيب معاملة حينما كانوا عنده ، لكنه نهج نهج الاغريق المألوف ، فأكل الحسد قلبه من نجاح الصليبيين ، وعزم على انزال المضرة بهم ، ومن ثم والى

بعث الرسل الى الترك يحثهم للعمل على ما فيه القضاء على الحجاج، ودأب على مكاتبتهم واخبارهم شفاها بواسطة رسله بقرب وصول الحجاج ، ويذبههم مقدما الى أن سلامة أنفسهم تحتم عليهم الا يدعو هذا الحشد الكبير يمر بسلام ، وهكذا كان كالعقرب التى ان ووجهت لم تلدغ ، ولكن السم كل السم فى حمتها التى ينبغى استئصالها ، ولذلك فقد فشى خبر وصـــول هذه الحملة بواسـطة الكسيوس ومبعوثيه ، واستطاع الترك أن يجمعوا الجنود والمرتزقة من كافة أنحاء المشرق متوسلين لتحقيق ذلك بالرجاء والمال ٠

ثم شاءت الظروف ــ ان عمدا أو صدفة ــ أن يتفرق الصليبيون بعضهم عن بعض ، وسارت كل طائفة منهم فى طريق غير الطريق الذى سلكته الأخرى ، ذلك لأنهم كانوا أشبه بذرات الرمل لا ترابط بينها ، هذا بالاضافة الى أنه كان ينقصـــــهم التنظيم الحربى الذى التزمه الجيش الأول ، ومن ثم سرت روح قوية من الكراهية نحوهم، فحق عليهم أن يقعوا فى يد العدو الذى أفنى منهم بالسيف أكثر من خمسين ألف نسمة ما بين ذكر وأنثى ٠

أما الذين قيضت لهم العناية الالهية النجاة من قبضة العدو فقد فقدوا كل متاعهم وجهازهم ، وهاموا على وجوههم يلتمسون النجاة عراة حفاة صفر الأيدى من كل شيء ، حتى انتهى بهم الفرار أخيرا الى قيليقية التى بلغوها بطريق الصدفة وليس عن خطة رسموها لأنفسهم ، فلما صاروا فى طرسوس عاصمة تلك الولاية فقدوا هيج العظيم فقد وافاه الموت الذى لامناص له منه ، فدفنوه فى احتفال كبير فى كنيسة معلم « الأمم » العظيم الذى مات فى مهبط رأسه ٠

وبعد أن استجم الحجاج بضعة أيام ناعمين بشـــهى المأكل تابعوا سيرهم حتى بلغوا امارة أنطاكية التى كان تصريف شئونها بيد تانكريد ، فاستقبلهم كعادته استقبالا حارا ، وخص كونت بواتو

بأعظم جانب من الرعاية ، لأنه كان أسمى الجميع مكانة ، كما أنه انفرد عن كل من معه بما ابتلى به فى تلك الحملة المنكوبة بفقد كل ما كان يملكه ٠

واذ كان الشوق يلح على الحجاج لرؤية الأماكن الطاهرة ــ فقد أغذوا السير الى بيت المقدس ــ التى نازعتهم نفوسهم اليها لهفة وحنينا ، فركب البحر منهم من أعوزتهم الجياد ، وأما غيرهم ممن لم يزل عندهم ظهر يركبونه فقد شقوا طريقهم برا ، والتقى هؤلاء وهؤلاء فى انطرسوس : تلك المدينة الساحلية التى تعرف عادة باســـم « طرطوس » ، فأغاروا عليها استجابة لنصيحة ريموند كونت تولوز لاسيما وقد بدا لهم أن ليس من اليسير استيلاؤهم عليها ، فأعانهم الله اذ مكنهم من امتلاكها عنوة فى أيام قلائل معدودات ، وراح أهلها ما بين هالك بحد السيف وأسير فرض عليه الرق الأبدى ، فلما فرغوا من ذلك كله أسلموا المدينة الى الكونت ، ثم تقاسموا الغنائم فيما بينهم وفق ما يقضى به قانون الحرب حتى اذا انتهوا من ذلك تابعوا السير نحو هدفهم ، على حين بقى الكونت فى المدينة لحمايتها ، فتخلف على غير رغبة من البقية الذين كانوا يلحون عليه أن يسير معهم ٠

ــ ١٤ ــ

بينما كان جيش الحجاج ــ وقد طالعه سوء الطالع ــ يجهد نفسه فى شق طريقه عبر بقاع آسيا الصغرى كما وصفنا من قبل كان ملك بيت المقدس ــ الذى يكره البقاء بلا عمل يشغله ويعد ذلك مضيعة للوقت ــ أقول كان منصرفا لبذل شــتى الوســـائل لمد حدود المملكة الضيقة ٠ وحدث أن وصل الى ميناء يافا ــ مع مستهل

الربيع(٦) ــ أسطول الجنوية ، فتبارى الملك والأهالى فى الاحتفاء بهم ، ولما كان عيد الفصح على وشك الحلول فقد سحبوا سفنهم الى اليابسة ، ومضوا مصعدين الى بيت المقدس للاحتفال بالعيد الذى ما كاد الملك يفرغ من احيائه على مألوف السنة حتى بعث من لدنه رجالا عقلاء محملين بالهدايا المغرية الى قادة الأسطول وكبار وجوه العســــكر ، وعهد اليهم بمفاوضتهم ليعلموا منهم علم اليقين عما اذا كان فى نيتهم الرجوع ، أم أنهم مســـــتعدون ــ اذا عوضـــوا تعويضا سخيا ــ على بذل أنفسهم فترة من الوقت لخدمة الله بمد حدود المملكة » ٠

فلما تشاور الجنوية فيما بينهم أجابوا أنهم اذا تهيأت لهم الاقامة فى المملكة وفق شروط كريمة فسيكون هدفهم ــ وكان هذا فى الواقع منذ البداية ــ الانصراف ردحا من الزمن لخدمة الرب بتوسيع رقعة المملكة ٠

ومن ثم عقدت اتفاقية قبلها الطرفان مقسمين على الوفاء بها ، مفادها أنهم طالما يريدون البقاء فى المملكة بأسطولهم فلهم الثلث من كل مدينة أو قلعة أو موضع من المواضع الحصينة مما فى يد العدو ، ومما يكونون هم قد ساعدوا فى الاستيلاء عليه ، لا يعارضهم فى ذلك معارض ٠

كذلك يحصلون على ثلث الأسرى الأعداء من غير مشاققة ، ويكون لهم ثلث أموال العدو يقسمونها بين رفاقهم ٠ أما الثلثان الباقيان من كل شىء فيكونان من نصيب الملك ٠ وزيادة على ذلك فقد نص الاتفاق على أن يخصص حسب المعاهدة للجنوية شارع معين فى كل مدينة تنتزع من يد الخصم ٠

---

(٦) وكان ذلك فى منتصف ابريل ١١٠١ ٠

حينذاك انتعشت الآمال فى صدر الملك ، فقام اعتمادا على المعونة الالهية وجمع كثيرا من الفرسان والمشاة من المدن الخاضعة له ، وفرض الحصار برا وبحرا على مدينة « أرسوف » الساحلية المعروفة أيضا باسم « انتيباتريس » نسبة الى « انتيباتر » والد « هيرود » •

وتقع أرسوف وسط مناطق شديدة الخصب ، الى جانب ماتجود به عليها الغابات والمراعى ، وكان الدوق « جود فروى» العاطر الذكر قد عاث فسادا فى أرجاء هذه المدينة فى السنة الغابرة ، لكنه عجز عن حصارها بحرا لقلة ما لديه من السفن ، فلما أدرك استحالة النجاح عاد الى قواعده ، دون أن يحقق غرضه •

* * *

نشر بلدوين فى الحال قواته حول المكان على شكل دائرة أحاطت به من كل ناحية ، ثم أمر بتشييد برج متحرك من الكتل الخشبية الضخمة ، فلما فرغوا منه أسنده الفعلة الى الأسوار بعناية فائقة ، لكن قوة السلم لم تكن كافية لاحتمال ثقل ذلك العدد الكبير من الناس الذين اعتلوه ، فهوى الى الأرض حطاما ، وأصيب فى هذا الحادث حوالى مائة من رجالنا كانت اصاباتهم خطيرة •

كذلك وقعت طائفة من رجالنا فى يد العدو ، فصلبهم أمام أعين رفاقهم ورفعهم على الشانق ، فأسخط هذا المشهد قلوب الصليبيين وأترعها بالغيظ الشديد واستورى غضبهم ، فكروا على الخصم كرة ضارية ، وضيقوا عليه الخناق ، وحاصروه هو وأهل المدينة حصارا بليغا حتى بدا العدو وأهل البلد وكأنما قد فقدوا كل قدرة عندهم فى الدفاع حتى عن أنفسهم •

وأسند الصليبيون سلالمهم الى الأسوار ، وكانوا على أهبة الاستيلاء على الأبراج والحصون حين قام أهل البلد ــ وقد يئسوا

من كل شيء حتى من الحياة ذاتها ـ وبعثوا من جهتهم وسطاء الى الملك ، حصلوا منه على اذن يخول لهم ـ ان هم أسلموه البلد ـ أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم ، على أن يخلفوا وراءهم كل أمتعهم ، وان ذاك تكون لهم السلامة والعافية ، ويزودون بعهد أمان حتى يبلغوا عسقلان ، ولما تم الاستيلاء على القلعة أقام بها الجيش حامية لحراستها ولم يتريث فى الزحف على قيسارية لمحاصرتها ٠

ـ ١٥ ـ

وتقع قيسارية على ساحل البحر ، وكانت تعرف فى العصور السالفة ببرج « ستراتون » ، وتقول كتب التاريخ القديمة ان هيرود الكبير زاد فى رقعتها، وجملها بالمبانى الضخمة ، وسماها «بقيصرية» تشرفا بالامبراطور أوجستوس (قيصر) ، ثم جاء الامبراطورالرومانى فأمر بأن تكون عاصمة فلسطين الثانية ، وتمتاز المدينة بخصائص عظيمة ، منها كثرة القنوات التى تشقها ، وبساتينها المروية أحسن رى ، كما أن لها ميناء ، ونقرأ فيما نقرأ أن هيرود هذا لم يقصر فى بذل المال الكثير والجهد الضخم ليبنى ثغرا هناك يكون مرسى آمنا للسفن ، لكنه لم يفلح فيما حاوله ٠

* * *

ثم زحف الملك بجيشه من هناك وتبعه الأسطول ، مبقيا مسافة لا يتجاوزها من فى البحر ومن على اليابسة ، فلما بلغوا غايتهم حاصروا المدينة ونصبوا آلات الرمى فى أماكن استراتيجية ، وحملوا على المكان حملة صدق ، فاستولى الذعر على قلوب الأهالى من جراء المناوشات الجمة التى جرت حول الأبواب ، كما أن الصخور التى راحت الآلات تقذفها بلا انقطاع أوهنت من مقاومة

الأسوار والأبراج ، وهدمت البيوت حتى لم يستطع المحصورون أن يصيبوا دقيقة واحدة من الراحة ٠

وقد فرغ الصليبيون فى هذه الأثناء من تجهيز آلة ذات ارتفاع عجيب يجعلها فوق جميع الأبراج ، وقد ساعدتهم هذه الآلة على مهاجمة المدينة من غير عناء يلقونه أو ضيق ينزل بهم ، واستمر هذا القتال موصولا مدة قاربت خمسة عشر يوما بين الأهالى وبين جيشنا الذى هاجمهم بكل ما فى طاقته من قوة ، ولكنهم قاوموه مقاومة لم تكن أقل من مقاومتهم اياه ، واستحر القتل فى الجانبين دون انقطاع ، فأدرك الصليبيون بعده أن أهل البلد ليسـوا أهلا لهذه الجهود الشاقة لاعتيادهم الفراغ واستنامتهم الى الاسترخاء أزمنة طويلة لان معها عودهم ، وتراخت عزائمهم ، كما أنه لم يكن لهم تمرس بفنون الحرب ، ولوحظ عليهم — يوما بعد يوم — ضعف بأسهم عن الصمود بسبب ضجرهم من وطأة القتال ، ومن ثم نبذ رجالنا كل تراخ ، وراحوا يشجعون بعضهم بعضا ، ورفضوا أن ينتظروا حتى يتم نصب الآلة التى يصنعونها ، وتكاتفوا فشنوا هجمة أودعوها غضبا لم يعهد من قبل ، فلما شاهد هذا المنظر المحصورون الموجودون داخل أسوارهم استبد بهم الجزع ويئسوا من كل شىء حتى من الحياة ذاتها ، فلم يعودوا يحاولون حماية أسوارهم ، أو يهتمون فتيلا بوسائل دفاعهم ، فلما لاحظ الصليبيون هذه الحالة أسندوا سلالمهم الى الأسوار ، وبادروا الى اعتلاء الحصـون ، وسرعان ما استولوا على الأبراج والقلاع ، وأدت جهود الآخرين الحماسية الى رفع المزاليج من الأبواب وفتحوها على مصاريعها ، فانهارت المدينة ودخلها الملك بجنوده عنوة ٠

حينذاك أخذ الجند المدجج بالسلاح يعيثون فى أرجاء المدينة لا يعرض لهم أحد بردع أو دفع ، واقتحموا الدور التى لم تجد

الأهالى نفعا فيما ظنوه من أنهم واجدون الحماية داخلها ، ففتك العسكر بكبار رجال الأسر ، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية ، وامتدت أيديهم فسلبت كل ما رغبوا فيه حتى المساكن ذاتها ، وحكموا السيف فى الأهل والحشم ، واستولوا على الحجرات الخاصة ، ولسنا فى حاجة للحديث عن مصير من قضى القدر بوضعهم فى طريق قواتنا فى الأماكن التى راحوا يختفون فيها فى الشوارع الجانبية ، فكان نصيبهم الموت الذى لم يستطيعوا دفعه .

أما الذين قدرت لهم النجاة فقد قتلوا أنفسهم بأيديهم ، اذ ابتلعوا القطع الذهبية والجواهر الغالية ، مما حرك جشع الصليبيين الى درجة أنهم راحوا يبقرون بطون هؤلاء بحثا عما يكونون قد خبأوه من المال فى أمعائهم .

— ١٦ —

وكان يوجد فى موضع مرتفع بأحد أقسام المدينة بيعة كبيرة ، تقول الأخبار انها شيدت على أنقاض معبد كان بديع الصنع ، بناه هيرود تعظيما لأوجستوس قيصر ، ففر اليها السكان مؤملين أن يجدوا السلامة والأمان بين جدرانها ، اذ هى موضع عبادة ، لكن الصليبيين شقوا طريقهم قسرا الى هذه البيعة ، وفتكوا فتكا ذريعا باللائذين بها ، فسفكوا دماءهم التى صارت بحرا أخذت تخوضه أقدام المخربين ، وكان منظر الجثث الجمة المبعثرة هنا وهناك منظرا يبعث الفزع فى النفوس .

وكان مما عثروا عليه فى هذه البيعة ذاتها وعاء ذو لون أخضر براق على شكل مزهرية ، عرفه الجنوية أنه مصنوع من الزمرد فأخذوه عوضا عن مال كثير كان لهم ، فحصلوا بذلك على

تحفة رائعة يحلون بها كنيستهم ، ولازالوا حتى اليوم يعرضون هذه المزهرية كأعجوبة على كل رفيع المقام ، سامى المكانة يمر بمدينتهم ، مؤكدين له أنها مصنوعة من الزمرد الخالص كما يدل على ذلك لونها ٠

والواقع أنهم قتلوا كل شباب المدينة أنى ثقفوهم ، ولم يستثنوا من القتل سوى صغار الصبية والبنات ، وهنا تم ما جاء فى كلام الانبياء(٧) : وسلم للسبى عزه ، وجلاله ليد العدو » ٠

ولما آن للسيف أن يستكن فى غمده ، وتم هلاك الأهالى ، جمع القوم شتى الغنائم فى صعيد واحد ، ونحوا الثلث جانبا جاعليه للجنوية حسبما تم الاتفاق عليه ، وأما الثلثان المتبقيان فكانا من نصيب الملك ورجاله ٠

ولما كان القليل مما بيد قومنا قد نفد أثناء الطريق فقد أملقوا غاية الاملاق ، وافتقروا أشد الفقر ، أما اليوم ، وقد أصابوا الكثير من الأسلاب والغنائم فقد أترفوا غاية الاتراف بسبب كثرة ما نهبوه ٠

ثم جلس الملك فى مجلس الحكم وجىء أمامه بكل من والى المدينة الذى يلقبونه فى لغتهم بالأمير ، وبالقاضى الذى يناط اليه أمور العدالة ، فمن الملك عليهما بالحياة طمعا فيما يصيبه من فدية ضخمة يفتديان بها ، لكنه أمر بتكبيلهما بالسلاسل وفرض حراسة شديدة عليهما ٠

وبينما كان الملك مشغولا بماهو فيه جدت أمور استدعته للخروج، فاضطروا لاختيار رجل اســـمه بلدوين ـ ك ناقد جاء مع حملة

---

(٧) مزامير ٧٨ : ٦١ ٠

جودفروى ـ ليكون رئيسا لأساقفة المدينة (قيسارية) فبادر الملك مع رهط آخرين الى الرملة بعد أن ترك نفرا من الجند لحراسة البلد .

ـ ١٧ ـ

وتقع مدينة الرملة فى سهل قريب من اللد التى هى « ديوسبوليس » ، ولم أتمكن من معرفة ماذا كانت تسمى هذه المدينة قديما ، ولكن الرأى الشائع هو أن المكان حديث النشأة ولم يكن موجودا فى العصور الأولى ، وتقول الأخبار القديمة انها أسست على يد الأمراء العرب الذين جاءوا بعد (النبى)(٨) محمد (صلعم) وكانت عند أول قدوم الجيش الصليبى الى بلاد الشام مدينة آهلة بالسكان ، يكتنفها سور وأبراج ، وقد توافد الناس اليها فى جموع زاخرة فاستقروا بها ، ولكن لم يكن لها وسائل دفاع خارجية أو خندق ، فلما انصب عساكر الصليبيين الى تلك الناحية غادرها سكانها وفروا عنها الى عسقلان التى كانت تفوقها تحصينا .

وهكذا وجد الصليبيون المدينة قد هجرها أهلوها كما قلنا ، فكان من الصعب احتلالها كلها مادام سكانها بهذه القلة الشديدة ، ومن ثم اكتفوا باقامة حصن ذى أسوار ، وبحفر خندق فى جانب منها .

وراجت فى ذلك الوقت شائعة لم تكن بعيدة عن الواقع ، تلك هى أن خليفة مصر كان قد أرسل واحدا من كبار قواد جيشه على

---

(٨) استعمل وليم كلمة آثرنا احلال ما بين الأقواس مكانها .

راس مجموعة من العسكر الى ناحية عسقلان ، آمرا اياه كعادته ـ أن يتقدم من غير ابطاء لقتال هذا الشعب[٩] الفقير المتسول الذى اجترأ فدخل أملاكه وعكر صفو هدوئها ، وكان على هذا القائد أحد أمرين : اما أن يستأصل هؤلاء القوم استئصالا تاما ويقضى عليهم القضاء المبرم بحد السيف ، واما أن يعود بهم الى مصر مصفدين فى الاغلال ، ويقال انه كان فى جيشه أحد عشر ألفا من الفرسان ، وعشرون ألفا من العسكر المشاة .

كانت هذه الشائعة هى التى أجبرت الملك (بلدوين) على مغادرة قيسرية على جناح السرعة مخافة أن يعتمد هذا الجيش على كثرة عدده ، فيحاول غزو مملكة بيت المقدس ، مما لابد أن يؤول الى أسوأ الأخطار على صالحها .

وأقام بلدوين فى الرملة ردحا من الوقت قارب الشهر عاد بعده الى يافا ، اذ لم يبد أثر للعدو ، فلما كان الشهر الثالث لم تستطع القوات المصرية أن تتراخى أكثر من هذا فى تنفيذ أمر مولاها ، والواقع أنهم خافوا أن يكون (الخليفة) قد غضب لابطائهم هذا الابطاء الطويل فى تنفيذ الأمر الذى خرجوا لتنفيذه ، فتشـــجعوا واستعدوا بقواتهم ، وعبأوا صفوفهم للقتال ، وأغاروا غارة خاطفة على أرضنا مهاجمين لها .

فلما علم الملك بلدوين بما فعلوا أمر باستدعاء قواته ، وكانت بالغة القلة ، لأن صغر مساحة ما تحت يده من البلاد وقف عقبة فى طريق تكوين جيش كبير العدد ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يحشد حول اللد والرملة أكبر جند أمكنه جمعهم ، فبلغوا مائتين وستين فارسا وتسعمائة من العسكر المشاة .

---

(٩) يعنى بذلك الشعب الصليبى الوافد من أوربا .

ولما اتضح أن العدو آخذ فى الاقتراب أمر الملك بتقسيم قواته الى ست فرق خرج بها لمقابلة الأعداء، وجعل أمامهم راهبا تقيا حاملا فى يده بوقار صـــليب المســـيح ، ولما أتم الصـــليبيون ترتيب صفوفهم على هذه الصورة نظروا الى صـــفوف المارقين ورفعوا وجوههم الى السماء يرجونها العون ليحرزوا النصر ، ثم اندفعوا فى هجمة نكراء لم ترهبهم كثرة خصـــومهم ، وراحوا يقاتلونهم بشدة معملين فيهم سيوفهم ، احساسا منهم بأنهم يقاتلون من أجل الحياة ذاتها ٠

وقاومهم المصريون بكل ما لديهم من طاقة باذلين الجهد كى ينتهى هجوم خصومهم بالفشل ، لأنهم كانوا على يقين تام من أنهم ان لم يعودوا منتصرين حاق الخطر بنسائهم وأولادهم وما ملكت أيديهم مما تركوه بمصر ٠

وحدث أن التحمت مقدمة جيش الأعداء بفريق من جنودنا ، واذ كانت هذه المقدمة أكثر عددا منا فانها سرعان ما بثت الفوضى فى صفوفنا فأجبرتنا على الفرار ، ثم راحت تتعقبنا تعقبا شديدا ، وأوشكت على القضاء على رجالنا واستئصال شأفتنا ٠

أما بقية كتائبنا فقد قاومت أشد المقاومة كما استبد بها الغضب الجارف ، فضـــيقت الخناق على العدو وأعملت فيه مذبحة فظيعة يعجز اللسان عن وصفها ، أما الملك العظيم الشأن فقد أخذ يشجع بالكلمة تارة وبالفعل تارة أخرى هذه الكتيبة مرة وتلك الكتيبة مرة أخرى ، فاذا رآى احداها قد ضاق عليها الخناق وأنها موشكة على الانسحاب أمدها بما تحتاجه ممن معه فتسترد بأسها ٠

وانقضى وقت طويل لم تتضح فيه نتيجة المعركة ، ثم واتت

السماء الصليبيين النصر التام فدارت الدائرة على العدو وهلك قائدهم اذ اخترطه السيف فمات وقد استبسل استبسالا رائعا ٠

وتمزقت صفوف العدو ، واندحرت كتائب من كتائبه حتى آخر رجل الا من فر منهم الى النواحى القاصية ، فلما رآى الملك ذلك نهى أن تمتد يد أحد من رجاله الى الغنائم والا كان الموت نصيبه ، ثم زاد فأمرهم باقتفاء العدو فى هروبه ، والا يضعوا السيف وحذرهم أن تأخذهم رحمة أو شفقة بأحد منهم ، بل يقتلونهم أنى ثقفوهم ، وضرب لهم المثل بنفسه اذ راح يطارد بعض فلول فرسانهم ومشاتهم الخفاف حتى بلغ عسقلان على بعد ثمانية أميال ، ولم يوقفه عن الذبح المروع الا دخول الليل ، واذ ذاك نفخ الملك فى البوق مستدعيا رجاله ، فعادوا الى ساحة المعركة حيث أخذ يوزع الغنائم عليهم تبعا لقانون الحرب ، وقضى ليلته هذه فى الساحة منصورا ٠

وتقول الرواية أن قرابة خمسة آلاف من رجال العدو ذبحوا ذبح الشياه فى ذلك الموضع ، ولما أحصى رجالنا كان المفقودون منهم سبعين فارسا ، وأكثر منهم من الجند المشاة ، على أن الخسارة الحقيقية لم تعرف ٠

— ١٨ —

أما القوات المصرية التى كانت قد أبادت الصيلبيين فى معركة الأمس فقد أوغلت فى مطاردة الهاربين حتى بلغت مدينة يافا ، ووقفت أمامها معلنة الى الأهالى فى صوت جهورى أن قد هلك الملك وكذلك الجيش الصليبى فى ساحة القتال ، وتأكيدا على صدق ما قالوا فقد أبرزوا لهم مايعرفونه من أسلحة اخوانهم وأتباعهم ، وكانت الملكة هى الأخرى فى المدينة فلما شاهدت مع الأهالى ذلك كله لم يخامرها شك فى صدق ماسمعته وسمعوه ، فانخرطوا جميعا فى البكاء ٠

وبعد أن تشاوروا مع كبارهم وأهل الخبرة وبعد النظر انتهوا الى أنه لا مناص لهم من سلوك طريق واحد : ألا وهو ارسال كتاب الى تانكريد أمير أنطاكية يستصرخونه أن يهب سريعا لنجدة المملكة فى محنتها بعد أن لم يعد لها كبير يدبر أمورها ، وأخبروه أنه أصبح الآن – بعد الله – أمل الشعب المؤمن .

فى هذه الأثناء كان الملك قد أمضى الليلة فى ساحة القتال ، لكن ما كاد النهار ينبلج حتى أيقظ قواته المنتصرة وهبوا قاصدين يافا ، وبينما هم فى طريقهم اذا بهم يقابلون المارقين الذين بثت قصتهم الكيدية الخوف والفزع فى قلوب أهل يافا ، فلما طالعت هذه القوات الصليبيين ظنتها فى بادىء الأمر اخوانهم اعتقادا منهم بهلاك جيشنا عن آخره فى يومه الغابر ، ومن ثم تقدموا وكلهم ثقة وقد أوشكوا على الانضمام الى قواتنا ، وحينذاك صاح الملك فى أتباعه مشجعا اياهم على مهاجمتهم ، جاعلا من نفسه القدوة لهم ، فتبعه نفر من فرسانه بأسرع مايمكن ، واستبسلوا فى قتالهم حفاظا على حياتهم ، وهجموا على خصوم ملتهم ، وكان قتال اليأس فى الأحياء المجاورة استعملت فيه السيوف ، وأحيط بالعدو احاطة سدت عليه مسالك النجاة ، فهلك الكثيرون من رجاله ، أما البقية الذين أفزعهم الخوف من الموت فقد ولوا الأدبار ، فشكر الصليبيون الرب ثم تابعوا زحفهم نحو يافا ونفوسهم تفيض بالفرحة ، وامتلأت أيديهم بغنائم العدو وأســــلابه .

فى هذه الأثناء كانت قلوب أهل يافا قد استبد بها الجزع الكبير من أخبار الكارثة ، فلما طالعوا الجيش العائد كانوا كمن استيقظ من سبات عميق ، فهبوا الى الأبواب يفتحونها لهم ، وعيونهم مغرورقة بدموع الفرح ، واندفعوا نحوهم مرحبين بهم ، وأفضوا اليهم بالنبأ الأليم الذى سمعوه ، ومدى الحزن العميق الذى استولى

عليهم ، ثم دخل الجميع المدينة ، وأمضوا يومهم فى احتفال ومسرة ، وراح كل منهم يقص على صاحبه خبر الرحمة العجيبة التى منحهم اياها السيد ٠

ولما علم الملك أن الملكة ومستشاريها قد دفعهم خوف اليائسين لمكاتبة تانكريد بعث اليه فى لحظته رسولا على جناح السرعة محملا بالكتب التى تعلن اليه ما أحرزه من النجاح الباهر ، وكان الأمير الجليل (تانكريد) شديد الحزن لما سمعه من خبر النكبة التى ألمت بالمملكة وهو على وشك الخروج ، لكن نبأ انتصار الملك أثلج صدره فراح يشكر الخالق شكرا جزيلا ٠

ـ ١٩ ـ

فى هذه الأثناء وصل الى أنطاكية النبلاء الذين كانوا قد فقدوا جزءا كبيرا من عسكرهم فى أراضى آسيا الصغرى من جراء النكبة التى ألمت بهم والتى أشرنا اليها من قبل ، ولما أخذوا فى السير سلبوا من العدو مدينة « طرطوس » وأسلموها الى كونت تولوز ، ثم أغذوا الزحف الى القدس ، واذ خاف الملك أن يعوقهم عائق عند نهر الكلب فقد نهض بقواته لمقابلتهم ، فاستولى بادى ذى بدء على الممر ، ولم يكن العمل الذى قام به من أجلهم بسيطا لما ينطوى عليه الاستيلاء على أربع مدن عظيمة معادية مزدحمة بالسكان من صعوبة بالغة ، وهذه المدن هى عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكان لابد له من المرور بها قبل وصوله الى غايته ٠

فلما تغلب الملك وأصحابه على مصاعب الممر وجد هناك الرجال الفضلاء المذكورين من قبل ، وهم وليم كونت بواتو ، ودوق أكويتين ، وستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجندى ، وجود فروى كونت

فندوم ، وهيج اللوزينيـــانى أخو ريموند كونت تولوز ، وكثيرون غيرهم من علية القوم الذين كانوا جميعا فى غبطة لأمرين ، أما أولهما فلأنهم وجدوا الممر ــ الذى ظلوا يخشونه ــ غير ذى موضوع ، وأما ثانيهما فلوجود الملك هناك ، حيث هب للقائهم فتعانقوا وراحوا يتبادلون فيما بينهم التهانى الصـــادقة وقبلات السـلام ، وأثلج صدورهم ماجرى بينهم من الأحاديث العذبة ، حتى كان يخيل لرائيهم أن قد طمست من أذهانهم كل صور المشاق التى قاسوها والخسائر التى تكبدوها ، والحق أنهم ظهروا وكأنهم لم يصادفوا طوال طريقهم أى ضرر ، وحباهم الملك بكل ضروب الرحمة التى تمليها شرائع الانسانية والمحبة ، ثم قفل بهم الى بيت المقدس .

ولما كان يوم عيد الفصح قد حل فقد أمضوا هذا اليوم بالمدينة المقدسة واحتفوا فيها به ، ثم انطلقوا الى يافا قاصدين الرجوع الى ديارهم ، ولما كان كونت بواتو قد نضبت موارده تماما ونفد كل ما معه فانه استقل احدى السفن وأبحر بها ، فكانت رحلة موفقة أبلغته وطنه ، أما ستيفن كونت بلوا وسميه كونت برجندى اللذان أبحرا أيضا من ذلك الميناء فقد صادفا مشقة بالغة فى البحر استمرت بضعة أيام ، وأرغمتهما الريح المعاكسة على العودة الى يافا .

ـ ٢٠ ـ

كان جميع أولئك الحجاج الذين تكلمنا عنهم لايزالون مقيمين فى الشرق حين انضم أهل عسقلان بعساكرهم الى المصريين الذين نجوا من المعركة التى وصفناها من قبل ، وراحوا يهاجمون معا أملاكنا فى ناحيةاللد ، وسورونا ، والرملة ، ويقال ان مقاتليهم كانوا يناهزون العشرين ألفا ، فلما وصل هذا النبأ الى الملك نسى حذره المعتاد ولم يتريث حتى تتجمع باقى القوات القادمة من المدن المجاورة ،

كما أنه لم يستدع النبلاء الذين كانوا معه فى المدينة ، ولكنه اعتمد على قوته الذاتية وحدها ، وركب جواده ، واندفع متهورا عجلا غير مستصحب معه الا ما يقرب من مائتى فارس ، ولقد أحس وجوه المدينة أن العار لابد لاحقهم ان ظلوا — فى هذا الظرف الطارىء الذى هم فيه — مقيمين بلا حركة دون أن يشاطروا اخوانهم مايقومون به ، ومن ثم حصلوا على الجياد من أصدقائهم وأقاربهم ، وتبعوا مولاهم الملك ٠

على أن بلدوين (الملك) سبق الآخرين وخرج مسرعا دون أن أن يأخذ للأمر أهبته ، لكنه حين أبصر كتائب العدو تعجب من كثرتها وبدأ يأسى ويندم على تعجله فى الخروج ، وأدرك فى لحظته صحة المثل القائل « فى العجلة الندامة » ودقة انطباقه عليه ، وندم أشد الندم لاندفاعه الطائش ، ولكنه كان قد أصبح أدنى مايكون الى خصمه وبصورة لا تسمح له بالارتداد خوف العار أو خشية الموت ٠

غير أن الألباء من أهل الخبرة الطويلة فى استعمال السلاح ممن كانوا فى صفوف العدو لاحظوا أن القوات الصليبية كانت تتقدم على غير عادتها وتسير بلا مراعاة للأصول الحربية ، فلم يكن فيها ماجرت العادة به من وجود المشاة والخيالة ، فبث هذا المنظر فى قلوب الأعداء أملا كبيرا فى النصر ، ومن ثم تجرؤوا فرتبوا كتائبهم للقتال ، وشنوا هجوما عاما على قوات الملك ، وكان الهجوم هذه المرة أشد عنفا مما كانت تجرى به عادتهم ، لأنهم رأوا أن الصليبيين من ناحيتهم قد تراخوا فى ترتيبهم الحربى المعتاد ، فاستولى الفزع الأكبر على عسكرنا من ضخامة أعداد العدو وهجمتهم العاتية ، فلم تطق قواتنا احتمال وطأة المعركة وتهافتت على الفرار بعد أن فقدت رجالا كثيرين ٠

لكن الذين سقطوا فى هذه المعركة سـقطوا بعد أن أحرزوا انتصارا مخضبا بالدم على عدوهم، لأنهمحاربوا بشجاعة حتى الرمق الأخير ، وبعد أن ذبحوا من ذبحوا فى معركة تشابكوا فيها بالأيدى ، والواقع أنهم اقتحموا صفوف العدو وفرقوا شمله ، وكانوا على وشك استئصال شأفته حين استعاد خصومهم شجاعتهم الضائعة ، وضموا شتات عسكرهم حين تدبروا قلة جمعنا وكثرة جندهم ، فراح بعضهم يهتف بالبعض مشجعا اياه ، وعاد القتال مرة ثانية بهجمة ضارية أشد الضراوة ألزمت الصـليبيين الفرار فهربوا الى بلدة الرملة مؤملين أن يجدوا بها الأمن والسلامة ٠

أما ستيفن (كونت شارترز) وسميه ستيفن (كونت برجندى) فقد سقطا فى هذا الاشتباك مع غيرهم من النبلاء الذين لاتعى الذاكرة أسماءهم ، ولا ندرى عددهم ، ونحسب أن مما نهنأ عليه أن تكون خاتمة ستيفن كونت شارترز على هذه الصورة التى لقيها ، وهو الشخصية البارزة بين قومه لنسبه الكريم ومآثره الباهرة الجليلة ، ومن الواضح أن الرب عامله برحمته الواسـعة ، فمن عليه بهذه الخاتمة الكريمة وعاد الى سلوكه الذى شانه ذات مرة ولطخ بالعار اسمه حين هرب من المعسكر أمام أنطاكية ، ومادام قد استعاد طيب الأحدوثة عنه بهذه الخاتمة الباهرة فلا مجال أبدا لأن تظل خطيئته السالفة عالقة به ، واننا لنؤمن ايمانا حقا أن أولئك الذين سقطوا من المؤمنين وهم يحاربون الى جانب حملة الصليب من أجل تمجيد اسم المسيح حريون بأن نمحوا من سجلهم كل ما كانوا يعيرون به من نقيصة الاخلال بالواجب ، وأنهم لأهل أن تجب كل خطاياهم ، وتغفر كل ذنوبهم أيا كانت هذه الخطايا وتلك الذنوب ٠

حينما رأى الملك أنه قد أحيط به من كل جانب من قبل عسكر العدو انسحب هو ونفر معه الى القلعة تجنبا لخطر الموت الماثل أمامهم ولم يكن لهم من مكان يلجأون اليه سوى تلك القلعة ، ومع ذلك فانه لم يكن مطمئنا تمام الاطمئنان الى قوة دفاع المكان ، ولذلك ظل يقظان طول ليلته يرمضه الجزع على حياته والخوف على سلامته، لكن حدث أن ذلك الشيخ العربى النبيل ـ الذى أحسن الملك قبل قليل الى زوجته كما أشرنا(١٠) ـ غادر معسكر العدو تحت جنح الليل البهيم دون أن يصحبه أحد ووقف أمام القلعة ، وقد امتلأت نفسه بذكرى الرعاية الكريمة التى كان الملك قد أحاط بها زوجته ، وكره الشيخ أن يجحد الجميل فدنا من الحراس الواقفين على الأسوار وقال لهم بصوت أشبه بالهمس : « ان عندى رسالة يجب أن أبلغها للملك فى سرية تامة ، فامضوا بى الى حضرته فى الحال ، لأن الموضوع على جانب كبير من الأهمية » ٠

وحمل الحراس ما سمعوه الى الملك الذى أصغى لما يقولون ، ثم أمر باحضار الأمير أمامه ، فلما دخل كشف عن ذاته ، وأنه ذاكر للملك الفضل العظيم الذى أسبغه على امرأته من قبل ، وبين له أن للملك جميلا فى عنقه لا ينقضى الا بخدمة تشابهه ، ثم كشف له عن خطط العدو ، وألح عليه بوجوب مغادرة القلعة فى الحال ، لأن المارقين قد استعدوا لمحاصـــرة المكان عند اطلالة الفجر الأولى ، ورتبوا قتل جميع الأسرى الذين يأخذونهم ، ثم راح يغرى الملك بمصاحبته فى التو واللحظة ، وقطع على نفسه العهد أن يصحبه بنفسه بعون الله من غير عائق يعوقه الى موضع آمن لأنه يعرف هذا

---

(١٠) راجع ما سبق ص ٢١١ ـ ٢١٢ من هذا الجـــزء من الترجمـــة العربية ٠

الاقليم خير معرفة ، فرضـــخ بلدوين بعد لأى وقبل أن يفر مع هذا الشيخ ، مستصحبا معه عددا قليلا جدا من أتباعه ، مخافة أن تثير كثرتهم شكوك العدو ، وتسللوا فى صحبة هذا الشيخ الذى مضى بهم الى ناحية جبلية ، فتأكد عند الملك اذ ذاك طاعته الصـــادقة واخلاصه العظيم ، وراح يتحدث بها كلما سنحت له الفرصة ، ثم تركه الشيخ وعاد الى جيش العدو •

* * *

أما المارقون فقد شجعهم النصر القريب الذى احرزوه ، ومن ثم أحاطوا بالقلعة من كل جانب وكروا كرة ضارية على من اعتصم بها من الآبقين ، واستولوا على الموضع قسرا ، وفعلوا بالأسرى ما أرادوا ففتكوا ببعضهم ، وكبلوا البعض الآخر بالقيود ، فارضين عليهم رقا لا فكاك لهم منه أبدا •

ولم يكن فى تاريخ حوليات المملكة حتى هذه اللحظة مجزرة كهذه المجزرة المروعة ، هلك فيها رجال نبلاء شجعان كهؤلاء الرجال، فتضعضعت روح المملكة المعنوية ، وفارقت الجميع شـــجاعتهم ، وتفطرت قلوب العقلاء منهم ، وسقطوا فى هوة عميقة من اليأس حتى كادوا أن يغادروا المملكة لولا أن تداركتهم رحمة انصبت عليهم من فوقهم •

لايستطيع أحد فى الواقع أن ينكر قلة عدد أناسنا ، كما لم يقدر لمن جاءوا من الأقطار الواقعة فيما وراء البحر أن يصـــلوا كلهم سالمين الى الشرق خوفا من مدن العدو الساحلية الكثيرة المتناثرة على يمينهم ويسارهم ، فلقد ذكرنا أنه لم يكن فى أيدى الصليبيين من جميع المدن الساحلية ــ بدءا من لاذقية الشام وانتهاء بالمدن الواقعة على حدود مصر ــ سوى مدينتين فقط هما يافا وقيسرية وقد تملكوهما منذ أمد قريب ، مما ترتب عليه أنه ما كاد الحجاج

يفرغون من أداء حجهم حتى كروا على أعقابهم الى بلادهم ، بعد أن شاهدوا ما عليه أحوال المملكة من ضعف ويأس ، وكان رجوعهم دفعا لما قد يحيق بهم من نكبات كالتى حاقت بغيرهم ٠

ـ ٢٢ ـ

لقد روينا حالا كيف فر الملك (بلدوين الأول) الى التلال وقد فقد أصحابه ، ويرجع الفضل فى خلاصه مما هو فيه الى جواده السريع واسترشاده بالشـــريف العربى ، بعد أن ظل طول ليلته مستخفيا فى الأماكن الموحشة ، وكان ذهنه فى أثناء ذلك نهبا للفزع الطاغى ، فلما تبلج الصـــباح انطلق برفقة اثنين لقيهما بمحض الصدفة ، وسلك دروبا متعرجة وسط اقليم يغشاه العدو من كل ناحية ، فأوصله المسير سالما فى النهاية الى مدينة « أرسوف » ، ففرح ساكنوها المؤمنون بلقائه ، وبعد أن أكل حتى شبع ، وشرب حتى ارتوى ، عاد جم النشاط ، لأنه كاد أن يغمى عليه من شدة الجوع والظمأ المهلك قبل وصوله الى هذا المكان ، والحق أنه كان يخيل للمرء أن العناية الالهية هى التى هيأت له الظروف الخاصة التى أحاطت بقدومه ، لأن الجانب الأكبر من عسكر العدو كان قد رحل قبل مجيئه بساعة واحدة ، بعد أن ظل العدو يوما بأكمله يغير على البوابة ، ولو قدر لهم أن يصادفوا الملك وهو قريب من المدينة لكان من العسير عليه أن يفلت من أيديهم ٠

وحدث فى الوقت ذاته أن ترامت الى الخارج أخبار شتى حول مصير الملك ، ذلك أن النفر القليل الذين فروا من المعركة وهربوا الى بيت المقدس أعلنوا أن الملك كان من بين القتلى ٠

ولم يكد أسقف اللد يسمع بما جرى على الصليبيين ـ الذين أسروا فى قلعة الرملة ـ من قتل وأسر حتى غادر كنيسته هربا الى يافا ، ولما سئل عما وراءه من خبر الملك صرح أنه لا يعلم عنه شيئا

وأن أكد سوء مصـــير كل من لجأوا الى القلعة ، وأن الأمر الذى لا مشاحة فيه هو أنه شاهدهم بعينى رأسه وهم يذبحون ، ولم يتردد فى الاعتراف بأنه هرب سرا طلبا لسلامة روحه ٠

كان الحزن عاما ، فما كنت ترى ناحية من البلد جاءها الخبر الا وقد عمها الأسى ، وتعالى البكـاء فيهـــا ، وران اليأس على النفوس ، فما من أحد الا وقد فقد الأمل فى الحياة ، وتمنى لو أسرع الموت اليه حتى لا يرى نكبة قومه ، ويشهد خراب المملكة ، لكن فى هذه الأزمة الطاحنة وقد استسلمت المملكة للحزن والنحيب ، اذا بالملك (بلدوين) يخرج من أرسوف كأنه نجمة الفجر تتلألأ بين دياجير الظلام ، ويستقل احدى السفن السريعة التى تمضى به الى يافا فيدخلها ، فقابلت يافا حضوره بالغبطة ، ومحا ظهوره الذى جاء على غير انتظار كل الظلال القاتمة ، وأطلع نهارا مشرقا ، وبدت جميع الشرور التى اكتنفت طريق الصـــليبيين قد تلاشت ، وسرعان ما طبق الخبر السعيد الثانى كافة أرجاء المملكة فازدهر الأمل فى نفوس كانت قد طارت شعاعا حين سماعها الخبر الكاذب الأول ٠

وفى هذه الأثناء كان « هيج دى سنت أومير » صاحب طبرية الذى أسرع لانقاذ الملك استجابة لدعاء الناس قد وصل الى أرسوف ومعه ثمانون فارسا ، فما كاد بلدوين يعلم بذلك حتى هب لساعته الى لقائه ، مستصحبا معه كل العسكر الذين أمكنه العثور عليهم فى يافا ، واذ كان العدو يعربد فى كل ناحية لا يخشى أحدا ، فقد خاف الملك منه أن ينصب الكمائن « لهيج » وصحبه ، أو يعيقهم جهرا ٠

ولما التقى القائدان (الصليبيان) عانق كل منهما الآخر وقلبه يزغرد بالسعادة ، وضم كلاهما عسكره الى عسكر رفيقه وعادوا الى يافا حيث استقبلهم أهلوها بمظاهر الفرح ، وسرعان ما أنفذ

الملك الرسل يلتمسون النجدة من سكان المناطق الجبلية الذين بادروا فجمعوا من وصل الى أرسوف من العسكر فى مدى أيام قلائل ، ولكنهم اضطروا لسلوك طريق ملتو ، لأن العدو كان مسيطرا تمام السيطرة على المناطق الداخلية ، غير أنهم صادفوا فى خروجهم من أرسوف « أشد الصعاب بل وأفدح الأخطار التى تهدد حياتهم ، اذ قابلهم العدو فى الطريق ، ولكنهم استطاعوا بعون الله أن يصلوا فى النهاية الى يافا ، وكان عدد الذين بلغوها زهاء تسعين ، وفيهم فرسان من رتب مختلفة ٠

ترتب على وصول هذه الامدادات أن انبعث الأمل من جديد فى فؤاد الملك ، لأنه كان يتلهف على الانتقام من العدو والثأر منه جزاء لما أنزله به من المصائب ، لذلك رتب فصائل خيالته ورفاقه من المشاة للقتال ، وخرج يريد محاربة الخصم غير عابىء بما تحت يد هذا الخصم من جند كثير ، ذلك لأن اعتماده كان على معونة الرب ٠

كان عسكر العدو قريبا منه كل القرب ، لا يفصلهم عنه سوى ثلاثة أميال فقط ، وكانوا قد انهمكوا بنسج أكسية من الحبال وصنع السلالم وشتى أنواع الآلات الحربية من المواد التى انتقوها لهذا العمل ، ودبروا ــ وكان ذلك يبدو يسيرا ــ أن يدمروا المدينة المعادية لهم ويلقوا القبض على الملك وجميع من بها ويأخذوهم كأحط العبيد ، لكن بينما كانوا منصرفين الى ماهم فيه من العمل اذا بالملك يطلع عليهم بجيشه ، فأدركوا خطأ ظنهم فى هزيمة خصمهم اذ رأوه يأخذ المبادرة بيده ويتحداهم للقتال ، فهبوا سراعا الى سلاحهم يحملونه ، وتأهبوا لمنازلتهم بعد أن كانوا يظنون أن قد تلاشى أمرهم ، ولكن الصليبيين كانوا قد أجمعوا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن يضاعفوا لهم العذاب الذى أنزلوه بهم ٠ فكروا عليهم كرة مسعورة كأنهم اللبؤة الغاضبة قد انتزع منها أشبالها ، وملأهم هذا الهجوم

حماسة أسبغتها عليهم العناية الالهية فحاربوا بكل طاقاتهم من أجل نسائهم وأولادهم وأرض أسلافهم وذودا عن حريتهم ، فشـــــتتوا بسيوفهم شمل العدو ، وقتلوا طائفة كبيرة من رجاله وحملوا بقيتهم على التماس الحياة فى الفرار بصورة مزرية ، غير أن الصليبيين رأوا أن ليس من العقل ـ لقلة عددهم ـ أن يستمروا فى مطاردتهم الى مسافات طويلة فانصرفوا عن ذلك ومالوا على معسكر خصومهم فجمعوا أعدادا كبيرة من الحمير والجمال والخيم فكان ذلك كله غنيمة باردة لهم ، هذا الى جانب ماحملوه من شتى صنوف الطعام ومواد المعيشة ، وهكذا عاد الملك منصورا الى يافا ، فتعالى هتاف الناس فرحا به ، وأقامت المملكة مايقرب من سبعة أشهر فى هدوء لا يعكر صفاءه معكر ٠

ـ ٢٣ ـ

بينما كانت هذه الأحداث المختلفة تجرى فى المملكة قام تانكريد العظيم بجمع فرســـانه ومشاته وأحدقوا بمدينة أفامية الرائعة عاصمة اقليم سورية الوسطى، واستمروا يحاصرونها فترة من الوقت حصارا بذلوا فيه كل ما أمكنهم من جهد شأن الســـادة العظام ، وتوسل تانكريد بكل وسيلة جرت بها العادة فى تدمير القلاع ، فلم يترك مكيدة تؤدى الى الاضرار بالمحاصرين ضررا بليغا الا وعمد اليها ، حتى كتب له النصر أخيرا فاستولى على المدينة برحمة من الله ، وبفضل حماســـته التى لا يتطرق اليها الكلال ، وبمجهوداته العظيمة ، وقد أدى هذا الاستيلاء الى اتساع حدود امارته اتساعا كبيرا ٠

ويقول الخبر انه تابع زحفه فى نفس اليوم الى اللاذقية التى كانت فى يد الاغريق فاستولى عليها هى الأخرى أيضا وضمها الى

سلطانه ، وقد تم له ذلك وفق الشروط الأولى التى أبرمها مع أهل اللاذقية ، وهى شروط نصت على أن يسلموه بلدهم من غير معارضة فى نفس اليوم الذى يتمكن فيه من فتح أفامية ٠

ويقال ان مؤسس هاتين المدينتين الشهيرتين هو « أنتيوكس بن سلوقس » الذى سماهما باسمى ابنتيه « أفاما » « ولازكيا » ٠ واذا كانت هناك لاذقية أخرى معدودة بين مدن آسيا الصغرى السبعة فاننا نتكلم الآن عن مدينة لاذقية الشام التى يشير اليها القديس يوحنا فى سفر الرؤيا(١١) اذ يقول : « والذى تراه كتب فى كتاب وأرسل الى السبع الكنائس (التى فى آسيا) الى افسس والى سميرنا ، والى برخامس ، والى ثياتيرا ، والى ساردس ، والى فيلادلفيا والى لادوكية » ٠

أما اللاذقية الأخرى فقد جعلها الامبراطور « سافيروس » مستعمرة حسبما جاء فى تاريخ « أولبيان » الذى يتكلم عنها فى موجزه فى فصل جعل عنوانه « احصائيات » فيقول « توجد أيضا مستعمرة اللاذقية فى سورية وهى التى منحها الامبراطور « سافيروس » الحقوق الايطالية مكافأة لها على ما أدته من الخدمات أثناء الحرب الأهلية » ٠

وهكذا استطاع تانكريد ـ بمعونة الرب ـ أن ينجز فى حملة واحدة عملا كان انجازه يتطلب أياما طويلة ، وكسب فى مرة واحدة مدينتين تتبع كلا منهما مناطق شاسعة ، ذات قرى حصينة ، وحقول واسعة ، والحق أن تانكريد كان رجلا يحب الله ، وكان مشهورا

---

(١١) رؤيا يوحنا ١ : ١١ ٠

بايمانه ، مذكورا بأعماله البطولية ومحبوبا من الناس بسبب خدماته الجلى ، ولا جدال فى أن التوفيق كان حليفه فى كل أمر نهض به .

ـ ٢٤ ـ

فى هذه الآونة كان بلدوين كونت الرها ـ صاحب الخصال الكريمة والذى خلف الملك فى كونتية الرها ـ أقول كان بلدوين هذا يدير دفة الأمور ـ فى الناحية التى كانت من نصيبه ـ ادارة بذل فيها بالغ النشاط ولازمه التوفيق العظيم ، مما حمل من حوله من الأعداء على خشية جانبه والخوف من سطوته ، ولما كان أعزب لا ولد له ، فقد تزوج « مورفيا » ابنة جبريل دوق ملطية الذى أشرنا اليه من قبل ، فكان مهرها قدرا كبيرا من المال كان بلدوين فى مسيس الحاجة اليه .

وكان جبريل أرمنى المولد واللغة والعادات ، ولكنه يونانى المذهب ، وكان الهدوء مستتبا فى أملاك بلدوين ، والسلام يرفرف عليها بجناحيه حين قدم لزيارته قريب له من نبلاء قومنا من اقليم « جانتينيه » واسمه « جوسلين دى كورتناى » ، واذ كان فقيرا لايملك أرضا ولا مالا فقد أقطعه بلدوين اقطاعا شاسعا حتى لا تدفعه الحاجة لأن يحس بالغربة فيستجدى الناس ما يمسك عليه حياته .

كان الاقطاع الذى منحه (كونت الرها) له يتضمن كل ذلك القسم من أملاك بلدوين الخاصة المجاورة لنهر الفرات العظيم ، ويضم مدينتى « كوريتيام » « وتولوبا » ، كما يشمل قلاع تل باشر وعينتاب وراوندال وغير ذلك من القـــلاع المنيعة التحصـــين . أما الكونت فقد احتفظ لنفسه بالاقليم الواقع فيما وراء الفرات لأنه أقرب مايكون الى أرض العدو ، كذلك استبقى مدينة واحدة فقط من المدن الداخلية اسمها « سميساط » .



كان جوسلين رجلا أوتى القدر الكبير من المعرفة والحكمة ، شديد التبصر والتدقيق فى كل ما يقدم عليه ، فأظهر الحزم البالغ فى تصريف شئونه الخاصة وتدبير أموره ، وكان معيلا لأسرته ، محسنا تجاه أهل بيته ، يسخو فى غير اسراف اذا دعته الظروف الى السخاء ، فان لم يكن الأمر كذلك أمسك بيده فى اقتصاد ، كما كان شديد الحرص على مايملك ، وسطا فى مأكله ، لا يحفل كثيرا بملبسه ولا بزينة نفسه · ولقد بذل (جوسلين دى كورتناى) هذا جهدا صادقا فى الحفاظ على ذلك القسم من المقاطعة التى تفضل الكونت الكبير فأقطعه اياها ، حتى صارت تحت يده أشياء كثيرة بوفرة زائدة ·

ـ ٢٥ ـ

عاد فى هذه الأثناء الى أنطاكية بوهيموند أميرها العظيم ، الحميد الصفات ، وكانت عودته اليها بعد أربع سنوات قضاها أسيرا فى يد العدو ، ثم لاحظته العناية الالهية فأطلق سراحه بعد أن افتدى نفسه(١٢) ·

ولقى بوهيموند لقاء كله غبطة وفرح من جانب البطرك ورجال الدين ومن الناس قاطبة ، ذلك لأن امارة (أنطاكية) والمملكة كانتا تتطلعان فى شوق منذ أمد طويل لعودته هذه ، وكان شكره عظيما لقريبه تانكريد حين علم بمدى اخلاصه وبعد نظره فى ادارة شئون الامارة التى عهد القوم اليه برعايتها أثناء غياب صاحبها ، وكذلك

(١٢) لقد دفع الفدية عنه كل من كوخ فاسيل الارمنى ، وبلدوين دى بورج ، وبرنارد أسقف انطاكية ، ولم يشارك فيها ابن اخته تانكريد ، حسبما أشارت الترجمة الانجليزية ، انظر R.B. Yewdale, ٢/٤٥١ ·

لما عرفه (بوهيموند) عن الصورة التى أدار بها (تانكريد) أملاكه فى أنطـــاكية اذ مد حدودها باســـتيلائه على مدينتين من أعظم المدن(١٣) .

وأراد بوهيموند اظهار تقديره لما أداه تانكريد من الخدمات ومجازاته عليها أحسن الجزاء ، فأقطعه — وورثته — الجزء الأكبر من ذلك الاقليم يتوارثونه خلفا عن سلف الى الأبد ، ثم لم يلبث الأمير بوهيموند أن عهد اليه بالامارة ، كما ســـنروى ذلك فى الصفحات التالية(١٤) .

* * *

فى خلال هذا الوقت دأب « أرنولف » شـــماس بيت المقدس الأكبر الذى تعددت الاشارة اليه — كالعهد به — على بذر الشقاق والبغضاء بين الملك وبين البطرك « دامبيرت » سعيا منه فى اثارة النزاع بينهما ، وترتب على ذلك أن أطلت من جديد العدواة القديمة التى كانت بينهما(*) وكانت الظواهر توحى بأنها قد ولت وخمدت .

ونجحت محاولات هذا الفاجر (أرنولف) فى اثارة غضـــب رجال الدين ضد رجل الرب البطرك الداعى للسلام ، فتزايد عداؤهم نحوه الى حد لم يعد « دامبيرت » قادرا على تحمل ما يتعرض له من المضايقة المستمرة ، فغادر كنيسته كما غادر معها فى الوقت ذاته مدينة القدس ، وخرج فقيرا معدما ، ليس معه من مشير أو مساعد . وفر الى الأمير بوهيموند الذى رحب به ترحيبا كريما ، كما تحركت

---

(١٣) أما هاتان المدينتان فهما أفامية واللاذقية .

(١٤) انظر فيما بعد صفحة ٢٥٤ .

(*) أى بين الملك بلدوين والبطريرك دامبرت .

نفسه عطفا عليه وشفقة به وتذكر أنه كان المسئول الأول عن اعتلاء « دامبيرت » كرسى البطركية فى بيت المقدس •

ثم أجرى عليه بوهيموند مرتبا دينيا ضخما حتى لا تضطر الظروف رجل الرب هذا الى العيش عنده تحت ظروف تسىء له كرجل له مكانته الجليلة ، فعهد اليه ــ بعد موافقة « برنارد » بطرك أنطاكية ــ بكنيسة القديس جورج الموجودة أدنى المدينة بكل أراضيها ودخلها الكبير ، وهكذا ظل « دامبرت » مقيما هناك عند بوهيموند حتى مضى الأخير الى « أبوليا » كما سنقص خبر ذلك حالا •

ــ ٢٦ ــ

أما الملك (بلدوين) فقد انقاد الى أرنولف الخبيث انقيادا ضالا انحرف به عن الخوف من الرب ، فارتكب آثاما جمة فى أعقاب نفى « دامبرت » اذ نصب فى الكرسى البطركى قسيسا قدما ، سقيم الفهم وان كان شديد التدين اسمه « ابريمار » كان قد جاء مع الحملة الأولى ، وعاش حياة مستقيمة لا عوج فيها ولا التواء ، حببته الى قلوب الجميع •

لكنه كان بالنسبة الى ما صار اليه رجلا زمن الفطنة شديد الغباء ، وقد بلغ من بلادة الفهم حدا اعتقد معه أنه قادر على وقوف الجميع الى جانبه ان اغتصب العرش البطركى فى الوقت الذى لازال فيه صاحبه الشرعى على قيد الحياة •

* * *

كذلك حدث فى نفس السنة ــ وهى سنة ١١٠٣ ــ من مولد المسيح ، وعند اقتراب الربيع ــ أن استدعى الملك جميع قوات المملكة

وخرج بهم محاصرا لعكا ، بعد أن شارك فى الاحتفال المقام بالقدس بذكرى قيامة السيد ٠

وتقع مدينة عكا على الساحل فى ولاية فينيقية ، وهى احدى المراكز الدينية التابعة لأسقفية « صور » العظيمة ، وقد ساعدها وجود مينائها داخل الأسوار وخارجها على أن تكون مرفأ أمينا ومرسى هادئا للسفن ، كما أن وجودها بين الجبال والبحر جعلها ذات موقع فريد ، هذا الى جانب الثروة الكبيرة التى وفرتها لها أراضيها الشاسعة وحقولها الخصبة ٠

ويجرى بالمدينة نهر عين البقر أو نهر بيلوس ٠

وتقول الأخبار التى وصلت الينا أن تأسيسها كان على يد الشقيقين بطليموس و « عكو » وأنهما حصناها بأسوار من الحجر الصلد ، وقسماها قسمين يسمى كل واحد منهما باسم واحد من الأخوين ، وهى لاتزال حتى اليوم معروفة باسمى « بطلمية » و « عكا » شأنها فى ذلك شأن معظم مدن الشام اذ جرت القاعدة على أن يكون لكل منها اسمان ، وقد يزيدان فيكونان ثلاثة أسماء ٠

ولقد جاء الملك (بلدوين) الى هنا مع عسكره ، وأراد تطويقها وسد مسالكها لتذعن له وتستسلم فعجز عما أراد بسبب عدم وجود أسطول عنده ، واذ ذاك اجتث ما حولها من بساتين الفاكهة ، وفتك بطائفة من أهلها ، وساق أمامه ما سلبه من قطعان الماشية والأغنام التى كانت ترعى خارجها ، فلما فرغ من ذلك كله رفع الحصار عنها وانقلب راجعا الى بلده ٠

ولقد عزم أن يكون رجوعه من طريق قيصرية ، غير أنه لما وصل الى مكان اسمه « بترانكيسا » قرب صور القديمة بين « كفر ناعوم » و « دورا » المعروفة اليوم باسم المجاز ، ٠٠ أقول لما وصل الى هنا

شاءت الصدفة أن تطلع عليه طائفة من قطاع الطرق والشطار كانوا مختفين فى احدى الغابات ، فهاجمهم الملك هجوما عنيفا حتى أهلك منهم نفرا غير قليل وفر منه بقيتهم ، غير أن أحدهم قذف ـ وهو يجرى ـ خنجرا شاء سوء الطالع أن يصيب الملك فى ظهره ، وينفذ من ضلوعه قرب قلبه ، وكادت الرمية أن تصيبه فى مقتل لولا عناية المطببين واستعمالهم المشارط والكى بالنار مما رد عليه أخيرا بعض صحته ، ولكنه ظل على الدوام يشكو الألم يعاوده من هذا الجرح فى أوقات معينة •

ـ ٢٧ ـ

فى هذه الأثناء قام ريموند كونت تولوز الطيب الذكر والرجل العظيم المبجل والصـــادق فى تقواه بغزو المدينة المعروفة باســـم طرطوس ، كما أظهر بالغ الجد وجم النشاط فى مد رقعة أملاكه فيما حولها •

ولماكان حريصا كل الحرص على اتخاذ كل السبل المؤدية الى استئصال شأفة خصوم المسيحيين من تلك البلاد فقد شيد حصنا على تل مواجه لمدينة طرابلس ، وان بعد عنها قرابة ميلين •

ولما كان الحجاج هم الذين شيدوا هذه البناية فقد سماها الكونت اسما يعيد الى الأذهان ذلك الحدث ، ليعرف دائما باسم تل الحجاج ، ولايزال هذا الاسم باقيا حتى اليوم •

وقد أســـفر موقع قلعة تل الحجاج الطبيعى ومهارة بنائها الى جعلها مكانا حصينا ، فكان ريموند يشـــن فى كل يوم تقريبا هجمات يقض بها مضـــاجع ســـكان طرابلس ، وترتب على هذه المضايقات المستمرة أن اضطر أهالى الناحية ـ بل وسكان المدينة ذاتها ـ الى دفع جزية سنوية له مع اظهارهم الطاعة له والامتثال

لأمره فى كل الأحوال كما لو كان هو وحده مالك المدينة لا ينازعه فى حكومتها منازع ٠

وفى هذا الموضع أنجبت له زوجته ـ وكانت امرأة تقية ورعة ـ ولدا أطلق عليه الاسم العائلى القديم « الفونس » ، وهو الذى خلف أباه فيما بعد وعرف بكونت تولوز ٠

ـ ٢٨ ـ

ولما كان شهر مايو من عام ١١٠٤ من مولد المسيح حشد بلدوين كل قوى شعبه من أدناهم قدرا الى أرفعهم مكانة ، وأسرع لحصار مدينة عكا للمرة الثانية ، واغتنم فرصة ميمونة الطالع اذ كان قد وصل الى بلاد الشام ـ فى هذه اللحظة بالذات ـ أسطول جنوى مؤلف من سبعين مركبا مدببة(١٥) يسمونها بالشوانى ، فما كاد الملك يعلم بوصولها حتى بعث رسالة الى قادة الأسطول يدعوهم فيها بلهجة ودية للمحاربة من أجل المسيح قبل أوبتهم الى ديارهم ، ولفت نظرهم الى المثل الطيب الذى ضربه من قبل سابقوهم من بنى جلدتهم الذين كانت حماستهم للعمل خير مساعد للمملكة فى الاستيلاء على مدينة قيسرية ، وبذلك جنى مواطنو جنوة بهذا العمل المجد الخالد بجانب مكسبهم الدنيوى ٠

وتم الوصول الى اتفاق مع هؤلاء الناس بفضل الجهد الكبير الذى بذله الوسطاء الأذكياء الدبلوماسيون الذين آلوا على أنفسهم الا أن تنجح هذه المفاوضات التى نصت على أن يكون للجنوية على الدوام ثلث العائد وثلث الضرائب والمكوس التى تجبى فى ميناء

---

(١٥) راجع السفن الاسلامية على حروف المعجم للدكتور درويش النخيلى ، ص ٨٤ ٠

عكا مما يفرض على الواردات التى يحملها القادمون اليها بحرا ،
هذا بالاضافة الى منحهم كنيسة لهم بالمدينة ، وتكون لهم السيطرة
الشرعية التامة على شارع واحد من شوارعها ، ويقوم الجنوية ازاء
ذلك بالمساعدة الجدية فى الاستيلاء على المدينة المذكورة ٠

وبدت هذه الشروط مقبولة لدى الملك وكبار رجاله ، فأقسم
الطرفان الأيمان تأكيدا لهذا الاتفاق ، وصدر الأمر بكتابتها لتبقى
على الدوام وثيقة محفوظة ٠

* * *

ولما جاء اليوم المحدد حاصر الجنوية عكا من ناحية البحر ،
كما ضرب الملك عليها الحصار بعسكره الذى أحاط بها حتى استحال
الخروج منها أو الدخول اليها ، وابتلى أهلها بما لا يحصى من
الأمراض التى تصاحب الحصار ٠

ولما كانت رغبة الملك هى تحطيم العدو فانه وضع حول المدينة
آلات تفننت عبقرية الخبراء الخصبة فى استنباطها ، كما اقاموا
أبراجا راحت ترمى المدينة بالأحجار الثقيلة التى أدى استمرار
تساقطها الى زلزلة الحصون ، بل والى هدم بعض المبانى الموجودة
داخل المدينة ذاتها ٠

وأصاب الأهالى ارهاق شديد من جراء القتال المستمر يراوحهم
به الأسطول القائم بحراسة الشواطىء ، ويغاديهم به جيش الملك
الرابض على اليابسة ، كما تضاءل عدد الأهالى بسبب الأهوال التى
أهلكت الكثير من المدافعين ، حتى وجد العدو نفسه فى موقف يجعل
استمراره فى الصمود فى وجه محاصريه أمرا شاقا ، ومن ثم لم
يعد ثم مناص أمامهم من الاستسلام ، فاستسلمت المدينة للملك بعد

عشرين يوما سويا بذل فيها المحاربون الصليبيون كل جهدهم فى مهاجمة المارقين الذين أظهروا نفس الجهد فى المقاومة ٠

وكانت شروط التسليم التى فرضت على الأهالى هى السماح لمن يريدون ترك المدينة بالخروج والذهاب حيثما شاءوا ، مع ضمان سلامة أرواحهم ومن معهم من حريمهم وصغارهم وما ملكت أيديهم من المتاع ، أما غيرهم الذين يؤثرون البقاء فى دورهم ولا يحبون ترك أرضهم التى درجوا عليها فقد حق لهم العيش بظروف ملائمة ، لقاء دفعهم مبلغا معينا الى الملك كل سنة ٠

لم تكد المدينة تصبح فى حوزة الملك حتى خصص أملاكا ومساكن للجنوية لقاء الخدمات التى أداها كل واحد منهم ، وهكذا توفر - ولأول مرة - وجود مدخل آمن للذين يصلون عن طريق البحر ، كما توفر لهم مرسى امين ، وتحرر الساحل - الى حد ما - من هجمات العدو ٠

- ٢٩ -

فى هذه السنة ذاتها قام بوهيموند واستصحب معه جميع من لهم الصدارة فى امارته ، كما استصحب تانكريد وبلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين ، وانضم بعضهم الى بعض ، وانعقد اجماعهم على عبور الفرات ومحاصرة مدينة « حران » القريبة من الرها التى كان المارقون قد احتلوها ، ونشط كل أمير حسب هذا الاتفاق المبرم بينهم وراح يجمع عسكر بلاده ، وفعل مثله من جاوره من حلفائه ، حتى اذا كان اليوم المحدد للزحف عبروا نهر الفرات وبلغوا الرها ٠

وساهم فى هذه الحملة المشئومة ثلاثة من رجال الكنيسة الموقرين ممن يهتدى الناس بهديهم ، هم « برنارد » بطرك أنطاكية

« ودامبيرت » بطرك القدس اللاجىء الشريد الذى كان يعيش اذ ذاك فى انطاكية ، وأخيرا « بندكت » رئيس أساقفة الرها •

ولما كان هؤلاء القادة كلهم قد أجمعوا العزم على تنفيذ مشروعهم فقد اجتمعوا فى المدينة المشار اليها ، وتقدموا على رأس فيالقهم نحو مكانهم المقصود •

***

ونعرف من التواريخ القديمة أن « حران » هى الناحية التى قاد « تارح » اليها « ابراهام ابنه ، ولوط بن هارات حفيده » حينما تركوا « أور » مدينة الكلدانيين ومضوا ليعيشوا فى أرض كنعان كما هو وارد فى سفر التكوين(١٦) ، وهناك مات « تارح » ، كما تلقى ابراهام أمر ربه ليترك أرضه وعشيرته ويتبع ما وعد به الرب •

وهذا هو نفس المكان الذى أرغم فيه البارثيون الطاغية الرومانى « كراسوس » ، على أن « يشرب » الذهب الذى كان شرها فى جمعه كل الشراهة •

وحالما بلغ القادة مدينة حران حاصروها من قرب كبير حسبما اتفقوا عليه منذ البداية ، غير أنهم كانوا فى مسيس الحاجة للاغارة على الناحية المجاورة لقلة ما فى المدينة من المئونة بل لانعدامها ، وكان من الضرورى اتخاذ بعض الوسائل لمنع المحصورين من مغادرة المدينة أو الدخول اليها •

---

(١٦) التكوين ، ١١ : ٣١ ، ١٢ : ٣ •

وتتلخص حاجتهم الى الطعام فيما يلى : ذلك أن بلدوين كان قد أخذ نفسه أخذا شديدا قبل ذلك بزمن طويل بالتفتيش عن طريقة ماتؤدى بمواطنى البلد الى هذه المتربة ، حتى اذا اشتدت عليهم وطأة الجوع لم يجدوا مناصا من تسليم المدينة ، ورآى الطريقة المثلى لانجاز الخطة فيما يلى : أنه نظر فرآى أن كلا من الرها وحران تبعد عن الأخرى مايقرب من اربعة عشر ميلا ، وبينهما نهر تستخدم مياهه التى تجرى فى القنوات فى رى السهل المجاور وتجعله شديد الخصوبة يغل غلة وفيرة ، ورآى أن العرف جرى منذ زمن بعيد على أن يكون كل ما تنتجه الأراضى الواقعة على هذا الجانب من النهر وقفا على أهالى الرها لا ينازعهم فيه منازع ، أما ما يزرع فى الحقول الواقعة وراء النهر فكان لسكان حران ٠

وعرف بلدوين انعدام ورود أية مواد غذائية الى الأعداء من الخارج ، مما يفرض عليهم الاعتماد فى كل طعامهم على ما تخرجه هذه الأرض المشتركة بين البلدين ، لذلك آثر أن يتحمل هو نفسه الضيق وألا يسمح للأعداء بالعيش على هذه الحقول المشـــتركة ، وهم الذين لا يستطيعون الحصول على احتياجاتهم الغذائية من أى مكان آخر ، لذلك ظل أمدا طويلا يراوحهم ويغاديهم بالغارات المتكررة حتى تمكن من منعهم من زراعة أرضهم ، وكان يأمل بل ويعتقد انه سيكون قادرا على الحصول على المؤونة الوفيرة لشعبه من الاقليم الواقع وراء الفرات ، وكذلك من الناحية القائمة بين الرها وبين ذلك النهر ، كما كان يعتقد انه اذا حرم الأهالى من المؤونة التى ألفوا الحصول عليها من المزارع المشتركة أهلكتهم الحاجة والمتربة ، وظل بلدوين ــ طوال بضع سنوات ــ يحرمهم من زراعة هذه الحقول مما ترتب عليه أن وجد المحصورون أنفسهم كما قلنا فى أشـــد حالات السوء بسبب حاجتهم للطعام ، ولما كان الأهالى يتوقعون منذ زمن

بعيد قدوم الصليبيين عليهم فانهم بعثوا بالكتب وانفذوا الرسل الى أمراء المشرق يسألونهم المبادرة الى اسعافهم على جناح السرعة ، والا فلا مناص لهم من الاستسلام ، غير أن وطأة المجاعة راحت تشتد عليهم يوما بعد يوم ، كما خبا رجاؤهم فى نجدة تأتيهم من ناحية الأمراء الذين استنجدوا بهم ، ولذلك راحوا يتشاورون فيما بينهم عما يفعلون ، فقر رأيهم على أن يسلموا المدينة (للصليبيين) فذلك أجدى عليهم من أن يموتوا جوعا وراء أسوارها ٠

ـ ٣٠ ـ

حينما اتفق الأهالى على اتخاذ هذا القرار خرجوا وسلموا المدينة لمحاصريهم دون قيد أو شرط ٠ غير أنه شب فى هذه اللحظة الحرجة شقاق منكود بين القادة (الصليبيين) بسبب غيرة بعضهم من بعض ، ذلك أن الأمير بوهيموند وكونت بولدوين نازع كل منهما الآخر : أيهما يتسلم المدينة ، وأيهما تتقدم رايته الناس عند دخولهم اياها ، وترتب على هذا الشقاق أن تأخر دخولهم ، وتأجل تسلمهم اياها الى الغد ليتاح لهم الوقت الكافى للتفكير العميق فى هذه المسألة التافهة ٠ وهكذا أثبتت لهم التجربة صحة المثل القائل « ان التوانى يجر فى أذياله الخطر » وكذلك المثل الآخر « اذا هبت رياحك فاغتنمها فان الهلاك فى التأخير » ، ذلك أنه حدث قبل انبثاق فجر اليوم التالى أن وصل حشد ضخم من الأعداء الأتراك ، وكان حشدا كثيفا وقويا ، فما كاد الصليبيون يرونه حتى ساورهم الشك فى قدرتهم بل يئسوا من انقاذ أنفسهم ٠

وجاءت النجدات حاملة معها كميات وفيرة من المئونة ، كما دل (أهل البلد) حسن تبصرهم على خطة حكيمة هى تقسيم كتائبهم الى فريقين ، يشتبك واحد منهما مع الصليبيين دون اعتبار لما ينجم

عن هذا الاشتباك من نصر أو هلاك • أما الفريق الآخر فيقوم بتزويد المدينة بالمؤنة •

وتم تنفيذ هذه الخطة على الوجه الأكمل ، اذ ما كادت تلوح فى الأفق طلائع النهار حتى رتب العدو عسكره للقتال ، وأعد صفوفه كمالوكانت المعركة ستنشب فى لحظتهم هذه ، وأوقفوا الذين عهد اليهم بحفظ المتاع بعيدين عن غيرهم بعض الشىء •

ورغم ما كان يبدو من تأهب الكفار للقتال الا أن أملهم فى النصر أو حتى الصمود طويلا كان أملا واهيا ، ومن ثم كان هدفهم الوحيد هو شغل الصليبيين بالقتال حتى يتم نقل المئونة الى المدينة المحاصرة ، فلما شاهد قوادنا العدو يستعد هذا الاستعداد قاموا هم بدورهم فصفوا صفوفهم تأهبا للحرب ، وانطلق البطركان بين الجند يشدان من عزائمهم ، فلم يؤت مجهودهما ثمرته لأن رحمة الرب باينتهم ، اذ ما كاد الجانبان يصطدم الواحد منهما بالآخر حتى صارت اليد العليا للعدو فقد ولاه الصليبيون أكتافهم وفروا على أشنع صورة من الفرار ، وتركوا وراءهم معسكرهم بكل ما اشتمل عليه ، ولم يعد يشغل بالهم سوى النجاة بأنفسهم ، لكن لم تقدر لهم النجاة ، فقد نحى الكفار عنهم أقواسهم التى اعتادوا الحرب بها وقاتلوا بسيوفهم ، واشتبكوا بالأيدى فدارت الدائرة على المسيحيين حتى فنوا عن بكرة أبيهم ، ووقع فى الأسر كونت الرها وقريبة جوسلين فحملهم العدو الى ناحية قاصية جدا من بلاده •

أما بوهيموند وتانكريد والبطركان فقد فروا من المعركة ، وان كانت رحاها لاتزال دائرة ، وسلكوا دروبا ملتوية أوصلتهم الى الرها سالمين •

اما رئيس أساقفة الرها ـ ولم تكن له خبرة بالقتال ـ فقد أسر مع من أسر من الجند فزاد عدد الأسرى ، لكن شاءت الصدفة له أن يقع فى يد مسيحى ما كاد يعرف شخصيته حتى تعطف عليه وساعده على الهروب سالما ، رغم أنه كان بذلك العمل يعرض نفسه للهلاك ، وقد تمكن هذا الأسقف ـ بعد بضعة أيام وبرعاية الله ـ أن يصل الى الرها فكانت الفرحة به عظيمة ٠

***

كان أمير أنطـــاكية لايزال فى الرها عندما بلغه خبر وقوع الكونت فى الأسر جزاء خطاياه ، فرآى الأمير ـ ووافقه الرهاويون ـ على ما رآى ـ أن يعهد بالرها والمنطقة كلها الى رعاية تانكريد مع الاشتراط عليه برد حكومتها ـ من غير معارضة ـ الى الكونت حال اطلاق سراحه ، وأن يقوم بوهيموند بالحفاظ على أرض جوسلين ٠

ولم يحدث أبدا أن قرأنا قبل هذا الحادث أو بعده عن معركة بلغت من الشؤم مابلغته هذه المعركة التى أسفرت عن مصرع رجال أبطال كهؤلاء الرجال ، ولا سمعنا عن مثل هذا الفرار المشين الذى لحق بجيشنا ٠

***

هنا ينتهى الكتاب العاشر

الكتـــاب الحادى عشر

خاتمة عهد بلدوين الأول وفتوحات أخرى بالقدس وأنطاكية

فصول الكتاب الحادى عشر :

١ ـ بوهيموند ـ أمير أنطاكية ـ يعهد ببعض شئون امارته الى تانكريد ويسرع الى فرنسا ويتزوج من ابنة ملك الفرنجة أما دامبيرت ـ بطرك بيت المقدس ـ فيذهب الى رومة · بلدوين الملك يهجر زوجته الشرعية دون مبرر شرعى ·

٢ ـ وفاة ريموند كونت تولوز وتولى وليم جوردان ابن أخيـــه مكانه ، رضوان أحد الولاة الأتراك الأقوياء يغزو أقاليمنا فيهاجمه تانكريد ويرغمه على الفرار فى غير انتظام ·

٣ ـ اغارة المصريين على المملكة بجيش ضخم واشتباك الملك معهم فى القتال وقتله الكثيرين منهم وأسره غيرهم وارغامه الباقين على الفرار ·

٤ – وفاة البطرك دامبيرت فى مسينا بصقلية وهو فى رحـــلة العودة ومعه كتاب بابوى ، واذ ذاك يسرع ابريمار – مغتصب مقعده – الى رومة ويوفد البابا رئيس أساقفة آرليس المدعو جبلين الى القدس كنائب له ثم يتم بعدئذ تنصيبه بطركا .

٥ – النبيل هيج دى سنت أومير – صاحب طبرية – يشيد قلعة فى الجبل المطل على المدينة ويسميها بقلعة تورون ، على أنه لا يلبث أن يصاب بجروح مميتة وهو يحارب الدماشقة ثم يختفى وان كان منتصرا . أما العسقلانيون فيحاولون عمل كمائن لرجالنا ولكنهم يقعون فيها .

٦ – بوهيموند يعود من فرنسا الى ابوليا على رأس قوة كبيرة ويدخل بلاد اليونان للنهب ، ولكن يوافيه أجله وهو يتأهب للعودة الى سورية ويخلف وراءه ولدا له اسمه بوهيموند (الذى يعرف بالثانى) .

٧ – مجىء جيوش تركية قوية من الشـــرق فى محاولة منها للاستيلاء على كونتية الرها ، لكن تانكريد يستبسل فى دفعهم ويمده الملك بالنجدة .

٨ – بلدوين كونت الرها وجوسلين يعودان من أسر العدو لهما ويشنان الحرب ضد تانكريد .

٩ – برترام – بن كونت تولوز – يصل الى الشام مع أسطول الجنوية راجيا أن يخلف أباه ، ولكن وليم جوردان يأبى عليه ذلك ثم يصل الخبر بسقوط جبيل .

١٠ – الملك بولدوين يسرع الى مدينة طرابلس ويســـتمر فرض الحصار العنيف عليها حتى تستسلم .

١١ ـ ذهاب بلدوين كونت الرها الى ملطية لزيارة جبريل حميه ونجاحه فى مشروعه الكبير ٠

١٢ ـ رفع مكانة كنيسة بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية بفضل جهود الملك الكبيرة ٠

١٣ ـ فرض الحصار على بيروت برا وبحرا والاستيلاء عليها فى الشهر الثانى من الحصار ٠

١٤ ـ وصول أسطول من الدانيماركيين والنرويجيين الى بلاد الشام فيستطيع الملك بمساعدتهم اياه محاصرة صيدا والاستيلاء عليها ٠ ذكر خبر نجاة الملك من القتل بأعجوبة ٠

١٥ ـ وفاة جبلين بطرك بيت المقدس وتولى الخسيس الكافر أرنولف مكانه ٠

١٦ ـ أحد الجيوش التركية القادمة من الشرق يهاجم مدينة أنطاكية بقوات ضخمة لكن تانكريد يتصدى لهم بشدة ويساعده فى ذلك برترام كونت طرابلس ٠

١٧ ـ فرض الحصار على صور لكن الأهالى يبالغون فى تحصينها مما يؤدى الى فشل محاصريها ٠

١٨ ـ موت تانكريد وتركه الامارة لروجر بن ريتشارد ٠

١٩ ـ مودود ـ أحد الأمراء الأتراك الأقوياء ـ يهاجم المملكة فينهض اليه الملك بلدوين بقوة ضخمة وتنشب معركة تدور فيها الدائرة على الملك ، واذ ذاك يجتاح مودود الناحية كلها اجتياحا لا قبل لأحد باحتماله ٠

٢٠ ـ العسقلانيون يغيرون على بيت المقدس لكن تنتهى غاراتهم بتحطيم قواتهم فيعودون الى بلدهم ٠

٢١ ـ (أدليد) كونتيسة صقلية ترسو فى ميناء عكا وتصبح زوجة الملك ٠

٢٢ ـ المجاعة الفظيعة تجتاح أرض الرها ، وكونت بلدوين يلقى القبض على قريبه جوسلين ويرغمه قسـرا على مغادرة البلاد بأجمعها ٠

٢٣ ـ حدوث زلزال كبير يهز أركان أنطاكية ويقوم برسق ـ الوالى التركى الشديد البأس ـ بالعيث فسادا فيها ٠

٢٤ ـ العسقلانيون يحاصرون يافا ولكن اقتراب الملك يبث الفزع فى قلوبهم فيعودون من حيث جاءوا دون أن يحققوا هدفهم ٠

٢٥ ـ برسق يعيث فسادا مرة ثانية فى أرض أنطاكية فيقوم لصده الأمير روجر بحلفائه ويشتت شمل عسـكره ويرغمه على الفرار ٠

٢٦ ـ اتهام أرنولف البطرك بكثير من الأعمال المستنكرة وذهابه الى رومة ٠ قيام الملك (بلدوين الأول) ببناء قلعة فى سوريا الجنوبية وراء نهر الأردن ويسميها بحصن مونريال ٠

٢٧ ـ نظرا لقلة السكان فى المدينة المقدسة فان الملك (بلدوين) يجلب المسيحيين السـوريين من الأراضى العربية (الى القدس) ويمنحهم دورا يقيمون فيهـا ويعتبرهم سـكان المدينة ٠

٢٨ ـ الملك يطلب من البابا ـ نزولا على اقتراح رجال الدين ـ أن يجعل جميع المدن التى فتحها خاضعة لكنيسة بيت المقدس وارسال صور من هذا الكتاب حول هذا الموضوع ٠

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتاب الحادى عشر

خاتمة عهد بلدوين الأول وضم فتوحات جديدة للقدس وأنطاكية

ـ ١ ـ

حينما انصرم الصيف أبحر بوهيموند الى أبوليا مستصحبا معه « دامبيرت » بطرك بيت المقدس ، ولما كان الدوق مثقلا بالديون الباهظة فقد طمع أن يحصل أثناء وجوده فى البلاد الواقعة وراء البحر على قدر من المال يكفى لسداد ديونه ثم يكر راجعا بامدادات من الفرسان ، وعهد بادارة دفة شـئون امارته فى أثناء غيابه وتصريف أمورها العامة الى قريبه الحبيب تانكريد ، واضعا فى يده كل ماله من السلطان .

ولما وصل الى وطنه « أبوليا » لم يطل مكثه به سوى فترة وجيزة عبر بعدها جبال الألب فى صحبة نفر كرام من أتباعه الأوفياء

حتى جاء الى بلاط فيليب ملك الفرنجة العظيم ، الذى كان من بين انعاماته الجمة عليه اثنتان من بناته ، احداهما ابنته الشرعية « كونستانس » التى تزوجها الأمير بوهيموند ، وأما الثانية « فسيسيليا » التى بعث بها بوهيموند من أبوليا الى تانكريد ابن أخته لتكون زوجة له ، وكانت هذه هى ابنة كونتيسة « أنجو » التى هجرت زوجها من أجل فيليب ، فأنجبت له هذه الابنة ، بينما كانت زوجته (الشرعية) لاتزال على قيد الحياة ٠

وبعد أن أنجز بوهيموند شئونه مع الملك فيليب ورتب أموره فى الأراضى الأخرى فيما وراء الجبل عاد الى « أبوليا » ومعه رهط كبير من الفرسان والمشاة الذين أرادوا الحج بحرا ٠

* * *

أما « دامبيرت » فقد مضى الى كنيسة روما حيث كشف عن كل ما كابده من الأهوال ، وما صادفه من المتاعب ، كما فصل فى الوقت ذاته نجاح المكيدة التى دبرها « أرنولف » وأسقط القناع عن هدف الملك الكريه فى محاولته الحط من قدر كنيسة الرب ، واستطاعت قصة البطرك أن تستقطب شفقة الجميع عليه ، وأكسبته عطف الكل ، كذلك بين أن الملك لم يكتف بما أشرت اليه من ارتكابه الجريمة البشعة فى حق « دامبيرت » ، وهى جريمة تشجبها تعاليم الكنيسة بل انه زاد الطين بلة حين ابعد زوجته الشرعية التى اقترن بها فى الرها وقت أن كان كونتها ، فكان بهذا العمل مستهينا بحقوق الزوجية ، متجاهلا مراسيم الشرع حين ارغمها ـ وهى لم تقترف جرما ولم تقارف اثما ـ بأن تترهب فى دير القديسة « حنة » جدة المسيح لأمه مريم البتول ، المبرأة من كل نقيصة ، وكان هذا الدير واقعا فى الناحية الشرقية من بيت المقدس قرب باب « يهوشافاط » وتتاخمه البحيرة التى كانت تعرف فى الأزمنة القديمة ببركة الضأن،

ولايزال هناك حتى اليوم كهف ظاهر للعيان تقول الأخبار القديمة أن يواقيم وحنة عاشنا به ، كما ولدت به العذراء المبرأة من كل دنس ، وتقيم فى هذا الدير ثلاث أو أربع نسوة فقيرات ، يمارسن الحياة الدينية ، فزاد الملك من أملاكهن ووسع من أوقافهن حتى يضم زوجته اليهن ·

وتتعدد الروايات وتتنوع حول سبب انفصال بلدوين عن امراته ، فيقول بعضها ان الملك أبعدها ليتزوج من اخرى أكثر منها مالا وأرفع مكانة ، فاستطاع بذلك اصلاح حاله وانقاذ نفسه من الفقر الذى أناخ عليه ، والذى كان يرزح هو تحته لأنه كان يسعى للحصول على المال من غيرها تحت اسم « المهر » ·

ويقول آخرون ان الملكة لم تكن متصاونة ، بل كانت متهاونة فى مراعاة روابط الزوجية فاثارت بذلك غضب رجلها عليها ، ويبدو أنها رحبت بادىء ذى بدء بردها الى رحاب الدين ، وعاشت فى عهدها الأول من ممارستها الرهبنة فى ذلك الدير حياة شريفة فى كل مظاهرها ،و لكنها تلمست أخيرا الفرصة المواتية للتقرب من الملك ، وأنها حصلت ــ بتعلات زائفة ــ على الاذن لها بزيارة بعض ذوى قرباها ممن يعيشون فى القسطنطينية بحجة رغبتها فى الحصول على مال تبذله لتنقذ مجتمعها الذى تعيش فيه من فقره ، فغادرت المملكة بهذه الحجة ، غير انها لم تلبث أن تخلت عن حياتها الدينية ، وأسلمت نفسها لحياة قذرة داعرة ، ولم تلق بالا الى سمعتها ولا الى مكانتها كملكة سابقة ، فمارست الزنى مع كل من صادفته ·

ـ ٢ ـ

ولما كان اليوم الأخير من شهر فبراير من السنة التالية عام ١١٠٥ من مولد سيدنا ، مات ريموند كونت تولوز الخالد الذكر ،

وقد وافاه أجله أثناء وجوده بالقلعة التى شيدها أمام طرابلس ، وسـماها بقلعة جبل الحجاج ، وكان الكونت رجلا متدينا يخشى الرب ، صادق الايمان بالمسيح ، أهلا للثناء من كل ناحية ، كما أن بطولاته وحياته تستحق كتابا خاصا ٠

وقد خلفه ابن أخيه وليم جوردان الذى تابع حصار طرابلس بنفس حماسة عمه ، وكرس نفسه للعمل بعزيمة جبارة حتى جاء كونت « برترام » ، لكن مالبث الاثنان أن تنازعا الأمر بينهما فتراخى « وليم جوردان » عن جهوده بعض الشىء كما سنذكر حالا ٠

اننا نعتقد أنه ينبغى أن تكون مثابرة الموقر ريموند (كونت تولون) على العمل وشجاعته موضع اعجاب وثناء ، ليس من الجيل الحاضر فحسب ، بل ومن الأجيال القادمة أيضا ، ذلك أنه منذ أن نهض بالحج من أجل المسيح ظل فى طريقه هذا حتى آخر يوم من أيام حياته ، متمسكا بالصبر والعزم ، ولقد كان فى وطنه رجلا بارزا شـديد السطوة ، يملك مقاطعات شاسعة المساحة ورثها عن أسلافه ، ولم يكن ثم شىء يرغب فيه الا ووجد الكثير منه متوفرا بين يديه ، لكنه آثر — رغم ذلك كله — أن يهجر بلاده ويخلف أهله طاعة للرب ، مفضلا ذلك على أن يعيش منعما بين قومه تحت مظلة الخطاة ، ولما تم استرداد بيت المقدس شعر القادة الآخرون الذين ساهموا فى حملة الحج هذه أنهم أنجزوا ما كانوا يرغبون فيه ، ومن ثم عادوا الى بلادهم ، لم يشذ عنهم سواه فانه منذ أن حمل الصليب كان يخشى أن يخليه جانبا ، حتى حين ألح عليه خاصة أصحابه ورجال من أهل بيته — أن يرجع الى الديار التى طال شـوقها اليه وتطلعت الى عودته ، لاسيما وقد أوفى بيمينه التى أقسمها ، وبعهده الذى قطعه على نفسه الا أنه آثر أن يقدم روحه قربانا للمسيح بدلا من أن يعود ليعب من ملذات الدنيا ، وكان فى ذلك العمل مقتفيا خطى مولاه

الذى قالوا له « انزل من على الصليب ، ففضل – حتى بعد انتهاء آلامه – أن ينزل على أيدى الأغراب من أن يفشل فى العمل الذى قام به لافتدائنا ٠

❊ ❊ ❊

وفى نفس هذه السنة أيضا قام صاحب حلب القوى الأمير رضوان بجمع الامدادات من البلاد المجاورة له ، اما بالاتفاق معهم أو يبذل المال لهم ، ودخل أرض أنطاكية بجيش كالدبا كثرة ، فبث الذعر فى الاقليم كله بغاراته المتعددة ، وكثرة ما أضرم من الحرائق التى كانت تاتى على كل شىء ، فلما علم تانكريد بذلك استدعى اليه فرسانه ومشاته وزحف بهم على الناحية التى اتفقت الأخبار كلها على وجود جيش رضوان بها ، وخرج تانكريد من أنطاكية وسار بجيشه الى « ارتاح » وتأكد له صدق ما وافته به الأخبار ، اذ وجد جموعا كثيرة قد تجمعت هناك ، فتوجه أول ما توجه الى السماء يرجوها العون الذى جاءه جزاء حسناته، ثم كركرة صدق على العدو الذى قاوم بعض الوقت فى بداية الأمر ، لكن مالبثت صفوفه أن تصدعت ، وانفرط عقد عسكره ، فلاذوا بأذيال الفرار ، ووقع الكثيرون منهم فى الأسر ، وقتل منهم مالا يكاد يحصيه العد ، هذا الى جانب رايات رضوان التى أخذها تانكريد واحتفظ بها ، وكان أول الفارين الأمير رضوان نفسه ، وقد فعل ذلك حرصا منه على حياته ٠

ولقد أثلج هذا النصر قلوب رجالنا كثيرا ، وانشرحت له صدورهم ، فقد اعتبروه تعويضا لهم عن خسائرهم المتكررة فى معارك مشابهة لهذه المعركة ، كما أنهم غنموا كثيرا من أحسن جياد العدو بعد سقوط أصحابها عنها ٠

وحدث فى السنة ذاتها أن جاء الى خليفة مصر نفر من كبار رجالات دولته وقالوا له : « ان هذا الرهط من الحجاج الذين هاجموا أخيرا مملكتك بالقوة وكانوا غير عابئين بالحياة ، قد نجحوا فى الثبات فى وجه قوادك الذين أرسلتهم ضدهم ، وكان انتصارهم فى هذا الهجوم بسبب اعتمادهم على الأعداد الكثيرة من جيوشهم الأولى التى جاءت الى المشرق ، أما الآن فقد عاد معظم هؤلاء الى أوطانهم مما تضاءل معه عدد البقية الباقية منهم تضاؤلا كبيرا ، كما انقطع عن هؤلاء ترادف الامدادات عليهم من الحجاج ، وأدت الهجمات المتعددة عليهم الى انهاكهم غاية الانهاك ، ومن ثم فالرأى عندنا أن الفرصة مواتية لنا ـ ان اذنتم يامولانا ، باختيار قائد من كبار رجالكم تبعثونه لتخليص البلاد التى هى الآن فى قبضة ذلك الشعب المنكود » ٠

وافقت هذه الكلمات هوى فى نفس الخليفة واستصوبها ، فأمر بجمع عسكر كثير ، وتهيئة أسطول ضخم وجعل على كل جيش من الجيوش قوادا مختارين ، وأرسلهم الى بلاد الشـــام ، فبث وصولهم الى عسقلان الفزع فى كل الاقليم ٠

ما كادت أخبار هذه الحملة تصل الى ســـمع الملك بلدوين حتى بادر بالزحف الى يافا على رأس جيش المملكة بأجمعه ، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوما واجب النفاذ يأمر فيه قوات كل مدينة بالتجمع فى يافا دون تلكؤ ، فاستجابوا له سراعا ، كما جاء من غيرهم « ابريمار » بطرك بيت المقدس ، حاملا معه خشبة الصليب الشافى الواهب الحياة ٠

زاد عدد قواتنا بوصول هذه الامدادات حتى صـــار عندنا خمسمائة فارس وألفا جندى من المشاة ، كما قيل ان العدو كان فى قوة قاربت خمســـة عشر ألف مقاتل الى جانب المحاربين الذين بالسفن ٠

ما كاد جيش العدو البرى يخرج من عسقلان حتى صدرت الأوامر الى الأسطول بالابحار الى يافا ، فزحف العسكر البرى الى « أسدود » حيث انقسموا هناك الى قسمين ، تقدم أحدهما نحو الرملة يتحدى الملك أن يخرج للقتال ، على حين مضى القسم الثانى الى يافا ، وبينما كان الملك مشغولا بالقسم الأول كان القسم الثانى يتقدم لمهاجمة يافا بعد أن استدعى لمساعدته القوات التى كانت قد جاءت بحرا ، ومن ثم فقد دخل القسم الأول منطقة الرملة يتقدمه النفخ فى الأبواق وقرع الطبول ، وقد عمدوا الى هذا الأمر لغرض معين هو أن يتقدم الجيش الآخر الذى يسير على الساحل فيصل سالما الى يافا فى الوقت الذى يكون فيه الأول يغرى الملك وقواته على مهاجمته ، ولكن فشلت هذه الخطة لأنه حين اقترب الملك على رأس عسكره طارت قلوب المارقين شعاعا وانحل عزمهم ، واستسلموا للخوف ، مما حملهم على استدعاء الفريق الآخر لمساعدتهم ، لكن لم تفدهم هذه الامدادات ، فقد أحسوا أنهم ليسوا على قدر من البأس يكفى لنجاتهم من الوقوع فى قبضة الملك الذى هاجم بمن معه من الرجال الكتائب المتجمعة ضدهم ، وضغطوا عليهم ضغطا شديدا بروح عالية ، ومضى بلدوين فى الوقت ذاته يشجع رجاله بالقول والعمل فتزايد بأسهم ، وأخذ البطرك يســـير بين صفوف الجند حاملا فى يده الصليب الواهب الحياة ، ومقويا عزيمة المحاربين الذين كانوا على وشك النزول الى المعركة ، وداعيا اياهم لأن يتذكروا على الدوام من ارتضى أن يموت على الصليب لخلاص الخطاة ،

كما راح يحرضهم على الاستبسال فى قتال أعداء المسيح وخصوم دينه ، ليدق لهم أن يطمعوا فى غفران خطاياهم وجبها ، ويمنحهم السيد مائة ضعف ما يجازى به خدمه ، فامتلأت نفوس الصليبيين حيوية وشجاعة بهذه الكلمات ، وتوجهوا الى السـماء يسألونها العون ، وانصبوا فى غضب على الأعداء ، ونجحوا فى قتل عدد كبير منهم ، وأرغموا الباقين على الفرار ٠

وقتل فى هذا الاشتباك حاكم عسقلان ، أما القائد العام للجيش فقد هرب فنجا ، ويقال ان قتلى الخصم بلغوا فى هذا اليوم حوالى أربعة آلاف شخص ، أما رجالنا فلم يهلك منهم سوى ستين ٠

وتمكنت قواتنا - برحمة الرب - من الاستحواذ على معسكر العدو فعثروا فيه على قوافل من الجمال والحمير والخيل ، فانشرحت صدورهم بما غنموا ، ثم عادوا أدراجهم الى يافا حاملين معهم أثمن الأسلاب وأغلى الغنائم ، ومستصحبين معهم كثيرا من الأسرى، وكان من بين من أسروه في هذا اليوم رجل جليل القدر فى قومه ، كان قد ولى أمر عكا ذات مرة فافتداه قومه فيما بعد من الملك بفدية قدرها عشرون ألف قطعة من الذهب ٠

وكان أسطول العدو فى هذا الوقت لايزال راسيا فى ميناء يافا ، فما كادت تبلغه أخبار النكبة التى حلت بقواته البرية حتى اغتنم فرصة هبوب ريح جنوبية مواتية وانسحب الى ميناء صور ، غير أن ريحا صرصرا عاتية هبت على هذا الأسطول وهو على وشك الرحيل الى مصر فمزقته فتبدد ، ودفعت خمسا وعشرين من سفنه الى شاطئنا لعجزها عن مقاومة الأمواج العاتية ، فأمسك عسكرنا أكثر من ألفى رجل من بحارته ونوتيته ، كما هلك الكثيرون من رجال العدو غرقا ٠

كان « دامبيرت » بطرك بيت المقدس فى هذه الأثناء موجودا بروما ، وطالت اقامته بها اذ استبقاه البابا « بسكال » والكنيسة الرومانية حتى يتقرر ما اذا كان ملك بيت المقدس ومن أخـــرجوه يتقدمون بأية تهمة ضده يرمونه بها لتبرير شرعية مسلكهم معه ، لكن لم يتقدم أحد منهم باتهامه بما يدينه أو بما يستوجب اللوم عليه من أجله فى هذه القضية ، فعرف وظهر للعيان أن شلح البطرك لم يكن الا نتيجة غضب ملكى ، ومن ثم زوده « بسكال » برسالة بابوية ورده الى مكانه ، حاظيا بكل العطف ليتابع أمر بطركيته التى أخرج منها ظلما بغير حق ، فذهب الى صقلية وظل مقيما بها فى انتظار وسيلة لنقله ، غير أنه أصيب أثناء وجوده هناك بمرض خطير مات منه يوم ٢٦ يونيو ، وكان قد تولى البطركية مدة أربع سنوات قضاها فى هدوء ، ثم أتبعها بثلاث أخريات قضاها فى المنفى ٠

على أنه قبل وصول الخبر بموت « دامبيرت » كان « ابريمار » مغتصب هذه الوظيفة(١) ـ قد عزم على الابحار قاصدا زيارة رومة بعد أن علم أن المعظم « دامبيرت » عائد مرضيا عليه ليتبوأ مكانه الشرعى ، فرغب (ابريمار) أن يؤكد تبرئة ساحة نفسه ، ويثبت أن كل شىء قد تم على غير ارادته ، وأن وضعه فى مكانه هذا كان على غير سعى منه ، فلما وصل الى رومة لم يلق مايرضيه ، ولكنهم أنبأوه أنهم معينون نائبا رسوليا بالقدس ومرسلوه معه الى هناك ليتقصى حقيقة الموضوع على أكمل وجه ، وعين لهذه المهمة « جبلين » رئيس أساقفة « آرليس » وكان قد بلغ من السن أرذله ، فصدرت

---

(١) أى بطركية بيت المقدس ٠

اليه أوامر البابا بالمضى الى بيت المقدس ، فمضى حتى اذا بلغها عقد مجمعا من أساقفة المملكة ، واستقصى الحقائق المتعلقة بقضية « ابريمار » كل الاستقصاء(٢) ٠

وأدلى الشهود الصادقون الموثوق بكلامهم الذى لا يرقى اليه الشك بشهاداتهم التى اقتنع بها النائب البابوى « جبلين » ، فأدرك أن خلع « دامبيرت » لم يكن له سند شرعى يبرره ، بل كان نتيجة مكائد « أرنولف » وبطش الملك ، وأن « ابريمار » اعتلى كرسى كاهن لايزال حيا ، ولايزال ينعم بعطف الكنيسة الرومانية ، ومن ثم فان « جبلين » ـ بناء على السلطة المخولة له ـ قام بخلع « ابريمار » من البطركية ، ولكن نظرا لتقواه العميقة وبساطة خلقه غير المألوفة فقد كلف « ابريمار » بادارة كنيسة قيسرية التى كانت خالية اذ ذاك ٠

❋ ❋ ❋

ثم حدث فيما بعد أن اتبعوا ما كان مألوفا ليكون تناول الموضوع قد تم بالاعتبار الواجب له ، فحددوا يوما معينا يناقش فيه رجال الدين والشعب معا أمر اختيار بطرك لكنيسة القدس ، وبعد استعراض ما أسفر عنه الحوار بين الجانبين من شتى الوجوه

---

(٢) أشارت الترجمة الانجليزية (ج ١ ص ٤٦٧ ، حاشية رقم ١٧) الى أن البابا باسكال الثانى كان قد أرسل خطابا الى الملك بلدوين يستفاد منه غير الذى جاء بالمتن وان « ابريمار » غادر القدس بعد وفاة « دامبرت » ليتسلم الصلاحية من يد البابا ، ثم مضى « ارنولف » فى اثر « ابريمار » مزودا برسائل تتهم ابريمار ، وقد بنت الترجمة الانجليزية هذا القول على ما ورد فى
R. Rohricht, Regesta regni Hierosolymitani, No. 19.

وقع الاختيار بالاجماع على مندوب الكنيسة الرسولية « جبلين » ليجلس فى كرسى البطركية ، ويقال ان هذا الاختيار كان بتدبير ماكر من ارنولف الذى ذهب الظن به ـ وقد رآى تقدم سن جبلين وهرمه ـ الى أن جبلين لن يظل طويلا فى المنصب البطركى ٠

* * *

وحدث فى نفس سنة ١١٠٧ من مولد سيدنا أن قام العسقلانيون بما طبعوا عليه من مكر فنصبوا كمائن فى مواضع معينة على طول الطريق الكبير الواصل بين بيت المقدس والبحر ، ووضعوا فى هذه الكمائن خمسمائة فارس وألف جندى ، وكان ذلك بسبب ما ترامى الى سمعهم من أن طائفة من شعبنا قد غادرت مدينة يافا ، ميممة وجهها شطر بيت المقدس ، فأرادوا أن ينالوا بالدهاء والخديعة ما عجزوا عن نيله بالقوة، فوضعوا كمائن تتربص بالعسكر الحجاج الذين كانوا لا يعلمون شيئا عن كل هذه الكمائن ، فما كاد هؤلاء الحجاج يسيرون فى طريقهم حتى وقعوا فى الشرك الذى نصبه العدو لهم ، فاستولى عليهم القلق الشديد ، وترددوا فيما اذا كانوا يقاتلون أم يعودون من حيث جاءوا ، وبينما هم فى هذا التردد اذا بالعدو يغير عليهم ، فقضى على كل جدل يمكن أن يثيروه ، ولما أدرك رجالنا أنهم بين خيارين لا مفر لهم من أحدهما ، وهما اما أن يحاربوا بكل ما فى وسعهم ، واما أن يقعوا مجللين بالعار ، فقد رضخوا للضرورة وعاودتهم جرأتهم واستردوا شجاعتهم واندفعوا بجاش قوى على من كانوا يحسبونهم رجالا لا تنالهم الأيدى ، فكان للمفاجأة وقعها على الكفار الذين لم يستطيعوا الصمود لهذا الهجوم فلاذوا بأذيال الفرار ، فمضت قواتنا فى أثرهم بعضا من الوقت وقتلت نفرا ممن وقعوا فى يدها من أسراهم ، وهكذا كتب الله النصر للصليبيين الذين

لم يفقدوا سوى ثلاثة رجال فقط ، واستمروا فى طريقهم الى بيت المقدس ٠

— ٥ —

كانت مدينة صور لاتزال حتى ذلك الوقت فى قبضة الجاحدين الذين كانوا يحاولون اعاقة تقدم الصليبيين بشتى الطرق ، وكان « هيج دى سنت أومير » — ذلك الرجل الشريف القوى الباذل نفسه فى خدمة المسيح قد خلف تانكريد فى حكومة مدينة طبرية ، وكان دائم القيام بهجمات خاطفة على صـــور ، ومراوحتها بالغـــارات المستمرة بقدر ما تسمح به المسافة بين البلدين ، وهى ثلاثون ميلا ، وكان العسكر فى غدوهم الى صور ورواحهم عنها يتعرضون للخطر لعدم وجود أى قلاع أو أماكن حصينة بين المدينتين يلجأون اليها لو تعقبهم العدو ، لذلك حاول هذا الرجل العظيم تذليل تلك الصعوبة فعزم على بناء حصن على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور ، وان كان يبعد عنها حوالى عشرة أميال ، وكان الاسم الأصلى لهذا الموضع هو « تبنين » ، ولما كان الحصن واقعا على جبل شاهق الارتفاع ، شديد الانحدار ، فقد أطلق عليه اسم « تورون » واشتهر بطيب هوائه وبديع مناخه وهو يوجد فى قبيلة « عشير » فيما بين البحر وجبل لبنان ، وعلى مسافة متساوية من كلتا المدينتين : صور وبانياس ، وأرضه شديدة الخصب ، وصالحة تماما لزراعة الكروم والأشجار ، كما أن محاصيلها وفيرة بفضل عناية فلاحيها بها ، ومن ثم فان هذا المكان لم يقتصر على أنه أمد بانيه بالفوائد الملائمة كل الملاءمة لاحتياجاته فى وقته حينذاك ، بل انه كان ذا جدوى قصوى لمدينة صور أيضا وبقية الناحية ، وذلك بفضـــل خصوبة أرضـــه وتحصيناته الرائعة الشهيرة ٠

***

وبعد قليل من تشييد هيج النبيل لهذا الحصن اقتحم أرض العدو على رأس سبعين فارسا قاتل بهم أربعة آلاف دمشـــقى ، وصدهم مرتين فى يومه هذا صدا عنيفا ، كما حاول ذلك مرة أخرى ولكن فى ظروف أحسن من سابقتها ، اذ ترادفت الامدادات الاضافية عليه هذه المرة ، كما أن العناية الالهية لاحظته بعينها ، فشدت من عزيمته ، حتى استطاع بعون الله أن يرغم العدو على الفرار ، ولكنه رمى عن قوس بسهم جرحه جرحا قاتلا أرداه ، وكان هيج رجلا عاقلا وبطلا جديرا بكل ثناء على خدماته ، مقبولا كل القبول عند الملك ورجال مملكته ٠

وقد فقد العدو فى هذا الاشتباك مائتى رجل ، كما استولى رجالنا على مثل هذا العدد ، لكن من الخيل ٠

وتلى هذه الأحداث ظهور علامات ونذر كثيرة فى الأفق الشرقى من السماء ، حيث ظل يظهر على مدى أربعين يوما أو أكثر كوكب مذنب يتبعه خط طويل من اللهب ، ويكون ظهوره بعد دخول الظلام ، أما فى الصباح فتبدو الشمس منذ ظهورها حتى الساعة الثالثة من النهار وكأن شمسين تتبعانها وقد تكافأتا فى الحجم ، وان كانتا أقل منها اشعاعا ، كما كان يرى حول الشمس قوس قزح بكل ألوانه الوهاجة ، فكانت كل هذه العلامات تؤذن فى الواقع بتغير فى أحوال الناس ٠

— ٦ —

فى هذا الوقت كان الخائن الوغد «الكسيوس كومنين» امبراطور القسطنطينية يكثر من وضع العراقيل فى طريق الحجاج الراغبين فى عبور بلاده وهم فى طريقهم الى بيت المقدس ، واذا كان قد عمل على مضايقة الحملة الأولى التى لم يجن منها فائدة كبيرة كما قلنا

وذلك بتلمسه مساعدة أحد الولاة الترك الأقوياء وهو قلج أرسلان وينشد مساعدة هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد هذه الحملة فانه فى المرة الثانية أخذ يبعث رسله الكثيرين لاثارة نفس هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد الحملة الثانية التى كانت بقيادة كونت بواتو، فأسفرت خيانته هذه عن اندحار الحملة(٣) الثانية اندحارا يكاد يكون تاما ، ولم يكتف باللجوء مرة أو مرتين للغدر بالصليبيين ، بل انه ما من مرة أتيحت له فرصة انزال الخسائر والحاق الدمار بهم الا عدها كسبا لنفسه ، ومع ذلك فانه لم يكد ريموند (دى بواتييه) يمثل بمن معه أمام الامبراطور ويصبح فى حضرته حتى أعطاهم الامبراطور من طرف اللسان حلاوة وأمطرهم بهداياه وتحفه ليكون أكثر قدرة على خداعهم ، وبذلك حافظ على ما اشتهر به شعبه من انطباق المثل التالى عليه القائل : « لشد ما أخاف الاغريق حتى ولو قدموا الهدايا » لأنه كان على وجه العموم ينظر بريبة الى تقدم اللاتين ، ولا يأذن بزيادة سطوتهم أو انتشار نفوذهم اذا كان فى مقدوره منع ذلك ٠

كانت هذه المثالب لاتزال حية فى ذهن بوهيموند حين عاد من البلاد الواقعة وراء الجبال على رأس خمسة آلاف فارس وأربعين ألفا من الجند المشاة ، عاقدا النية على العمل لما فيه صالح جميع اللاتين ٠ وكانت عودته بحرا ، ووصوله الى بلاد الامبراطور فى اليوم التاسع من أكتوبر ، فلما فرغ من اجتياحه جميع المدن الساحلية وخرب منها ما خرب مضى فدمر ابروس الأولى والثانية على السواء ثم حاصر « دورازو » قصبة ابيروس الأولى ، وأشعل النار فى كل النواحى المجاورة ، وانطلق يصليها خرابا ويعاملها وفق هواه ، وكان

(٣) المقصود بذلك الطائفة الثانية من الصليبيين الذين كانوا بقيادة ريموند الصنجيلى كونت تولوز ، وليس يقصد بها « الحملة الثانية » التى كانت بقيادة كونراد امبراطور المانيا وملك فرنسا ٠

يتأهب لشق طريقه الى أقصى بقاع الامبراطورية وقد آلى على نفسه ـ بعون الرب ـ الا أن يقضى على كل ما يضر اللاتين ٠

ولما سمع الامبراطور بدخول بوهيموند بلاده على رأس جيش كبير من اللاتين جمع عسكره وتقدم لملاقاته ، وأقام قواته قرب قوات بوهيموند ، غير أن تدخل بعض أصدقاء الطرفين فى هذه الأزمة أدى الى عقد معاهدة بينهما ، أكداها باليمين الصادقة ، وتعهد الامبراطور أن يقوم منذ هذه اللحظة بنية حسنة ومن غير أن يبيت شرا ـ ببذل النصح والعون لأتباع المسيح الراغبين فى المضى الى الشرق ، وأن يمنع رعاياه من وضع العراقيل فى طريقهم ٠

ولما اتفقوا على هذه الشروط وأكدوها باليمين ، قام بوهيموند فأقسم من جانبه قسما آلى فيه على نفسه ألا يحنث فيه ـ بالمحافظة على صداقته للامبراطور وأن يكون تابعا مخلصا له الى الأبد[٤]) ٠

حينذاك قدم بوهيموند أمامه طائفة الحجاج الذين كانوا قد التزموا باكمال الرحلة الى بيت المقدس ، أما هو فقد عاد أدراجه الى « أبوليا » حيث تطلبت بعض الشئون الخاصة أن يزيد فى أمد بقائه هناك ، فلما كان الصيف التالى بدأ يعد الترتيبات اللازمة ويجمع السفن ، غير أنه فى أثناء تأهبه للرحيل ـ وقد جمع العسكر من كل ناحية ـ داهمه مرض خطير أدى الى وفاته ، فمات تاركا وريثا ورث اســـمه وامارته ، وكان الوريث ذكرا أنجبته(٥) له ليدى كونستانس ابنة فيليب العظيم ملك الفرنجة ٠

كذلك مات خلال هذه السنة(٦) حموه فيليب ملك الفرنجة الجليل ٠

---

(٤) وكان ذلك فى مارس سنة ١١١١م ٠

(٥) كان مولده سنة ١١٠٩ أى قبل وفاة ابيه بعامين ٠

(٦) اخطأ وليم الصورى اذ يقول « فى هذه السنة » ، فينصرف الذهن الى عام ١١١١ م ، كما هو وارد فى الحاشية رقم ٤ ، لكن موت فيليب كان فى سنة ١١٠٨ ٠

فى ابان ذلك الحين بينما كان العظيمان اللذان أشرنا اليهما من قبل وهما كونت بلدوين وقريبه جوسلين لايزالان فى أسر العدو تجمع عسكر من الترك فى أعداد تفوق الحصر جىء بهم من بلاد المشرق فاغتنموا فرصة غياب هذين الأميرين وأغاروا على أرض الجزيرة غارة شعواء، وعاثوا فسادا وتدميرا ونهبا فيما حول الرها، واستولوا عسفا على بعض الحصون ، وأضرموا النار فى القرى ، وأمسكوا بالفلاحين وغيرهم ممن يعملون فى الحقول ، ولم ينج من ذلك الدمار أى مكان خارج المنطقة الموجود بها المدن المسورة ، مما أسفر عن توقف فلاحة الأرض وندرة الطعام حتى كاد أن ينعدم .

***

كان الحفاظ على المنطقة موكولا الى تانكريد الا أنه جد من الأمور أمور عاقته واضطرته للبقاء فى أنطاكية التى أصبح مسئولا عنها هى الأخرى أيضا كما قلنا منذ رحيل بوهيموند ، فلما علم بما أحدثه العدو من نهب وسلب فيما حول الرها أرسل الى ملك بيت المقدس ليشـــرح له ماحدث من أمور اقتضت منه أن يبعث فى استدعائه ، كما قام هو ذاته بحشد قوات كثيفة من كل البلدان والحصون ، فما غبرت أيام قلائل حتى كان الملك فى طريقه للانضمام اليه ، لحظة أن كان تانكريد مسرعا الخطى الى هناك وقد استبد به الخوف على امارته ، وانضم الجيشان بعضهما الى بعض فى الحال، وعبرا الفرات معا ، فلما بلغوا الرها وجدوا المارقين - كما قيل - يعربدون هنا وهناك لم يتركوا ناحية من النواحى الا جاسوا خلالها، دون أن يعترضهم معترض ، لكنهم لما علموا بقدوم قواتنا بعثوا فى

استدعاء عساكرهم ، وقلت عربدتهم عن ذى قبل لطول معرفتهم ببأس جنودنا ، فتملكهم الخوف من قتالهم ، وان كانوا رغم ذلك لم يرحبوا بعودتهم الى بلادهم ، لادراكهم ضيق وقت كل من الملك وتانكريد ضــــيقا يمنع هذا وذاك من طول اقامته ، ومن ثم فقد حــاولوا تعويقهما أملا منهم فى أن يؤدى طول هذا التأخير الى ارغام القادة على الرحيل ، واذ ذاك يتمكنون هم من معاودة ماجرت به عادتهم من السلب والنهب ، لكن لم تخف حقيقة مقصدهم على زعمائنا فنهجوا نهجا شديد الملاءمة لهذه الظروف الصعبة ، ذلك انه لما كان الاقليم الواقع فى منطقة نهر الفرات ينتج معظم المحاصيل فقد عمد الزعماء للاستفادة من هذا الوضع ، فأمروا أن تجمع شتى أنواع المؤونة ثم تنقل على ظهور الجياد والابل والحمير والبغال وذلك عبر النهر ، وبهذا تسنى حصول البلدان والقلاع على كميات وفيرة من مواد المعيشة تكفى امدا طويلا ، كما انصب اهتمامهم على وجه الخصوص على امداد مدينة الرها فأمدوها بامدادات وفيرة زادت عن حاجتها ، حتى اذا أطمأن بال هؤلاء القادة على المدن والحصون، وزالت دواعى الخوف عليها بعد تزويدها بالعتاد والرجال والطعام عادوا الى نهر الفرات لأمور أكثر خطورة ، تستدعى التفاتهم اليها ، وبينما كان الصليبيون يعبرون النهر فى قوارب صغيرة خفيفة قليلة العدد ، شرع العدو الذى كان يتعقبهم فى مهاجمة من دونهم ممن لازالوا على الشاطىء الآخر من النهر ، ينتظرون دورهم للعبور ، وفتك ببعضهم وأسر البعض الآخر أمام أعين تانكريد والملك اللذين وقفا عاجزين عن مد يد المعونة اليهم ، فقد حال بينهما وبينهم وجود النهر الذى لم يكن بمقدورهما اجتيازه ، كذلك كان من الصعب عليهما وعلى من معهما ان ينجحوا فى مساعدة قوات ضخمة العدد كهذه القوات على العبور مرة أخرى اذ ليس لديهم ســــوى القليل من القوارب ، ومن ثم كانت قواتنا مضطرة للعودة الى بلدها ، وقد

هصر الحزن قلوبهم حزنا على مصير أولئك التعساء الذين رأوهم رأى العين يروحون ما بين قتيل وأسير ٠

أما الرجال البارزون الذين وكل اليهم حراسة الاقاليم فى هذه الناحية من الفرات فقد بذلوا أقصى جهدهم فى تحصينها ٠

أما الذين قتلوا أو أسروا على شواطىء الفرات فكانوا من فقراء الأرمن الذين فروا أمام الدمار الساحق الذى انزله الترك بالناحية ، فراحوا يلتمسون مكانا آمنا يلجأون اليه ٠

ـ ٨ ـ

فلما كانت السنة التالية أعنى سنة ١١٠٩ من مولد المسيح عاد بلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين الى أملاكهما بعد خمس سنوات موصولة قضياها أسيرين لدى العدو ، ثم آن لهما أن يستردا حريتهما منه بعد أن قدما اليه الرهائن ، ورضيا أن يدفعا له المال الذى طلبه فداء لنفسيهما ، ثم شاء الرب أن تمسهما رحمته حين قام الرهائن بقتل حراسهم الموكلين بهم فى احدى القلاع اذ وثبوا عليهم وهم يغطون فى سباتهم وقد أثقلهم كثرة ما شربوا من الخمر ، فلما تم لهم ذلك تسللوا خلسة تحت جنح الظلام وسلكوا دروبا ملتوية واتخذوا طريقهم الى بلدهم ٠

ويقال انه لما وصل الكونت الى الرها رفض تانكريد فى بادىء الأمر أن يأذن له بدخولها ، لكنه مالبث أن تزحزح عن رأيه حين ذكروه باليمين التى قطعها على نفسه لحظة أن عهد اليه القيام بادارة دفة أمورها وقت وقوع الكونت فى الأسر ، وحينذاك أمر أن تسلم المدينة بكل ما حولها الى بلدوين ٠

وأخيرا قام القائدان (بولدوين وجوســـلين دى كورتناى) واستنكرا هذه المعاملة التى يعاملهما بها تانكريد وأعلناها حربا عليه، وان كان جوســـلين أكثر الاثنين تشـــددا ، ذلك لأن وجود قلاعه وحصونه على ذلك الجانب من النهر كان يجعله أدنى ما يكون لأرض انطاكية ، وحدث فى أحد الأيام أن خرج (جوسلين) ومعه رهط كبير من الأتراك الذين استنجد بهم فانجدوه ، فشن واياهم غارة شعواء على تانكريد الذى علم بنواياه فهب لقتاله ، وشبت الحرب بينهما فمات فى ساحتها من طليعة رجال تانكريد ما يقرب من خمسمائة رجل ، لكن مالبث جنوده أن عاودتهم شجاعتهم فتجمعوا من جديد وفتكوا بكثير من الترك ، ونجحوا فى هزيمة قوات جوسلين ٠

حين وصلت الأمور الى هذا الدرك تدخل كبار رجال الاقليم ورهط من أهل الادراك المقدرين للأمور وعرفوا مدى الخطر الداهم الذى ينذر بما يكون بين رجلين كبيرين كهذين الرجلين من العداء ، والذى لا يستبعد أن يؤدى الى ضرر بليغ بالشعب الصليبى ، ومن ثم أخذوا على عاتقهم القيام بدور صناع الســـلام ، ونجحوا فى التوصل الى تهدئة الأمور بين الطرفين ٠

ـ ٩ ـ

وقد حدث فى هذه الأثناء أن جاء « برترام بن ريموند » كونت تولوز الطيب الذكر بأسطول من الجنويين ، وأرسى قرب طرابلس التى كان قريبه « وليم جوردان » لايزال محاصرا لها حصارا دام بلا انقطاع منذ موت ريموند الموقر ، وسرعان ما شب الصراع بين الاثنين (برترام ووليم جوردان) ، لأن أولهما تمسك بحقه فى أن يخلف أباه ، على حين أن ثانيهما وليم طالب بمكافأته على جهوده ،

وما تكبده من المصـــروفات طوال السنوات الأربع المتوالية التى قضاها متحملا مسئولية ادارة أمورها ٠

وأراد الأول أن يخلف أباه (ريموند كونت تولوز الصنجيلى) باعتباره الوريث الشـــرعى له فى ممتلكاته على حين كان وليم يجاهد للاستحواذ على المدينة التى لم يكف عن الحرب فيها من غير كلل ، واستمر النزاع بين الاثنين طويلا ، حتى تدخل أصـــدقاء الطرفين بينهما لاقرار السلام فتم ، وتوصلوا الى حل وســـط ارتضاه الجانبان يقضى بأن يتسلم وليم جوردان عرقة وطرسوس وملحقاتهما ، وان يكون لبرترام طرابلس وجبيل وتل الحجاج بكل ملحقاتها هى الأخرى ، وتم الأمر على هذا الوضع الذى ارتضاه الجانبان ٠

ولقد أصبح وليم ــ بسبب ما آل اليه من نصيبه فى الامارة ــ نائبا لأمير انطاكية ، وقطع له يمين التبعية ، اما برترام فقد تسلم براءة تقلده الأراضى التى اقطعها له ملك بيت المقدس ، ملتزما له بالتبعية الاقطاعية المعتادة ، على أنه فى أثناء تدوين الاتفاق اشترطوا انه اذا مات أحد الطرفين من غير وريث يرثه خلفه الآخر فى كل ما بيده مما يملك ٠

غير أنه بعد اقرار الأمر على هذه الصورة جد سبب تافه أدى الى شبوب النزاع بين كبار أتباع الأسرتين ، وسرعان ما امتطى الكونت وليمجوردان فى لحظته جواده وخب به سريعا الى هناك رجاء اعادة الأمور الى مجاريها ، لكن اصابه بالصدفة سهم غرب أفضى الى موته ، فزعم البعض أن هلاكه انما تم بمكيدة من مكائد برترام الدنيئة ، لكن لم يعرف حتى اليوم على وجه التحقيق الفاعل الحقيقى لهذا الجرح المميت ، وبذلك أصبح برترام المالك الوحيد للاقليم كله بعد زوال خصمه ومنافسه فى امتلاك طرابلس على هذه الصورة

وكان الأسطول الجنوى الذى جاء معه يتألف من سبعين قرقورة بقيادة اثنين منأشرا ف الجنـــوية هما أنســـالدوس ، و « هيج امبرياكوس » اللذان اتضح لهما ان الوقت الذى يصرفانه فى حصار طرابلس وقت ضائع من غير سدى ، وانه من الأجدى محاولة عمل شىء يستحق الذكر ، ومن ثم فقد التمسا من برترام - بأسلوب ودى - أن يصحبهما برا الى جبيل « ثم وجها الأسطول بنفسهما ٠

وتقع مدينة جبيل على ساحل فينيقية ، وهى احدى المدن التى اشتهرت بتبعيتها لأسقفية صور التى كان لها عليهاكل حقوق السيادة الدينية كما أشار حزقيال(٧) اذ يقول : « شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك فلاقوك ، جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك » ٠

ونطالع مرة ثانية فى الكتاب الأول من سفر الملوك فى شأن هذه المدينة ذاتها(٨) قوله : « نحت الجبيليون الحجارة المربعة ، وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت » ٠

وكان الاسم القديم لهذا المكان هو « ايف » اذ يعتقد الناس ان « ايفيوس » سادس ابناء كنعان هو مؤسسها ٠

***

أحدقت الجيوش بمدينة « جبيل » برا وبحرا حين أصبحت أمامها ، فاستولى على الأهالي حالة من الفزع الشديد لعدم ثقتهم

---

(٧) حزقيال ٢٧ : ٩ ٠
(٨) ملوك أول ٥ : ١٨ ٠

فى قدرة وسائل الدفاع المتوفرة لديهم ، لذلك ارسلوا سفارة الى قائدى الأسطول « أنسالدوس » « وهيج امبرياكوس » تعلن اليهما استعدادهم لفتح أبواب المدينة لهما والاعتراف بسلطانهما عليها ، على أن يؤذن بمغادرتها لمن أرادوا المغادرة من تلقاء أنفسهم ، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، لا يلقون فى الخروج عنتا ولا ارهاقا ، وأما الذين لا يحبون ترك دورهم بالمدينة فيسمح لهم بالبقاء فيها تحت شروط مقبولة ، فأجيبوا الى طلبهم ، وتم استسلام المدينة للقائدين (الجنويين) ، وقام أحدهما وهو هيج أمبرياكوس بتسلمها لأمد محدد بعد الاتفاق على قدر معين من المال يدفع سنويا لخزينة الجنوية ، وهذا الرجل هو نفسه جد هيج الذى يحكم المدينة اليوم ويحمل نفس الاسم واللقب ، ولما تم أخذ المدينة على هذه الصورة رجع الأسطول مرة ثانية الى طرابلس ٠

— ١٠ —

بادر الملك بالذهاب الى طرابلس حين علم أن أسطول الجنوية لايزال يتجول فى نواحيها بعد انتهائه من الاستيلاء على جبيل ، وسعى الى ضم الجنوية الى خدمته الخاصة وفق شروط معينة ليتمكن بمساعدتهم من أخذ مدينة أخرى من المدن الساحلية ، اذ كانت لاتزال على شاطئنا أربع مدن ناشزة هى بيروت وصيدا وصور وعسقلان التى تكون فى مجموعها عائقا كبيرا أمام خططنا لتوسيع رقعة مملكتنا الشابة ، لذلك أحدث حضور الملك فرحة كبرى فى نفوس الجميع ممن كانوا قائمين بالحصار برا وبحرا ، وزادتهم حماسة فى الاقبال على ما بيدهم من العمل ، كما كان حضوره مصدر طمأنينة كبيرة للقائمين بالحصار أمام المدينة ، وتضاعف بأسهم ، وزادت ثقتهم بقدرتهم ، وكان وصوله هذا داعيا — من ناحية أخرى — لتزايد يأس المحصورين والقضاء التام على أملهم فى المقاومة ٠

على ان عدد الصليبيين أخذ فى التناقص بقدر ما تضاعفت قوتهم التى كانت كلما زادت زاد ظهور ما عليه اعداؤهم من ضعف ، لذلك عمد عسكرنا ازاء هذا الموقف لتجديد هجومهم اعتمادا على الامدادات الجديدة التى جاءتهم ، فكانوا لا يدعون فرصة تلوح لهم الا اغتنموها لتشديد ضغطهم على العدو بروح عالية حتى ليخيل لرائيهم أنهم فى مستهل الحصار رغم أنه كان قد مضى عليهم مايقرب من سبع سنوات متتالية وهم يمارسونه ببأس كبير .

ورأى الأهالى أن قوة الصليبيين تتزايد يوما بعد يوم عكس التناقص المستمر فى قوتهم هم أنفســــهم ، وادركوا أن قد انهكهم الجهد المتواصل الذى يبذلونه ، كما فقدوا كل أمل فى وصول أى نجدة اليهم ، فقلبوا الأمر على شتى وجوهه فيما بينهم ، جاعلين نصب أعينهم وضع حد لهذه الأهوال الكبيرة ، فبعثوا بالرسل الى الملك والى الكونت يقترحون الاستسلام لهما بالشروط التالية :

أن يسمح بحرية الخروج بلا عائق لمن أراد مغادرة المدينة ، مع الاذن له باستصحاب أهل بيته وحمل حاجاتهم الى أى جهة شاءوها، اما الذين لا يحبون الرحيل عنها فيسمح لهم بالبقاء فى دورهم سالمين آمنين ، مع احتفاظهم بما تملكه أيديهم لقاء دفعهم للكونت سنويا قدرا معينا من المال .

استمع الملك الى مطالب الأهالى هذه وراح يتشاور بشأنها مع الكونت وأهل الرأى ثم أعلن قبوله لهذه الشروط على أن تسلم له المدينة فى الحال ، ووقع هذا القرار موقع الرضا من الجميع ، فبعثوا فى احضار الأهالى وأجابوهم الى ما التمسوه ، واقسموا اليمين على الوفاء لهم بهذه الشروط دون شجب أو غدر ، واذ ذاك استسلمت المدينة وفتحت أبوابها لجميع من أراد دخولها .

وتم الاستيلاء على طرابلس عاشر يوم من يونيو سنة ١١٠٩ من ميلاد المسيح كما قام « برترام » فى الوقت ذاته وأعلن ان طاعته للملك حق فى عنقه ، وأصبح تابعا اقطاعيا ، وصار خلفاؤه منذ هذا الحين حتى اليوم ملتزمين بنفس هذه التبعية لملك بيت المقدس ٠

بعد أن استرد بلدوين كونت الرها حريته عزم على الذهاب الى ملطية فى صحبة رفاقه فى السلاح لزيارة جبريل والد زوجته الذى كان رجلا فاحش الثراء ، ونظرا لكثرة الرجال الذين كان الكونت يستخدمهم فقد كانت حاجته ماسة للمال يسدد به جامكياتهم لقاء خدماتهم الحربية والتزاماتهم التى يؤدونها له على أحسن وجه ، ولذلك فقد عمد الى خطة ذكية كل الذكاء ، ماكرة كل المكر درس فيها ــ فى مهارة محسوبة ــ كل تفاصيلها لتطابق الوقت الذى يمكنه فيه مقابلة حميه ٠

وبعد أن أعد الكونت كل الترتيبات اللازمة للرحلة مضى الى حميه جبريل الذى رحب به ترحيبا حارا فاق كل واجبات الضيافة ، فقد تبناه جبريل واعتبره واحدا من أهل بيته وتبودلت التهانى ــ كما هى العادة ــ بين الجانبين ، وأظهروا علامة السلام بالأحضان الكثيرة ٠

وظل الكونت مقيما عنده بعضا من الوقت حتى جاء يوم وقد استغرق فيه الاثنان فى حديث طويل فى بعض الشئون الهامة حين ظهرت جماعة من فرسان الكونت ــ بناء على تدبير سابق بينه وبينهم ــ وقطعت على الاثنين حبل حديثهما ، ثم تقدم أحد هؤلاء الفرسان الى الكونت وقال له نيابة عن رفاقه : « ليس من احد يعلم أكثر منك أيها الكونت كيف اخلص هذا النفر من الفرسان فى الحرب من أجلك زمنا طويلا وصدق اخلاصهم ، وكيف أدوا ذلك بشجاعة فائقة اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم ٠

« وانك لتعلم أيضا مدى الأهوال الكثيرة والبلايا الجمة التي تحملوها زمنا طويلا فى ســـبيلك ، وما كابدوه من السهر الدائم والجوع الشـــد والظمأ الممض والبرد القاسى والقيظ اللافح ، اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم ، وحفاظا منهم على سلامة روحك وسلامة امارتك التى وضعتها العناية الالهية وديعة فى يدك لترعاها ولتدفع عنها ضرر العدو ٠

« وانك لتعلم كيف تعرضوا لهجمات الأهالى ومن لازال مقيما هناك من الكفار ، وكيف قضوا على محاولات أعداء الصليب ٠

« والآن فان هذا الرهط من الفرسان يدعوك لأن تشهد بالخدمات التى أدوها لك ، وأنت تعرف اننا ظللنا نخدمك وقتا طويلا دون أن نتسلم فيه منك أجرا حتى اضطررنا ــ تحت الحاجة الملحة ــ لأن نطلب منك مرارا اعفاءنا من الخدمة عندك ، وكثيرا ما أدى تعاطفنا معك الى استجابتنا لتوسلاتك فى أن نتريث بعض الوقت ، وكنا نستمع اليك مستمسكين بالصبر يوما بعد يوم ، أما الآن فقد بلغت الروح الحلقوم ، وصرنا فى حال لانستطيع معها الانتظار أكثر مما انتظرنا، فقد كشر الفقر العاتى عن أنيابه لنا ، وهذا ما يحملنا على أن نرفض أن نستجيب لك فى التأخير أو التأجيل أكثر مما احتملنا ، فاختر لنفسك أحد اثنين ، اما أن تنقدنا ما نستحقه عندك من أجر يسد حاجتنا ، واما أن نصبح فى حل من الاتفاق الذى ربطت به نفسك معنا » ٠

وتعجب جبريل من مغزى هذاالكلام ومن خشونة هذه اللهجة التى تنذر بشر مستطير ، وتمكن أخيرا من أن يحاط علما بالموقف عن طريق المترجمين ، ثم استفسر عن طبيعة هذا الالتزام الذى ربط به الكونت نفسه ليدفع أجورهم ، فاعتصم الكونت بلدوين بالصمت كما لو كان الخجل قد عقد لسانه حتى الجمه فلم يعد ينطق ، ولكن

المتحدث باسم الفرسان أجاب بأن هذا الالتزام يقضى بأنه اذا جاء اليوم المحدد لدفع أجورهم ولم يدفعها لهم حلقوا لحيته دون معارضة منه • فذهل جبريل من هذا الاتفاق الذى لم يسمع بمثله من قبل ، وجاوز ذهوله كل حد حتى انه ضرب كفا بكف وهو يزفر ويغلى غضبا •

ذلك أن الشرقيين — من اغريق وغيرهم من الشعوب — يحترمون اللحية احتراما بالغا ، واذا حدث ان انتزعت — ولو صدفة — شعرة واحدة من لحية أحدهم كان ذلك اهانة عظمى وعارا لا يمحى •

واستفسر جبريل من الكونت عما اذا كان واقع أمره يتفق والصورة التى قررها الفرسان ، فجاءه الرد بالايجاب ، فسأله ثانية وهو لايزال مندهشا عما حمله لأن يقسم لهم بشىء له من التقدير العظيم ما يرقى الى أن يكون ظاهرة فردية خاصة ويعتبر شرفا للانسان يعلى مكانته ، فان ضاع ضاع شرفه ، فأجابه الكونت قائلا :

« لقد اقسمت بلحيتى لأنى لا أملك شيئا أغلى قدرا منها يتكافأ ومطالب جندى القوية ، ولكن لا يشغلن مولاى ووالدى باله بهذا الأمر ، لأننى أطمع أن تسعفنى رحمة الرب فيمنحنى هؤلاء الفرسان مهلة أعود خلالها الى الرها فألبى مطالبهم ، وحينذاك أكون قد وفيت لهم العهد الذى أكدته بشرفى » •

غير أن الفرسان — بناء على مالقنوه — أعلنوا على لسان واحد منهم أنهم منفذون تهديداتهم للدوق ، ومنفضون عنه فى الحال الى غير رجعة • وحينذاك ظهر التردد قليلا على جبريل الساذج الطبع ، والذى كان يجهل ما دبروه سرا فيما بينهم ، ثم أعلن قراره بأنه سوف يدفع للجند ما فى ذمة ختنه من مال ، ولن يترك رجلا

مثل هذا الكونت الذى ينزله منزلة الابن ليعانى هذا العار ، ثم سألهم ما قدر هذا الدين ؟ ، فقالوا له « ثلاثون ألف قطعة ذهبية ميخائيلية » وهى نوع من السكة الذهبية كان يجرى التعامل بها فى المعاملات التجارية العامة فى ذلك الوقت ، وقد سـميت باسم ميخائيل أحد أباطرة القسطنطينية الذى أمر بسك عملة عليها صورته ٠

واذ ذاك وعد جبريل أن يدفع لزوج ابنته الكونت المبلغ الواجب عليه ، شريطة أن يعده وعدا قاطعا مؤكدا بايمانه أنه لن يعود فيقيد نفسه لأى فرد مرة أخرى ـ مهما كانت الظروف الملحة ـ بمثل هذا القيد ، فلما تم دفع المال استأذن الكونت حماه فى السفر والعودة برجاله ، فاذن لهم وقد امتلأت جيوبهم عن آخرها بالنقود ، وزال عنهم فقرهم ٠ وهكذا عاد الكونت الى امارته وهو أثرى مايكون ٠

ـ ١٢ ـ

كان الملك بلدوين شديد التطلع دائما لفرصة تواتيه لرفع ذكر المملكة التى وهبها الله له ، وللقيام بعمل جدير بالقبول عند مولاه وحاميه ، لذلك فكر ـ وهو فى غمرة حماسته الدينية ـ فى السنة التالية أعنى سنة ١١١٠ من مولد سيدنا) أن يرفع الكنيسة الموجودة فى بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية ، وكانت حتى ذلك الوقت لا تعدو أن تكون كنيسة عادية ٠

وسوف تتضـح طبيعة هذا القرار وتصبح أكثر جلاء حين نطالع المرسـوم الذى أصدره هذا الملك الشـديد التقوى ، فهو كما يلى :

« لقد استطاع شعب الفرنجة بايحاء وتوجيه علويين أن يحرر مدينة القدس الطاهرة من انتهاكات الكفار بعد أن طالت مضايقة الوثنين لها ، وهى المدينة التى مات بها مخلصنا ميتة قضت على

الموت الذى جرى أول ما جرى على الجنس البشرى من جراء خطيئة أول أبوين لنا » ٠

« وقد دخل ذلك الجيش (اللاتينى) هذه المدينة العابدة الرب يوم السابع من يونيو ، فلما كان الخامس عشر من يوليو سقطت فى يده لأن الرب حارب من أجلها ٠

« وفى سنة ١١٠٠ من مولد سيدنا ألهمت الارادة الالهية رجال الدين وريموند دى سنت جيل ، وكونت روبرت دى نرمندى ، وكونت روبرت دى فلاندرز ، وتانكريد ، وسواهم من كبار الرجال المصاحبين لجيش الفرنجة أن يقرروا وضع أمر المدينة المفتوحة فى يد أخى المحبوب الغالى ، والتقى الرحيم دوق جود فروى ، غير ان ارادة الرب قضت أن يرحل عن الدنيا فى هدوء هذا الرجل الجدير بحب الله وحاكم هذه المدينة ، وكان رحيله(٩) فى اليوم الثالث بعد مرور العام الأول من حكمه ٠

« وأعلن ــ أنا بلدوين الذى اختارته العناية الالهية ليخلفه كأول ملك للاتين ارتضاه رجال الدين والأمراء والشعب ــ اننى قد نظرت بعين الاجلال الى عظمة كنيسة بيت لحم التى هى موضع ميلاد سيدنا يسوع المسيح ، والمكان الذى توجت فيه رأسى بالتاج المتلألىء وعزمت على أن أعززها بالمكانة الأسقفية الكاملة »(١٠) ٠

« ولقد ظل هذا الخاطر يراودنى زمنا طويلا بنية خالصة حتى انتهى بى الأمر أخيرا الى مفاتحة الأسقف المعظم « أرنولف » ورجال

---

(٩) كان موت جودفروى يوم ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ ٠

(١٠) ذلك ان كنيسة بيت لحم كانت لاتعدو حتى ذلك الوقت أن تكون مجرد كنيسة عادية ٠

الاكليروس في القدس ، وألححت عليهم في الرجاء أن يناقشوا معي ذلك الموضوع ، فوافقوني على التماسي العادل ، وقرروا الذهاب الى رومة لبحثه مع موضوع كنيسة القدس التي كانت رياستها في ذلك الوقت شاغرة من غير رأس يدبر أمورها ، وكانت هذه السفارة مؤلفة من رئيس الشمامسة « أرنولف » ومن « أرشارد » الذي كان في ذلك الوقت كاهنا ، فمضيا الى رومة مؤيدين بالروح القدس ، ولقيا مساعدة كريمة في كلا الموضوعين من جانب بسكال بابا الكنيسة الجامعة ، ثم عادا بعدئذ الى بيت المقدس ، وقام البابا بسكال بعد رحليهما فأرسل الى بيت المقدس رئيس أساقفة « آرليس » المدعو « جبلين » وكان رجلا ألمعيا يحيا حياة شـــديدة الطهارة ، وعهد اليه في حضرة كل من « أرنولف وارشارد » بالقيام بهذه المهمة .

وقد قوبل « جبيلين » بأعظم فرحة من قبلي وقبل رجال الدين والشعب قاطبة ، وراح يتصرف وفق مايرى ، بناء على الأوامر التي تلقاها من البابا بسكال وبفضل حسن نيتي ، ورضاء جميع رجال الدين ببيت المقدس وتأييد المجتمع ، فقرر أن يصبح « اشتينوس » المبجل أول أسقف لبيت لحم ، وكانت له من قبل الرياسة على هذه الكنيسة ذاتها ، كما كان كبير مرتليها ، وهو الذي اختاره رجال الاكليروس بالقدس بناء على رغبتي ورغبة كبار رجالاتي والشـــعب ليكون أسقف عسقلان ، فجعل كنيسة عسقلان – تنفيذا لارادتي وأمري – تابعة لأبرشية بيت لحم الى حد ما .

« وأخيرا فانني – أنا بلدوين الذي هو برحمة الرب أول ملك لا تيني لبيت المقدس – قد رحبت مسرورا لقراراته هذه وأكدتها بكل قواي .

« كذلك منحت بمحض ارادتي الأسقف وخلفاءه ملكية مدينة بيت لحم ويكون لهم التصرف فيها ، وهي التي كنت قد أقطعتها

للكنيسة لخلاص روحى وروح أخى الدوق الرحيم جود فروى وجميع أرواح أقاربى ٠

« كذلك اقطعته ومنحته قرية فى اقليم عكا تدعى « البيدر » وأخرى فى اقليم نابلس اسمها « سيلون » وثالثة قرب بيت لحم اسمها بيت بيزان ، وكذلك قريتين فى أرض عسقلان هما «زوفير » وكيكفا بكل محلقاتهما ٠

« كذلك خلصت الكنيسة المشار اليها مماكانت تئن منه ومما كانت ترميها به كنيسة بيت المقدس فيما يتعلق بالأرض والبساتين الموجودة فى ضـــواحى بيت المقدس التى هى جـزء من أملاكى الخاصة ٠

« وزيادة على ذلك فاننى قررت أنه اذا استسلم احد رجال الدين أو العلمانيين للطمع الدنىء ، فتجاسر بعد موتى على شجب ما تم برضائى وتأييد الروح القدس (فيما يتعلق بكنيسة بيت لحم المعظمة باعتبارها موضع ولادة سيدنا ومخلصـــنا) ، وبمعونة بسكال العظيم بابا الكنيسة الرومانية الموقر وبواسطة وكالة نائبه « جبلين » رئيس أساقفة « آرليس » فان هذا الشخص سيعتبر متهما بالتعدى ، فان لم ينفع معه التحذير الكافى بالتراجع عما أقدم عليه فسيعاقب عقابا صارما وينفى نهائيا من مملكتنا ٠

« وزيادة على ذلك فانه اذا رغب أحد من نبلائى أو فرسانى أو مواطنى الملهمين بروح الرب فى أن يتنازل عن بعض ما يملك لهذه الكنيسة ذاتها من أجل خلاص روحه وأرواح أقاربه فاننى أمنحه الحرية فى تنفيذ وصيته الطاهرة ، وتعتبر هبته هذه نافذة شرعا ، وتؤخذ من أملاكه ٠

« ان قرار هذا التنازل وتقرير الأشياء التى تمت قد وضعت وتأكدت بامضائنا في سنة ١١١٠ من مولد سيدنا ، وفى الدورة الثالثة ، وفى زمن بابوية بسكال الثانى بابا الكنيسة الرومانية ، ووقت أن صار رئيس أساقفة « آرليس » « جبلين » نائب الكنيسة الرسولية هو البطرك المنتخب لبيت المقدس » شهد على ذلك :

أرنولف المطران : رئيس الشامسة ٠

ارشارد الكاهن ٠

استاس جرنييه ٠

انسلم قيم برج داود ٠

رالف دى فور تيانيتو ، فيكونت بيسللوس ٠

سيمون بن الدوق ٠

انفريد رجل الدين ٠

جيرار الحاجب ٠

وكثيرون غيرهم ٠

ـ ١٣ ـ

كان جلالة الملك الفاتح العظيم والعابد لله بالحق يسعى دائما وأبدا من غير ملل لزيادة رقعة المملكة التى عهد الرب بها اليه ، وحدث فى فبراير من تلك السنة ذاتها ان اغتنم فرصة مجىء بعض الشوانى لتمضية الشتاء فى المملكة فجمع من كل رحاب مملكته عسكرا بقدر ما استطاع الصليبيون تقديمه وحاصر بهم بيروت ٠

وتقع هذه المدينة على ساحل البحر فى فينيقية بين جبيل وصيدا ، وهى احدى المدن الكبرى التابعة لأسقفية صور ، وكانت فى القديم موضع رعاية الرومان الذين اعتبروها احدى مستعمراتهم ومنحوها حقوق المواطنية ، وحين كتب « أولبيان » عن ولاية فينيقية فى « مختصره » تحت عنوان « الاحصاء » قال : « تمتاز مستعمرة بيروت ــ الواقعة أيضا فى نفس الولاية ــ عن غيرها بالعطف السامى يحبوها به الامبراطور » ، ويتكلم هارديان المبجل عنها فى خطبة من خطبه باعتبارها مستعمرة « أوجستوس التى تتمتع بالحقوق الايطالية »، ولم يقتصر هذا الامبراطور على منح بيروت الحقوق الايطالية فحسب ، بل زاد فخصها بميزة أخرى هى حقها فى تأسيس المدارس الرومانية بها وهى ميزة لم تمنح الا لقلة من المدن .

ويطالع المرء فى الكتاب الأول من القانون الدستورى الذى يبدأ بقوله : « وفى بيروت يوجد أيضا مدرس القانون دوروثيوس » ، والمعتقد ان اسم هذه المدينة كان فى زمن سابق جدا هو « جيرسى » نسبة الى مؤسسها « جيرسيوس » خامس أبناء كنعان .

***

ولما وصل الملك بلدوين أمام بيروت استدعى اليه « برترام » كونت طرابلس ، طالبا منه الانضمام اليه ، وشرعا فى الحال فى الاطباق عليها أطباقا عنيفا ، ولكن أقبلت السفن من صور وصيدا وعليها المحاربون الشجعان استعدادا لمساعدة المدينة ، ولو أتيحت لهؤلاء الناس حرية الذهاب والمجىء لتبددت هباء جميع محاولات الذين حاصروها ، لكن حين وصل الأسطول المسيحى الذى كان الملك يعتمد على معاونته فى الحصار خافت تلك السفن المعادية أن تخرج الى عرض البحر ، وسرعان ما ارتدت الى الميناء ، ومن ثم لم يعد الأهالى قادرين على القدوم من البحر أو الخروج اليه .

وكان على مقربة من المدينة غابة من الصـــنوبر اســـتطاع الجيش المحاصر أن يحصل منها على كميات ضخمة من الخشب تصلح لصناعة سلالم التسلق وكل أنواع الآلات ، فصنعوا منها الأبراج الخشبية وآلات الرمى وشتى صنوف العدد النافعة فى الحصار ، وواصلوا هجومهم على المدينة بصورة لم تدع للمدافعين عنها ولو ساعة واحدة من الراحة بالليل أو النهار ، وأخذ الصليبيون يتناوبون العمل فى دوريات الواحدة منها بعد الأخرى ، فانهكوا قوى خصومهم اذ حملوهم من الجهد مالا يطيقون ، واستمر الصليبيون مدة شهرين فى هذه المهمة بهمة صارمة ، وبينما كانوا فى أحد الأيام يشنون غاراتهم على أماكن متفرقة من المدينة فى وقت واحد وبعنف أكبر مما يتطلبه العمل اذا برهط من العسكر قد نفذ صبرهم فقفزوا على السور من الأبراج الخشبية التى كانت مسندة الى الجدران ، واقتدى بهم غيرهم ، وانطلق غير هؤلاء يتسلقون سلالم الصعود ثم هبطوا جميعا وراء السور ، وشقوا طريقهم الى داخل المدينة ٠

لم يجد الأهالى حينذاك بدا من الفرار الى الساحل مما مكن جيشنا من دخول المدينة من غير ان يلقى كيدا واستحوذ عليها كلها ، ولما جاء الخبر بأن الملك وعسكره اقتحموا البلد وثب الصليبيون الموجودون على ظهور السفن الى اليابسة واحتلوا الميناء، وردوا الى الوراء بسيوفهم جموع الأهالى الذين فروا على وجوههم عسى أن يجدوا مكانا آمنا ، وأرغموهم على الرجوع حتى صاروا وســـط أعدائهم ، ولما شاء سوء طالع أهل البلد أن يحصروا بين فريقين معاديين لهم فقد ضاقت بهم السبل وضلوا الخطى ، فكانوا يمضون تارة نحو هذا الفريق وتارة نحو الفريق الآخر ، فتناوشتهم سيوف الجانبين فأهلكتهم ٠

وأخيرا استفظع الملك هذه المذبحة التى لاتعرف الرحمة ، فأمر أن ينادى بوقفها ، ومن بالحياة على من بقى على قيد الحياة من المغلوبين الذين راحوا يلتمسون رحمته ٠

وكان الاستيلاء على هذه المدينة يوم ٢٧ ابريل سنة ١١١٠ من ميلاد سيدنا ٠

ــ ١٤ ــ

وأبحر فى هذه السـنة ذاتها طائفة من الحجاج من الجزر الموجودة فى الغرب ، لاسيما من البلاد المسماة بالنرويج بعد أن سمعوا بخبر استيلاء أتباع المسيح الصادقين على مدينة بيت المقدس الطاهرة ، ومن ثم رغبوا فى الذهاب اليها طمعا منهم فى تأدية الواجب الدينى ، لذلك أعدوا أسطولا لابأس به وأقلعوا ، فهب عليهم ريح رخاء ظلوا معها مبحرين فى القنال الانجليزى حتى اجتازوا المضيق الموجود بين كالب وجبل أطلس ودخلوا بحرنا وسـاروا مصاقبين لساحله حتى بلغوا يافا ، وكان قائد أسطولهم شابا فارع القامة ، أبلج الطلعة هو أخو ملك النرويج ، فلما القوا مراسيهم بالميناء ونزلوا الى البر يمموا وجوههم مباشرة شطر القدس وهى الغاية المنشودة من حجهم هذا ٠

ولما ترامى نبأ وصولهم الى سمع الملك أسرع الى مقابلتهم ورحب ترحيبا كريما بالأمير محييا اياه ، وحاول فى اثناء حديثه الودى ان يتأكد عما اذا كانت هذه الحملة البحرية تعتزم البقاء فى المملكة بعضا من الوقت ، فان كان الأمر كذلك فهل يقبلون ان يبذلوا عن طيب خاطر بعضا من وقتهم لخدمة المسيح حتى يسـتطيع الصليبيون بفضل جهودهم الحماسية أن يزيدوا رقعة ما يملكون باستيلائهم على واحدة من مدن الكفار ؟ ٠

وبعد أن تشاور الاسكندناويون فيما بينهم أجابوه بأنهم ما جاءوا الا بهدف تكريس أنفسهم لخدمة المسيح ، وزادوا على ذلك بأنهم على أتم أهبة للابحار على وجه السرعة الى أى مدينة ســـاحلية يريد الملك وجيشه محاصرتها ، ولم يطلبوا ثمنا لقاء خدماتهم هذه سوى امدادهم فقط بما يلزمهم من الطعام ٠

أصاخ الملك الى ماقالوه والفرحة تغمره ، وسرعان ما تجمع لديه حشد كثيف من جند المملكة صار جيشا ضخما زحف به لحظة ابحار الأسطول من ميناء عكا وأسرع ما وسعه الاسراع حتى وصل الجيشان أمام المدينة فى وقت واحد تقريبا ٠

* * *

وصيدا ، مدينة بحرية بالغة الأهمية ، وتقع بين بيروت وبين صور العظيمة التى تعتبر جزءا هاما من فينيقية ، وكثيرا ما ترد الاشارة اليها فى كتابات المؤلفين القدامى والمحدثين على السواء ، فمن ذلك ان سليمان فى كتاب الملوك يكتب الى حيرام ملك صور فيقول :

« والآن فآمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ، ويكون عبيدى مع عبيدك ، وأجرة عبيدك أعطيك اياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين »(١١) ٠

ويشير سيدنا أيضا فى الانجيل الى هذه المدينة فيقول : « لو صنعت فى صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديما فى المسوح والرماد »(١٢) ٠

---

(١١) ملوك أول ٥ : ٦ ٠
(١٢) متى ١١ : ٢١ ٠

ونقرأ فيما نقرأ أن المدينة تأسست على يد كنعان حيث لانزال الى اليوم نحتفظ باسم منشئها ، كما انها تعد واحدة من المدن العظمى التابعة لمطرانية صور ٠

وهكذا أحدقت قواتنا بصيدا بحرا وبرا حتى تملك الأهالى الخوف بصـــــورة أدركوا معها ألا جدوى من وراء مقاومتهم هذه القوات وأيقنوا أنهم عاجزون عن الصمود فى وجهها ، ودفعتهم الرغبة فى تجنب الخطر المحدق بهم الى محاولة الحصول بالحيلة على ما يعجزون عن نيله بالقوة ٠

* * *

وكان فى حاشية الملك رجل يدعى بلدوين وكان من أخلص الناس له ، ويعتبر حاجبه الخاص ، وكان فى بادىء أمره وثنيا ، ثم طلب أن يعمدوه ، فلم يكتف الملك بدافع من حماسته الدينية أن يرحب به فى جرن المعمودية المقدس ، بل سماه باسمه ، وجعله واحدا من خاصكيته ٠

واذ كان كبار رجال صيدا قد أجمعوا عزمهم على التماس أى وسيلة لتحرير أنفسهم ، فقد أرسلوا فى السر وسطاء لمفاوضة هذا الرجل ، ووعدوه بقدر كبير من المال وبأملاك شاسعة فى المدينة ان هو تمكن من اغتيال الملك فيخلصهم بذلك من خطر كبير ، وكان هذا الرجل بلدوين (المتنصر) مقربا من الملك كل القرب أثيرا عنده ، وكثيرا ما كان يصاحب مولاه ولاأحد معهما ، بل انه كان يرافقه حتى حين يمضى لقضـــــاء حاجته الطبيعية ، ومع ذلك فقد رحب بالاقتراح الذى عرضوه عليه ووعدهم بتنفيذه ، والواقع أنه كان ضالعا تماما فى الجريمة ، ولم يكن ينتظر الا اللحظة المناسبة لانجاز فعلته ٠

غير أن طرفا مما دبروا ترامى الى علم بعض مسيحيى المدينة الذين خافوا أن يتم هذا العمل البغيض بسبب غفلة الملك ، فبعثوا اليه خطابا مجهولا يفصلون فيه المؤامرة ، وربطوه بسهم رموه فوقع فى وسط جيشنا ، وشاءت الصدفة أن يقع الكتاب فى يد الملك فيتبلبل خاطره أشد بلبلة ، وحق له أن ينزعج ، فاستدعى اليه فى الحال جميع كبار نبلائه وسألهم ماذا يشيرون عليه فيتبعه ، ثم جاءوا بالمذنب أمامهم فاعترف بجرمه ، وقضى القضاء بموته شنقا ٠

حين ذاع فشل هذه الخطة حاول الأهالى بلوغ غايتهم بطريقة أخرى ، اذ بعثوا رسلا يلتمسون الاذن لكبار رجالهم بمغادرة صيدا، على أن يبقى الأهالى على ما كانوا عليه من قبل وفق شروط مقبولة حتى يتابعوا زراعة الحقول ، فأجيبوا الى ما التمسوه ، واستسلمت المدينة ، وأذن لوجوه القوم بالرحيل من غير مضايقة والذهاب حيثما شاءوا ، مستصحبين معهم حريمهم وأولادهم ٠

وبادر الملك فى لحظته هذه فتفضل على أحد نبلائه وهو « أستاس جرنييه » فأقطعه المدينة (أى صيدا) وجعلها وراثية فى عقبه ، فلما تم ذلك استأذن رجال الأسطول (النرويجى) فى العودة من حيث جاءوا فأذن لهم فرحلوا محملين بالهدايا الثمينة ، وعادوا الى بلادهم ، تشيعهم دعوات الجميع ٠

وكان الاستيلاء على المدينة يوم ١٩ ديسمبر سنة ١١١١ من مولد سيدنا ٠

— ١٥ —

مات فى غضون هذا الوقت « جبلين » بطرك بيت المقدس الطيب الذكر ، فاختير مكانه (من غير تأييد الاهى فى رأينا) أرنولف كبير رجال الدين الذى عرف على ألسنة العامة بذى التاج المشين ، وهو

الرجل الذى أشرت اليه كثيرا فى الصفحات السابقة ولكن « حتى لا يملك الفاجر ولايكون شركا للشعب»(١٣) ، ظل « أرنولف » يتابع نهجه الذى أخذ نفسه به سابقا ، ثم زاد فارتكب كثيرا من المعاصى تفوق ما ارتكبه من قبل ، منها أنه زوج بنت أخته(١٤) للورد «أستاس» جرنييه » أحد عظماء المملكة وحاكم المدينتين الرائعتين : صيدا وقيسرية ، وحين زفها اليه أقطعه معها أحسن أرض من أوقاف الكنيسة وهى « أريحا » بكل ملحقاتها مع دخلها السنوى الذى يقال انه يبلغ اليوم خمسة آلاف قطعة من الذهب ، كما أن أرنولف هذا لم يتورع — حتى وهو فى كرسى البطركية — عن ممارسة حياة الدنس حتى صار عاره أمرا معروفا للجميع غير خاف على أحد ، ولم يحاول هو كتمان هذه الحقيقة فبدل النظام الذى كان القادة الأوائل قد أرسوا قواعده بعد تدبر دقيق فى كنيسة بيت المقدس ، فسن هو شرائع جديدة ، كما أغرى الملك بالزواج من امرأة أخرى فى الوقت الذى كانت زوجته لاتزال حية ، كما سنسوق ذلك فى موضع آخر .

— ١٦ —

لم تكد تنقضى فترة قصيرة على سقوط صيدا حتى حشد القوم بفارس جيشا ضخما أرادوا من ورائه التظاهر بماهم عليه من قوة ، حتى يتسنى لهم التفاخر فى أيامهم القادمة ، وانطلقوا بهذا الجيش الى بلاد الشام فكانوا وباء استشرى خطره فى المسيحيين ولم يسلموا منه منذ أول قدوم اللاتين حتى السنة الأربعين من تأسيس المملكة ، وكان هذا الطاعون أشد فتكا فيهم من الحية « هيدرا » ذات الرؤوس

---

(١٣) أيوب ، ٣٤ : ٣٠ .

(١٤) هى الكونتيسة أوليدا الصقلية الثرية ، ثم بدا له وقد دنا أجله أن يتوب عن اثمه ، وان يرد اليه زوجته السابقة .

التسعة التى ما ان تقطع لها رأس حتى تظهر أخرى مكانها تزيد من شــــرها ، فقد كان يحدث كل عام تقريبا أن تخرج من قلب فارس جموع كثيفة من ذلك الشعب البغيض ، وينساب فى أرتال ضخمة تكاد تغطى وجه البسيطة ، ولكن الرحمة الالهية عطفت على آلامنا فأقامت مملكة استطاعت أن تقف فى وجه سفاهة الفرس المستبدين ، وتمثلت هذه المملكة فى شعب الايبيريين(١٥) الذى شاءت رحمة الرب ان يتزايد فى العدد والبأس بفضل نجاحه المتواصل ، حتى تمكن من القضاء على جبروت الفرس الذين كان الايبيريون من قبل يتوجسون منهم خيفة ، ويفزعون منهم فزعا شديدا ، أما الآن فقد جاء دور هؤلاء وأصبحوا أكثر من الفرس جندا ويفوقونهم فى اســـــتعمال السلاح ، وهكذا فان السلاجقة الذين ظلوا مدى طويلا يبثون الفزع – حتى فى أقصى الممالك عنهم – أصبحوا الآن يحسون بالرضا ان هم وجدوا شيئا من السلام ولو مؤقتا داخل حدود بلادهم ٠

***

ونرى أن ايبريا المعروفة أيضا باسم « افسجوبيا » تتصل بفارس من الشـــــمال ، وأهلها قوم طوال القامة عرفوا بقوتهم الجثمانية وبطشهم وبحبهم للقتال ، وقد مكنتهم ممارستهم الحروب وهجماتهم المستمرة من أن يمرغوا فى التراب أنف القوات الفارســـية التى أصبحت تشعر بأنها غير مكافئة لهم ، ومن ثم أصبح الفرس جزعين على حالهم وكفوا عن اجتياح أراضى الغير ٠

---

(١٥) أشارت الترجمة الانجليزية (ج ١ ص ٤٩٠ حاشية رقم ٦٧) الى أن ايبريا IBERIA التى نسب اليها هذا الشعب كانت احــدى ولايات الامبراطورية البيزنطية الادارية قبل مقدم السلاجقة ، وتقع جنوب القوقاز ٠

اقد خرج ذلك الجيش الضخم (أعنى سلاجقة فارس) كما قلت من بلاده مارا ببلاد العراق فعبر نهر الفرات العظيم مخربا النواحى التى يمر بها هناك ، وحاصر تل باشر حيث أمضى شهرا بأكمله يبذل الجهود المضنية أمام هذا المكان ، لكنها ضاعت هباء ، حتى اذا يئس فى النهاية من النجاح رآى التخلى عن هذه المحاولة فمضى الى حلب، واذ كان يعتمد على كثرة عدده فقد كان يطمع أن يرغم تانكريد على الخروج والاندفاع فى مهاجمته دون أن يأخذ حذره • غير أن تانكريد كان رجلا كيسا لا يصدر عنه عمل الا عن روية وتفكير ، فبعث بالكتب على أيدى رسل من قبله الى بلدوين يلتمس منه فى ضراعة أن يسرع ما وسعته السرعة للحضور لنجدته والوقوف الى جانبه ، فجمع بلدوين فى الحال عسكره ، واستصحب معه « برترام » كونت طرابلس ، وزحفا الى تلك الناحية بجيوشهما ، فلما وصلا الى مدينة « الروج » وجدا تانكريد قد سبقهما اليها ، فساروا جميعا جنبا الى جنب ، وتقدموا ضد الخصم الذى وجدوه معسكرا عند شيزر حين بلغوها •

وأخذ كل من الجيشين يطالع الآخر ويتأمله ، وانتهى الأمر أخيرا بانصراف الترك عن القتال ومغادرة تلك الناحية ، واذ ذاك استأذن الصليبيون بعضهم بعضا فى الرجوع فعاد كل الى بلده •

— ١٧ —

فى هذا الوقت كانت جميع المدن الساحلية الممتدة من اللاذقية بالشام حتى عسقلان — التى هى آخر مدن المملكة — قد صارت فى يد الصليبيين ، باستثناء صور التى كانت لاتزال وحدها فى أسر الجاحدين ، ولما شاءت ارادة الرب أن يتمكن الملك من تحرير كل ماسواها فقد أزمع بلدوين الأول على أن يكرس نفســـه لتخليص صور أيضا ، فجمع كل السفن التى أمكنه العثور عليها على امتداد

الساحل كله ، وجعلها أسطولا وجهه للسير الى تلك المدينة بأقصى سرعة ، وكذلك حشد كل القوات البرية ، وجمع الناس من شتى رحاب المملكة ومشى بهم الى هناك ، وجعل من عسكره دائرة أحاطت بالمدينة من كل جهاتها وحاصرتها ٠

***

وتقع صور فى قلب البحر أشبه بجزيرة تحيط بها المياه من كل جانب ، وهى عاصمة فينيقية وقصبتها الدينية التى تمتد من نهر « بانياس » الى « بترا انكسيا » على حدود « دورا » وتضم فى نطاقها أربع عشرة مدينة كبرى ٠

وسنفصل فيما بعد جميع المزايا التى يتمتع بها موقع هذه المدينة حينما نأتى الى رواية خبر حصـارها النهائى والاستـيلاء عليها بمشيئة الرب ٠

***

وهكذا فرض الحصار على صور ٠

ولما كان بلدوين شديد التطلع لنجاح مشروعه فانه صرف نفسه قلبا وروحا الى مراوحة المكان ومفاداته بشتى أساليب المضايقة حتى يحمله على الاستسلام ، ولم يترك وسيلة من وسائل الحصار الا وطبقها ، باذلا غاية جهده لادخال مدينة صور تحت سيطرته، وراح يواصلها بسلسلة من الغارات قد أخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، فأنهكت قوى الأهالى ، وزلزلت أسوار المدينة وأبراجها من كثرة ما كانت ترميها به الآلات ، كما سقط على البلد وابل غير منقطع من السهام والرماح ، وعمد بلدوين ــ رغبة منه فى صب الأهوال على

المدينة ـ الى اصدار أمره ببناء برجين خشبيين أعلى من جميع الأبراج الحجرية ، حتى أصبح من اليسير على المرء ـ وهو واقف فوقهما ـ أن يشاهد المدينة كلها تحته • وقد استفاد بلدوين من هذين البرجين أجل فائدة لما كانا ينزلانه بالبلد من الخراب والدمار اللذين لم يكن هناك سبيل للنجاة منهما •

غير أن أهل البلد أثبتوا أنهم رجال أذكياء وابطال مغاوير ، بارعون فى تدبير كل أنواع المكائد ، فكانوا يقابلون كل خطة بخطة مثلها ، ويجدون فى دفع كل ضر ينزل بهم بضـــر مثله يلحقونه بالصليبيين ، من ذلك أنهم جلبوا كميات كبيرة من الأحجار والاسمنت، واعتلوا برجين يواجهان آلاتنا الحربية تمام المواجهة ، ثم راحوا يزيدون فى ارتفاعهما زيادة تشأو ارتفاع أبراجنا ، وسرعان ماصار برجاهما فى وقت قصير جدا أعلى من الآلات الخشبية التى أمامهما، والموجودة خارج الأسوار ، وشرع من بهما من مدافعيهم يصبون النيران على الآلات الحربية التى تحتهم ، وتأهبوا لحرق كل شىء دون أن يجدوا معارضا لهم •

حينذاك رأى الملك ان كل خطة يدبرها تقابل فى الحال بخطة مثلها تفسدها ، هذا بالاضافة الى ما أصابه من انهاك بسبب مواصلة العمل الطويل الذى استمر أربعة شهور أو أكثر دون أن يجنى منه أى فائدة ، واذ ذاك أدرك أنه مضيع وقته أمام أسوار صور ، فتخلى عن محاولته هذه ، مغلوبا على أمره فى مشروعه ، ورفع الحصار عن المدينة وانكفأ عائدا الى عكا ، وفرح الباقون بالرجـــوع الى ديارهم •

- ١٨ -

مات فى هذه الاثناء تانكريد ذو الذكر الطيب والمخلص للسيد ، وستظل كنيسة القديسيين الجامعة تبكيه وتذكر أياديه عليها وتشيد بتقواه ،وحدث وهو مسجى على فراش موته أن كان ممن يقومون على خدمته شاب اسمه « بونس » هو ابن برترام كونت طرابلس ، ويقال انه لما عرف تانكريد أن قد دنى يوم رحيله عن هذه الدنيا أمر بأن يحضروا اليه كلا من زوجته سيسيليا ابنة فيليب ملك الفرنجة وبونس ، ونصحهما أن يتزوج كل منهما الآخر بعد موته ، وتم تنفيذ الوصية بحذافيرها اذ لم يكد تانكريد يسلم أنفاسه ، ويتبعه برترام كونت طرابلس والد الشاب بونس حتى تزوج بونس هذا من أرملة تانكريد .

كما أن أحد(١٦) أقارب تانكريد واسمه « روجر بن ريتشارد » خلفه حسب وصيته الأخيرة فى امارة أنطاكية على شرط أن يردها الى بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير حين يبلغ السن القانونية ويطالب بأنطاكية ، ويكون رده لها بلا منازعة أو جدال .

وقد تم دفن تانكريد العظيم فى ظلة كنيسة الرسل فى سنة ١١١٢ من مولد سيدنا .

- ١٩ -

ولما جاء الصيف التالى ، أعنى صيف سنة ١١١٣ من مولد سيدنا ، بعثت فارس للمرة الثانية بعسكر من عسكرها لا يحصيهم العد ، فكانوا أشبه ببركة أقذار يتفجر منها على الدوام الماء الآسن المؤدى الى نشر الوباء ، وكان هذا العسكر بقيادة أمير قوى شريف

---

(١٦) قيل انه كان ابن أخت تانكريد .

المنبت اسمه « مودود » الذى سارت فى ركابه قوات كثيرة يعجز العد عن احصائها فاجتاز بهم المناطق الوسطى حتى بلغ الفرات حيث سار على خطة خالف بها خطة الجيوش التى سبقت جيشه والتى جرت عادتها على تجربة قوتها ، لكن خاتمة خطة مودود هذه المرة دلت على انها كانت تباين كل ما سبقها من حيث التدبير والقصد ، اذ عبر كل بلاد أعالى الشام جاعلا دمشق على يساره ، ومر بطبرية الواقعة بين جبل لبنان والساحل ونصب معسكره عند الجسر الموجود على نهر الأردن ٠

فلما وصل هذا الخبر الى الملك ـ وكان يعرف اعتماد خصومه على كثرة عددهم ـ دعى لمساعدته كلا من روجر بن ريتشارد أمير انطاكية وكونت طرابلس ، ولكنه تعجل الرحيل مع عسكره قبل وصول هذين الأميرين ، ونصب خيامه فى الناحية الموجود بها عدوه ، فما كاد الفرس يكتشفون ذلك حتى أدركوا أنهم فى حاجة الى التدبير الحربى أكثر من حاجتهم الى الوفرة العددية ٠

ومن ثم أرسلوا ألفى فارس ، وأمروا ألفا وخمسمائة منهم أن يكمنوا لعسكر الملك فى بعض الطريق ، أما الخمسمائة الباقون فقد كلفوهم بالتقدم فى غير نظام حتى تجوز المكيدة على الملك فيمضى فى مطاردتهم ٠ وتم تنفيذ كل شىء وفق ما رتبوا ، اذ ما كاد الملك يبصر هؤلاء الخمسمائة فارس يسيرون بجيادهم غير مبالين بشىء ولا آخذين حذرهم كأنهم يفرون حتى استدعى اليه رجاله واندفع بهم اندفاعا أهوج ضد هؤلاء الفرسان وانطلق يطاردهم فى طيش ، فاذا به يسقط فى الكمين الذى نصبوه له ، ومالبث ان طلع عليه الأعداء من مخابئهم ، فاذا هم قوة كبيرة ، كما عاد الخمسمائة فارس وانضموا اليهم ، وتجمعت هذه القوات فشنت هجوما شرسا على رجالنا الصليبيين الذين عمدوا فى أول الأمر الى مقاومتهم بالسيوف

وقاتلوهم قتالا عنيفا لعلهم يردونهم على أعقابهم ، ولكن كانت الغلبة للعدو بسبب كثرته التى اجتاحت رجالنا وأرغمتهم على الفرار ، ولم يسعفهم هذا القرار بالسلامة بل جرت مذبحة مروعة فى صفوف الهاربين ، حتى ان الملك ذاته ألقى بعلمه الذى كان فى يده الى الأرض ، وكانت نجاته هو احدى المعجزات ، وجرى مثل هذا على أرنولف البطرك الذى كان معه ، وعلى غيرهما من سادات المملكة ، اذ فروا مخلفين وراءهم المعسكر بكل متاعهم ٠

وهكذا استولى العدو على مخيمنا ، وعوقبنا على خطايانا ، فدب الاضطراب فى صفوف شعب الرب على أقبح ما يكون الاضطراب ، ويرجع السبب فى هذه النكبة الى الملك الذى لم يطق صبرا حتى تصل اليه النجدة اطمئنانا منه الى شجاعته الذاتية ٠ مع أن روجر أمير أنطاكية وكونت طرابلس كانا قريبين منه كل القرب ، وليس من شك فى أنهما كانا سوف يصلان اليه فى مدى يوم أو يومين ٠

وهلك فى ذلك اليوم ثلاثون فارسا صليبيا وألف ومائتا جندى من المشاة ، ثم وصل القائدان الكبيران القويان اللذان أشرنا اليهما حالا ، (وهما أمير أنطاكية وكونت طرابلس) فى أعقاب هذه الملمة ، فلما أحيطا خبرا بالنكبة التى ألمت بالملك لاماه على تهوره ، ثم انضمت القوات كلها بعضها الى بعض حتى صارت جيشا واحدا عسكر فى الجبال المجاورة حيث كانوا يستطيعون أن يطلوا على جيوش العدو وهى تحتهم فى الوادى ٠

ولما أدرك خصومنا أن المملكة خلت من المدافعين عنها بعثوا زمرا من عسكرهم الى كل ناحية فاجتاحت الاقليم بأجمعه وجاست

خلال الديار سافكة الدماء فى كل جهة مرت بها ومضرمة النيران ، ناهبة القرى كما أمسكت بالفلاحين وسارت فى الاقليم كله كما لو كانت تحتله ٠

ولقد هجرنا فى تلك الأيام خدمنا وكذلك الشرقيون الساكنون فى قرانا المسماة بالمستعمرات ، وانضموا الى كتائب العدو وأرشدوهم الى كيفية القضاء علينا ، وكان ذلك أمرا ميسورا عليهم لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعنا ، اذ ليس هناك وباء أشد فتكا بالمرء وأشنع فعالية من عدو داخل بيته ٠

واذ استرشد العدو بهؤلاء الرجال فقد أصبح أقدر عن ذى قبل بسبب مساعدتهم اياه فاستمر فى عيشه بالمدن والقلاع ينهب الغنائم، ويأسر الناس ، ومجمل القول ان المملكة بأجمعها قد آلت الى حال من الفزع الشديد أدى الى عدم تجرؤ أحد ما على الخروج من التحصينات ٠

ـ ٢٠ ـ

ولقد حدث حادث أكمل فزع قومنا اكمالا تاما ، ذلك أن العسقلانيين كانوا يعرفون أن الملك قد اضطرته الظروف للبقاء فى طبرية مع جميع قوات المملكة ، وأن العدو يسيطر فى الواقع على كافة أرجاء الناحية ، ومن ثم تسللوا كالدود القارض فى عسكر ضخم الى الاقليم الجبلى ومضوا يحاصرون بيت المقدس التى كانت مجردة اذ ذاك تماما من كل قوة تدافع عنها ، فلم يكن أحد يقابلونه خارج المدينة بمنجاة من وقوعه فى أيديهم قتيلا أو اسيرا ، كما أشعلوا النار فى تلال الغلال التى جمعها الفلاحون فى الأجران

بعد أن استوت على سوقها ، وظل الجاحدون مقيمين بضعة أيام أمام بيت المقدس ، وان كان كافة أهلها قد أخذوا حذرهم منهم فظلوا مقيمين وراء أسوارها ، ثم تملك الخوف المهاجمين من عودة الملك فارتدوا أخيرا الى بلادهم ٠

وكان الصيف وقتذاك يخلى مكانه سريعا لفصل الخريف الذى جرت عادة السفن فيه أن تبدأ بجلب الحجاج الذين ما أن علم من جاء منهم بالأهوال الجسام التى يصطليها الملك وشعبه ، حتى أسرع مشاتهم وفرسانهم بالانضمام عن طيب خاطر الى جيشه ، مما نجم عنه تزايد أعداد عسكرنا يوما بعد يوم زيادة ملحوظة ، وهو أمر لم يخف على فؤاد عسكر الجاحدين الذين اســتبد بهم الرعب من أن يستعد الصليبيون بهذه الامدادات الضخمة للانتقام مما نزل بهم من النكبات ، ومن ثم شدوا رحالهم الى دمشق ، وفعل الصليبيون فعلهم فكروا راجعين الى ديارهم ٠

وحين وصل الى دمشق مودود قائد الجيوش المعادية الذى كان قد أنزل كثيرا من البلوى بالمملكة اغتاله الحشاشون ، ويقال ان ذلك الاغتيال تم بعلم الملك طغتكين وموافقته اذ كانت الشــائعة انه لم يكن يأمن بأس هذا القائد ، ويخشى أن يحرمه من المملكة ٠

ـ ٢١ ـ

بعد رجوع الجيش الصليبى والجميع الى ديارهم قدم على الملك رسول يعلن اليه وصول (أدليد Adelaide كونتسة صقلية الى ميناء عكا ، وكانت هذه السيدة النبيلة هى أرملة روجر الملقب ببورصة أخى روبرت جيسكارد ، وكانت فاحشة الثراء ، واســعة النفوذ ، وكان الملك قد بعث فى السنة المنصرمة اليها بعض اشرافه يلحون عليها أن تقبل الاقتران به ، فانهت رسالته هذه الى ابنها

روجر الذى صار فيما بعد(١٧) ملكا على صقلية وشاورته فى الأمر ويبدو انهما ادركا ما وراء هذا الرجاء من خير للجانبين ، فوافقا عليه وان أوقفا قبولهما على أن يستجيب الملك لشروط اشترطاها ، ننص على انه اذا مات الملك (بلدوين) وقد أنجب طفلا من الكونتيسة آلت المملكة الى هذا الوليد دون أية معارضة أو منازعة فى الأمر ، اما ان وافاه أجله دون أن ينسل ورثه ابنها الكونت روجر وخلفه ملكا على المملكة لا يشـــــاققه فى ذلك أحـــد ، ولا ينكره عليه جاحدا ، وكان الملك قد أوصى رســـله — حين رحيلهم عنه — ان يستجيبوا لكل ما تشترطه الكونتسة ، وألا يدعوا وسيلة من الوسائل الممكنة الا عمدوا اليها ليعودوا وفى صحبتهم الملكة، لأنه كان قد سمع بثرائها وانها تملك من كل شىء قدرا عظيما بفضل ما بينها وبين ولدها من حسن الرابطة ، على حين انه هو (أعنى الملك) كان على العكس منها مملقا ذا متربة ، لاتكاد موارده المالية تكفى متطلباته اليومية وسداد رواتب فرسانه ، ومن ثم فانه تطلع أن يزيد هذا الزواج من دخله الضئيل بفائض مما تملكه (أدليدا) وهو فائض ضخم ·

ووافق الرسل عن طيب خاطر بالشروط التى قدمت اليهم ، واستجابوا لماطلب منهم ، واقسموا اليمين على ذلك، مؤكدين ان الملك وكبار نبلائه سوف يوافقون على الشروط من غير غش ولا نقض ·

حينذاك استعدت الكونتسة للسفر ، وجهزها ابنها بكل مايلزمها، فأوسقت السفن بالحنطة والنبيذ والزيت واللحم القديد ، ورتب عليها الرجال وهم فى كامل أسلحتهم ، والفرسان بخيولهم المطهمة، وحملت الكونتسة معها قدرا كبيرا من المال ، وأخذت معها كل متعلقاتها دون أن تترك وراءها شيئا ، ووصلت الى بلادنا كما ذكرنا ·

---

(١٧) أى فى سنة ١١٣٠ ·

كان قد احكم تدبير هذا المشـــروع البطرك « أرنولف كما شرحنا من قبل خديعة منه لهذه السيدة الشريفة ، اذ لايستطيع احد أن ينكر أنه قد غرر بها ، لأنها ظنت لطيبة قلبها وصفاء نيتها ان الملك فى وضع يجيز له شرعية الزواج منها ، وهو أمر كان يبعد كل البعد عن الحقيقة ، لأن زوجته التى كان قد عقد قرانه عليها عقدا شرعيا فى الرها كانت لاتزال حية ترزق • وبعد أن أرست الكونتسة تجددت كل الوعود والأيمان على نفس الصورة التى تمت من قبل فى صقلية ، وكان هذا التجديد فى حضرة الملك والبطرك وكبار رجال المملكة ، ولكن لما كان هذا الحلف قد تم بليل وبقصد شرير ، ولم يكن صادرا من قلب صاف فكان أمره الى الله الذى لم ينعم على هذه المرأة ـ رغم طيبتها ـ ببركة الانجاب المعتاد طول اقامتها بالمملكة ، وانتهى الأمر اخيرا بأن حل الشجى محل الغبطة ، والحزن محل الفرحة ، كما سنذكر ذلك فى الصفحات التالية ، ذلك لأن الأشياء التى تبدأ بداية سيئة قل ان تنتهى بالفلاح ، ومع ذلك فان وصولها أجدى ـ بعض الوقت ـ على المملكة كثيرا من النعم ، حتى ان أقل ما يقال هو ما قيل(١٨) : « من ملئه نحن جميعا اخذنا ، ونعمة فوق نعمة » •

ـ ٢٢ ـ

حدث فى تلك الأيام ان اجتاحت المجاعة بلدة الرها ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى قسوة الجو التى أفسدت الزرع وأضرت به ، كما يرجع بعضه الآخر الى وقوع الناحية بين المتربصين لها بالسوء ، واحدق العدو بها من كل حدب وصوب احداقا بث الخوف منهم فى نفوس المقيمين بها ، حتى حـــال بينهم وبين العنـــاية بزراعتها ، مما ترتب عليه اضطرار النازلين بها وبالأقاليم المجاورة

(١٨) يوحنا ١ : ١٦ •

لها تحت شدة الحاجة الى أن يأكلوا خبز الشعير بل والمخلوط أحيانا بحب الصنوبر •

***

اما أرض لورد جوسلين فقد نعمت بالسلام لوقوعها على ذلك الجانب من الفرات الذى وفر لها الغلة وأسعفها بكثير من مواد المعيشة ، غير ان جوسلين ــ رغم امتلاء بلاده بكل ما هو طيب ــ سلك مسلكا غبيا فيه جحود للنعمة التى هو فيها ، فلم يقدم أى شىء من فائض ما عنده لسيده الذى تربطه به أيضا وشيجة القربى ، والذى يدين له بكل ما تملكه يداه رغم معرفته التامة ان الكونت وشعبه كانوا فى اشد الحاجة •

ثم حدث أن تهيأت الفرصة لكونت بلدوين لأن يبعث بالرسل فى أمر شخصى بحت الى روجر ابن ريتشارد أمير أنطاكية الذى كان قد تزوج واحدة من أخوات الكونت ، ومر هؤلاء الرسل بالفرات فى ذهابهم وايابهم واجتازوا أرض جوسلين الذى أكرم وفادتهم وتلقاهم لقاء كريما ، غير ان رهطا من أتباعه فعلوا فعل السفهاء ، فأخذوا يتندرون على الرسل ويسخرون من فقر بلدوين ، ويتباهون فى الوقت ذاته بما يملكه مولاهم من مال كثير ، وبما عنده من فائض غزير من القمح والنبيذ والزيت ومواد الأكل والأحمـــال الثقيلة من الذهب والفضة ، وما تحت يمينه من الفرسان والجند والمشاة ، وزادوا على ذلك بأن قالوا قول ذى اللسان البذىء الذى لا يأبه بشىء مطلقا ان الكونت ليس بأهل لحكم البلاد ، وان الأجدى عليه ان يبيع كونتيته الى مولاهم لورد جوسلين فينقده عليها مبلغا كبيرا من المال ، ثم يعود الى فرنسا •

ولقد مزقت هذه الملاحظات نياط قلوب الرسل رغم ما بذلوه من جهد لكتم مشاعرهم ، وعلى الرغم من أن هذه الأقوال قد صدرت من أشخاص ليسوا فى العير ولا النفير الا أنها بدت وكأنها انعكاس لأحاسيس سيدهم (جوسلين) الذى استأذنه الرسل حينذاك فى الانصراف وعادوا الى الكونت (بلدوين) ، فلما صاروا عنده أفضوا اليه بالخبر كاملا غير منقوص ، وحدثوه بكل ما جرى فى رحلتهم ، بما فى ذلك الملاحظات التى قيلت فى بيت لورد جوسلين ، فاستشاط الكونت غضبا مما حدثوه به ، وراح يفكر تفكيرا عميقا فيما سمع ، فهداه يقينه الى ان جوسـلين هو مصـدر كل هذه الأحاسيس ، وأنها لم تتولد الا فى خاطره ، وغضب من ان رجلا كان هو سبب ثرائه الفاحش ، وكان المنتظر منه ان يقوم بأداء كل ما يفرضه ما أحسن به عليه من ماله الخاص فيفعل نقيض مايقضى به الذوق اذ راح ينتقصه ويزرى بفقره ، كأن الفقر رذيلة ونقيصة ، وبين ان الضيق الذى ألم به لم يكن راجعا الى غفلة منه ، لكنه قضاء شاءه قدره ، وأن ليس له من قوة على دفعه ، وزيادة على ذلك فان الثروة الضخمة التى ينعم بها الآن جوسلين ويتباهى بها انما هى بعض مما كان يملكه الكونت ، ولذلك جاش مرجل الغضب فى صدره عليه ، فتظاهر بالمرض ، ولازم فراشه وأشار على من حوله أن يستدعوا اليه على جناح السرعة قريبه جوسلين الذى بادر اليه غير متوجس خيفة ولا مستريب منه ولا مقدر أن قد يلحقه أذى من هذه الرحلة ، فلما بلغ مدينة الرها وجد الكونت فى قلعتها فى القسم المعروف باسم رانحولات « وأبصـره راقدا فى حجرة داخلية ، فأدخلوه عليه ، فلما فرغ من أداء التحية الواجبـة فى مثل هذا المقام سأل الكونت عن صحته فأجابه بلدوين « لقد تحسنت كثيرا بفضـل الله تحسـنا أكبر مما تود أنت » ، ثم تابع كلامه قائلا له :

« الا خبرنى ياجوسلين : هل تملك شيئا الا ما منحتك اياه ؟ »،
فأجابه جوسلين « كلا يامولاى فقال له الكونت » لماذا وأنت فى
بحبوحة النعيم والثروة اللتين تدين بهما الى تكفر بالنعمـــــة التى
أغدقتها عليك ولا تشكرها شكر المقر بحقها ؟ ، ولماذا لا تتعاطف معى
— وأنا المحسن اليك — فى حاجتى التى لم تصبنى بسبب رعونة من
جانبى ، ولكنها من جراء أمور لا يستطيع احد أن يتجنبها مهما بلغ
من الحكمة والمهارة لأن ذلك لم يحصل من غير قضاء الله ؟ ، ولماذا
لا تعيد الى بعض الذى أقطعتك اياه ، لكنك بدلا من ذلك رحت تتهكم
على فتعيرنى بالفقر الذى ابتلانى به الرب ، كما لو كان هذا الفقر
خطيئة أو اثما ؟ فهل ترانى بلغت من العوز الحد الذى يجب على
أن أبيع لك فيه كل ما أنعم به الرب على ثم أرحل هاربا كما تريد أنت؟
والآن ياجوسلين عليك أن تعيد الى كل الأملاك التى منحتها لك ،
وكل شىء أقطعتك اياه ، لأنك سلكت سلوك جاحد نعمة لا يستحقها
وليس بأهل لها » .

فلما فرغ الكونت من كلامه هذا أمر برمى جوســــلين فى
الحبس ، وهناك تعرض بصورة عجيبة محزنة لكل أنواع المساءلة
والتعذيب حتى يسلم الأرض كلها ويرد كل شىء كان الكونت أنعم
به عليه ، حتى اذا جرد من كل ما تملك يداه غادر الرها وتوجه أول
ما توجه الى بلدوين ملك بيت المقدس ، وفصل له كل ما جرى ،
وصارحه بعزمه على الرجوع الى بلده الذى جاء منه . فلما سمع
(الملك) ما كان من خبره أقطعه مدينة طبرية وما حولها اقطاعا
لا يسترد منه أبدا ، وذلك ادراكا منه بأن جوسلين سوف يؤدى
المملكة خدمات رائعة ، ولأنه كان يريد أن يشد أزر نفسه بمثل هذا
الرجل الخطير .

ويقال ان جوسلين ساس هذه المدينة وملحقاتها بشــــجاعة
وحكمة طوال فترة ولايته بهـــا ، كما زاد فى رقعة ممتلكاتهـــا

زيادة ملحوظة ، ويقال انه اشتد فى مضايقة سكان مدينة صور كدأب أسلافه حيالها ، اذ كانت لاتزال فى أيدى المارقين ، وعلى الرغم من أنه كان بعيدا عن أهل صور لوقوع الجبال فاصلا بينه وبينهم ، الا أنه كان كثير الاغارة على أراضيهم مكبدا اياهم افدح الخسائر .

ـ ٢٣ ـ

ولما كانت سنة ١١١٤ من مولد سيدنا ضرب زلزال عنيف كل بلاد الشام مدمرا كثيرا من مدنها وقلاعها تدميرا تاما ، وكان تخريبه أظهر ما يكون فى قيليقية وايسوريا وسورية الوسطى .

فاما فى قيليقية فقد اجتاح الزلزال « المصيصة » وكثيرا من الأماكن الحصينة ، كما دمر مدينة مرعش وامتد فبلغ نواحيها القاصية حتى لم يبق من بعضها الا أطلال تدل عليها ، وارتجت كذلك الأبراج والتحصينات ، وأدى انهيار المبانى الضخمة الى هلاك العدد الغفير من الناس ، واستحالت أكثر المدن الى أكوام من الأنقاض ، وصارت كيمانا وقبورا وأجداثا ضمت من طواه الردم ، وفر الأهالى من مساكنهم فى المدن فزعا من تهدم الدور وطمعوا أن يجدوا السلامة فى العراء ، ولكن الخوف أطار النوم عن جفونهم جزعا من أن تتراءى لهم فى أحلامهم صورة المصير الذى يفرون منه فى يقظتهم .

لم تقتصر هذه النكبة المدمرة على منطقة بذاتها بل امتدت الى جميع النواحى حتى بلغت أقصى أعماق مناطق المشرق .



فلما كان العام التالى حشد الوالى التركى القوى برسق - على مألوف عادته - حشدا كثيفا من قومه ، واقتحم امارة أنطاكية مضمرا لها السوء ، وبعد أن جاس خلال ديار الناحية كلها ضرب معسكره بين حلب ودمشق فى انتظار الفرصة المواتية لشن غاراته هنا وهناك من أرضنا ، فاضطرب طغتكين ملك دمشق كل الاضطراب من هذه الحملة التى هلع لها أشد الهلع ، مخافة أن تكون مستهدفة الاضرار به هو ذاته أكثر من استهدافها الصليبيين الذين طالما اختبر الترك بأسهم ، فقد لقى مودود العظيم موته على باب بيته غيلة ، واعتقد الناس ان طغتكين كان على علم بما تم تدبيره ، وان اغتياله كان برضى وتدبير منه ٠

لذلك فانه ما كاد طغتكين يعلم بوصول الترك ويدرك تمام الادراك مقصدهم حتى أرسل رسلا من لدنه الى الملك (بلدوين) والى أمير انطاكية ومعهم غالى التحف وثمين الهدايا ، وأكد لهما بالايمان أن يظل طول مدة سريان الهدنة مخلصا فى مراعاة تحالفه مع صليبيى المملكة والامارة ، وفى الوقت ذاته قام أمير انطاكية فناشد الملك أن يمد اليه يد العون لأنه عرف أن الترك اقرب ما يكونون الى بلاده ، وان الأخبار الكثيرة التى وصلته تدل على أنهم يتأهبون للاغارة على أراضيه ، كما دعى من جانبه طغتكين - حسب العهد المبرم بينهما - ان يأتيه على رأس عسكره ٠

وكان الملك خائفا أشد الخوف على سلامة الامارة ، فلم يضع لحظة واحدة من الوقت بل عجل فجمع قواته ، وصحبه بونس كونت طرابلس ، وتبعهما رهط كبير من الفرسان ، وزحفت جموعهم الى هناك فوصلوا بعد أيام قلائل الى حيث حشد الأمير كتائبه ، كما ان طغتكين الذى كان أقرب اليه من سواه وافاه بجند قبل مجىء الملك وانضم الى معسكر الصليبيين حليفا لهم ٠

حينذاك انضم العسكر بعضهم الى بعض حتى صاروا جيشا واحدا وأجمعوا الرأى على الزحف شطر مدينة « شيزره » التى قيل ان الجيش المعادى كان موجودا فيها ، لكن ما كاد الترك يعلمون بهذه الحركة حتى أدركوا أنهم لن يقدروا على الصمود فى وجه قواتنا لأنهم ان فعلوا ذلك أصابهم ضرر فادح ، فتظاهروا بالارتداد ارتدادا كان يخيل معه انهم لا ينوون العودة ، واذ ذاك ســـــرح الصليبيون عسكرهم ورجعوا الى أرضهم (١٩) ٠

ـ ٢٤ ـ

اغتنم العسقلانيون فرصة انشغال الملك على هذه الصورة فى أرض انطاكية وتغيبه مع معظم قواته وقاموا بمحاصرة يافا ، وكان قد حدث قبل ذلك بقليل أن نهض لمعاونتهم من مصر أسطول مؤلف من سبعين سفينة بقصد احتلال الساحل القريب من يافا ، اما الجيش البرى المكون من آلاف كثيرة من الجند فقد تبعهم ناشرا راياته حيث ظهر فجأة أمام المدينة ٠

ماكاد من فى الأسطول يعلمون بوصول القوات البرية حتى استخفهم السرور فوثبوا من السفن وتأهبوا للاغارة على النواحى المجاورة ، وأحاطوا بالمدينة من كل جانب ، فلما أعطيت الاشارة لهم أغاروا عليها من شتى الجهات غارة شعواء ولكن أهالى يافا دافعوهم دفعا مجيدا على الرغم من قلة عددهم ، وأنهم كانوا دون خصومهم بأسا لكنهم كانوا يذبون عن نسائهم وأولادهم وحريتهم وعن بلدهم ، بل عن كل شىء يجدر أن يموت المرء من أجله ، وراحوا يحصنون الأبراج والأسوار تحصينا منيعا بقدر استطاعتهم ، وتمكنوا من رد العدو الى الوراء مسافة بعيدة حتى لم يستطع الدنو من أسوارهم

---

(١٩) كان رجوعهم هذا فى منتصف سنة ١١١٥ ٠

بفضل ما قذفوه به من النبال ، ورموه به من المنجنيق ، وصبوه عليه من السهام من آلاتهم، فخاب مسعى العسقلانيين بعد أن كانوا يعقدون الآمال على أن يجدوا المدينة خالية من كل من يدافع عنها ، وكان هؤلاء العقسلانيون قد أقاموا من سلالم التسلق مجموعة كافية من ناحية الطول أو العدد مؤملين من وراء ذلك الا يلاقوا مشقة فى هدم الحصون ، ولكنهم صادفوا من المقاومة الشديدة مالم يتح لهم الفرصة لنصب سلالمهم على الأسوار ، أو رمى المدافعين الموجوديين بالأبراج بأى نوع من القذائف ، ذلك لأن العناية الالهية بسطت رعايتها على المواطنين الذين لم يشعروا بخوف ما من العدو الذى كان يكتنفهم من كل جانب ٠

وكانت أبواب المدينة مصنوعة من الخشب الخالص بدون أى غطاء من النحاس أو الحديد ، فقذفها المهاجمون بالنيران قذفا محكما احترقت معه بعض أجزائها ، كما استطاعوا الحاق الضرر التام بالأهالى ، ووضعهم فى موضع لا يستطيعون الدفاع عنه ٠

واخيرا وبعد انقضاء بضعة أيام على ذلك الوضع أدرك العسقلانيون أن محاولاتهم لم تكلل بالنجاح ، وخافوا أن يحضر أهالى الناحية التى حولهم لنجدة المدينة المحاصرة ، فرفعوا الحصار عنها وانفلتوا الى ديارهم ، كما اغتنم الأسطول فرصة هبوب الرياح المواتية وعاد أدراجه الى ميناء صور ٠

ومع ذلك فقد طمعوا بعد عشرة أيام ان يعرفوا عما اذا كان فى مقدورهم مباغتة أهل يافا الذين لم يكن هناك من يحمى ظهورهم ، لذلك جمعوا الكثيرين من قومهم وغادروا عسقلان سرا ثم ظهروا فجأة ـ وفى سكون للمرة الثانية ـ أمام يافا وباغتوها ، ولكن أهلها كانوا مستعدين لمقاومتهم فقد ألفوا مثل هذه الحيل ٠ لذلك كانوا يتناوبون حراستها ليلا حتى لا يؤخذوا على غرة ، وترتب على هذا انهم ماكادوا يطالعون عسكر العدو وقد عاد متأهبا لمعاودة القتال حتى

تجلت بطولتهم فى اعتلائهم الأبراج والشرفات ، وزاد فى شجاعتهم مالاحظوه من ضعف قوة أعدائهم وضآلة عددهم عما كانت عليه من قبل ، ذلك لأن الأسطول الذى كان فى السابق مصدر خطر عليهم كان قد أبحر وبعدت الشقة بينه وبينهم ، ولم يعد من اليسير عليه أن يرجع اليهم ، وزاد من طمأنينة الأهالى نبأ طرق سمعهم يشير الى قرب وصول الملك ، فزادهم هذا النبأ بأسا على بأس ، وحالفهم الحظ مرارا فواظبوا على قتـــال الأعداء ، وفتكوا بالكثيرين منهم واستمرت المعركة قرابة سبع ساعات من غير انقطاع ، حتى اذا أدرك الجاحدون فشل جهودهم أمروا رجالهم بالعودة فانطلقوا الى عسقلان .

ــ ٢٥ ــ

أما الموقف فى المملكة ابان ذلك الحين فكان على الصـــورة التالية :

تظاهر « برسق » بالفرار من أرض أنطاكية عند اقتراب الملك ورفاقه النبلاء ، فلما فارق كل من الملك وأمير أنطاكية وطغتكين بعضهم بعضـــا وعاد كل منهم الى بلده لتدبير شـــئونه الخاصة تبين « لبرسق » انه لن يكون من اليسير عليهم حشد قواتهم ضده مرة أخرى ، فكر راجعا الى أنطاكية ، وأخذ يعيث فى أرجائها فسادا ويضرم النار فى حقولها وفى أطرافها ، وأباح لجنوده كل مايجدونه خارج الأماكن الحصينة يأخذونه نهبا وسلبا ، ثم قســـمهم الى مجموعات أرسلها الى جهات مختلفة ، وأمرهم أن يفتكوا بكل من يلاقونه ، فان صادفوا فى الحقول أو فى الطرقات العامة من تخلف عن متابعة رفاقه ولم يأخذ حذره أخذوه أسيرا أو عرضـــوه على السيف ، ولم يقف أمر هذه المعاناة على الأماكن التى انعدمت فيها

الحراسة بل أخذوا بالعنف أيضا المدن الحصينة فأحالوا المعرة وكفر طاب أنقاضا حتى راح أهلهما ما بين أسير وقتيل ٠ ومجمل القول ان اليد العليا فى الاقليم بأجمعه صارت للأعداء الذين كانوا يحملون كل يوم ما تصل اليه أيديهم من الغنائم ٠ وفرضوا الرق على الصليبيين ٠

فلما علم أمير أنطاكية بهذه الأمور استدعى الى جانبه كونت الرها ، ثم خرج هو بنفسه يوم ١٢ سبتمبر من انطاكية دون أن يضيع أى وقت حتى وصل الى « الروج » بقواته ، وتقدمت الكشافة فى الحال لاستجلاء خطط العدو وأحواله ، واستعد الأمير فى الوقت ذاته للمعركة فرتب جنده وتأهب بشجاعة لصد المغير ، وبينما هو مشغول بهذه الترتيبات وفق ما تقتضيه أصول الحرب - وقد أخلص الكونت فى مساعدته - اذا برسول يأتيه على جناح السرعة منبئا اياه بأن العدو ضرب معسكرا له فى وادى سرمد ، فعمت الفرحة الجيش بأجمعه بهذا النبأ كما لو كان النصر قد واتاه ٠

ولما علم برسق بخبر اقترابنا أمر جنده بالتسلح واعداد صفوفهم للقتال ٠ وراح يحضهم على الاستبسال ، وكان قد عمل على تأمين سلامة نفسه قبل وصول الصليبيين، اذ اتخذ له مكانا مع أخيه وبعض أصدقائه على تل مجاور لتل « دانيث » يستطيع من أعلاه مشاهدة رجاله وهم يحاربون ، واصدار التعليمات اللازمة لضمان استمرار القتال ، وبينما كان هو مشغولا على هذه الصورة اذ بالكتائب الصليبية تأخذ فى التقدم رافعة أعلامها ٠

كان بلدون كونت الرها فى الطليعة مع جنده فلم تفزعه كثرة عدوه حين رآه ، بل اندفع مهاجما اياهم اندفاعا ضاريا زازل

قلوبهم ، وحذت الكتائب الأخرى حذوه فألقوا بأنفسهم على من كان فى القلب من جند خصومهم ، والتحمت السيوف بالسـيوف وقد أجمعوا العزم على الثأر مما أنزله عدوهم من اهوال بالضـعفاء والفقراء ، فحاول هذا العدو فى بداية الأمر مقاومة الصليبيين باذلا فى هذه المحاولة كل ما فى طاقته فما أجداه ذلك نفعا ، اذ مالبث رجاله ان ولوهم الأدبار فى غير انتظام فزعا من بأسهم وبطشهم وما هم عليه من صبر عجيب ٠

وشـاهد برسق وهو واقف على قمة التل تدهور قوة جنده وتزايد نجاح الصليبيين ، ففر الى ما وراء تلك الأكمة مستصحبا معه أخاه وأصدقاءه ، تاركا وراءه رايته ومعسكره بكل ما حواه من المتاع ، لا يعنيه شىء سوى انقاذ حياته بالهرب ٠

ومضت قواتنا تطارد العسكر الذين اختل نظامهم مطاردة عنيفة، واقتفت خطاهم مسافة تقرب من ميلين ، وأذاقوا الهاربين الويل الأليم، وحكموا السيف فيهم فقتلوا الكثيرين منهم ، أما أمير (انطاكية) فقد ظل مقيما فى ساحة النصر يومين مع طائفة من عسكره ينتظر عودة رجاله الذين راحوا يطاردون العدو فى شتى النواحى ، فلما رجعوا أمر باحضار كل ما غنموه بين يديه ، وكافأ من ساهموا فى النصر بما هم أهل له ، وكان المارقون حين فروا على وجوههم خلفوا خيامهم غير عابئين بما اشتملت عليه من المئونة الكبيرة والأموال الكثيرة، ولم يقتصر الصليبيون على الاستحواذ على الغنائم والأسلاب التى جمعت من كل النـواحى ، بل زادوا على ذلك فاسـتعادوا اخوانهم الذين كانوا فى أسر العدو وقيده وأرسلوهم الى دورهم ، فعادوا فرحين الى أهلهم ونسائهم وأبنائهم وحيواناتهم ، ويقال ان خسارة العدو بلغت أكثر من ثلاثة آلاف رجل فى هذا الاشتباك ٠

فلما تم كل شيء على هذه الصورة قدم الأمير (روجر بن ريتشارد) أمامه عددا كبيرا من الخيول والبغال والأسرى ، ومقادير ضخمة من مختلف المتاع ، ودخل هو فى اثرها أنطاكية دخول الظافر المنتصر وسط هتافات الناس وغبطتهم ٠

ـ ٢٦ ـ

وفى حوالى هذا الوقت وفد السرى الأمجد الطاهر الذيل أسقف أورنج المبجل ، نائبا عن البابا لتقصى الحقائق فيما بلغه من مسلك البطرك أرنولف الرذيل ، وما تلوكه الألسن عن حياته الخليعة التى يحياها ، فلما صار الرسول البابوى بيننا بادر فى لحظته الى عقد مجلس حضره كل أساقفة المنطقة ، آمرا « أرنولف » بالمثول أمامهم ، وأنتهى الأمر أخيرا بأسقف أورانج ـ بحق ما للكنيسة الرسولية من السلطة ـ بأن خلع « أرنولف » من وظيفته الكهنوتية جزاء وفاقا على فعاله ، مما حمل أرنولف ـ اعتمادا منه على دهائه الخبيث الذى أفسد به عقول الجميع ـ ان يمضى الى كنيسة رومة ، واستطاع ـ بكلماته الناعمة واسرافه فى تقديم الهدايا ـ أن يتغلب على شكوك البابا ورجال الكنيسة فيعود الى مستقره ناعما بعطف الكنيســـة الرسولية ، ورد الى كرسى البطركية فى بيت المقدس ، فرجع اليه فى لحظته معاودا حياة التبذل التى كانت سببا فى خلعه ٠

***

لم يكن بيد الصليبيين اذ ذاك اى قلعة فيما وراء نهر الأردن ، فلما تطلع الملك لتوسيع حدود مملكته فى هذه الناحية استعان بالله وفكر فى بناء قلعة فى اقليم الأراضى العربية الدانية المسمى أيضا باسم سورية الداخلية حتى تصبح الحامية التى توضع فى هذا

المكان قادرة على رد عادية المغير على الحقول الواقعة وراءه والتى كانت تابعة للمملكة وتعتبر أرضـــا خراجية ، فقام الملك من أجل تنفيذ مشـــروعه هذا بجمع قوات مملكته وســـار بهم عبر البحر الميت مجتازا بهم الأرض العربية الثانية التى عاصمتها البتراء ، حيث تخير موضعا مرتفعا ملائما لمشروعه شيد فيه قلعة شديدة المناعة بفضل موقعها الطبيعى وما امتازت به من وسائل دفاعية زودتها بها الطبيعة ، وأخرى صناعية ، فلما كمل البناء وضع به حامية من الفرسان والمشاة وأقطعهم الأراضى الشاسعة ، وكان المكان محصنا بالأسوار والأبراج وبخندق ، وجهز الموضع بالأســلحة والطعام والآلات ، واذ كان بانيه ملكا فقد سماه اسما مشتقا من الهيبة الملوكية هو « مونتريال » وكانت أرض الناحية أرضا خصبة تنتج كميات وفيرة من الحنطة والنبيذ والزيت ، وزيادة على ذلك فقد كانت مشهورة بموقعها الصحى الممتع للعين ، كما أن هذه القلعة كانت تطل على كل المنطقة المجاورة لها ٠

ــ ٢٧ ــ

كان بال الملك فى هذه الأثناء مشغولا كل الانشغال بمشكلة قلة سكان المدينة المقدسة ــ حبيبة الله ــ قلة تجعلها شبه خالية منهم ٠ اذ لم يكن بها العدد الملائم للقيام بما تحتاجه المملكة ، ولم يكن هناك عدد كاف منهم لحراسة مداخل المدينة والدفاع عن أسوارها وأبراجها ضد أية غارة عدوانية تباغتها على غير توقع منها ، ومن ثم فقد أولى الملك هذه المشكلة غاية اهتمامه ، وراح يدير الأمر فى ذهنه ، ويتحدث مع غيره عن الخطط التى تؤدى الى تعميرها بقوم مؤمنين بالرب الحق ، مخلصـــين فى عبادتهم له ، ذلك ان « الأمم » التى كانت تعيش بالمدينة قد بادرت ــ الا قلة ضئيلة فاذن لها بالعيش هناك ،

لكن هذه القلة التى نجت لم يسمح لها بالبقاء فى المدينة ، كما أنه لم يسمح لأحد من أتباع الملة المسيحية بالعيش فى بلد له هذه القداسة والا كان وجوده طعنا فى تقوى الزعماء ، وكان سكان قطرنا قليلى العدد قلة ملحوظة ويعيشون فى فقر مدقع حتى أنهم كانوا أقل من أن يشغلوا شارعا واحدا من شوارعها ، ناهيك بتضاءل عدد «السوريين» الذين كانوا أصــــلا من مواطنى المدينة تضاؤلا بالغا من جراء ماتحملوه من المصائب أيام المعارك التى قلصت عددهم حتى كادوا الا يكونوا شيئا مذكورا ، فلما جاء اللاتين الى سورية ــ لاسيما وقد شرع الجيش فى السير الى القدس بعد الاستيلاء على انطاكية ــ راح رفاقهم ومواطنوهم الكفار يسيئون الى خدام الرب هؤلاء اساءة افنت الكثيرين قتلا لأتفه الأمور ولم يرعوا فيهم الا ولا ذمة ، ولم يقيموا وزنا للسن او الظروف ، واساء المسلمون السيرة فيهم اعتقادا منهم بأن هؤلاء السوريين هم الذين بعثوا برسلهم وكتبهم يستدعون امراء الغرب الذين قيل انهم جاءوا للقضاء على الكفار ٠

ولقد شعر الملك أنه يحمل على كاهله مسئولية خلاص المدينة من هذا الحزن المخيم عليها ، ومن ثم راح يستقصى أدق الاستقصاء من بعض المصادر كيف يمكنه جلب السكان اليها ، فعلم اخيرا ان هناك كثيرا من المسيحيين يعيشون فى القرى الواقعة فيما وراء نهر الأردن فى بلاد العرب ، قد ضرب عليهم الرق وفرضت عليهم الجزية، فأرسل اليهم يعدهم بحياة أحسن من حياتهم التى يعيشونها الآن ، ثم مالبثت نفسه ان طابت بمن توافد عليه منهم وقد جاءوه بحريمهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم وكل ماملكته أيديهم، ولم يكن انجذابهم للسكن فى المدينة ناجما فحسب بسبب احترامهم لها بل وأيضــــا لما يكنونه لقومنا من المودة ولما تخفق به ضلوعهم من حب الحرية ، حتى ان الكثيرين ممن لم يســــتدعهم الملك نفضوا عن كاهلهم نير

العبودية الثقيل الذى يرزحون تحته ، وقـــدموا للاقامة فى المدينة المبجلة عند الرب ، فمنحهم الملك نواحى المدينة التى كانت أكثر من غيرها فى مسيس الحاجة لمساعدتهم فعمرت الدور بهم ٠

— ٢٨ —

وقد عزم الملك فى هذه الأثناء — وربما كان مدفوعا فى ذلك العزم بالحاح رجال الدين — على أن يبعث طائفة من الرسل الى رومة يرفعون بعض التماسات معينة للبابا ، تتضمن أن يصـــدر اعلانا يضم بمقتضاه الى سلطان كنيسة بيت المقدس والى سيطرتها جميع المدن والنواحى التى يتمكن الملك بعون الله من الاستيلاء عليها بفضل بأسه كمحارب ، وكذلك مايستطيع أن يستخلصه من يد العدو، ونجح الملك فى الحصول بالنسبة لهذا الموضوع على مرسوم من الكنيسة البابوية نرى ان محتوياته جديرة بأن تدرج فى كتابنا هذا حيث جاء فيه :

« من بسكال خادم خدام الرب الى الملك المبجل بلدوين ملك بيت المقدس ، له التحيات والبركات الرسولية ٠ ان طول فترة امتلاك الكفار وحكمهم الطاغى قد أديا الى حدوث بلبلة بشأن حدود ممتلكات الكنائس التى كانت والتى لاتزال فى نطاق أراضيك ٠

« ولما وجدنا — بعد امعان الفكر — اننا غير قادرين على رسم حـــدود ثابتة لهذه الممتلكات فقد رأينا من الظلم أن لا نســـتجيب لالتماسك ٠

« ولكن لما كنت قد أخلصت الاخلاص الصـــادق فى تعريض حياتك لأشد الأخطار هولا من أجل اعلاء قدر كنيسة بيت المقدس فاننى أعلن أن تصبح أى مدينة من مدن الكفار أخذتها أو تأخذها فى المستقبل قسرا خاضعة لسلطان تلك الكنيسة وتحت ادارتها ٠

« وزيادة على ذلك فانى آمر أن يحرص أساقفة تلك الكنائس كل الحرص على أن يظهروا للبطرك من الطاعة مثل الطاعة التى يظهرونها لمطارنتهم حتى يشتد ساعده بمؤازرتهم له وحتى يجذوا باتحادهم ثمار الأعمال العظيمة من أجل مجد كنيسة بيت المقدس فيتمجد اسم الرب بحملات الصليبيين » .

صدر هذا فى اللاتيران فى اليوم الثامن من شهر يونيو ١١١١ .

***

ولما كان بلدوين قد ضمن كتابه التماســـا آخر فى نفس الموضوع فقد استجاب له البابا فميز (قداسته) البطرك جبلين بميزة يتمتع بها هو وخلفاؤه من بعده الى أبد الآبدين ، ندرج نصها فى هذا الكتاب وهو :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى أخيه الجليل الشأن جبلين بطرك القدس ، والى خلفائه الذين يجيئون من بعده وفق القانون الكنسى :

« ان الممالك الدنيوية تتغير بتغير العصور والأحوال ، الأمر الذى يتطلب أن تتغير معه حدود الأبرشيات الكنســـية فى كثير من الأقاليم وان تنتقل من مكان لآخر ، واذا كانت حدود كنائس آسيا قد رسمت فى الأزمنة الأولى الا انه اعتور هذه الحدود كثير من الاضطرابات لتوالى تدفق أجناس مختلفة ذات عقائد متباينة .

أما فى وقتنا الحاضر ، فقد عادت بفضل الله ـ مدينتا بيت المقدس وأنطاكية وما جاورهما من النواحى ـ الى حكم الأمـــراء المسيحيين ، لذلك فالواجب يفرض علينا ان نتدخل فنغير ونبدل باذن من الله ما يقتضيه ســـير الزمن ، كما ينبغى علينا أن نعيد تنظيم مايحتاج الى اعادة تنظيم ، ومن ثم فاننا نمنح الكنيسة بالقدس هذه

المدن والولايات التى تم فتحها بمشيئة الرب بفضل الدماء التى بذلها كل من الملك بلدوين الرفيع الشأن والجيوش التابعة له ٠

« وكذلك فاننا نعهد اليك أيها الأخ الحبيب والأسقف الشريك جبلين والى خلفائك من بعدك ، والى كنيسة بيت المقدس بالحق الذى يخوله المقام البطركى أو المقام المطرانى ، ونمنحك بمقتضى ملفوظ هذا المرسوم الحالى — حق التحكم والتصرف فى جميع الولايات والمدن التى ردتها العناية الالهية الى سيطرة الملك المشار اليه ، أو التى تقضى مشيئة الرب أن تسترد فى المستقبل ، لأنه من الملائم لكنيسة القيامة أن تحظى بالمجد الذى هى أهل له بناء على رغبات جنودها المخلصين — وحق لها — وقد تحررت من نير الترك المسلمين — ان تلقى التعظيم الفياض وهى فى أيدى المسيحيين » ٠

***

على أن طاهر الذيل برنارد بطرك أنطاكية غضب أشد الغضب من هذا المرسوم لما رآى فيه من زيادة فى اهانة كنيسته فأرسل فى الحال رسلا الى الكنيسة بروما يشكو من الشكوى من هذا القرار ومن الظلم الفادح الذى نزل به وبكنيسته ، كما بعث بالكتب التى ضمنها عتابه على البابا والكنيسة بأجمعها على الأخطاء التى تضمنها هذا الأمر ، ولما كان البابا راغبا فى أن يذهب غضبه فقد رد عليه بالكاتب التالى :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى أخيه الموقر برنارد بطرك أنطاكية : لك التحية والنعم الرسولية ، انه على الرغم من أن لكنيسة رومة الأولوية بين الكنائس الأخرى العظام ، وعلى الرغم من أن العناية الالهية شرفتها بأن يموت القديس بطرس

فيها بالجسد ، الا أنه قام حب متين العرى بين أسقفى روما ونطاكية، وهو حب لا يسمح بقيام أى خلاف بينهما لأن بطرس هذا نفسه زاد الكنيستين رفعة ٠

« لقد طرأ تغيير كثير خلال الفترة التى تدخل فيها الاحتلال الكافر فى هذه الوحدة التى تربط عظيمى هاتين الكنيســتين ، وانا لنحمد الرب على انه رد حكم المسيحيين الى مدينة أنطاكية فى عهدنا ٠

« ومن ثم فانه ينبغى أيها الأخ الغالى ان تبقى بيننا نفس هذه الرابطة الوثيقة متينة وقوية ، كما ينبغى عليك الا تسمح أن يساورك أى ظن بأننا نرغب فى أن نحط من قدر كنيسة أنطاكية أو نقلل من شأنها ، واذا كنا قد كتبنا عن غير قصد الى الكنيسة فى أنطاكية أو الى الكنيسة فى بيت المقدس عن أى شىء آخر يتعلق بحدود بعض أبرشيات معينة ، فلا ينبغى أن ينسب ذلك الى نازع شر أو رعونة ، ولا يجوز أن يشب بيننا نزاع حول هذا الموضوع ، ذلك أن موضع الأماكن البعيد والتغيرات التى طرأت على الأسماء القديمة للمدن وللولايات قد سببت عندنا اضطرابا وقلقا كبيرين ، وزيادة على ذلك فقد كان من أغلى أمانينا على الدوام ومن أقربها الى قلبنا أن نعمل على تشجيع قيام ظروف سلام لا ظروف شقاق بين الاخوان ، وأن نحفظ لكل كنيسة حقها ومكانتها ٠

صدر فى لاتيران فى اليوم الثامن من أغسطس (سنة ١١١٢) ٠

ولكى تكون مشاعر البابا ازاء هذا الموضوع مفهومة ، وكذلك غرضه من وراء منحه الملك وكنيسة القدس الامتياز الذى تضمنته مراسيمه فانه كتب أيضا ما يأتى الى البطرك برنارد :

« من بسكال الأسقف خادم عبيد الرب الى غبطة رفيقه الأسقف بطرك أنطاكية : لك التحية والبركات الرسولية(٢٠) •

« اننا كما كتبنا الى أخوتكم فى رسالة سابقة نخبرك بحبنا الصادق لك وللكنيسة التى عهد اليك برعايتها ولا نرغب بأى حال من الأحوال أن نقلل من شرف قدركم السامى ، بل تجدون على العكس من ذلك اننا راغبون فى أن يظل على الدوام (بمشيئة الرب) تفوق بطركية أنطاكية الذى حازته فى الأزمنة السالفة تفوقا كاملا غير منقوص ، ولو أمعنت النظر فى المضمون الذى أنطوت عليه رسالتى هذه لتبينت أن المنحة التى منحناها لأبننا بلدوين ملك القدس بناء على التماس مبعوثيه لايمكن أن تقلل أبدا — ولو قيد أنملة — من حبنا لك ، فقد جاء فيها : ان امتلاك الكفار الطويل للبلاد وحكمهم الظالم قد أديا الى اضطراب بالنسبة لحدود ممتلكات الكنائس التى كانت ولاتزال فى أرضك ، ومن ثم فاننا نرى أنفسنا — بعد طول التروى والأناة — غير قادرين على أن نقرر حدودا معينة لها ، لذلك رأينا أن العدل يقتضينا أن نوافق على ملتمسك ، ونظرا لأنك قد عرضت حياتك عن اخلاص للخطر الجسيم سعيا وراء اعلاء شأن كنيسة بيت المقدس فاننى أقرر أن جميع مدن الكفار التى استوليت عليها حتى الآن ، وماسوف تستولى عليه : تكون تحت حكم تلك الكنيسة وسلطانها » •

« كما يجب أن تفسر بنفس ورح التفاهم ما كتبناه الى جبلين بطرك بيت المقدس ذى الذكر الطيب حول المدن والولايات التى شاءت رحمة الرب أن تؤول الى يد الملك بلدوين بفضل بعد نظره

---

(٢٠) كلام البابا هنا موجه الى بطرك أنطاكية •

وبفضل دماء العساكر التى سارت وراءه ، أما الكنائس التى مازالت حدودها الموجودة موضـــع نظر ، وكذلك الكنائس التى لم يعتور حدودها وممتلكاتها أى اضطراب رغم طول الاحتلال الكافر وطغيانه، كذلك المدن التابعة لنفس الكنائس فاننا نرغب أن تكون خاضعة لتلك الكنيسة التى تنتمى اليها عن حق منذ آماد بعيدة ، لأننا لا نريد أن نقلل من مكانة الكنائس سعيا لزيادة قوة الأمراء ولا نقصد أن نحرج قوة الأمراء من أجل تعظيم المكانة اللاهوتية ·

صدر فى بنفينتوم فى الثانى عشر من شـــهر مارس (سنة ١١١٣) ·

كذلك كتب الى الملك بلدوين بنفس المعنى ، شارحا له ماذا كان غرضه حين وافق على نفس الالتماسات ، ومبينا له انه لاينبغى بحال من الأحوال أن تحمل كنيسة أنطاكية فوق طاقتها ، فقال :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى ولده وحبيبه بلدوين، ملك بيت المقدس : لك التحية والبركات الرسولية ·

لقد انزعج اخونا البطرك برنارد وجميع رجال كنيسة أنطاكية اشد الانزعاج من قرار الموافقة الذى منحناه لكم استجابة لالتماسك بأن يكون كل ما استوليتم عليه من مدن الكفار وما قد تستولون عليه منهم خاضعا لسلطان كنيسة بيت المقدس ومقامها ، ولما كان هذا التنازل الممنـــوح لتلك الكنائس التى اضـــطربت حـــدودها وممتلكاتها من جراء احتلال الكفار الطويل لها فقد تعالت الشكاية من أن بطرك القدس قد جار ــ برضا منك ــ على حقوق تلك الكنائس المشار اليها والتى لا يشك أحد فى انها كانت تابعة لمطرانية أنطاكية حتى زمن الترك والشرقيين ، ذلك لأن أساقفة تلك الكنائس ــ كانوا يظهرون تبعيتهم وطاعتهم لبطرك انطاكية ، ومن ثم فقد بعثنا الى

البطرك المشار اليه بالكتب التى قررنا فيها استمرار الحفاظ على سلامة الوضع السامى الذى تتمتع به بطركية أنطاكية ، كما قررنا صـــيانته من أن يجور عليه أحد ما ، حسبما هو مقرر منذ الأزمنة البعيدة حتى الآن ، لذلك فاننا نذكرك جادين - بل ونأمرك - الا يصدر من جانبك أى تعد من هذا القبيل ، لأن الصدق فيه واضح والحق فيه جلى ، بل ينبغى أن تتمتع كل كنيسة بحقها الكامل فى الهيمنة على الأقاليم التى تتبعها تبعية شرعية ، لأننا لا نستطيع أن نقضى بما يخالف نظم آبائنا المقدسة المعروفة بالبداهية ، كما أننا لا نحب أبدا التقليل من مكانة الكنائس لنزيد من قوة الأمراء ، ولا أن نفتات على سلطان الأمراء من أجل تعظيم مكانة الكنيسة ، حتى لا يتعكر فى الحالين صفو سلام الكنيسة بينكم · وقاكم الرب اياه ·

« أما رجال الدين فى بيت المقدس - وهم الذين خلفوا وراءهم أملاك أسلافهم وغادروا مهد نشأتهم من أجل تعظيم شأن الكنيسة والاهتمام بالملة ، فانا نأمرهم عن طريق هذه الوثيقة الحالية أن يكونوا قانعين بحقوق كنيســـة بيت المقدس ، والا يحاولوا ظلما وعدوانا اغتصاب هذه الأملاك التى يعرف الجميع معرفة تامة أنها حق خالص للكنيسة فى أنطاكية ، وادعو الله القادر على كل شىء أن يكلأ كل خطواتكم برعايته فى جميع ما تقدمون به ، وأن يمنحكم النصر على أعداء الكنيسة ·

صدر فى لاتيران فى الثامن عشر من شهر مارس (سنة ١١١٣)

أراد الملك بلدوين أن يحصـــل على معلومات دقيقة تتعـــلق بالنواحى المجاورة ، وتقصى أحوال الولايات ، ولذلك فانه قام فى السنة التالية مستصحبا معه الأدلاء من أهل الخبرة بالمنطقة وجماعة من الحاشية رآهم أهلا لتحقيق غرضه المنشود فعبر بهم نهر الأردن وجاس فى أنحـــاء ســـورية الوســـطى ثم اجتاز الصـــحراء الفسيحة الى البحر الأحمر حتى أفضى به الزحف الى مدينة « هليم » وهى مكان كان معروفا تمام المعرفة لشعب اسرائيل حيث كان به ـ كما نقرأ فى الأخبار ـ اثنا عشر نبعا وسبعون شجرة نخيل ، فلما بلغ الملك هذا الموضع وجد أن خبر مجيئه قد تسامع به ســـكانه فتوجسوا خيفة منه وهربوا ناحية البحر المجـــاور لهم ، وركبوا قوارب صغيرة نجاة بأنفسهم من الموت ، وبعد أن تفحص الملك هذه النواحى تفحصا دقيقا ورآهابعينى رأسه : عاد أدراجه عبر الطريق المؤدى الى قلعة مونتريال التى شيدها منذ أمد قريب ، ثم غادرها ميمما وجهه شطر بيت المقدس ، فلما كان فى بعض الطريق ألم به على غير توقع ـ مرض خطير أضواه حتى لم تعد له طاقة على احتماله، فلما خشى دنو منيته وخزه ضميره وأنبه أشد التأنيب ، لأنه ارتكب الخطيئة حين سرح زوجته الشرعية(٢١)، وندم على ماكان منه ندما أورثه حسرة فأفضى بآثامه الى نفر أتقياء يخافون الله واعترف لهم بجرمه ، ووعدهم أن يكفر عما ارتكب ، فنصحوه أن يصرف المرأة

---

(٢١) أما هذه الزوجة الاولى فهى « اردا » بنت طوروس التى أشار وليم هذا الجزء من الترجمة العربية الى أن الملك بلدوين فرض عليها حياة الرهبنة ، فدخلت فى دير القديسة حنة .

التى تزوجها منذ قليل وأن يرد زوجته الأولى الى المرتبة التى حرمها منها ، فوافقهم على هذا الرأى لو مدت له الحياة وأكد الوفاء بذلك بيمين أقسمها •

ثم استدعى الملكة الى حضرته وفصـل لها الأمر تفصيلا ، دقيقا وكان قد بلغها من قبل بعض الشىء عن عزمه هذا فقد حدثها به نفر غير قليل من الناس ، فتسعرت غيظا أن تكون قد استدعيت من وطنها من غير هدف بعد أن مكر بها كبار رجال المملكة الذين ذهبوا اليها لاحضارها ، واذ أحزنها ما جرى ، وأمضتها الاهانة التى لحقتها ، وشجاها ضياع ثروتها من غير جدوى فقد تأهبت للعودة الى بلادها ، وذلك فى السـنة الثالثة من وصـولها الى سورية •

اما ابنها فقد فار مرجل غضبه فورة جاوزت الحد لرد أمه على هذه الصورة ، وغلى جوفه بالكراهية المميتة ضد الملكة وشعبها •

وقام أمراء مسـيحيون آخرون من أجزاء شتى من العالم فجاءوا بأنفسهم أو قدموا الهدايا بسخاء ، فزادوا فى رقعة مملكتنا الناشئة وشدوا من ساعدها ، اما ابنها ومن خلفه من بعده فلم تستل الضغينة من قلوبهم حتى يومنا هذا ، ولم يحدث ان تعطفوا علينا ولو بكلمة ود واحدة ، هذا على الرغم من انه كان فى استطاعتهم أن ينقذونا فى أوقات شدتنا بالمشورة والمعونة اكثر مما يستطيعه سواهم من الأمراء ، الا انهم لم ينسوا قط هذه الأخطاء بل راحوا يصبون من غير حق حنقهم وانتقامهم على الشعب كله بسبب جرم فرد واحد منه •

\- ٣٠ -

كانت صور هى المدينة الوحيدة الواقعة على الشاطىء التى لاتزال حتى ذلك الحين فى حوزة العدو وكان الملك (بلدوين الأول) حريصا أشد الحرص على الاستيلاء عليها ، ومن ثم فانه قام فى نفس السنة ـ بعد أن زالت علته ـ فشيد (فى سنة ١١١٧) قلعة بين صور وعكا فى نفس الموضع الذى يقال ان الاسكندر المقدونى شيد فيه ـ حين أراد الاستيلاء على صور ـ قلعة سماها « الكسنداريوم » ، نسبة اليه ٠

وتقع الكسنداريوم هذه على شاطىء البحر ، وتبعد عن صور بما يقرب من خمسة أميال ، وتكثر بها الينابيع المائية التى منها ريها ، وقد جدد الملك بلدوين بناءها لتكون شوكة فى جنب أهل صور تقض مضجعهم وتصلح أن تشن الغارات منها عليهم ، ويصحف الناس اليوم اسم هذا المكان فيقولون « سكندليوم » « ويرجع ذلك الى أن الاسكندر يسمى فى العربية « بسكندر » « والكسنداريوم » بسكنداريوم ، واذ كان حرف الراء يتحول فى العادة الى حرف « لام » فان الموضع يعرف عادة باسم سكندليوم ٠

\- ٣١ -

ولما كانت السنة التالية مضى الملك (بلدوين الأول) الى مصر على رأس جيش كبير انتقاما من المصريين لكثرة ما أنزلوه به من المصائب ، وشن غارة عنيفة استولى فيها على مدينة الفرما ذات

التاريخ الموغل فى القدم ، ونزل عن كل ما وجده فيها من الميرة الى رفاقه الحربيين ، وأذن لهم باستباحتها ·

والفرما ــ كما قلنا ــ مدينة قديمة على ساحل البحر ، ولاتبعد كثيرا عن أحد فرعى النيل المسمى بفرع « دمياط » الذى تقع على مصبه مدينة أخرى أقدم منها تسمى « تنيس » التى شهدت المعجزات التى أظهـــرها الرب لفرعون على يد نبيه موسى ، فلما تم للملك الاستيلاء عليها مضى فزار مصب النيل ليتملى بصـــره اعجابا بمياهه التى لم يكن قد رآها قط من قبل ، وكان لهذا الأمر أهميته الكبرى عنده لأنه لم يكن قد رأى النيل وهو يصب بعض مائه فى البحر عبر هذا الفرع ، والقول السائد الذى ينزل منزلة العقيدة عند الناس هو أن هذا النيل أحد أربعة أنهار تنبع من الجنة ، فاصطاد الملك ومن معه من هذا الخليج بعض السمك الذى يكثر به كثرة هائلة ·

وبعد أن تم له ولهم ما أرادوه عادوا أدراجهم الى المدينة التى استولوا عليها وجهزوا له افطاره من السمك الذى اصطادوه له ، لكنه ما كاد ينهض من مائدة افطاره حتى أحس باضطراب داخلى شديد ، وبمغص ممض فى بطنه ، كما عاوده الألم من جرح قديم كان به فأنهك قواه انهاكا خطيرا أيأسه ومن معه من البقاء حيا ، فأذن المؤذن فى القوم بالرحيل فى لحظتهم هذه ، بيد أن العلة أخذت تتفاقم بالملك ، وبلغ من الضعف حدا عجز معه عن الركوب ، فجاءوه اذ ذاك بمحفة حملوه عليها وهو فى أشد حالات الكرب ، وساروا به وهو على هذا الوضع وعبروا تلك الناحية من البادية الممتدة ما بين مصر والشام حتى وصلوا الى العريش احدى المدن الساحلية القديمة فى تلك الصحراء ، واذعن الملك لمرضه ، وجاءه أجله فحمل عسكره المفجوع فيه جثمانه ودخلوا به القدس يوم الأحد المعـــروف بحد

الشعانين عبر وادى يهوشافاط ، حيث كان الناس مجتمعين كعادتهم للاحتفال بهذا العيد ٠

* * *

وكان موت بلدوين الأول فى سنة ١١١٨ من مولد سيدنا ، وذلك فى العام الثامن عشر من حكمه ، ودفن فى ابهة ملوكية مجاورا لأخيه (جودفروى) فى الموضع المسمى بالجلجلة اسفل موضــــع الصلب المعروف باسم كالفارى ٠

* * *

هنا ينتهى الكتاب الحادى عشر

الكتاب الثانى عشر

بلدوين الثانى : الاضطرابات فى شمال سورية

فصول الكتاب الثانى عشر :

٥ ـ وفاة الكسيوس كومنين امبراطور القسطنطينية وموت كل من البابا بسكال ، وكونتسة صقلية التى كانت ذات مرة ملكة لبيت المقدس ٠

٦ ـ الجيش المصرى يقتحم المملكة بقواته البرية والبحرية فيخرج الملك بعسكره لصده ولكن لا يحدث اشتباك بين الطرفين ٠ الموت يوافى « أرنولف » بطرك القدس فيتم اختيار جيرموند مكانه ٠

٧ ـ تاسيس هيئة فرسان المعبد الحربية فى بيت المقدس ٠

٨ ـ موت الملك « جلاسيوس » وتولى « كاليتوس » مكانه ٠

٩ ـ ايلغازى الوالى التركى القوى يهاجم امارة انطاكية بحشد كثيف ويعيث فسادا فى البلد شرقا وغربا ٠

١٠ ـ مصرع الأمير روجر فى المعركة وهزيمة جيشنا ٠

١١ ـ زحف الملك بلدوين الثانى وكونت طرابلس الى انطـــاكية لمقاومة ايلغازى ٠

١٢ ـ الملك والكونت يساهمان فى محاربة ايلغازى فتدور الدائرة على جيش الجاحد ، وتحدث مجزرة فظيعة يهلك فيها هذا الجيش ، واذ ذاك توضع الامارة تحت رعاية الملك ٠

١٣ ـ عقد مجلس بنابلس فى السامرة ٠

١٤ ـ ايلغازى يشـــن حملة ثانية ، ويعاود الهجوم على أنطاكية فيخرج الملك لصده ، اصابة ايلغازى بالسكتة فتميته ٠

١٥ ـ الملك يمنح الحـــرية التـــامة لمواطنى القدس ، ويؤكد ذلك بمرسومه ٠

١٦ ـ طغتكين ملك دمشق يخرب منطقة طبرية فيخرج الملك لصده ، ويدمر مدينة جرش ٠

١٧ ـ بلك (أحد أمراء الترك الأقوياء) يهـــاجم أرض أنطاكية ويأسر جوسلين ، كما يقع الملك (بلدوين الثانى) هو الآخر فى أسر بلك ٠

١٨ ـ جماعة معينة من الأرمن يعرضون أنفسهم للخطر الشديد فى محاولة منهم لانقاذ الملك ويستولون على القلعة حيث يوجد السجناء ، ويطلقون سراح جوسلين ٠

١٩ ـ بلك يســـترد القلعة عنوة ، ويفتك بالأرمن معمـــلا فيهم السيف ٠

٢٠ ـ الكونت جوسلين يجمع قوة كبيرة لانقاذ الملك ولكن الفزع الشديد يستبد به من جراء النكبة المنحوسة التى ألمت ببلدوين فيسرح عساكره ويردهم الى أراضيهم ٠

٢١ ـ المصريون يعاودون دخول المملكة بقوات ضـــخمة فيقابلهم الصليبيون بجيش قوى ويهزمونهم هزيمة نكراء ٠

٢٢ ـ دوج البندقية يبحر الى سورية بأسطول كبير ٠

٢٣ ـ الدوج يصادف أسطول العدو قرب يافا فيهاجمه بضراوة ،

فيضطر العدو الى الارتداد وتقع كثير من الشوانى فى أيدى المسيحيين ٠

٢٤ ـ الاتفاق المبرم بين دوج البندقية وبارونات المملكة بشـــأن موضوع حصار صور ٠

٢٥ ـ نســـخة من العهد الذى تضمن الاتفاق المبرم بين البنادقة وأمراء مملكة بيت المقدس بشأن حصار صور ٠

* * *

هنـــا يبـــدأ

الكتاب الثانى عشر

بلدوين الثانى : الاضطرابات فى شمال الشـــام

ـ ١ ـ

كان بلدوين دى بورج ثانى ملوك القدس اللاتين يلقب بأكيوليوس، وكان رجلا ورعا يخشى الله ، مشهورا بوفائه وخبرته الكبيرة بأمور الحرب ، وهو من أمة الفرنجة من أسقفية ريمز ، وأبوه هيج كونت « ريثيل » وأما أمه فكونتسة مليزاند الفاضلة ، التى يقال انها احدى اخوات كثيرات أنجبن العديد من البنين والبنات ، ولا يعرف حقيقة عدد من أنجبوا سوى الدارسين دراسة دقيقة لأنساب الأمراء .

ولقد خرج بلدوين الثانى فى حياة أبيه فى صحبة رهط من الأشراف الذين تفيض قلوبهم بنفس مايفيض به قلبه من التقوى ، وخرج فى حياة أبيه الشيخ المسن الذى تقدم به العمر حاجا الى

القدس كواحد من حاشية قريبه الدوق جودفروى ، وكان بلدوين اذ ذاك أسن أفراد عائلته ، وترك بلدوين فى وطنه أخوين وأختين ، فأما أحد هذين الأخوين ــ واسمه جرفيز ــ فقد اختير فيما بعد أسقفا لكنيسة « ريمز » ، واما الآخر فاسمه « مناسيس » ،وقد تزوجت احدى أختيه واسمها ماتيلدا من حاكم قلعة « فيترى » ، كما اقترنت الثانية ، وتدعى « هيدرنا » من أحد الأشراف ذوى النفوذ واسمه « هيربراند دى هيرجز » وقد انجبت له « مناسيس دى هيرجز » الذى صار فيما بعد الكونستابل الملكى زمن الملكة مليزاند .

ولما مات والد هذا الملك بلدوين خلفه ابنه مناسيس ، وذلك لأن بلدوين ــ وهو أكبر منه ــ كان مشغولا بأمور المملكة فيما وراء البحر ، ثم مات مناسيس » دون ان ينجب ، فتخلى أخوه « جرفيز » عن وظيفته كأسقف ريمز وتزوج ، مما كان خروجا على قوانين الكنيسة ، فآلت اليهشرعا كونتية ريثيل ، وقد اثمر هذا الزواج ابنة واحدة زوجها أبوها لأحد أشراف نورماندى ، فلما مات « جرفيز » انتقلت الكونتية الى هوتييه ابن أخته « ماتيلدا » التى كانت قد تزوجت من حاكم قلعة فيترى » ويكفى هنا ما ذكرناه .

ـ ٢ ـ

لما مات طيبالذكر جودفروى بعث القوم فى استدعاء أخيه بلدوين الأول ليتبوأ عرش بيت المقدس مكانه ، وألقوا اليه بمقاليد أمور المملكة فى حفل يليق بجلال ولاية المملكة واذ ذاك قام باختيار خليفة له على كونتية الرها قريبه بلدوين الذى نتكلم عنه الآن والذى امتدت ولايته على الكونتية أكثر من ثمانية عشر عاما ، تميز خلالها حكمه بالقوة والنجاح ، فلما رآى فى السنة الثامنة عشر من حكمه استقرار أمور امارته وهدوءها عزم على زيارة ملك بيت المقدس الذى

هو مولاه وقريبه والمتفضل عليه بما فى يده من الاقطاع ، كما أراد فى الوقت ذاته زيارة الأماكن المقدسة من أجل الصلاة بها فلما تم اتخاذ كافة الترتيبات اللازمة للرحلة عهد برعاية الاقليم الى جماعة معينة من أتباعه الأوفياء الذين يثق فى اخلاصهم وكفاءتهم ثقة تامة ، ولما كان رجلا يقظ الفؤاد لبيبا يأخذ لكل أمر أهبته فقد رتب جميع ما من شأنه حفظ سلامة المدن ، حتى اذا أنجز ذلك الأمر مضى لطيته وفى معيته معشر من الأشراف •

وبينما هو فى الطريق اذا برسول يعترضه حاملا اليه نبأ تأكد له صدقه ينعى اليه الملك بلدوين الأول فى مصر ، فانشغل بال كونت الرها بخبر موت مولاه وسيده انشغالا ليس بالمستغرب منه ، لكنه لم يتخل عن الرحلة التى خرج من أجلها ، بل تابع الذهاب الى القدس فوصلها فى اليوم المعروف بأحد الشعانين ، وكان الناس قاطبة قد اجتمعوا على جارى عادتهم فى وادى يهوشافاط احتفاء بمراسيم ذلك اليوم العظيم الدينية ، وشاءت الصدفة العجيبة أنه فى اللحظة التى كان الكونت وحاشيته يدخلون المدينة من ناحية كان موكب نعش الملك يدخلها من ناحية أخرى وقد ســـار من ورائه – جريا على العرف – جميع عســــكره الذى كانوا يرافقونه فى ذهابه الى مصر(١) •

– ٣ –

وجىء الى المدينة الطاهرة بجثمان الملك ودفن فى وقار الى جوار جثمان أخيه فى كنيسة القبر المقدسة أمام المكان المســـمى بالجلجثة عند ســـفح جبل كلفارى ، فلما فرغ القوم من مواراته

---

(١) راجع ص ٣٢٩ – ٣٣٠ من هذا الجزء •

التراب اجتمع كبار رجال المملكة من رؤساء الأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة ، كما حضر هذا الاجتماع البطرك أرنولف وبعض الأمراء العلمانيين ، منهم جوسلين صاحب طبرية الذى ألممنا بشىء من خبره آنفا ، وكان رجلا على جانب كبير من الشجاعة ، قويا فى كلامه وفعله ، وراحوا يتشاورون ماذا هم فاعلون ، وطرحت فى هذا الاجتماع الذى عقد من أجل هذا الموضع ذاته آراء شتى متباينة ، فكان من رأى البعض وجوب الانتظار حتى يصل كونت « استاس » كما أوصوا ألا يحدث أى تدخل فى القانون القديم الخاص بوراثة الولاية ، ذلك لأن أخويه صاحبى الذكر الطيب قد أدارا دفة أمور المملكة على خير وجه ، ووقع حكمهما موقع الرضا والقبول عند الجميع •

وقال آخرون ان أمور المملكة وما ينجم على الدوام من حاجات ملحة لا تسمح بمثل هذا التأجيل ، كما أن المتاعب المستمرة لا تأذن بهذا الابطاء ولا تجيز لنا أن نمر بفترة يخلو فيها العرش من حاكم ، بل ان السرعة واجبة ، وان الواجب يتطلب أن نبادر فنتخذ القرارات التى يتطلبها صالح البلاد ، مخافة أن يجد طارىء من الطوارىء فلا يكون هناك أحد يقود العسكر أو يباشر شئون المملكة ، لأن صالح البلد سوف يكون عرضة للخطر ان خلت من رأس يدبر أمورها •

ولقد أشرت آنفا الى أن جوسلين كان رجلا واسع النفوذ فى المملكة فاتفق مع البطرك فى رأيه الذى وجده مطابقا لما فى نفسه ، ومن ثم فانه وضع حدا لتردد الأحزاب وتوقفها عن التصويت اذ أيد المطالبين بتعيين ملك فى الحال وقال :

« ان كونت الرها حاضر معنا وهو رجل جليل القدر تربطه بالملك وشيجة القرابة ، ثم انه الى جانب ذلك مقدام جســـور فى

الحرب ، عظيم القدر من كل جانب عند الجميع ، عقمت كل أرض وولاية عن أن تنجب مثيلا له فهو نسيج وحده وقريع دهره ، ولذلك فتتويجه ملكا علينا خير لنا وأجدى من انتظار أمور خطيرة .

كان هناك الكثيرون ممن يعتقدون ان كلمات السيد جوسلين صادرة عن نية صادقة لأنهم كانوا عالمين تمام العلم بالمعاملة التى لقيها منذ قريب على يد الكونت والتى أشرنا اليها من قبل ، وورد على أذهانهم المثل القائل « ان الحق ما شهدت به الاعداء ، فوثق هذا الفريق كل الثقة بما قاله جوسلين واستجابوا له طائعين فيما نطق به غير عالمين أن هدفه الحقيقى كان مخـــالفا لما قال ، ولم يدركوا ما يرمى اليه فالواقع أنه كان يطمع أن يخلف بلدوين فى الغد فى امارة الرها وقد حمله هذا الطمع على محاولة وضـــع الكونت على العرش .

ولما كان البطرك أرنولف ولورد جوسلين قد تبنيا هذه الفكرة ورتباها فيما بينهما فقد كان من اليسير ان يعتنقها بقية القوم ، ومن ثم تم انتخاب بلدوين برغبة الجميع واجماعهم فنصبوه ملكا عليهم ، حتى اذا وافى يوم الاحتفال بعيد القيامة المجيدة الذى كان بعد قليل أقيم احتفال عظيم مسحوه فيه بالمزيت ، وباركوه جريا على العادة المألوفة ووضعوا على رأسه العصابة الملكية .

وأيا كان غرض البطرك ولورد جوسلين من وراء هذا الاختيار فان الله برحمة منه جعل الخاتمة خيرا فقد أثبت عدل (بلدوين) وتقواه انه الرجل الكفء ، وحالفه النجاح فى كل أمر أقدم عليه .

ومع ذلك فانه يبدو ان سوق العرش اليه كان على غير القاعدة المرعية ، ذلك أنه كان من الحقائق الثابتة ان الذين دلسوا فرفعوه

الى كرسى الملك قد حرموا وريث المملكة الشرعى من حقه فى العرش، اذ انه لما مات الملك (بلدوين الأول) أرسل القوم رهطا من كبار النبلاء يقدمون العرش باجماع عام الى « أوستاس » كونت بولونيا شقيق كل من الدوق جود فروى العظيم والملك بلدوين الأول ، ولست بقادر على الحزم البات عما اذا كان هذا الأمر قد تم حسب رغبة الملك الأخيرة ، أم انه تم نزولا على اجمـــاع تام من أمراء المملكة ٠ وعلى أية حال فقد زار المبعوثون « استاس » وراحوا يغرونه بالمضى معهم حتى أبوليا ليذكروا له المبررات الشرعية لاختياره ، فأطاعهم على كره منه لورعه وتقواه وخشيته الرب ، فقد كان الأخ الحق لهذين الرجلين الجليلين ، والخليفة الصادق لهما ٠

فلما بلغوا أبوليا علم هذا الرجل الموقر بتنصيب قريبه بلدوين كونت الرها اذ ذاك ملكا على بيت المقدس ، فلم يمنع ذلك الخبر الرسل الذين وفدوا لمصاحبته الى المملكة من الاصرار على مواصلة الرحلة وصرحوا بأن الاجراء الذى تم ان هو الا اجراء مناقض للقانون الوضعى ومخالف للشـــرع الالهى ، وانه على غير أقدم قاعدة للاستخلاف الوراثى ، ولايمكن أن تقوم له قائمة ٠

ولكن قيل أن الرجل الفاضـــل الذى تفيض نفسه بروح الله أجابهم بقوله : « باعدوا بينى وبين كل عمـــل يؤدى الى النزاع فى مملكة الرب التى كان دم المسيح سببا فى أن يعمها السلام ، وهى نفس المملكة التى ضحى من أجل هدوئها اخوانى الرجال النبلاء أصحاب الذكر ، وجادوا للعلى بأرواحهم الطاهرة » ٠

وآن ذاك أعيد حزم أمتعته وتجمع مرافقوه وكر على أعقابه راجعا الى وطنه رغم جميع المحاولات التى بذلها الرسل لحمله على الذهاب الى المملكة ٠

ــ ٤ ــ

كان (الملك الجديد بلدوين الثانى) كما يقولون رجلا فارع الطول ، تستلفت هيئته العيون وكان وسيم الخلقة جميلها ، يتخلل البياض شعره الأشقر ، أما لحيته فطويلة تصل الى صدره وان كانت مدببة ، واما وجنتاه فمشوبتان بالحمرة مع حيوية لا تتفق وتقدم سنه ٠

وكان خبيرا باستعمال السلاح ، بارعا كل البراعة فى القتال على ظهر الخيل ، متمرسا بفنون الحرب ، قويا فى السيطرة على رجاله ، ناجحا فى حملاته ، مطبوعا على الرحمة والشفقة ، ميالا لفعل الخير ، ورعا يخاف الله ، دؤوبا على الصلاة والركوع حتى نمت على يديه وركبته نتوءات جافة بسبب كثرة سجوده ، وعلى الرغم من أنه كان طاعنا فى السن الا أنه كان لا يكل أبدا عن تلبية أمور المملكة اذا دعاه الداعى ٠

ولما تبوأ العرش صادفته بعض المشاكل بشأن كونتيته الرها التى أصبحت بلا مدبر يرعى شئونها ، ومن ثم استدعى اليه ــ ومن تلقاء ذاته ــ قريبه جوسلين ، رغبة منه فى التكفير عن خطأ ارتكبه فى حقه ذات مرة ، فلما صار بين يديه عهد اليه بادارة أمور الرها باعتباره أدرى الناس بالاقليم ، وما كاد جوسلين يقطع له يمين التبعية حتىأسلمه العلم وملكه الرها ٠

ثم بعث بلدوين بعدئذ فى طلب زوجته وبناته وجميع أهل بيته من الرها فوصلوا اليه على جناح السرعة سالمين آمنين بفضل ما أحاطهم به جوسلين من الرعاية ، وكانت زوجته مورفيا « ابنة شريف اغريقى اسمه جبريل تكلمنا عنه من قبل(٢) ، وكان قد عقدوا له

---

(٢) سبق لوليم أن نسب جبريل هذا الى أصل أرمنى ولم يشــــر الى اغريقيته ،

عليها وقت ان كان كونتا وتسلم ـ اذ تزوجها ـ مهرا كان قدرا كبيرا من المال وانجبت له ثلاث بنات هن «مليزند» و « أليس » و«هوديبرنا» أما الرابعة واسمها « ايفيتا » فقد ولدت بعد أن صار ملكا ٠

وقد نصب بلدوين وتوج ملكا فى سنة ١١١٨ من مولد السيد ، ثانى شهر ابريل ، وكان بابا الكنيسة الرومانية يومذاك هو البابا « جلاسيوس » الثانى ، كما كان برنارد أول بطرك للاتين حينئذ فى أنطاكية ، وأرنولف بطرك كنيسة القدس ، وهو رابع البطاركة اللاتنين بهذه المدينة ٠

ـ ٥ ـ

فى هذا الوقت بالذات رحل عن هذه الدنيا « الكسيوس » امبراطور القسطنطينية ، وهو أقبح رجل اشتط فى اضطهاد اللاتين ، وخلفه ابنه يوحنا (الثانى) الذى كان أكثر انسانية منه فاستحق ان ينزل من نفس شعبنا منزلة سامية من المحبة ، هذا على الرغم من أنه لم يكن صادق الاخلاص فى نيته تجاه اللاتين ، كما سنفصل ذلك فى الصفحات التالية ٠

❋ ❋ ❋

ومشى البابا الرومانى بسكال فى الطريق الذى يمشى فيه كل الخلائق قاطبة ، وذلك فى السنة السادسة عشرة من بابويته وخلفه « جلاسيوس » الذى يسمى أيضا « بيوحنا خايتانوس » مدبر شئون الكنيسة الرومانية الطاهرة ٠

كما ماتت السيدة « ادليدا » كونتسة صقلية التى عرفت ذات مرة عند الناس بأنها زوجة الملك بلدوين الثاني المذكور آنفا ، وان لم تكن شرعا كذلك ٠

وفى صيف تلك السنة جمع الأفضل أمير مصر وصاحب الأمر فيها أعدادا كبيرة من الفرسان والمشـــاة من شتى أقاليم مصر ، ورتب أموره على أن يقتحم مملكتنا قسرا بقواته البرية والبحرية معا ، لأنه كان يحسب أنه من السهل عليه أن يقضى بالسيف على شعب صغير جدا كهذا الشعب (الصليبى) ويلحق به الهزيمة ، ويشرد أفراده على وجوههم فى كل بلاد الشام ، لذلك قام بحشد طائفة كبيرة من الفرسان واعداد لا يحصيها العد من المشـــاة البارعين فى الرمى بالحراب واجتاز الصحراء الفسيحة الواقعة بيننا وبين مصر وعسكر بهم أمام عسقلان ·

وكان ملك دمشق طغتكين « قد علم بأن المصريين قادمون ، فقام بجمع جيش كبير ، وربما كان جمعه ذلك الجيش من تلقاء ذاته أو بايعاز من (المصريين) ، وسلك بهم دروبا لم تجر العادة على سلوكها حتى يتحاشى مواجهة عسكرنا ، وعبر الأردن بمن معه وانضم بهم الى معسكر المصريين لعله يزيدهم قوة فيتمكن من الحاق الأذى بالصليبيين ، وارست بعض السفن عند عسقلان ، ومضى غيرها شطر مدينة صور الشديدة الحصانة ، ذات الميناء الفسيح ، وتلبثوا هناك فى انتظار ما تقضى به أوامر مولاهم ومشيئة قائد الأسطول ، ولكن لما كان ملك بيت المقدس يتوقع منذ زمن بعيد مجيئهم فقد استدعى اليه قوات اضافية من أنطاكية وطرابلس ، اما قواته هو فقد ركزها فى بقعة من بقاع سهل الفلسطينيين ، ثم مضى بعدئذ لمواجهة العدو ، واجتاز الموضع الذى كان يسمى من قبل باســـم « أسدود » والذى يعرف بأنه كانت به احدى مدن الفلســطينيين الخمس حيث ضرب معسكره ، فصار على مقربة من المصريين ،

وأصبح الجيشان ـ وقد دنى أحدهما من الآخر دنوا يستطيع معه كل منهما أن يرى معسكر خصمه يوما بيوم .

وأعقب ذلك فترة توقف امتدت حتى قاربت ثلاثة أشهر لم يتحرك فيها أحد المصافين للهجوم على الآخر اذ كان الصليبيون يخشون أن يحملوا هذا الجيش الكثيف على الاندفاع لقتالهم أن هم بدءوا بالهجوم عليه .

كما كان العدو هو الآخر متخوفا مما يشاع عن جرأة جندنا وقوتهم وبراعتهم فى القتال .

وأخيرا رأى القائد المصرى ان الحكمة تقتضيه الرجوع الى بلده سالما فذاك أجدى عليه وأسلم من أن يعرض نفسه ورجاله لمعركة لا يدرى بوائقها ، فعادت الحملة أدراجها الى مصر ، فلما اطمأن رجالنا الى عدم عودة المصريين فجأة استأذنوا الملك فى الرجوع هم أيضا فعادوا فرحين الى ديارهم .

* * *

ومات فى هذه الأثناء(٣) أرنولف بطرك بيت المقدس ، وكان رجلا يكثر من اختلاق المتاعب ، ولايكترث بمراعاة مهام وظيفته المقدسة ، فتولى مكانه « جورموند » وكان رجلا مستقيما يخشى الله ، وهو من شعب الفرنجة من بلدة « بكوينى » ومن أسقفية « أميين » ، والحق انه تمت فى أيام هذا الرجل ـ وبسبب فضائله كما يعتقد الكثيرون ـ أمور جليلة أدت الى رفعة مجد المملكة واتساعها ، وسنقص خبرها فى الفصول التالية من هذا الكتاب .

---

(٣) كانت وفاته يوم ١٨ أبريل سنة ١١١٨م .

وقام فى هذه السنة ذاتها طائفة من النبلاء المؤمنين من طبقة الفرسان الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وأعلنوا عن رغبتهم فى أخذ أنفسهم على الدوام بحياة الفقر والطهارة والطاعة ، واقسموا بين يدى البطرك ، وأخذوا العهد على أنفسهم أن يكرسوا أنفسهم لخدمة الله حسب القوانين الشرعية ، وكان من أبرز هؤلاء الرجال وأسبقهم لذلك الأمر « هيج دى باين » الموقر ، و « جود فروى دى سـنت أومير » ، ولما لم يكونوا ينتمون الى كنيسـة معينة ، وليس لهم مكان معين يقيمون فيه فان الملك منحهم سكنا مؤقتا فى قصره الخاص يقع على الجانب الشمالى من هيكل السـيد ، كما منحهم ساحة كانت تابعة للهيكل وقريبة من نفس المكان يستطيع فيها هذا النظام الجديد أن يمارس واجباته الدينية •

كما وفر لهم الملك ونبلاؤه والبطرك ورجال الكنيسة أوقافا خاصة مما تملكه أيديهم ، فأصبحت دخولها تدر على هؤلاء الفرسان ما يقوم بسداد جميع مطالبهم وما يحتاجونه من مأكل وملبس ، وكانت بعض هذه الهبات مقيدة بفترة زمنية محددة ، وبعضها كانت ملكا لهم للأبد ، وكانت مهمة هذا التنظيم الرئيسية التى أوصاهم بها البطرك والأساقفة الآخرون لجب خطاياهم هى أنه يجب عليهم أن يبذلوا ماتسعفهم به طاقاتهم لحفظ المسالك والدروب العامة ، وجعلها آمنة من تهديد اللصوص وقطاع الطرق ، مع بذل العناية الخاصة لحماية الحجاج •

وظل الفرسان الداوية هؤلاء لمدة تسع سنوات من تأسيس نظامهم هذا وهم يلبسون الملابس المدنية كبقية الناس ، ويرتدون ثيابا مما

يخلعها الناس عليهم وذلك لخلاص أرواحهم ، حتى اذا كان العام التاسع لقيام نظام الفرسان هذا عقد فى مدينة « تروى » بفرنسا مجمع حضره رئيسا أساقفة « ريمز » و « سنس » ومساعدوهم . كما حضره أسقف « البانو » مندوبا عن البابا ورؤوســـاء أديرة « سيتو » و « كليوفو » و « بوتينى » وكثيرون غيرهم ، وتقرر فى هذا المجمع بأمر من البابا « هونوريوس » و « ســـتيفان » بطرك القدس وضع قاعدة عامة لهذه المنظمة ، كما اتفقوا على أن يكون البياض لباسهم .

وعلى الرغم من أنه كان قد انقضت تسع سنوات على قيام فرسان المعبد هؤلاء الا أن عددهم لم يتجاوز التسعة فقط ، ثم أخذوا فى الزيادة بعد هذه الفترة ، وتضاعفت أملاكهم ، كما يقال انهم شرعوا منذ عهد البابا يوجين — فى خياطة صلبان من القماش الأحمر على عباءاتهم حتى يمكن التفريق بينهم وبين سواهم ، ولم يقتصر وضع شارة الصليب على الفرسان وحدهم بل لبسها أيضا الاخوان الذين هم دونهم مكانة والمسمون بالسرجندية ، وقد تزايد فرسان المعبد تزايدا كبيرا حتى أنه ليوجد اليوم منهم مايقرب من ثلاثمائة فارس يلبسون العباءات البيضاء ، هذا بالاضافة الى عدد لايكاد يحصى من الاخوان الذين هم دونهم مرتبة .

ويقال انه كانت لهم أملاك شاسعة ، سواء على هذا الجانب من البحر أو فيما وراءه ، ولا توجد ولاية فى العالم المسيحى اليوم الا وتمنح جزءا من ممتلكاتها لهؤلاء الاخوان ، حتى ليقال ان ما أصبحوا يملكونه يعادل ما عند الملوك من الثروات والأموال ، وهم يسمون باخوان فرسان المعبد ، ذلك لأنهم أقاموا — كما قلنا — فى القصر الملكى على مقربة من هيكل السيد .

ولقد ظل فرسان الهيكل زمنا طويلا وهم أوفياء لهدفهم النبيل ، مؤدين واجبهم على أكمل وجه ، ثم بدا لهم أخير أن يهملوا «التواضع الذى هو حارس جميع الفضائل ، فنزلوا به الى الدرك الأسفل » اذ خرجوا على بطرك بيت المقدس الذى تسلموا منه امتيازاتهم الأولى ورفضوا أن يطيعوه الطاعة التى كان يبديها أسلافهم له ، كما أصبحوا مصدر متاعب شديدة لكنائس الرب لأنهم رفضوا أن يسلموها الأعشار التى هى أولى ثمرات فاكهتهم ، وعاثوا فسادا فى أملاكهم ٠

— ٨ —

ولما كانت السنة التالية مات كذلك البابا « جالسيوس » المسمى أيضا بيوحنا جايتانوس ، وكان رجلا اشتهر بالعلم ، وهو خليفة البابا بسكال ، ولما كان يتجنب العنف فقد هرب من اضطهاد الامبراطور هنرى وخصمه البابا الزائف « بورد ينوس » ولجأ الى مملكة الفرنجة حيث ظل بها بقية أيامه حتى وافاه أجله ودفن فى « كلونى » فخلفه الرجل النبيل الأصل رئيس أساقفة فينا ، المدعو « جيدو » الذى صارت اليه البابوية فسمى « كاليكستوس » وكانت تربطه صلة القرابة بالامبراطور هنرى ويحظى بعطفه الكبير ، ثم انتهى به الأمر أخيرا اعتمادا منه على عطف الامبراطور وتشجيعه — الى الضى الى ايطاليا مستصحبا معه الكرادلة وكل حاشيته ، حتى اذا بلغ « سوتريوم » القريبة من مدينة روما ، أمسك بخصمه « بوردينوس » رأس الهراطقة مسكا عنيفا وأمر أن يلبسوه جلد دب ، وان يحمل على جمل ويسيروا به فى صورة كريهة شنعاء الى أحد الأديرة فى كانى قرب « سالرنو » حيث فرضوا عليه أن يعيش حتى آخر أيامه عيشة الرهبان حسبما تقضى بذلك نظم هذا المكان ٠

وهكذا انتهى الشقاق الذى ظل ثلاثين عاما يقلق بال الكنيسة ، وهو شقاق ظل مستمرا منذ عهد جريجورى السابع وطوال بابوية ايربان (الثانى) وبسكال وجلاسيوس » أسلاف كاليكستوس ، وبقى الامبراطور فى خلال هذا الشقاق سنوات طويلة محروما من صحبة المؤمنين بسبب قرار الحرمان ضده ، اما الآن فقد عاد الى حضن الكنيسة •

— ٩ —

وفى نفس هذه السنة(٤) هاجم ايلغازى امارة أنطاكية ، وهو أحد الأمراء الجاحدين الأقوياء وصاحب الأمر والنهى على هذا الجنس التعس الغادر : جنس التركمان ، وكان شعبه يرهبه كل الرهبة ، وقد عســـكر بجموع كثيرة من رعاياه قرب حلب ، كما كان معه طغتكين ملك دمشق ودبيس (بن صدقة) أحد الولاة العرب الأقوياء، وقد ضم هذان الأخيران قواتهما الضخمة الى جيش ايلغازى •

وكان بعض الناس قد أفضوا الى روجر أمير أنطاكية الذى تزوج أخت الملك بخبر قدوم هذه الجيوش محذرين اياه منهم • فأرسل الى السادة المجاورين له والى لورد جوسلين كونت الرها ، وبونس بل والى الملك ذاته يصور لهم الخطر الذى يهدده ، ويلح عليهم الحاحا شديدا الا يتوانوا فى المجىء اليه لمساعدته فى هذه الأزمة الطارئة التى اشتدت عليه وطأتها •

سرعان ما بادر الملك الى جمع كل من أمكن جمعه من مملكته من العسكر استجابة لهذه الدعوة التى جاءته على غير توقع منه ، وتقدم يحث الخطا الى طرابلس حيث وجد الكونت يتأهب هو الآخر

---

(٤) يعنى سنة ١١١٩ •

للخروج ، فانضمت قواتهما بعضها الى بعض وتابعوا الزحف معا بقية الطريق •

فى هذه الأثناء تباطأ الأمير عن عمد ، شأنه فى ذلك شأن كثير من البشر، وكان قد غادر أنطاكية وعسكر أمام ارتاح «الحصينة» غير عالم بما ادخره له الغد ، وكان هذا الموضع قد اختير اختيارا صالحا للجيش ، لأن بلوغه أرضنا كان ميسورا وقد توافر فيه جميع ماتحتاجه هذه الحملة ، كما زخر بشتى وسائل الراحة التى لا توجد عادة الا فى المدن ، فظل الأمير مقيما هنا لبضعة أيام يترقب وصول الملك والكونت ، لكنه مالبث أن أمر الجيش بالتقدم على الرغم من نهى البطرك الذى تبعه الى هناك واحجام الزعماء ، فلم يكن منه الا أن أعلن الى أمرائه أنه لن يتريث أكثر من هذا ، وقد شجعه على ذلك بعض نبلاء هذه الناحية الذين لم يكن يدفعهم الى ذلك رغبتهم فى أداء خدمة للجيش بل كانوا يطمعون أن يكون فى مجيئه حماية لأراضيهم الواقعة قرب معسكر العدو •

فاستجاب الأمير لما أشار به عليه هؤلاء الأمراء ، وترك المكان الذى كان قد عسكر فيه أولا ، واندفع فى طيش فأقحم نفسه وجيشه فيما يجر عليه البوار ، اذ نزل بموضع يقال له حقل الدم « وأحصى هنا جيشه فوجده سبعمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة المدربين ، هذا بالاضافة الى جماعة من التجار كانوا يتبعون الجيش للمتاجرة وبيع مامعهم من السلع •

ولما رآى الأعداء أن الأمير عسكر على مقربة منهم نقضوا خيامهم وتظاهروا بسحب قواتهم كأنهم يريدون مهاجمة حصن الأتارب ، أملا منهم فى أن تؤتى هذه المناورة ثمار خطتهم الحقيقية فى سهولة ويسر ، فبلغوا حصن الاتارب وعسكروا قربه هذه الليلة ، ولكنهم لم يقوموا بأى عمل لأن الوقت كان متأخرا ، فلما طلع الصباح بعث الأمير « روجر » كشافته للتجسس وليعرف عما اذا كان الخصم

عازما على مهاجمة المكان فى الحال ، أم أنه مسرع الى المعسكر لقتال قواتنا ، ورتب الأمير جنده للقتال توقعا لهجوم قد يباغتونه به فى لحظتهم هذه ، وبذلك كان مشغولا حين عاد اليه جواسيسه سراعا يخبرونه ان العدو فى ثلاث كتائب ، قوام كل كتيبة منها عشرون ألفا من العسكر ، وأنهم مسرعون فى الاقتراب من جيشنا ، فاستعد الأمير (روجر صاحب أنطاكية) فى الحال للقتال جاعلا جيشه أربعة أقسام ، ثم راح يدور بين صفوفه مخبا بجواده ومشجعا رجاله بكلمات تشد من عزائمهم ، وبينما هو فى غمرة هذه الأمور اذا برايات العدو تخفق معلنة اقترابه الشديد من قواتنا ، وبدأ القتال فى الحال ، واستبسل كل من الجانبين استبسالا عظيما فى حربه ، وان انتهى القتال بانتصار أعدائنا بسبب أخطائنا ٠

وصدرت الأوامر الى القوات التى كانت بقيادة القائدين النبيلين البطلين « جودفروى الراهب » وجى دى فريميل بأن تتقدم هى أولا ضد العدو ، فسارت قدما على أتم نظام يقتضيه العمل الحربى وشتتوا الجانب الأكبر من قوات الخصم وعسكره الكثيف ، وأرغموهم على الفرار ٠

اما الفريق الثانى الذى يقوده «روبرت دى سنت لو » فكان عليه أن يفعل ما فعله الأول ، فيواصل الهجوم ، وان يكون هجومه أعنف من سابقه ، ولكنه جلب ما يستوجب المعرة ، اذ توقف بعضا من الوقت أتاح فيه للعدو فرصة يسترد فيها أنفاسه ويكر كرة ضارية على قلب كتيبة الأمير وهى تتأهب لمساعدة الفرق الأخرى ، واكتسح معه بعضامن هذه القوة فأصبح الرجوع معها ضربا من المحال ٠ على أنه جرت أثناء هذه المعركة حادثة تجدر الاشارة اليها ، ذلك انه بينما كان القتال على أشده بين الطرفين ، اذا بعاصفة هوجاء تهب

من ناحية الشمال ثم تهبط فتلتصق بالأرض وسط ساحة المعركة ، ثم تسفى ترابا كثيفا أعمى رجال الجيش فلم يستطع أحد قتال الآخر ، ثم ارتفع هذا العثير على شكل دوائر تشبه تمام الشبه جرة ضخمة ملتهبة تتصاعد منها شعل كبريتية ، وأدى هذا الحادث العارض المنذر بالسوء الى أن يكون الظفر للعدو فى هذه المرحلة وأن تدور الدائرة على الصليبيين ويهلك معظم عسكرنا بحد السيف •

— ١٠ —

كان الأمير (روجر) فى هذه الأثناء يبذل جهده بلا طائل فى دعوة قواته للعودة ، وكان هو ذاته يحارب حرب الأبطال فى شرذمة ضئيلين من خاصته ، ويخاطر بنفسه وسط صفوف العدو غير هياب ولا وجل ، على انه بينما كان فى معمعان القتال اذا بضربة سيف تصيبه فترديه ففر على أثرها بقية رجالنا الذين كان قد تركهم لحفظ الأمتعة والذخيرة ، وآووا الى جبل قريب ، ولما شاهد الهاربون ما كان من أمر الذين نجوا من سلاح العدو وفروا من المعركة ، تجمعوا على قمة هذا التل وراحوا يبذلون محاولات محمومة ليصلوا اليهم ، وكانوا يؤملون أن تكون هذه العصبة من القوة بالدرجة التى تمكنهم من المقاومة والنجاة معها ، لكنهم لم يكادوا يصلون الى هذا الموضع حتى كان خصوم ملتهم قد أجهزوا تماما على من كان فى المعسكر ، ثم التفتوا الى هذه الجماعة فتبددت أيدى سبا ، وما انقضت ساعة من نهار حتى كان رجالها قد قتلوا على بكرة أبيهم •

كان رينالد ماسوييه (المعروف برينيه منصور) من أحسن رجال تلك الناحية العظام ، وكان قد التجأ هو وجماعة من الأشراف الى أحد أبراج مدينة «الماورة» طلبا للسلامة، فما كاد ايلغازى يعلم بذلك حتى حث خطاه الى هناك على رأس طائفة مسلحة ، وارغم النبلاء

الموجودين بالبرج على الاستسلام ، وهكذا ترتب على ما ارتكبناه من الخطأ ان لم تقدر النجاة لأحد من الألوف العدة الذين تبعوا مولاهم فى ذلك اليوم ، ولم يبق منهم أحد فى الحياة ليروى خبر ماجرى ، هذا فى الوقت الذى كان فيه قتلى العدو شرذمة قليليين أو لاشىء مطلقا ٠

كان هذا الأمير روجر مذموم السيرة غاية المذمة ، فهو رجل كما تقول الشائعة داعر لا خلاق له ، لا يحترم الروابط الزوجية ، كما أنه كان شديد البخل ، قد اغتصب ـ طول حكمه لانطاكية ـ ارث سيده بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير الذى كان يعيش اذ ذاك مع أمه فى أبوليا ، اذ كان تانكريد الطيب الذكر قد عهد ـ وهو على فراش الموت ـ بالحكم الى روجر ، مقدرا أنه لن يرفض تسليم الحكومة الى بوهيموند الصغير أو ورثته ان طلب أحدهم استرجاعها ٠ على أنه يقال انه قبل الوقعة التى مات فيها بحد السيف اعترف باخطائه أمام الرب بقلب كله ذل وندم ، وكان اعترافه على يد بطرس الموقر رئيس أساقفة « أفامية » الذى كان حاضرا فى هذه اللحظة الحرجة ، وزاد على ذلك بأن وعد ـ بمعونة الرب ـ ان يعطى عطاء يعادل رجوعه عن اثمه ، ثم خاض المعركة صادق التوبة ٠

ـ ١١ ـ

فى هذه الأثناء كان الملك وكونت طرابلس قد وصلا الى المكان المسمى بجبل « نجرة » ، فما كاد ايلغازى يعلم بخبر وصولهما حتى بعث بكتيبة قوامها عشرة آلاف فارس من خيرة فرسانه لصدهما ، وكانت هذه الكتيبة مقسمة الى ثلاث فرق ، تقدمت أولاها تجاه الشاطىء الى ميناء القديس سمعان ، اما الفرقتان الأخريان فقد زحفتا ضد الملك وان اتخذت كل منهما طريقا يخالف طريق الأخرى ، لكن شاعت

الصدفة البحتة أن يلتقي بلدوين (الثاني) باحدى هاتين المجموعتين الأخريين فهاجمها برحمة من الله ، وأفنى الكثيرين من رجالها الذين أسر بعضـــهم ، وارغم البقية على الفرار ، ثم تابع بعدئذ زحفه مع كل من قبضت لهم الحياة من أتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم عبر « لاتورس » و « كازابلا » حتى وصل الى انطاكية ففرح بمقدمه البطرك ورجال الدين والناس قاطبة فرحا عظيما ، ثم راح يتشاور مع كل من قبضت لهم الحياة من اتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم احسن السبل التى ينبغى عليه أتباعها فى مثل هذا الموقف الشديد التأزم .

كان ايلغازى فى هذه الأثناء قد مر ببلدتى « عم » و « ارتاح » وضرب الحصار على الأتارب وكان شديد الاطمئنان لقيامه بهذه الخطة لأنه كان قد أذيع ان الملك دعى اليه الوالى وأتباعه الفرسان الى انطاكية ، وقد برهنت الأحداث على صدق هذا الخبر ، فقد تقدم ايلغازى من المكان ووجده غير مجهز بما هو لازم للقتال ، فبعث فى لحظته الى شتى النواحى يستقدم الجند الذين يعملون فى بناء التحصينات فحفروا السراديب وكلفهم بنسف الأكمة التى يقوم عليها الحصن فنسفوها وأضرموا النيران فى الأعمدة الخشبية التى يستند اليها البناء ، فلما انهارت الرابية التى ترتكز عليها الأسوار والأبراج خاف رجال الحامية أن تهوى القلعة بأكملها حين يتم نسف التل فاستسلموا ، على أن تؤمن لهم حياتهم وان يسمح لهم بالرجوع الى أهلهم من غير أى عائق ، ثم قاد ايلغازى جيشــــه الى قلعة « زردنا » وبدأ عمليات الحصار بها فلم تنقض أيام قلائل الا وقد استسلم من بها على نفس الشروط ، فأيقن الأمير أن لن يقاومه أحد ، ومن ثم أضجره التريث فسار فى الاقليم كله وفق هواه الشخصى ، وهكذا فقد أهالى الأماكن المجاورة كل أمل لهم فى النجاة من بطش رجل قوى كهذا الرجل .

خرج الملك وكونت طرابلس من أنطاكية بكل القوات التى أمكنهما جمعها ، واتجها فى زحفهما شــطر « الروج » ظنا منهما أنهما واجدان العدو قرب « الأثارب » ومرا عبر « دانيث » وعسكرا على هضبة يقال لها تل دانيث ، وما كاد خبرهما يصل الى سمع ايلغازى حتى استدعىاليه قواده وهددهم بالموت ان لم يهجروا النوم ويصرفوا كل ليلهم فى الحصول على السلاح والخيل ، وأمرهم أن يبذلوا أقصى الجهد فى الاستعداد لمهاجمة معسكر الملك مع اطلالة الفجر قبل أن يطلع النور ، وبذلك يفاجئون رجال الملك وهم لايزالون يغطون فى نومهم فيحكمون الســيف فيهم جميعا ولا يمكنون احدا منهم من الفرار ٠

ولكن الرحمة الالهية قدرت غير ما رسموا ، ذلك ان الملك ورجاله لم يتوانوا فى تيقظهم ولم تغمض لهم عين طول الليل ، وظلوا منهمكين فى ترتيب التفاصيل الضرورية للمعركة القادمة ، ومضى « ابرمار » رئيس أساقفة قيصرية الموقر الذى صحب الملك الى هذه النواحى حاملا صليب المسيح فى يده وراح يعظ الناس ويشجعهم ، فانتضوا أسلحتهم وتأهبوا للاستبسال فى القتال فى شجاعة كبيرة، ولبثوا ينتظرون هجوم العدو عند طلوع النهار ٠

ويقال انه كان مع الملك فى هذه المعركة سبعمائة فارس أمرهم أن يقسموا أنفسهم الى سبع كتائب حسب النظام الحربى ، واصطفت صفوفهم فى انتظار رحمة الرب، فجعلوا فى طليعة الجيش ثلاث كتائب قدموها أمامهم ، اما المشاة فجعلوهم فى الوســط ، واما كونت طرابلس وقواته فكانوا يؤلفون الميمنة ، على حين وقف بارونات أنطاكية فى الميسرة ٠ وكان فى المؤخرة الملك نفسه على رأس أربع كتائب اتفقوا على أن تكون مهمتها مساعدة الآخرين ٠

وبينما هم مصطفون على هذا النحو من التنظيم الحربى فى انتظار مجىء العدو اذا به يكر عليهم فى صرخات مدوية ، ويتقدمه نفخ الأبواق ودق الطبول ، وكانوا فى هجومهم معتمدين كل الاعتماد على أعدادهم التى لا يحصيها العد ، ولكن قواتنا كانت تعتمد على الصليب المنتصر وعلى صدق ايماننا ، وهو أمل لا يخون صاحبه ولا يخزيه ·

ثم التحمت الصفوف المتراصة القريب بعضها من بعض وتقاتلت وجها لوجه بالسيوف ، ولم يحفل الجانبان أبدا بالشرائع الانسانية ، بل كانا يتقدان عنفا ويتفجران كراهية لا ينضب معينها ، ويتقاتلان كما لو كان كل منهم يقاتل وحوشا ضارية ·

ورآى المارقون ان جراة مشاتنا تنذر بشر مستطير ، فبذلوا محاولات بطولية للقضاء علينا ، فهلك فى ذلك اليوم طائفة كبيرة من جندنا المشاة بسيف العدو ، وان كان ذلك باذن من الرب ·

***

سرعان ما تبين الملك ان مشاتنا قد اجهدوا أنفســـهم فوق طاقتهم ، وان المقدمة فى حاجة هى الأخرى للمساعدة ، ومن ثم وثب بحرسه وهم ركوب وشقوا طريقهم قدما الى قلب العدو ، وراح بلدوين يضرب بسيفه ضربا عنيفا ذات اليمين وذات الشمال حتى تخلخلت صفوف الخصوم التى كانت أكثر الصفوف حشدا ، وحذا رفاقه حذوه ، ونجح تشجيعه اياهم فى شد عزائمهم فانثالوا على العدو لاتملكهم غير فكرة واحدة ، واستنجدوا بالسماء عســـاها تعينهم ، فاستجابت لهم الرحمة الالهية ، فأفحشوا القتل فى العدو الذى لم يعد احياؤه قادرين على المقاومة بل فروا على وجوههم ·

ويقال انه سقط من رجالنا فى هذه المعركة مايقرب من سبعمائة من المشاة ومائة من الفرسان ، اما خسائر العدو فبلغت أربعة آلاف

قتيل سوى من جرحوا جروحا مميتة ، أو وقعوا فى الأسر ، فلما شاهد ايغازى هذا الأمر خلى جنوده وحدهم يواجهون الموت وهرب هو مع كل من طغتكين ملك دمشق ودبيس أمير العرب ، اما الصليبيون فقد راحوا يطاردون القوم فى شتى الجهات ، على حين بقى الملك بلدوين (الثانى) هو ورهط قليل من فرسانه فى ساحة القتال خلال الهزيع الأول من الليل ، لكنه اضطر تحت حاجته الى الطعام للعودة الى قلعة « هاب » المجاورة لتناول بعض ما يقيم أودهم .

ولما رجع فى الصباح الى ساحة المعركة ارسل نفرا من الرسل الى أخته والى البطرك يحملون اليهما خاتم الملك كرمز اكيد للنصر الذى أحرزه ، وامرهما أن يعلنا أن السماء قد أسعفته بنعمة الغلبة . وظل بلدوين فى الساحة يومه هذا باكمله لم يبرحها حتى انتصف الليل حين جاءه الخبر اليقين ان الأعداء فقدوا عسكرهم ولا عودة لهم ، وحينذاك جمع هو كل الجند الذين أمكنه جمعهم فى ساعته هذه وسار بهم الى انطاكية يحملون السعف منصورين ، فرحب به بطركها وجميع رجال الدين وأهل المدينة .

وقد جادت العناية الالهية بهذا النصر على الصليبيين(٥) فى سنة ١١٢٠ من مولد المسيح وهى السنة الثانية من حكم الملك بلدوين الثانى وذلك فى شهر أغسطس ليلة عيد رفع مريم العذراء الطاهرة أم المسيح .

وأرسل الملك الى القدس الصليب الواهب الحياة فى رعاية رئيس أساقفة قيسرية ، وصحبهم حرس من النبلاء ، فقوبل فى يوم تمجيده بترحاب من قبل رجال الدين ومن الناس الذين ساروا كلهم

---

(٥) لم يكن ذلك النصر فى سنة ١١٢٠ كما يذكر وليم بل كان فى السنة التى قبلها ، سنة ١١١٩ .

حوله ينشدون التراتيل والاغانى الدينية ، أما بلدوين فقد اضطرته ظروف الامارة الملحة الى البقاء فى أنطاكية ، ثم انعقد رجاؤهم الحار باتفاق من البطرك وكل وجوه القادة ورجال الدين على أن يعهدوا الى الملك برعاية شئون امارة أنطاكية وخولوه السلطة ، واذنوا له باطلاق يده كما لو كان فى مملكته ينظم أمورها كيفما شاء فيعزل من يرى عزله ويسير كل شىء وفق مشيئته ، وحينذاك قام فأعطى أنصبة من سقطوا فى المعركة لابنائهم ولن يمت اليهم بوشيجة قربى ولو بعدت ، حسبما تقضى به الاعراف التى جرى عليها البلد ، كما زوج الارامل برجال كرام مساوين لهن فى المكانة ٠

ثم جهز الحصون بالرجال وزودها بالذخيرة والمئونة كلما رآى الحاجة ماسة لذلك ، فلما فرغ من هذا كله غادر أنطاكية فترة من الوقت رجع فيها الى المملكة حيث تم تتويجه هو وزوجته معا يوم عيد ميلاد السيد فى كنيسة بيت لحم ٠

— ١٣ —

وفى نفس سنة ١١٢٠ من مولد المسيح حل بمملكة بيت المقدس كثير من النكبات بسبب خطايانا ، فاذا خلينا جانبا ما ابتلينا به من الضرر على يد العدو ، فقد اجتاحت البلاد أسراب الجراد ، ونزلت بنا نازلة الفئران المتوحشة فالتهمت الزروع وأتت عليها على مدى سنوات أربع متتالية ، حتى لقد عز الخبز من كل البلاد ، لذلك قام بطرك القدس « جورموند » التقى الورع وذهب الى نابلس وهى احدى مدن « السامرة » حيث التقى بالملك بلدوين وبكبار رجال الكنيسة وأشراف المملكة ، وعقد اجتماع شعبى ومجمع عام دعى اليه « جور موند » فألقى عظة وعظ فيها الناس ، ولما كان من البين الواضح للجميع أن خطاياهم قد أثارت غضب الرب عليهم فقد اتفقوا

بالاجماع على أن يصلحوا ما قد فسد من أمورهم ، ويقوموا ما اعوج من سلوكهم ، ويكبحوا جماح شهواتهم ، وقال انهم ان فعلوا ذلك حسنت عقباهم فى الحياة الدنيا ، وان هم نبذوا أعمالهم الشريرة انفتح باب الأمل أمامهم اذ لابد أن يرق لهم الخالق ويبسط عليهم ظل رحمته ، لأنه لا يريد الموت للمخطىء بل يؤثر رده ولا يريد له الموت ليهتدى(٦) ، ثم جاءتهم نذر من السماء تهددهم فضربتهم بالزلازل وألمت بهم النكبات الجسام الفادحة ، وعضتهم المجاعة بنابها، وأرهقتهم غارات العدو التى كادت أن تكون يومية ، ورأوا ان دفع ذلك يقتضيهم استرضاء الرب بأعمال الخير ، فاتفق اجماعهم الذى لم يشذ عنه أحد على وضع اتفاق عام من خمس وعشرين مادة لها قوة القانون ، وذلك لرغبتهم فى اعلاء القيم الأخلاقية واقرار النظام، ومن يشأ أن يقرأ هذه المواد فالأمر يسير لأنها محفوظة فى سجلات معظم الكنائس .

كان من شهود هذا المجمع « جور موند » بطرك بيت المقدس وبلدوين ثانى ملوكها اللاتين ، و « ابريمار » رئيس أساقفة قيصرية ، « وبرنارد » أسقف الناصرية ، و « اشيتينوس » أسقف بيت لحم ، وروجر أسقف اللد ، و «جلدوين» الراهب المنتخب لدير القديسة مريم فى وادى يهوشافاط ، وبطرس رئيس اساقفة « مونت تابور » ، و « أشارد » رئيس فرسان المعبد ، وأرنولد مقدم جبل صهيون ، و « جيرارد » حارس القبر المقدس ، وباين مستشار الملك ، واستاس جرتييه ، ووليم دى بيورى « وباريسون » كونستابل يافا ، وبلدوين صاحب الرملة وكثيرون غيرهم من جميع المنظمات ممن لا تتوافر لدينا أعدادهم ولا اسماؤهم .

---

(٦) هذه اشارة الى ما جاء فى حزقيال (٣٣ : ١١) : « يقول السيد انى لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » .

كان ايلغازى رجلا لا يلم به الكلل فى اضطهاد المسيحية : رسما واسما ، وكان أشبه فى ذلك بالزواحف القارضة تسعى للأذى ، من ذلك انه جمع عسكره فى السنة التالية وانتهز فرصة غياب الملك وحاصر بعض قلاعنا ، فلما علم الناس بهذا الخبر بعثوا الى الملك يستدعونه على عجل ، ولما كان الملك مستعدا على الدوام للاستجابة فقد نهض فى كوكبة من فرسان حاشيته وأسرع الى هناك ، حاملا معه صليب المسيح ، واستدعى اليه جوسلين كونت الرها واثنين من كبار السادة اللذين كانا قد انضما الى كبار زعماء أنطاكية وزحفوا على القلعة الحصينة التى أشرنا اليها حالا (وهى قلعة زردنا) وكان ظنهم أنهم سوف يشتبكون فى القتال حال وصولهم الى غايتهم لكن حدث أن ضرب الله ايلغازى بالسكتة القلبية فحرم قادة جيشه من مساعدة زعيمهم لهم ، وكان ما نزل به قضاء عادلا حال دون اشتباكهم فى معركة بينهم ، فحملوا مولاهم وهو فى النزع الأخير فى محفة وأسرعوا به الى حلب ، غير أنه يقال انه وهو المخلد فى النار الأبدية ـ قد لفظ أنفاسه قبل أن يصلوا به الى هذا المكان .

***

ولقد ظل الملك مقيما فى أنطاكية فترة من الوقت لمعالجة الأمور الهامة ، ثم رجع بمشيئة الله سالما الى المملكة ، وكان محبوبا من الجميع ، قريبا الى نفوس الناس فى المملكة وفى الامارة اللتين كان اليه تصريف شئونهما ، فصرف أمورهما على أحسن وجه : امانة واخلاصا رغم بعد كل منهما عن الأخرى بعدا كبيرا ، وليس من اليسير أن نقول لايهما كان اهتمامه الأكبر ، هذا على الرغم من أن المملكة كانت ملكه الخاص التى يورثها شرعا لخلفائه ، اما الامارة فلم تزد عن ان تكون أرضا عهد اليه برعايتها ولكن الحق انه كان يبذل اهتماما أكثر بشئون أنطاكية التى ظل صادقا فى تدبير أمورها

حتى جاءها بوهيموند (الثانى) الصغير ، كما سنقص خبر ذلك فى الصفحات التالية ٠

— ١٥ —

حين كان الملك (بلدوين) بالقدس فى ذلك الوقت ، منح سكانها منحة جليلة القدر بدافع من أريحيته الدينية وسخائه الملوكى ، فرفع عن كاهل الأهالى الضرائب التى كانوا مطالبين بدفعها من قبل ، سواء فى استيرادهم البضائع أو تصديرها ، وزاد فأكد هذا القرار بوثيقة ممهورة بالخاتم الملكى حتى تكون سارية النفاذ الى الأبد ، ولم يعد أى لاتينى يدخل المدينة أو يخرج منها ومعه سلعة ما ملزما بدفع أى شىء تحت أية حجة ، بل أصبح هذا اللاتينى حرا يشترى ويبيع ما يريد لا يكلف من أجل ذلك شيئا ٠ وزاد الملك فمنح السريان والاغريق والأرمن وجميع الناس على اختلاف أممهم ، وشمل ذلك المسلمين أيضا ، فصار لهم الحق فى أن يحملوا الى المدينة المقدسة القمح والشعير وكل ذى روح لا يسألون شيئا يدفعونه على ما يحملون ، وزاد على ذلك فجب الضريبة المعتادة المفروضة على المكاييل والمقاييس ، فاستألف بهذا الصنع قلوب الناس واكتسب رضاء الأهالى ، لأنه بهذا الأسلوب الملوكى وبالحب الذى يستحق التقدير عمل على خير المواطنين وسعادتهم بطريقتين :

أولاهما : انه جعل المدينة تفيض أكثر من ذى قبل بمواد الاعاشة لأنها أصبحت تستورد البضائع من الخارج معفاة من الضرائب ، وثانيهما أنه سار على نهج سلفه فى بذل كل محاولة لزيادة عدد سكان المدينة ، حبيبة الرب(٧) ٠

(٧) انظر ما سبق من هذه الترجمة ، ج ٢ ، ص ٣١٧ — ٣١٩ ٠

ولما كانت السنة الثالثة قام طغتكين ملك الدماشقة الغادر الماكر وتحالف مع احد شيوخ العرب ، وانضمت قوات الواحد منها الى قوات الآخر ، ولما رأى ان الملك ينهض وحده بتحمل مسئولية ينوء بها كاهله ، الا وهى رعاية شئون البلدين (بيت المقدس وأنطاكية) فقد اغتنم فرصة انشغاله وأنفذ عسكرا اقتحموا اراضينا الواقعة فى منطقة طبرية وعاثوا فيها فسادا وعدوانا ٠

فلما علم الملك بلدوين بهذه الوقاحة حشد الجند من شتى أرجاء مملكته وأسرع الى هناك بما طبع عليه من سرعة المبادرة ، فترامى خبر اقترابه الى سمع طغتكين فأخذ حذره وانسحب الى ناحية قاصية من بلاده ، ذلك لأنه أدرك عجزه عن تحقيق أى شىء لو انه واجه الملك ، ورأى الخير فى أن يتحاشى ما ينجم عن هذا الاشتباك من المخاطرة ٠

كان الملك فى هذه الأثناء قد زحف بقواته شطر الجنوب وبلغ « جرش » احدى المدائن الكبرى فى ولاية «ديكابوليس» والتى تقع فى يد قبيلة مناساس قرب جبل جلعاد ، ولا تبعد سوى أميال قلائل من نهر الأردن ، وكانت هذه المدينة قد ظلت مهجورة خوف الحرب ، حتى اذا كانت السنة المنصرمة بذل طغتكين المال الكثير وأمر أن يقام بها قلعة من الحجر الأصم الضخم فأقيمت فى أحصن بقعة منها ، وزودها بالذخيرة ، وجهزها بالسلاح ، واقام بها بعضا من خاصة رجاله ممن يثق بهم كل الثقة ٠

سرعان ما هاجم الملك ذلك المكان حال وصوله اليه وهو فى سورة غضبه ، فاستسلمت القلعة بمن فيها من الجند وكانوا أربعين

اقيموا لحراستها ، فاشترطوا أن يسمح لهم بمغادرة المكان الى ذويهم سالمين فى أنفسهم ، فأجيبوا الى ما طلبوه ، واذ ذاك أخذ بلدوين فى التشاور مع مستشاريه عما اذا كان يهدم هذه القلعة ويدك أسوارها ويسويها بالأرض أم يستبقيها ليستخدمها الصليبيون ، فاجتمع الرأى على وجوب هدمها وجعلها أنقاضا ، اذ لا جدوى تعود عليهم ان هم استبقوها فى أيديهم ، لما يكلفهم ذلك من النفقات الباهظة ، والمتاعب المستمرة ، يضاف الى ذلك ان لا أحد يستطيع الوصول الى هذه القلعة دون أن يتعرض للخطر البليغ ٠

ـ ١٧ ـ

على هذه الصورة أخذت أمور المملكة فى التحسن والازدهار بشكل مرض بنعمة من الله ، غير أن أعداء السلام ومحبى الفوضى كانوا يحاولون فى هذه الأثناء اثارة المتاعب ، فراح بعضهم يوغر صدر « بونس » ثانى كونتات طرابلس ضد ملك بيت المقدس ، حتى دفعه لنبذ طاعته ، وتصرف تصرفا ملؤه الاستخفاف ، اذ رفض أن يؤدى التزامه بخدمة الملك حسب يمين الولاء الذى فى عنقه له ٠

ووجد الملك أنه يستحيل عليه الاغضاء عن هذه الاهانة ، ومن ثم جمع الفرسان والمشاة من شتى أرجاء المملكة وتقدم بهم الى هناك لمحو العار الذى ألحقه به بونس ، غير ان رجالا أشرافا تداركوا الأمر وتدخلوا بين الطرفين قبل أن تحيق بهما الخسارة ويلحق بهما النكال ، فعاد السلام يرفرف من جديد ، ثم يمم الملك وجهه بعدئذ شطر أنطاكية استجابة لنداء أهلها الذين جابهتهم المشاكل حتى طلبوا منه المعونة ، لأن أميرا تركيا كبيرا قويا اسمه « بلك » أخذ فى مكايدة الاقليم بأجمعه بكثرة ما شنه عليه من الغارات التى يقوم بها وهو واثق من نفسه كل الثقة ، لأنه كان قد قام قبل

ذلك بفترة وجيزة بحملة فجائية أسفرت عن وقوع كل من جوسلين كونت الرها وقريبه « جاليران » فى أسره فزج بهما فى السجن ، غير ان بلك أخذ يقلل من هجماته التى كانت ، كثيفة ، وذلك حين سمع ان الملك قدم بنفسه فتجنب حدوث صدام بينه وبين بلدوين الذى طبق الآفاق صيت انتصاراته الحربية ، كما أدرك بلك أنه من العسير على أى واحد أن يهزم الملك ، لكنه مع ذلك دنى بعض الشىء منه على رأس فرسانه المسلحين بالأسلحة الخفيفة لعل الفرصة تسعفه فينجز رغبته فى انزال المضرة بقواتنا ٠

أما الملك فقد تابع السير بمن جاء بهم من القوات متجها الى أرض كونت الرها ، راجيا أن يكون ذا جدوى لأهلها الذين لم يعد لهم قائد يصرف أمورهم ، فكان يذرع ارجاء الناحية دون أن تغفل له عين عن تقصى أحوال الاقليم تقصيا دقيقا ، ملاحظا ما اذا كانت القلاع محصنة تمام التحصين ٠ وعما اذا كانت بها القوة الكافية من الفرسان والمشاة ، والوفرة من السلاح والذخيرة ، ورتب أن يسد كل نقص يراه بما يفرضه عليه الواجب الملتزم به ٠

وبعد أن خلف قلعة تل باشر وراءه أسرع الى الرها وهو يفكر مليا فى هذه الأمور لأنه كان يرغب فى التأكد من العناية بحال الاقليم الواقع فيما وراء الفرات وضبط أموره من كل الوجوه ، وحدث فى ذات ليلة من ليالى زحفه أن خرج مع نفر من خاصة أتباعه ، وكان الكرى قد ران على عيون معظمهم فتراخوا فى حذرهم ولم يتوقعوا أى خطر يفاجئهم ، فساروا متفرقين ، واذا ببلك يطلع عليهم بغتة ويهاجمهم ، اذ كانت الأخبار قد جاءته عن سير الملك فنصب له ولمن معه كمينا ، وكان حرس الملك غير مستعدين للقتال فقد أثقلهم النعاس وخالطهم الوسن وشاء الحظ العاثر أن يقع بلدوين ذاته فى يد بلك أسيرا ، وكان الحرس الذين فى الطليعة والمؤخرة قد فروا فى هذه

الأثناء على وجوههم وتفرقوا فى شتى الجهات غير عالمين بالنكبة التى حاقت بمولاهم ، وأمر بلك بالملك أن يقيد ورماه فى قلعة خرتبرت الواقعة وراء نهر الفرات حيث كان كونت جوســـلين ، «وجاليران» فى الحبس كما ذكرنا ٠

فلما تسامع زعماؤنا فى المملكة بخبر النكبة الفادحة التى حاقت بالملك انشغل بالهم أشد الانشغال حول مصير المملكة ، فاجتمعوا فى مؤتمر مع البطرك وكبار رجال كنيسة مدينة عكا ، وكلهم شـــعور واحد ، واجمعوا ـ دون أن يشذ واحد منهم ـ على اختيار « استاس جرنييه » ـ وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا خبرة كبيرة فى الأمور الحربية لتصريف أمور المملكة وولوه عليهم ، وترجع ثروة استاس الضخمة الى أنه كان قد ورث شرعا مدينتين كبيرتين فى المملكة هما صيدا وقيسرية بكل ملحقاتهما ، ومن ثم فقد عهد اليه زعماؤنا بحكم المملكة وادارة دفة شئونها العامة حتى يأذن الله بالفرج فيطلق سراح الملك ويعود الى حريته ، ويومذاك يكون قادرا مرة أخرى للهيمنة على شئون المملكة ٠

ولنعد الآن لمتابعة خبر نكبة الملك ٠

ـ ١٨ ـ

بعد أن قيد الملك والكونت وأصبحا رهينى محبسهما فى تلك القلعة المشار اليها سمع رهط معين من الأرمن (يبلغون الخمسين رجلا) ان عاملى المسيحية العظيمين فى الأسر بقلعة خرتبرت ، فصمموا على القيام بمحاولة انقاذهما دون اكتراث بما يحيق بهم من الخطر ان هم فشلوا فى مسعاهم ٠

واختاروا خطة جديدة كل الجدة ٠

وهناك رواية أخرى تقول انهم قاموا بمحاولتهم هذه استجابة لاستصراخ كونت جوسلين بهم ، ومن ثم طمعوا فى الحصول على مكافأة سخية لقاء تعريضهم أنفسهم لهذا الخطر · وعقد هؤلاء الأرمن الخمسون اتفاقا لا نقض فيه ، وأكدوا اتفاقهم بأغلظ الايمـــان ، وكانت خطتهم أن يذهبوا الى الحصـــن لتحرير هذين الرجـلين العظيمين دون اعتبار للأخطار التى تكتنف هذا العمل · فتنكروا فى فى مسرح الرهبان ولكنهم حملوا الخناجر تحت أثوابهم الفضفاضة ، وانطلقوا الى تلك القلعة حتى ليحسبهم الرائى أنهم فى بعض أعمال ديرية ، ثم راحوا يصطنعون الكلمات والآهات ، والنظرات الحزينة مما يظهرهم وكأنهم قد أوذوا أذية بالغة ، وأن بعض الناس أصابوهم بضرر كبير ، وأعلنوا ـ والدموع تنسكب من عيونهم ـ أنهم يريدون أن يحتجوا عند حاكم الناحية على المعاملة التى صادفوها لأنه هو المسئول عن حفظ النظام حتى لا يقع أى سوء فى المنطقة ·

* * *

وهناك رواية أخرى تقول انهم نجحوا فى دخول القلعة متخفين فى زى تجار جاءوا لبيع سلع رخيصة ، فلما اذن لهم أخيرا بدخول المكان استلوا سيوفهم من أغمادها وفتكوا بجميع من اعترضهم ·

فهل ثم مزيد نقوله ؟

لقد سيطروا على القلعة ، وخلصوا الملك والكونت وحصنوا المكان على أحسن قدر استطاعوه ، واذ ذاك رأى الملك أن يبعث الكونت جوسلين فى جلب العون على جناح السرعة لانقاذه وانقاذ تلك الجماعة التى كان لجهودها الفضل فى تحريرهما ·

ولما اكتشف الترك الذين يعيشون فى تلك النواحى كيف احتال الملك ورفاقه للسيطرة على القلعة حملوا هم أيضا سلاحهم وأغذوا السير اليها وصمموا الا يدخلها أو يخرج منها أحد حتى يصل مولاهم بلك ، لكن على الرغم من ذلك فان كونت جوسلين خرج فى لحظته غير عابىء بالخطر الذى يعرض نفسه له من الكمائن التى ينصبها له الخصم ، وانطلق ، وانطلق معه ثلاثة رفاق له ، يلازمه اثنان منهم طول الطريق ، فان كللت محاولته بالنجاح بعث بالثالث الى الملك رأسا يبشره بما تم ، وهكذا خرج الكونت ورفيقاه حسب الاتفاق ترعاهم عناية الله دون أن يعلم بهم أحد من أولئك الذين كانوا قائمين بحراسة القلعة ، واذ ذاك ردوا زميلهم الثالث الى القلعة ومعه خاتم جوسلين ، دليلا على نجاحهم فى اختراق صفوف العدو .

وفى أثناء غيبة جوسلين قام الملك والنفر الذين كان لمساعدتهم الفضل فى انقاذه بتحصين القلعة بكل وسيلة ممكنة ، لأنهم كانوا يطمعون أن يظلوا قادرين على السيطرة عليها حتى تجىء النجدة التى كانوا يدركون أنها لن تغيب عنهم طويلا .

— ١٩ —

وحدث فى هذه الليلة بالذات أن رأى بلك فى نومه رؤيا مزعجة أفزعته وبلبلت خاطره ، مفادها أن جوسلين سمل عينيه بيديه، فانخلع قلبه رعبا ، وبات نجى الوساوس ، حتى اذا طلع النهار بعث الى القلعة رجالا من لدنه كلفهم بقطع رأس جوسلين دون تمهل أو ابطاء ، فلما اقترب هؤلاء الرجال من القلعة جاءهم الخبر بأنها قد سقطت فى يد العدو ، فارتدوا الى مولاهم على أدبارهم بأسرع ما يمكنهم الارتداد ، وفصلوا له تفصيلا كل ماجرى ، لم يتركوا شاردة ولا واردة الا قصوها عليه ، فلم يتوان الأمير فى استدعاء العسكر من شتى

النواحى فى لحظته هذه وأسرع بهم دون ترتيب الى ذلك المكان وحاصره ، وسد المسالك فى وجه اللاجئين الى الحصن ، ثم عمد بعد ذلك الى الاتصال بالملك بلدوين عن طريق الوسطاء ، يعده وعدا لانكث فيه أنه سوف يأذن له ولجميع من معه بالخروج دون مضايقة ، وانه سوف يعطيهم كتاب أمان حتى يصلوا الى الرها اذا رد بلدوين اليه القلعة من غير كيد ٠

الا أن الملك كان شديد الثقة بمناعة القلعة ، كما أنه كان يعتمد على معونة هؤلاء الأرمن الذين انضموا اليه ، مما حمله على أن يعتقد انه قادر على المحافظة على القلعة فى يده حتى تصله النجدة ، ومن ثم رفض العروض التى تقدم بها بلك ، واستمر فى الدفاع عن الحصن دفاعا مجيدا ، فأسخط هذا الرفض بلك سخطا بالغا ، واستدعى اليه فى الحال الفعلة ، وأمرهم باعداد شتى أنواع الآلات التى يكون فى حاجة اليها فى مهاجمته القلعة وفيها العدو ، وراح يضاعف مضايقتها ، وأصر على انجاز العمل مستغلا استغلالا مفيدا كل الخطط البارعة التى تمكنه من انزال الأذى بالمحصورين ٠

وكانت القلعة مشيدة على تل ذى طبيعة جيرية قديمة ، جعلت الدخول اليها يسيرا ، ولذلك رآى « بلك » انه من السهل عليه تدمير الموضع بملغمته وتقويضه من أساسه ، فجند لذلك الجند المهرة فى حفر الخنادق وأمرهم بحفر أنفاق كبيرة داخل التل، ودعمها بالكتل الخشبية وما شابه ذلك من المواد الأخرى ، وما كاد العمال يفرغون مما كلفوا به حتى اضرموا النار فى المواد القابلة للاشتعال التى وضعت داخل الانفاق ، فلما أتى الحريق على الأعمدة انخسف التل وسقط أحد الأبراج التى عليه سقوطا صحبته رجة هائلة حملت الملك على الاستسلام فى الحال لبلك من غير قيد ولا شرط ، لأنه خاف أن تنهار القلعة بأكملها بنفس الصورة ، فاكتفى بلك بامتلاك الحصن

ومن على بلدوين وابن اخته وجاليران بالحياة ، وأمر بتقييدهم وحملهم الى مدينة حران القريبة من الرها ليبقوا تحت المراقبة الدقيقة ، اما الأرمن المؤمنون الذين عرضوا أنفسهم للأخطار ابتغاء اطلاق سراح مولاهم الملك من الأسر ، فقد لاقوا أنكر صنوف العذاب ، اذ سلخت جلود بعضهم وهم أحياء ، ونشرت أعضاء آخرين ، ودفن سواهم أحياء ، ثم سلم بلك غير هؤلاء الى رجاله يجعلونهم هدفا يفوقون اليه سهامهم ٠

وهم وان لاقوا العذاب فى هذه الدنيا الا أن طمعهم في حياة خالدة أبدية كان أملا لا يخبو فى نفوسهم ، وعلى الرغم من أنهم امتحنوا فى بضعة أمور الا أن مثوبتهم ــ من ناحية أخرى ــ كانت أعظم ٠



ــ ٢٠ ــ

سيطر الفزع المقيم على جوسلين وزملائه الرجالة وهم يتابعون طريقهم فى حذر شديد ، ولم يكن عندهم غير قدر ضئيل من الطعام، وسوى راويتين من النبيذ أحضروهما معهم عن غير قصد ، وظلوا ماضين فى زحفهم هذا حتى أبلغهم الزحف أخيرا شاطىء نهر الفرات، فتشاور جوسلين مع رفاقه الذين يواجهون معه الخطر عن أيسر الدروب ليعبروه ، فقر رأيهم أخيرا على نفخ الراويتين وربطهما الى جوسلين بالحبال ، فاستطاع بهذه الوسيلة وبعون الرب وارشاد اثنين من السباحين المهرة ــ كان كل واحد الى أحد الجانبين ــ أن يصل الى الشاطىء الآخر من النهر سالما آمنا ، ثم تابع سيره ــ وان لم يخف الخطر ــ حافى القدمين فعانى مشقة بالغة لما بذل من جهد لم يألف بذله ، وأضناه السغب وأمضه الظمأ وأرهقه اللغب حتى

بلغ فى النهاية برحمة الله حصن تل باشر الشهير ، لكن لم تمسكه شدة جزعه عن المهمة التى وكلت اليه من متابعة السير الى أنطاكية ، مصحوبا بحرس مؤقت كان لابد له منه ، نظرا لما هو فيه من وضع خطير ، ثم نزل على نصيحة البطرك برنارد فتابع سيره الى القدس حيث شرح لبطركها ولأمراء المملكة أحداث النكبة التى ألمت بالملك ، وقص عليهم بالتفصيل كل ما يتعلق بهذا الأمر ، سائلا اياهم أن يبادروا فى لحظتهم هذه الى ارسال نجدة للملك لأن موقفه المتزعزع لا يتحمل أى تأخير ، بل يتطلب المشاورة السريعة والمعونة العاجلة وان يتم ذلك دون تريث ولا ابطاء ٠

ولقد ترتب على التماساته هذه ان اجتمع أهل المملكة جميعا وقاموا قومة رجل واحد رافعين صليب الصلبوت، وخرجوا من ساعتهم هذه ، وكانوا كلما مروا بمدينة فى طريقهم توالت عليهم الامدادات لتزيد عددهم ، حتى بلغوا أنطاكية حيث انضم اليهم كبار أهلها وعامتهم ، وساروا تحت قيادة الكونت كتلة واحدة الى تل باشر ، وهنا جاءهم الخبر اليقين بكل ما جرى للملك فى خلال هذه الفترة ، واذ رأوا عدم جدوى التقدم أكثر من هذا فقد تقرر باجماع الآراء أن يعودوا كلهم الى أوطانهم ، فيرجع كل واحد من حيث أتى ، غير انهم لم يشاءوا أن تنفض الحملة دون أن تجنى ثمرة لخروجها ، لذلك اتفقوا على أن تنزل هذه الكتائب أقصى مايمكنها من المضرة بالخصم أثناء مرورها قرب حلب ، وتم كل شىء حسب مارسموا ، اذ بينما كانوا سائرين على مقربة من هذه المدينة برز أهلها لهم قاصدين قتالهم ، فما كان من المسيحيين الا أن أرغموهم بقوة السلاح على الارتداد الى المدينة التى ظل عسكرنا أمامها أربعة أيام على السواء رغم محاولات أهلها دفعهم ٠

فلما كان المسيحيون فى طريق العودة انفصل من كانوا من أهل المملكة عمن سواهم وتابعوا زحفهم على انفراد ، حتى اذا

عبروا الأردن أغاروا فجأة على بلد للعدو قرب بيسان ، وباغتوا سكانها الذين لم يكونوا مستعدين أبدا لمثل هذه الغارة . فلاقى الكثيرون منهم حتفهم بحد السيف ، ووقع فى الأسر عدد كبير من الرجال والنساء على السواء ، ثم عاد الصليبيون فرحين مهللين الى بلدهم قد فاضت أيديهم بأوفر الغنائم وأحسن الأسلاب .

― ٢١ ―

كان لأمير مصر ما يبرر سوء ظنه بمملكة بيت المقدس ورآى الفرصة مواتية لغزوها اذ ذاك بسبب وقوع عاهلها فى الاسر ، ومن ثم أمر باستدعاء قوات اضافية من كل ارجاء مصر ، كما أمر ولاة المدن الساحلية الذين لم تكن لهم مهمة سوى الاهتمام بها باعداد السفن وتجهيز الأسطول ، فتم فى الحال كل ماهو لازم للقتال بحرا .

وما كادت السفن السبعون تأخذ للأمر أهبته حتى عبر الأمير (الأفضل) الصحراء بجيش برى ضخم ، وعسكر قرب عسقلان حيث بقى هنا مع فيالقه ، على حين أبحر الأسطول الى مدينة يافا وألقى مراسيه أمامها ، ثم نزلت القوات البحرية الى البر فى أعداد ضخمة ، وأحاطوا فى الحال بالمدينة من كل نواحيها احاطة السوار بالمعصم ، وشنوا سلسلة من المناوشات العدوانية المتواصلة مستهدفين من ورائها مضايقة عدوهم ، ولما كان عدد المدافعين بالغ القلة فقد استطاع المحاصرون الاقتراب آمنين من سور المدينة اقترابا شديدا مكنهم من نقضه فى كثير من المواضع ، ولو كان قد تسنى لهم متابعة الهجوم فى اليوم التالى أيضا لانهارت الأسوار كلها تحت ضرباتهم ولاستطاعوا الاستيلاء على المدينة عنوة لقلة من بها من المدافعين عنها .

الا أن البطرك واستاس جرنييه الكونستابل الملكى وغيرهما من كبار رجال المملكة ركزوا فى هذه الأثناء كافة القوات التى استطاعوا

جمعها فى سهل قيسرية عند موضع يقال له « القاقون » واستعدوا للقتال ، وبعثوا بهم الى يافا ، فلما وصل خبر تقدمهم الى أسماع رجال القوات المصرية المحاصرة الموجودة أمام المدينة ارتدوا سراعا الى سفنهم خوفا من مجىء قواتنا ، ونزل رجال البحرية الى قواربهم وأمسكوا بمجاديفهم فى انتظار ماسوف يحدث لقواتهم البرية التى كانوا يعرفون انها قريبة من العدو ، واما الصليبيون فقد أخذوا فى التقدم الى الامام فى هذه الأثناء رافعين صليب المسيح ، وقلوبهم عامرة بالايمان ، مستعينين بعطف الرب ، مما زاد فى أملهم فى أن تكون لهم اليد العليا وأن يكون النصر حليفهم ، وتقدمت صفوفهم حتى صارت قرب موضع اسمه « ابلين » فواجهت العدو الذى جاء بجيوش رتبها خير ترتيب على مألوف عادته وبصورة توحى بأنهم عازمون على الاشتباك مع الصليبيين ، لكنهم ماكادوا يطـــالعون تنظيمنا الرائع ، ويتذكرون الدليل البين على بأسنا حتى دب الوهن فى أوصالهم ، ومع أنهم بدءوا وكأنهم الأسد الضارية الا انهم صاروا الآن أجبن من الأرانب وأرادوا أن يتحاشوا القتال بل انهم ندموا أشد الندم على انهم سعوا اليه بأنفسهم وتمنوا لو أنهم لم يفعلوا ذلك قط ٠

ويقال أن مجموع قواتنا عامة بما فيها شتى طبقات العامة بلغ قرابة سبعة آلاف شخص ٠ اما العدو فكان فى ستة عشر ألف رجل مدججين بالسلاح خرجوا للحرب ، بالاضافة الى العاملين فى الأسطول من أهل السفن ، ولكن روح الصليبيين المعنوية كانت عالية وان ضطربت قلوبهم ألما وامتلأت نفوسهم بالخوف من الله فاستغاثوا به يطلبون العون منه ، واندفعوا على خصومهم بسيوفهم اندفاعا شديدا دون أن يتركوا لهم لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم رغم خطر الموت المحدق بهم ، اذ كان القتال وجها لوجه ٠

وتملكت المصريين الدهشة من قوة الصليبيين وجرأتهم ، فقد شاهدوا بأعينهم وتأكدوا مما نزل بهم من الضربات صدق الأخبار التى جاءتهم عنهم ، وان لم يمنعهم ذلك من الاستعداد لهم . فنشطوا فى مصارعتهم وردوا ضرباتنا العنيفة بعنف مثلها ، لكنهم لم يكونوا لنا ندا فى الاقدام ولا فى الشجاعة ، ففشلت محاولتهم ضدنا ، واضطروا للفرار مخلفين وراءهم معسكرهم الذى كان يفيض بكل صنوف الثروة والمتعة ، ولم يكن يشغلهم سوى النجاة بأنفسهم .

وتحمس الصليبيون فى مطاردتهم الى أبعد ماوسعتهم المطاردة، واعملوا فيهم السيف حتى لم ينج من جموعهم الكثيفة الا شرذمة لم يبلغها القتل ولم يجر عليها الأسر حتى ليقال ان من مات من العدو فى ذلك اليوم بلغ سبعة آلاف رجل .

ثم انفلت جندنا منصورين الى معسكر العدو فوجدوا به ثروات المصريين ممثلة فى كميات كبيرة من الذهب والفضة وشتى أنواع الأوعية الثمينة والخيم والفساطيط والجياد والدروع والسيوف ، فقسموا الغنائم بينهم حسب قوانين الحرب ، وعاد العسكر الى بلادهم أثرياء فوق الوصف .

ما كاد نبأ نكبة الجيش البرى يصل الى سمع أهل الأسطول حتى أبحروا الى مدينة عسقلان التى كانت لاتزال فى قبضة المصريين فكانت ملجأ آمنا لهم ، وقد سمعوا هنا تفصيلا أتم عن هزيمة الجيش .

***

وقد مات فى هذه الأثناء انستاس « جرنييه » وكان رجلا عاقلا ، محمود الشمائل ، ألقوا اليه بادارة دفة شئون المملكة أثناء

غياب الملك ، فلما مات نصبوا مكانه الرجل الطيب الذكر « وليم دى بيورى » صاحب طبرية ، وكان ممدوحا وجيها ، ولما نمى الى علم دوج البندقية «دمويتجو ميكائيللى » خبر الصعاب التى ألمت بمملكة الشرق أمر باعداد الأسطول الذى خرج مؤلفا من أربعين قرقورة وثمان وعشرين شينى ، وأربع سفن كبار ملائمة لحمل الأمتعة ، وأبحر فى هذا الوقت متجها الى سورية، وصحبه فى حملته هذه بعض كبار رجال بلده ، فلما بلغوا جزيرة قبرص علموا أن الأسطول المصرى قد أبحر الى ساحل يافا فى سورية حين بلغه خبر اعتزام البنادقة المجىء ، وكان أسطولهم لايزال راسيا هناك وان نظرت اليه المدن البحرية بكثير من الشك والارتياب ، فكان هذا النبأ مؤديا بالدوج لأن يأمر بالرحيل فى ساعته ، وأسرع بالابحار الى الشاطىء القريب من يافا ، وكان مستعدا للقتال ، لكن جاءه الخبر ان الأسطول المصرى غادر يافا راجعا الى ناحية عسقلان ، ذلك لأن الأنباء المحزنة عن النكبة التى بلغهم خبر وقوعها لجيشهم البرى فى المعركة التى كانت بينه وبين الصليبيين حملتهم على الارتداد الى مدينة تكون تحت سيطرتهم ، فلما جاء الى البنادقة جواسيسهم بهذا النبأ أداروا دفة سفنهم فى الحال الى عسقلان متطلعين فى لهفة لأن يشتبكوا فى قتال مع الأسطول المصرى ان كان لايزال هناك ، واذ كانوا أهل تجربة عظيمة ومهارة فائقة فى مثل هذه الأمور فقد أعدوا سفنهم للحرب على أحسن صورة ممكنة .

كان فى هذا الأسطول البندقى بعض سفن ذات منقار أكبر من السفن ذات المجادف التى تسمى بالشوانى ، وقد جهزت كل واحدة منها بمائة مجداف يحتاج كل واحد منها الى رجلين، وبالاضافة الى هذا كله كانت هناك ــ كما قلنا ــ أربع سفن أكبر حجما من هذه لحمل المؤنة والآلات والأسلحة وكل ما يحتاجونه وقد وضعت

هذه السـفن والقراقير فى المقدمة حتى اذا رآها العدو من بعيد ظنها سفنا تجارية ولم يحسبها سفن الخصم ٠ وسار من ورائها السفن العراض ، وهكذا مضت القوة على هذا النسق متجهة شطر الساحل ، وكان البحر هادئا أشد الهدوء ، والريح فى جانبهم ، وأسطول العدو على مقربة منهم ، حتى اذا أخذ الصبح فى الاشراق وأعلنت آلهة الفجر طلوع النهار أدرك المصريون ان الاسـطول المسـيحى يتقدم نحوهم ، فلما طلع النهار رأوه قريبا منهم غاية القرب فتملكهم الفزع ، واستبدت بهم الدهشـة ، وانطلقوا الى مجاديفهم ، وقد تأكد لديهم أن القتال واقع لامحالة راحوا يصيحون بالبحارة ويلوحون لهم بأيديهم ان يقطعوا الحبال وينتزعوا المراسى ثم يجمعون النوتية ويمتشقون أسلحتهم ٠

ـ ٢٣ ـ

فى غبرة هذا الارتباك والفزع تناثر عقد نظام العدو غاية التناثر، وفي وسـط هذه المعمعة أخذ قارب من قوارب البندقية ـ وعليه الدوق ـ ينساب بسرعة أمام غيره ، وشاءت الصدفة ان يرتطم هذا المركب بالسفينة التى كانت تحمل قائد الأسطول المصرى وكان الارتطام قويا بالدرجة التى أدت بالأمواج لأن تبتلع مركب العدو بمن عليها من المجدفين ٠

وانطلقت القراقير البندقية الأخرى بنفس السرعة ، ونجحت كل واحد منها تقريبا فى قلب واحد من مراكب العدو ، وتلى ذلك معركة حامية الوطيس حارب فيها كل جانب الآخر حربا لا هوادة فيها ، واستحر القتل ، ومما لا يكاد يصدقه العقل ان الذين شاركوا فى هذه المعركة أكدوا تمام التأكيد ان دماء القتلى كانت تغطى المنتصرين وظلت مياه البحر ـ فى دائرة قطرها ميلان ـ حمراء قانية

بسبب الجثث التى القيت هناك ومن الدم الذى كان ينساب من السفن وغطت السواحل الجثث التى لفظها البحر حتى فسد الهواء وعم الطاعون المنطقة المحيطة بها بسبب جيف الموتى العفنة •

واحتدم القتال فى الأحياء المجاورة لأن أحد الجانبين كان يحارب حربا ضارية ، والجانب الآخر يجاهد كل المجاهدة ويقاومه نفس المقاومة ، ثم شاءت ارادة الله فى النهاية أن يكتب النصر للبنادقة ، فأدبر العدو وولى ، واستولى البنادقة على أربعة شوان من شوانيه ، كما أخذوا كثيرا من القراقير ، وكذلك سفينة كبيرة قتل أميرها ، وهكذا أحرزوا نصرا خالدا الى الأبد •

لم تكد الرحمة العلوية تمنح شعبنا هذا الفوز حتى أصدر الدوج أوامره بمواصلة الابحار تجاه مصر من غير تريث ولا ابطاء ، وكان أمله أن يلتقى رجاله ببعض أسطول العدو ، ومن ثم فقد أبحروا مصاقبين للساحل حتى بلغوا العريش احدى المدن البحرية القديمة الرابضة على حافة الصحراء ، وتم كل شىء وفق ما أرادوا حتى وافاهم رسول بالخبر اليقين وأنبأهم بكل ما سوف يصادفونه ، ذلك انهم بينما كانوا يجدفون بهمة فى تلك المياه اذ بهم يلمحون عشرة من سفن العدو على مسافة غير بعيدة عنهم ، فاتجهوا فى ابحارهم سراعا شطرها واستولوا عليها بالقوة فى أول نزال بينهم وبينها ، فقتلوا بعضا ممن كان على ظهرها وأخذوا الباقين أسرى ، وكانت هذه السفن محملة بالبضائع القادمة من الشرق ، وأعنى بها التوابل والأقمشة الحريرية ، فوزع البنادقة تلك الاسلاب فيما بينهم حسب مألوف عادتهم ، فامتلأت أيديهم بالثروة ، ثم سحبوا معهم القوارب التى استولوا عليها ، ثم يمموا وجوههم شطر مدينة عكا حيث أرسوا هناك •

سرعان ما وصل الى بيت المقدس نبأ رسو دوج البندقية على سواحلنا بقوة بحرية ، وعلم الناس كيف انتصر الدوج على العدو انتصارا قشيبا ، ومن ثم قام « جورموند » بطرك القدس ووليم دى بيورى الكونستابل الملكى وأمين خزانة المملكة ومســتشار الملك « بأينز » مع رؤساء الأساقفة والأساقفة وغيرهم من وجوه أهل الدولة فأرسلوا الى الدوج سفارة من أحكم رجالهم وأشرفهم يحملون اليه والى قواد البندقية وقواد الجيش تحيات البطرك والبارونات والشعب ، ويشرحون لهم فرحة أهل القدس وتطلعهم فى لهفة الى قدوم البنادقة اليهم، ويدعونهم للتمتع بكل ما تستطيع المملكة تقديمه لهم كما لو كانوا مواطنين للمدينة ، ويذكرون لهم ان الجميع على أتم استعداد وشوق لضيافتهم أكرم ضيافة حسبما تقتضيه الفرائض الانسانية الواجبة عليهم ، وأبدى الدوج رغبته فى زيارة الأماكن الطاهرة ، وهى رغبة دينية كان يتطلع اليها منذ سنوات طويلة غابرة، كما أبدى رغبته فى الحديث الى الأمراء الذين كانوا قد بعثوا اليه من قبل دعوة قلبية ، لذلك فانه خلف وراءه للرعاية عددا كافيا من أهل الحجى ، وشد رحاله الى القدس غير مستصحب معه سوى كبار رجالاته ، فلما بلغ المدينة قوبل بترحاب كريم وأحاطوه بأعظم آيات التشريف والتعظيم ، فاحتفى فيها بعيد ميلاد سيدنا ، وألح عليه أمراء المملكة الحاحا صــادقا أن يهب نفسه بعض الوقت لخدمة المسيح ورفعة المكة، فكان رد الدوج عليهم انه لم يأت الا وفى نفسه تحقيق هذا الغرض ، وانه آلى على نفسه الا أن يهب ذاته لهذا الهدف ، ولما كان البطرك وكبار رجال المملكة موجودين فقد انعقد الاجماع على مهاجمة احدى المدن الساحلية ولاشىء سوى ذلك ، وان ينصب الهجوم على مدينة صور أو عسقلان لأن جميع المدن

ـ بدءا من نهر مصر حتى أنطاكية ـ قد صارت بفضل الرب ملك يميننا · غير ان رغباتنا تباينت تباينا شديدا حول هذه النقطة ، وأوشك الأمر أن يؤدى الى نزاع خطير ، لأن ممثلى بيت المقدس والرملة ويافا ونابلس وما حول هذه المدن بذلوا قصارى سعيهم كى يوجهوا الحملة ضد عسقلان باعتبارها أقرب ما تكون اليهم ، وأنها لا تكلف جهدا كبيرا ولا تتطلب المال الكثير ·

أما الرجال من أهل عكا والناصرة وصيدا وبيروت وطبرية وجبيل وغيرها من مدن الساحل فكانوا على العكس من ذلك ، اذ أصروا على أن تتجه الحملة ضد صور ، وحجتهم فى ذلك انه لما كانت صور مدينة عظيمة وشديدة التحصين فانه يجب بذل جميع الجهود الممكنة لجعلها تحت سيطرتنا حتى لايتمكن العدو من اتخاذ أرضها معبرا الى بلادنا فيستطيع اذ ذاك معاودة الاستيلاء على الناحية كلها ·

كان من جراء هذا الاختلاف الشديد فى الآراء ان أوشكت المسألة على التأجيل تأجيلا فيه المضرة ، غير أنه عن طريق جهود بعض الوسطاء رؤى انه من الأوفق ان يحسم هذا النزاع بالقرعة ، وزيادة على ذلك فان الطريقة التى اتخذت لعمل القرعة كانت سوية لا حيف فيها ولا غبن ، فقد وضعت على المذبح قصاصتان من الورق كتب على واحدة منهما كلمة « صور » وعلى الأخرى « عسقلان » ، ثم جىء بيتيم صغير برىء وكلفوه أن يختار احداهما بعد أن عرفه الجميع أن الجيش سوف يزحف من غير نقاش على المدينة المكتوبة على الورقة المسحوبة ، فوقع الاختيار على « صور » ·

وقد عرفت هذه التفاصيل من شيوخ معينين أكدوا تأكيدا باتا انهم كانوا شهود عيان لكل هذه الأحداث التى ذكرناها ·

وبعد اقرار هذه التفاصيل اجتمع البطرك المعظم وكبار رجالات هذه المنطقة مع الناس فى مدينة عكا حيث كان أسطول البنادقة راسيا فى مرفأ أمين بالميناء ، وتبادل الفريقان الأيمان الغليظة على ان يلتزموا جميعا بشروط الاتفاق الذى ارتضوه ، وأعدت جميع التجهيزات اللازمة لحملة من هذا النوع ٠

حتى اذا كان اليوم السادس عشر من شهر فبراير ١١٢٤ ضرب الحصار برا وبحرا على مدينة صور ٠

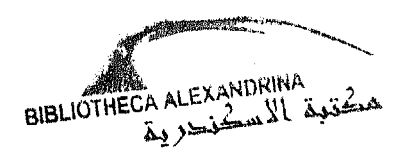
ـ ٢٥ ـ

ورغبة منا فى الا يخلو الكتاب من وثيقة بشأن الأحداث التى جرت فى الأزمنة السالفة فاننا ندرج هنا وثيقة هامة تدل على ما جرى ، وهى نسخة من الامتيازات التى تضمنتها الاتفاقية المبرمة بين البنادقة وكبار رجال مملكة بيت المقدس وهى كالآتى :

« باسم الثالوث المقدس الذى لا يتجزأ ، وباسم الواحد الآب والابن والروح القدس : انه فى زمن حكم البابا «كاليسيوس» الثانى وهنرى الرابع(١٨) امبراطور الرومان العظيم والذى يحكم أولهما كنيسة روما وثانيهما يحكم الامبراطورية ، وفى نفس العام الذى عقد فيه بروما مجمع أقر السلام بمشيئة الرب بين الكنيسة والدولة بخصوص الخاتم والصولجان فان «دومينيجو ميكيلى» دوج البندقية ودلماشيا والكروات وأمير الامبراطورية أى جمهورية البندقية جاء وفى صحبته نفر كبير من الفرسان وأسطول قوى من السفن ، جاء مدافعا عن المسيحيين الذين هم فى أشد الحاجة لدفاعه وقدم مباشرة

---

(١٨) الصواب ان يقال « الخامس » ٠



من ساحة انتصاره على أسطول الوثنى التابع للملك بابليون ، بعد أن أنزل به هزيمة نكراء أثناء رسوه أمام شواطىء عسقلان ٠

وهى وثيقة مدونة فى ذيل هذا الكتاب ، ومن ثم سوف تبقى سليمة لا يعتورها التغيير و لاالتبديل ولا تشجب فى المستقبل ، سواء بالنسبة له أو لشعبه بل تظل محفوظة على الدوام آمين ٠

« انه سوف يكون للبنادقة فى كل مدينة من مدن الملك المشار اليه، والموجودة تحت حكم خلفائه كذلك وفى جميع مدن باروناته ٠٠ سوف يكون فى كل هذه المدن للبنادقة كنيسة خاصة بهم وشارع خاص بهم بأكمله ، وكذلك يكون لهم ميدان وحمام ومخبز ، ويكون ذلك حقا لهم يتوارثونه ، ولا يدفعون عن ذلك أبدا أى ضرائب ، كما لو كان ذلك ملكا للملك ذاته ٠

« ويكون لهم فى الميدان المطجود ببيت المقدس مثلما يكون للملك ذاته ، لكن اذا أراد البنادقة أن يقيموا بعكا فى حيهم هناك فرنا وطاحونة وحماما وتكون لهم موازينهم ومكاييهم ومكاييلهم لكيل النبيذ والزيت وعسل النحل فيسمح بذلك بالمجان لكل شخص ساكن هناك دون معارضة ، ويسمح له بالطبخ أو الطحن أو الاستحمام من غير رسم يدفعه كما هو الحال تماما فيما هو ملك خاص للملك ، ويحق لهم أن يستعملوا المكاييل والموازين وأدوات الكيل كما يلى :

اذا أراد البنادقة المتاجرة فيما بين بعضهم والبعض الآخر فيجب عليهم أن يستعملوا موازينهم الخاصـــة بهم ، أى موازين البندقية ، واذا باع البنادقة بضائعهم لشعوب أخرى غير شـــعبهم فعليهم أن يبيعوا بموازينهم الخاصة ، أى بموازين البندقية ٠

« اما اذا باع البنادقة أو تسلموا أى شىء للمتاجرة فيه من أى

شعب اجنبى عنهم ليس ببندقى فيؤذن لهم أن يأخذوا بالميزان الملكى ويثمن معلوم ، ومن أجل هذه الامتيازات فليس على البنادقة أن يدفعوا أى ضريبة سواء ما جرت العادة بدفعها أو لأى سبب آخر : ايا كان هذا السبب ، وسواء أكان ذلك عند الدخول أو البقاء أو البيع أو الشراء ، وســـــواء أكانوا مقيمين أو فى أثناء مغادرتهم البلد ٠

ولن يكون البنادقة ملزمين لأى سبب من الأسباب بدفع أى ضريبة الا فى حالة مجيئهم أو ذهابهم حاملين الحجاج على سفنهم الخاصة ، وحينذاك يكونون (حسب جمرك الملك) ملزمين باعطاء الثلث للملك نفسه ٠

« ونوافق ملك بيت المقدس ـ وكلنا نيابة عنه ـ أن ندفع لدوج البندقية من دخول صـــور يوم الاحتفال بعيد الرســـولين بطرس وبولص ثلاثمائة قطعة بيزنطية شرقية سنويا كما هو المتفق عليه ٠

« ويضاف الى ذلك اننا نتعهد لك أيها الدوج دوج البندقية ونتعهد لشعبك اننا لن نأخذ شيئا أكثر من تلك الشعوب التى تتاجر معكم فوق ما اعتادوا دفعه ، ولا نأخذ منهم أكثر مما نأخذه من أولئك الذين يتاجرون مع الشعوب الأخرى ٠

« وبالاضافة الى ذلك فان ذلك القسم من نفس المكان وشارع عكا الذى يوجد فى أحد أطرافه دار « بطرس » « زنى » ، وفى الطرف الآخر دير القديس ديمتريوس ، وكذلك أيضا جزء آخر من نفس الشارع الذى فيه بيت خشبى واحد وبيتان من الحجر كانا من قبل كوخين من القصب الفارسى ، هما نفس ما خصصه بلدوين ملك بيت المقدس فى الأصل للطوبانى مرقص فتمنح الى الدوج «اردولافو» وخلفائه نظرا للاستيلاء على صيدا ٠

« وانني « لأقول اننا نؤكد منح هذه الأماكن للقديس مرقص ولك أنت أيها السيد دومينيجو ميكيلى دوج البندقية ولخلفائك بمقتضى هذه الوثيقة ٠

« واننا لنعطيك الحق فى أن تمتلك على الدوام هذه المواضع وان تفعل بها ما تريد ٠

« اما فيما يتعلق بالجزء الآخر من نفس الشارع الممتد فى خط مستقيم من بيت « برنارد دى نيف شاتل » الذى كان من قبل تابعا لجون جوليان حتى بيت جبلبرت اليافاوى الذى هو من أسرة « سنت لو » فاننا نعطيك نفس السلطة التى للملك ٠

« وبالاضافة الى ذلك فانه لا يجوز لأى بندقى فى جميع أملاك الملك أو فى جميع أملاك باروناته أن يدفع أى ضريبة سواء فى الدخول أو فى الاقامة أو فى الخروج تحت أى حجة ، وانما يكون حرا تماما كما لو كان فى البندقية ذاتها ٠

« لكن اذا حدث وكان لأى بندقى قضية قانونية أو مقاضـاة فى أى تجارة أو عمل ضد بندقى آخر فان الفصل فى هذه القضية يكون فى محكمة البنادقة ، كما انه اذا شعر أى شخص ان له نزاعا أو قضية ضد أحد البنادقة فيكون نظرها والفصل فيها فى نفس محكمة البنادقة ، لكن اذا اشتكى بندقى شخصا آخر ليس ببندقى فان النظر فى هذه الشكوى يكون فى محكمة الملك ٠

« كذلك فانه اذا مات بندقى وكان موصيا بوصية قبل موته أو غير موص بوصية (وهى التى نقول نحن عنها انها بلا لسان) فـان أملاكه تؤول الى أشراف البنادقة وتكون تحت رقابتهم ٠

« واذا حدث لبندقى أن تحطمت سفينته فانه لا يتكبد خسارة أى شىء من أملاكه ، أما اذا كان موته فى جنوح السفينة فان الأملاك التى يتركها سوف ترد الى ورثته أو البنادقة الآخرين « وزيادة على ذلك فانه يكون للبنادقة نفس صلاحيات العدالة ونفس الحقوق التى للمواطنين من أى شعب يكونون ساكنين فى شارع وبيوت البنادقة مثل ما للملك من حقوق على شعبه •

« وأخيرا فانه يكون للبنادقة ثلث مدينتى صور وعسـقلان وملحقاتهما ، وثلث جميع الاراضى المتصلة بذلك من يوم عيد القديس بطرس ، ويسرى هذا فقط على الأراضى التى هى خاضـعة الآن للشرقيين (أى المسلمين) ولم تصبح بعد فى قبضة الفرنجة •

« فاذا قدر بمساعدة البنادقة او بأى وسيلة أخرى ان منح الروح القدس احدى هاتين المدينتين ، أو كليهما ان شاء الرب • لتكونا فى يمين المسـيحيين فان ثلث هذه المدينة أو ثلثى هاتين المدينتين ـ كما قيل ـ يملكه البنادقة تمام التملك ويكون لهم سلطات تنظيمية فى هذه النواحى التى تصـبح وراثية الى الأبد دون أى اعتراض أو معارضة ، شأنهم فى هذه الملكية شأن الملك فى تملك الثلثين من المدينة •

« ومن ثم فاننا جورموند بطرك بيت المقدس سنحمل الملك نفسه ـ اذا شاء الرب أن يطلق سراحه من الأسر ـ على أن يصادق بالتأكيد على الاتفاق المذكور أعلاه كاملا غير منقوص ، لكن اذا أقيم غيره ملكا على مملكة بيت المقدس فاننا سنحمله على تنفيذ العهود المشار اليها قبل اعتلائه العرش والا رفضنا اعتلاءه العرش ، كما ان خلفاء البارونات ، وأى بارونات جدد فى المستقبل سوف يكونون ملزمين بالموافقة على نفس الاتفاق وبالطريقة ذاتها •

« اما فيما يتعلق بأنطاكية فاننا نعرف تمام المعــرفة بأن الملك بلدوين الثانى وعدكم أن يكون لكم فى أنطاكية نفس الترتيب كما هو الحال فى بقية المدن الأخرى التابعة للملك ، وان شــعب أنطاكية يؤكد برضائه التام الاتفاق الملكى المبرم معكم ٠

« ونحن جورموند بطرك بيت المقدس وكذلك أساقفتنا ورجال الدين والبارونات وأهل بيت المقدس نمحضكم النصيحة ونسدى اليكم العون ، ونعدكم أن ننفذ بدقة وبايمان صادق كل ماسوف يكتب به البابا الينا بشأن هذا الأمر وان تنفذ جميع الأمور السالفة المشار اليها لمراعاة شرف البنادقة ٠

« وأؤكد بخط يدى أنا جيرموند الذى هو برحمة الرب بطرك بيت المقدس الأشياء المكتوبة أعلاه ٠

وأنا ابريمار رئيس أساقفة قيصرية أؤكد مثله هذه الأشياء ذاتها ٠

وأنا برنارد أسقف الناصر ، أؤكدها أيضا ٠

وأنا اشيتيفوس أسقف بيت لحم ، أؤكدها أيضا ٠

وأنا روجر صاحب اللد وأسقف كنيسة سنت جورج أؤكدها أيضا ٠

وأنا جلدوين رئيس دير ســـنت مارى فى وادى يهوشافاط أؤكدها أيضا ٠

وأنا جيرارد مقدم القبر المقدس ، أؤكدها أيضا ·

وأنا ايكارد مقدم هيكل السيد ، أؤكدها أيضا ·

وأنا أرنولد مقدم جبل صهيون أؤكدها أيضا ·

وأنا وليم دى بيورى كونستابل الملك أؤكدها أيضا ·

« كتب هذا فى عكا بيد باينس مستشار ملك بيت المقدس فى سنة ١١٢٣ فى الدورة الثانية » ·

* * *

هنا ينتهى الكتاب الثانى عشر

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ

د . عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر

اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة

اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة

د . محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى

عطية عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ج ١

لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى

د . عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية

د . على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل

د . محمد انيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية

شـــكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير

د . نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان

د . عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة

د . سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى

د . على حسن الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر

د . حلمى أحمد شـــلبى

٢٩ ـ مصر فى عهد الاخشيديين
د • سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د • حلمى احمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شـــكرى القـــاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د • خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د • يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاســـلامى والغرب جـ ٢
ترجمة : د • احمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوســـف
تاليف : د • سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصـــادى والاجتماعى فى العصر العثمانى

د • عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصـــة احتلال محمد على لليونان
د • جميل عبيد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى
د . محمد عفيفى

٤٥ ـ الحروب الصليبية
تاليف : وليم الصورى
ترجمة : أ . د . حسن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تاليف : د . عبد الرؤوف احمد عمرو

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تاليف : أ . د . لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفلاح المصرى
تاليف : د . زبيد عطا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تاليف : أ . د . عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية

تأليف : د . سهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية

اعداد : د . عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسـيين فى القرن الثامن عشر

تأليف : د . الهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك

د . محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى

تأليف : د . محمد عفيفى

٣٩٠٠

الفهـرس

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٢/٧١٤٦

I.S.B.N. 977 — 01 — 3113 — X الترقيم الدولى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يعتبر كتاب الحروب الصليبية لوليم الصورى مصدراً أساسياً لما شاهده المؤلف فى معظم مراحل هذه الحرب ، واشتراكه فى بعض أحداثها ، إلى جانب ما توفر له من الاطلاع على كثير من الوثائق الهامة فى لغاتٍ كان يتقن بعضها ، قراءة وكتابة ، كاللاتينية واليونانية والفرنسية القديمة والعربية .

هذا إلى جانب توليه منصب مستشار ملك بيت المقدس ، ورئيس أساقفة صور ، ومشاركته بالرأى فى توجيه هذه الحرب فى بلاد الشام ومصر ، وفى كثير من أحداث تلك الحقبة .

وقد توفر له مترجمٌ ضليعٌ ومؤرخ كبير ، جزل العبارة هو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، الذى ترجم كثيراً من الأصول الأولى للعصور الوسطى ، وقد أضاف للترجمة من التعليق ما دلَّ على أستاذيته .

ويسعد الهيئة أن تكون هذه الترجمة العربية القائمة على مراجعة الترجمتين الانجليزية والفرنسية ضمن سلسلة تاريخ المصريين التى يرأس تحريرها الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان .

٤٧٥ قرشاً

مطابع الهي